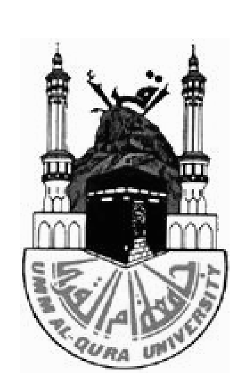
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
الدراسات العليا الشرعية
قسم التاريخ والحضارة الإسلامية



أثر الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحياة العلمية في عهد المماليك الجراكسة في مصر

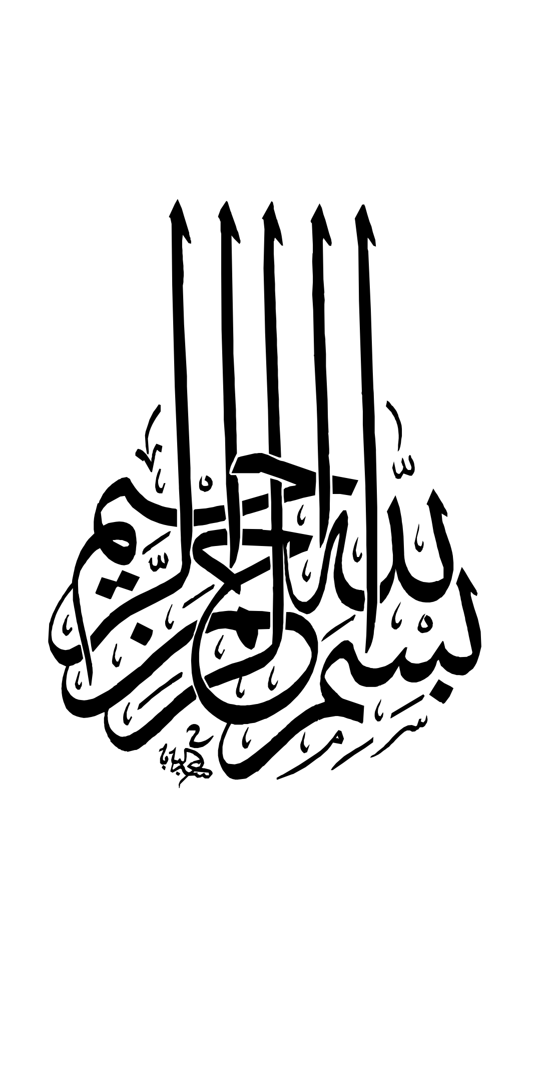
(٧٨٤هـ/٩٢٢هـ - ١٣٨٢م/١٥١٧م)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي

إعداد الطالبة / نوف محمد الحازمي

إشراف / د. مريزن سعيد مريزن عسيري

١٤٣١هـ-٢٠١٠م



ملخص الرسالة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان أجمعين. أما بعد..

فالبحث هو دراسة تأثير الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في عهد المماليك الجراكسة على الحياة العلمية في مصر (٧٨٤هـ - ٩٢٢هـ/ ١٣٨٢م - ١٥١٧م)، حيث كان لهذه الأوضاع أثرها البالغ في تقدم أو تأخر العلوم في العالم الإسلامي، باعتبار أن الدولة المملوكية كانت أقوى دول العالم الإسلامي في هذه الفترة قبل بروز العثمانيين، وقد تمت الدراسة **من خلال تمهيد وأربعة فصول هي:**

التمهيد: الأوضاع العامة في العصر المملوكي الأول وأثرها على الحياة العلمية .

الفصل الأول: الأوضاع الدينية وأثرها على الحياة العلمية خلال فترة البحث.

المبحث الأول: الطوائف الدينية وأثرها على الحياة العلمية .

المبحث الثاني: العلاقة بين السلاطين والطوائف الدينية وأثرها على الحياة العلمية.

الفصل الثاني: الأوضاع السياسية في مصر وأثرها على الحياة العلمية خلال فترة البحث.

المبحث الأول: مظاهر اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء والأعيان بالحياة العلمية.

المبحث الثاني: الثورات والفتن الداخلية وأثرها على الحياة العلمية.

المبحث الثالث: الحروب الخارجية وأثرها على الحياة العلمية.

الفصل الثالث: الأوضاع الاقتصادية وأثرها على الحياة العلمية خلال فترة البحث.

المبحث الأول: الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الإنفاق على شؤون الحياة العلمية (المساجد - الكتاتيب - المدارس - الكتب والمكتبات - الأربطة والزوايا).

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية للعلماء وأثرها على عطائهم وإنتاجهم العلمي.

الفصل الرابع: الأوضاع الاجتماعية في مصر وأثرها على الحياة العلمية خلال فترة البحث.

المبحث الأول: الكوارث الكونية والأوبئة وأثرها على الحياة العلمية .

المبحث الثاني: طبقة المماليك الجلبان وأثرهم على الحياة العلمية.

وختمت الدراسة **بالخاتمة**: التي تناولت أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

الطالبة	**المشرف**	**عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية**
نوف بنت محمد الحازمي	**أ.د. مريزن عسيري**	**د. سعود بن إبراهيم الشريم**
التوقيع :	**التوقيع :**	**التوقيع :**

An Outline of Research

All praises be to Allah, and to His most Beneficent, the Most Merciful, and peace and mercy be upon the most blessed Prophet, His disciples and followers.

The present research undertakes to study the soclo-economic, political and religious influences in the time of the so called Al-Mamaleek Al-Garaksa upon the various modes and trends of learning in Egypt of the period (٧٨٤ - ٩٢٣H) (١٣٨٢ _١٥١٧) which left impact upon the prevailing conditions in the Muslim World, bearing in mind that the Kingdom flourished as the most powerful rule before the Ottoman Empire came to its inception

The aforesaid study comprises an introduction, followed by four sections, as well as reflective researches given below:

Introduction: General or overall conditions prevailing in the said era and their impact on the various trends of learning

Section I: Moral and religious influences on different trends of learning in the period concerned as traced in the research.

Theme I: Religious sectors and their impact on different trends of learning

Theme II: The relationship between the Sultans and the religious sectors and its impact on learning

Section II: The political conditions in Egypt of those times and their influence on learning as traced in the research.

Theme I: The general as well as specific attitude, as phenomenon, of the sultans, the ministers, and the princes including the elite as patrons of learning in those days

Theme II: Upheavals and internal conflicts influencing learning of the times

Theme Ill: External wars and conflicts influencing learning

Section III: The prevailing economic conditions and their impact on learning as traced in the research

Theme I: The economic conditions and their influence on learning affairs with respect to knowledge and learning associated with mosques, primary school as well as schools in general, books, libraries, leagues and smaller mosques.

Theme II: The influence of economic conditions on the scholars' activities and efforts they exerted on promoting learning.

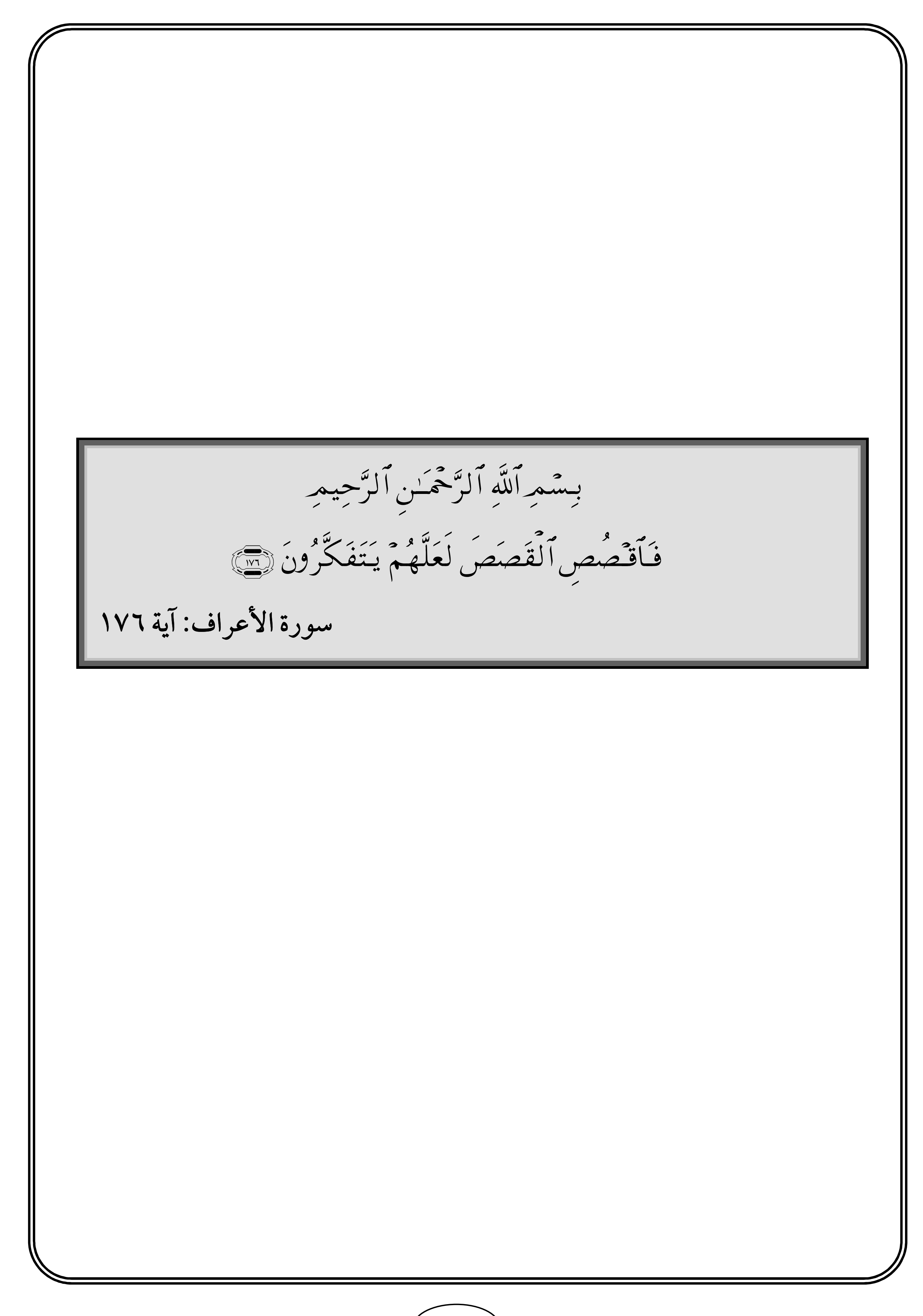
Section IV: The moral, social and economic conditions in Egypt of the time and its impact on learning as traced in the research

Theme I: The global calamities and epidemics and their impact on learning

Theme II: Mamaleek as a social class and their impact on learning

In conclusion, the study has tried to tackle some significant results reached as a piece of research.

<u>Student's name</u>	<u>Supervisor</u>	<u>Dean! Sharia & Islamic Studies</u>
Nouf Bint Mohammed Al-Hazmi	Prof. Mireizan	Dr. Saud Bin Ibrahim Ash-Shureim
Signature:	Signature	Signature



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

سورة الأعراف: آية ١٧٦

الإهداء

إلى من رغبني في العلم وحببني فيه...

والدي الغالي رحمه الله وأسكنه فسيح جناته

الشكر والتقدير

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، اللهم لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرِّضى، ولك الحمد على كل حال.

الحمد لله القائل في كتابه العزيز: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، والقائل ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾[2] والصلاة والسلام على إمام المرسلين وقائد الغر المحجلين محمد ﷺ وبارك عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

فلله الحمد أن يسَّر لي طرق باب العلم والتعلم وفتح عليّ أبوابه، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

ثم الشكر موصول إلى من أمرني ربي ببرها وشكرها بعد شكره فقال: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾[3]، والدتي الأستاذة الفاضلة:صالحة بكر حمزة، أسأل المولى أن يحفظها ويلبسها ثوب الصحة والعافية ويجزيها عني خير الجزاء، وأن يجعل الفردوس مستقراً لقدميها، لما قدمته لي من خدمات جليلة بدعائها لي أطراف النهار وآناء الليل، وسهرها على رعاية بناتي، فجزاها الله عني خير الجزاء

،كما أتقدم بالشكر الجزيل والتقدير العاطر للدكتور: مريزن بن سعيد بن مريزن عسيري –حفظه الله- المشرف على الرسالة على ما بذله من جهد ومتابعة، وما أولاه من إرشاد وتوجيه ونصح، فوجدت عنده رحابة الصدر، والتوجيه

---

(١) آية (٧)، سورة إبراهيم.

(٢) آية (١٢)، سورة لقمان.

(٣) آية (١٤)، سورة لقمان.

الصائب، كما كان له أكبر الأثر في إنجاز هذا البحث، أسأل الله تعالى أن يجزيه عني خير الجزاء.

وكم يعجز لساني عن شكر زوجي الفاضل الدكتور : خالد بن حسن القاضي عميد كلية إدارة الأعمال بجامعة جيزان، الذي كان عوناً لي بعد الله سبحانه وتعالى فكان نعم الرفيق في مسيرتي العلمية، فأسأله سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناته.

وأتوجه بشكري وتقديري إلى فضيلة الدكتور: عدنان محمد فايز الحارثي وفضيلة الدكتور عبد الله بن سعيد الغامدي: اللذين أمداني بكل ما يساعد موضوعي من كتب ونصائح أفادتني كثيرا، أسأل الله أن يرفع منزلتهما في الدارين، وأن يجزيهما عني خير الجزاء.

كما أوجه شكري ودعائي إلى زَهْرَتَيْ قلبي ورَيْحَانَتَيْ فؤادي اِبْنَتَيَّ: علياء وميس، فكم عانتا من انشغالي أثناء البحث والدراسة وصبرتا، أسأله تعالى أن يهديهما وينفع بهما ويجعلهما قرة عين لي ولوالدهما.

والشكر موصول إلى إخواني وأخواتي وأخص بالشكر منهم: أخي الفاضل الدكتور المهندس نايف، والأستاذ عبد الرحمن، والأستاذة ندى، على ما بذلوه معي من جهد وما قدموه لي من تحفيز لإنجاز رسالتي، فلهم مني كل الشكر والتقدير والعرفان، وكذلك أقدم جزيل شكري للدكتور: قاسم عبده قاسم – حفظه الله– الذي غمرني بعطائه، وأفادني الكثير من علمه، فأسأل الله تعالى أن يجزيه عني وعن طلبة العلم أحسن الجزاء إنه قريب سميع الدعاء.

كما لا يسعني إلا مواصلة الشكر والتقدير لذلك الصرح العلمي الكبير جامعة أم القرى وأخص بالشكر مكتبة الجامعة والقائمين عليها فجزاهم الله خير الجزاء.

ولا يفوتني أن أشكر كل من أسدى إليّ معروفاً، أو أعارني كتاباً، أو بذل مشورة أو دعوة صالحة، أو قدم لي نصحاً أو رأياً، وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك في موازين حسناتهم إلى يوم القيامة.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

نوف محمد الحازمي



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأصلي وأسلم على نبينا محمد أكمل الناس خلقاً، وأغزرهم علماً، وأسماهم مثالاً، وأعلاهم همة، وأمضاهم عزماً، وأنبلهم مقصداً، وأبعدهم أثراً، وعلى آله وأصحابه الذين نقلوا طريقته إلينا، وحفظوا شريعته علينا، جمعنا الله بهم في دار مستقره ورحمته.

أما بعد...

فقد دخل الإسلام مصر، فحرر أهلها من الاضطهاد الديني والاستبداد السياسي والاستغلال لثروات هذا البلد العظيم، من قبل الحكام الرومان، فدخل الناس في دين الحق والعدل والمساواة أفواجاً، وأخذت جموع القبائل العربية تهاجر إلى أرض مصر المليئة بالخيرات كما وصفت في القرآن الكريم فتغير وجهها التاريخي والاجتماعي، وأصبحت منطقة عربية خالصة، وتوالى على حكمها الأمراء العرب من قبل الخلافة الراشدة ثم من قبل خلفاء بني أمية والذين بدأت في عهدهم تشق العربية طريقها وبقوة، فأصبحت اللغة الرسمية للبلاد يتحدث بها الحكام، والمحكومون وبخاصة في زمن الوليد بن عبد الملك، حيث اتخذت العربية أداة لضبط الدواوين، فساد الإسلام، واشتد أزر اللغة العربية، ومع تشجيع الإسلام للعلم والدعوة إلى تحصيله، وحرص الصحابة، ومن خلفهم من بني أمية على العناية بالعلوم الدينية المتصلة بالقرآن والحديث واستنباط الأحكام الفقهية والفتاوى الشرعية، فنلاحظ أن العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية انتشرت خلال تلك الفترة، في جميع الأقاليم والأمصار من ضمنها مصر أما في عهد الدولة العباسية، والذي يعتبر العصر الذهبي للنهضة العربية والحضارة

الإسلامية، فقد امتزجت فيها الثقافات المختلفة بالثقافة العربية، وتمت بذلك أعظم دورة في تاريخ العلم، وكان للاستقرار السياسي في العصر العباسي، ووفرة ثرواتها ومدخراتها واهتمام الخلفاء بالعلم والعلماء والتنافس على ترجمة الكتب أكبر الأثر في تمكن علماء المسلمين من النهل من موارد العلم الموجودة في كتب من سبقهم من أهل الحضارات الأخرى ولم يكونوا مجرد نقلة، بل صححوا ونقحوا كل معلومة ترد إليهم وبمنهجية علمية صادقة ومخلصة، ولقد تميز أسلوبهم العلمي بالدقة في التفكير والوضوح في العرض والسلامة في الاستنتاج، وبفضل هذه النقلة أصبح للناس علم جديد وفكر مستنير في كافة العلوم فغدت مصر مركزاً للعلم، كبغداد، والقيروان،وقرطبة، وغيرها من المدن التي أضاءت سماء العالم بعلمهم وحضارتهم.

ورغم استقلال مصر عن جسم الخلافة العباسية، إلا أن حكامها ابتداءً من الدولة الطولونية كان لهم عناية فائقة بالعلم والعلماء، وخلفهم الإخشيديون فنهضوا بالبلاد نهضة محمودة، حتى جاء الحكم الفاطمي الشيعي ورغم كل الظلم والتعسف، ومحاولتهم -ما استطاعوا- محو كل ما هو سني، إلا أنهم كانوا يحاكون الخلفاء العباسيين في تسميتهم بالخلفاء، وأخذوا يقربون إلى مجالسهم العلماء والأدباء والشعراء، فوجدت العلوم أكبر عون ونصير، فازدهرت كافة العلوم والمعارف، ورغم أنهم أنشأوا جامع الأزهر ليكون مركزاً لنشر الثقافة الشيعية في العالم الإسلامي، فقد استطاع الأيوبيون القضاء على مذهب التشيع قضاء مبرماً، وأصبح الأزهر جامعة لأهل العلم من كل مكان على مذهب أهل السنة والجماعة، وخلف المماليك الأيوبيين في حكم مصر والشام والحجاز، ويعتبر

عصر المماليك من أغرب العصور الإسلامية حيث حكم مصر في تلك الفترة طبقة من الرقيق غير الأحرار، والمعروف شرعاً أنه من شروط تولية الحكم أن يكون حراً، وهذا لم يكن متوفراً في المماليك إطلاقا، ومع ذلك فقد خرج منهم من حمى حوزة الإسلام، وأنهى خطر المغول على العالم الإسلامي بعد سقوط عاصمة الخلافة العباسية، فتسلم المماليك زمام الحكم والأمر والدفاع عن الأمة الإسلامية بكل إخلاص وتفانٍ، وأصبحت مصر مركزاً للخلافة العباسية الثانية، حيث وجد سلاطين المماليك في تجديد الخلافة العباسية، شرعية لمكانهم من الملك، ومكملاً لمظهرهم الإسلامي، وسبيلاً إلى جمع قلوب المسلمين في سائر الأقطار حولهم، وأخذ العلماء يهاجرون إليها إما طلباً للعلم أو الاستقرار فيها لاضطراب أوضاع البلاد التي جاؤوا منها.

وأثناء قراءتي ومطالعتي لكتب المؤرخين لهذا العصر، وجدت في نفسي الرغبة الأكيدة لدراسة هذا العصر بكل ما فيه من مفارقات سياسية واقتصادية واجتماعية، وبعد المشاورة مع مشرفي الفاضل الأستاذ الدكتور: مريزن سعيد مريزن العسيري .. وقع اختياري على موضوع:

(أثر الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحياة العلمية في عهد المماليك الجراكسة في مصر، "من ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م إلى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م") .

*** أما الأسباب التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع فهي:**

أولاً: مكانة مصر المهمة في ذلك العصر، بعد انتقال مقر الخلافة الإسلامية إليها، إثر سقوط بغداد في أيدي المغول.

ثانياً: محاولتي الفصل في قضية اختلف فيها المؤرخون المعاصرون. فالفريق الأول يرى أن العصر المملوكي الثاني هو عصر انحطاط وتخلف وركود في الحياة العلمية، أما الفريق الثاني فيرى أنه ورغم كل الكوارث والتدهور في الأوضاع العامة استطاع العلماء أن ينأوا بأنفسهم عن تأثيرات هذه الأوضاع على حياتهم العلمية، بل أكسبوا الحياة العلمية إنتاجاً علمياً زاخراً ومثمراً، وعليه سيتعين على الباحثة التدقيق وفهم بواطن الوقائع والأمور، ومحاولة رؤية هذا العصر بمنظار أهله وطريقة تفكيرهم، لتتضح صورة العصر وتكون النتائج أقرب للصواب.

ثالثاً: توفر المصادر والمخطوطات والمراجع المختلفة والتي ــ تمكن الباحثة من التمحيص والموازنة بين نصوصها، مع التحليل والتعليل قدر المستطاع، لأن أغلب هذه المصادر المؤرخة لتلك الفترة إنما هي عبارة عن موسوعات لفنون وآداب مختلفة، كتبها هؤلاء المؤرخون، ولم يكن همهم سوى سرد الحوادث في الغالب دون الربط بينها أو تعليلها أو تحليلها.

رابعاً: رغم قيام كثير من الباحثين وهم من أهل الاختصاص في التاريخ الإسلامي عامة، وفي المملوكي خاصة، بدراسات سياسية وتاريخية واجتماعية واقتصادية ودينية وعلمية لتلك الفترة، إلا أنها لم تعطنا صورة دقيقة وواضحة عن تأثير الأوضاع العامة على الحياة العلمية وبصورة تجلي ذهن القارئ وتبين له مدى أهمية دور هذه الأوضاع في الحياة العلمية.

*** الدراسات السابقة:**

تبين بعد السؤال عن هذا الموضوع في عدد من مراكز العلم المختلفة في مكة المكرمة والرياض والقاهرة أنه لم يسبق دراسة هذا الجانب في عصر المماليك

الجراكسة إلا أنه كان هناك بعض الكتب التي تتحدث عن الحياة العلمية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية دون أن تتعرض لهذا الموضوع.

ومن أهم هذه الكتب:

١ـ "الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة" لمحمد كمال الدين عز الدين.

٢ ـ "عصر سلاطين المماليك" لقاسم عبده قاسم.

٣ ـ " الأزمات الاقتصادية والأوبئة في مصر عصر سلاطين المماليك" لحامد زيان غانم.

٤ـ "أسعار السلع الغذائية والجوامك في مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة" لرأفت محمد النبراوي.

٥ـ " عامة القاهرة في عصر سلاطين المماليك" لعلاء طه رزق.

٦ـ " التعليم في زمن الأيوبيين والمماليك" لعبد الغني محمد عبد العاطي.

٧ـ "الحياة العلمية في عصر المماليك" لعبد اللطيف حمزة.

٨ـ "موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي" لمحمود رزق سليم.

٩ـ "الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر" لمحمد محمد أمين.

١٠ـ "تاريخ الأدب العربي في العصر المملوكي" لعمر موسى باشا.

الإطار الزمني والمكاني للدراسة:

وسيكون الإطار الزمني للدراسة من عام (٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) إلى عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، وأما الإطار المكاني فهو مصر، في إطار حدودها الجغرافية

في تلك الفترة، وهي كما وصفها ابن حوقل في كتابه الأقاليم قال: (اعلم أن حدود ديار مصر الشمالي بحر الروم، وبرقة على الساحل، آخذاً جنوباً إلى حدود النوبة والحد الجنوبي من حدود النوبة المذكورة، آخذاً شرقاً إلى بحر القلزم قبالة أسوان إلى تيه بني إسرائيل ثم يعطف شمالاً إلى بحر الروم، حيث ابتدأنا).

دراسة لأهم مصادر ومرجع البحث:

اختلفت وتنوعت مصادر ومراجع هذا البحث، فالعصر المملوكي تنوعت معارفه، وكتب في كثير منها العديد من المؤلفات، وظهر فيه المؤرخون الكبار الذين امتازت مؤلفاتهم بالدقة والموضوعية، **ومن أعظم مؤرخيه:**

* **القلقشندي**: أبو العباس شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م)، وقد التحق بديوان الإنشاء في عهد السلطان الظاهر برقوق سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)، واستمر فيه حتى نهاية عهد برقوق، أي حوالي عام (٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، وبدأ في تصنيف موسوعته الضخمة "صبح الأعشى في صناعة الإنشا"، في سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)، وفرغ منه في شوال سنة (٨١٤هـ/ ١٤١١م، وقضى القلقشندي أيامه الأخيرة في عزلة عن المناصب العامة، بيد أنه ظل محتفظاً بمكانة رفيعة في البلاط المملوكي، وقد رتب القلقشندي مؤلفه الضخم على مقدمة وعشر مقالات، أفاد البحث كثيراً من المقالة الرابعة، وهي أهم مقالات الكتاب، وفيها فهرسة مطولة للملوك والسلاطين والأمراء والعلماء والمتصوفة والقضاة وأمراء الجيوش، وذكر لألقابهم وشروحها.

* **المقريزي**، أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، وهو مؤرخ معاصر لحكم المماليك، ولم يكن من رجال البلاط السلطاني، ويمتاز أسلوب المقريزي بالموضوعية والأمانة التاريخية في السرد والعرض والتدقيق والتقصي والتحقيق والتعليل، والتركيز على الموضوع وعدم الاستطراد، وعدم الخروج على الموضوع، ولحيادية تجاه الحكام وعدم مداهنتهم والتقرب إليهم، وامتازت مروياته بأنه انفرد بذكر بعض الوقائع التاريخية التي لم ترد في غيره من المصادر، ويرجع ذلك إلى تفرغ المقريزي لكتابه التاريخ وبعده عن شغل المناصب العامة فغلبت على أخباره كثير من الصدق والحيادية، سواء أكان في العصر الذي شهده بنفسه، أو العصر الذي سبقه. **ومن أهم مؤلفاته:**

ـ كتاب "السلوك في معرفة دول الملوك"، وتحدث فيه عن تاريخ مصر من عام ٥٧٧هـ إلى عام ٨٤٤هـ، فنجد المقريزي يذكر الأحداث والوقائع التاريخية بحرية من وجهة نظره، مع شرحها وتحليلها ثم يختم أحداث كل سنة بذكر الوفيات والترجمة لأصحابها.

ـ كتاب "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، وهو يشرح ويصف المجاعات والأوبئة بمصر وأسبابها، ومدى تأثيرها على حياة الناس وما تركته من مآسٍ ومحن، وما ألقته بظلالها على الحياة العلمية فترة البحث.

ـ كتاب "المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار" وهو من الكتب الهامة التي تحدثت عن آثار مصر والقاهرة وما حوته من مبانٍ وأوضاع، ويذكر فيه كثيراً من المدارس والمساجد والخوانق والربط والزوايا وتحديد أماكنها ونبذة تاريخية

عن كل منها وما آل إليه حالها حتى عصره مع تراجم لمعظم منشئي هذه المؤسسات.

* **ابن حجر العسقلاني**، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م) وقد تفرد ابن حجر من بين أهل عصره في علم الحديث مطالعة وقراءة وتصنيفاً وإفتاءً، كما شغل كثيراً من الوظائف المهمة في الإدارة المملوكية المصرية منها منصب قاضي القضاة، مما هيأ له الوقوف على مجريات السياسة المصرية ودخائلها آنذاك ومكنه من الاتصال المباشر بالمصادر الأولى لأحداث عصره.

وقد وضع ابن حجر عدة كتب تاريخية هي العمدة في بابها، واستفاد البحث من كثير منها، وأهم ما اعتمد البحث عليه منها:

- كتاب "إنباء الغمر بأنباء العمر"، وهو مؤلف ضخم يقع في حوالي ألف صفحة كبيرة حيث يتبع نظام الحوليات والشهور والأيام في تدوين الحوادث. ثم يتبع حوادث كل سنة بأعيان الوفيات. وقد أفاض في ذكر ما يتعلق بمصر من هذه الحوادث، وهو يتناول الأحداث التي وقعت بين سنة (٧٧٣ ـ ٨٥٠هـ)/ (١٣٧١ ـ ١٤٤٦م)، حيث ذكر في أوله أنه تعليق جمع فيه حوادث الزمان الذي أدركه منذ مولده سنة (٧٧٣هـ/ ١٣٧١م)، مفصلاً في كل سنة، عن وفيات الأعيان، وأرخ فيه لمعاصريه. وقد كشف لنا اشتغال ابن حجر بالتدريس في كثير من المدارس العديد من جوانب الحياة التعليمية ومدى تأثرها بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية فترة البحث.

- كتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"، وهو معجم ضمنه تراجم أعيان القرن الثامن الهجري من علماء وملوك وسلاطين وشعراء وغيرهم من

مصر ومختلف بلاد الإسلام، ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر تاريخ مصر الإسلامية في الفترة التي يتناولها البحث.

* ***العيني، أبو محمد بدر الدين القاضي الفقيه المدرس*** *(ت٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م) عاصر عدداً من سلاطين المماليك، وكان معاصراً للمقريزي وابن حجر، كانت له معرفة تامة باللغة التركية فهيأت له الحظوة لدى بعض سلاطين المماليك أمثال السلطان المؤيد شيخ، فكان يدخل عليه في أي وقت شاء، كما كان ندياً للسلطان الأشرف برسباي، فكان يجلس معه بالساعات الطوال ينهل من علمه، وكان السلطان برسباي يقول: (لولا القاضي العيني ما حسن إسلامنا، ولا عرفنا كيف نسير في المملكة).*

ومن مؤلفاته التي استفاد منها البحث:

ـ كتاب "السيف المهند في سيرة الملك المؤيد".

ـ كتاب "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر"، وهو إلى الثناء والإنشاء أقرب منه إلى التأريخ.

ـ وأما كتابه الكبير؛ فهو كتاب "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان"، وهو موسوعة ضخمة في التاريخ.

* **ابن تغري بردي،** جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م)، عاش بعد المقريزي بنحو ثلاثين سنة، فهو الجيل التالي له، تتلمذ علمياً ودينياً على أيدي كبار مشايخ عصره، واستهوته دراسة التاريخ، وقد نشأ كواحد من أولاد الناس – وهو مصطلح مملوكي يعني أولاد الطبقة الحاكمة – فقد كان

والده تغري بردي أتابكياً أي قائداً عاماً للجيش المملوكي، في عهد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق وابنه الناصر فرج بن برقوق، لذا فقد عاش ابن تغري في حجر الإمارة والثراء، واتصل بالمصاهرة والصداقة مع رجالات الدولة وكبراء البلاط، مما جعله قريباً من البلاط السلطاني، منذ أيام السلطان (برسباي) حتى أوائل حكم (قايتباي)، مما ساعده على إطلاق مهارته في البحث والدرس والكتابة وأمدنا بمعلومات في غاية الأهمية عن الحالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية لمصر تلك الفترة، حيث جاءت رواياته عنهم نقلاً عن شهود عيان للحدث التاريخي واطلع عن قرب على كثير من أسرار الدولة وتفصيلات السياسة العليا مما أهله لأن يكون المؤرخ الأول لعصر السلاطين الجراكسة، والمصدر التاريخي الأكثر توثيقاً لتلك الفترة، وقد ألف عدة كتب تاريخية استفاد البحث منها، وأشهرها:

ـ كتاب "حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور". وهو تاريخ مختصر لمصر الإسلامية.

ـ كتاب "المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي"، وهو تراجم عن أعيان عصره، ابتدأ ابن تغري فيه من أوائل دولة المماليك البحرية بترجمة السلطان عز الدين أيبك إلى عصره، واتبع منهجاً يعتمد على الترتيب الأبجدي، ويضم الكتاب نحو ٣٠٠٠ ترجمة لسلاطين وأمراء وعلماء ووجهاء ومشاهير.

ـ وأما كتابه الكبير المسمى "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة" فهو أشهر كتبه وأجلها وهو تاريخ عام لمصر الإسلامية، كتبه بعد المنهل الصافي وحوادث الدهور كما تظهر من الإحالات في كتابه النجوم على كتابه المنهل

والحوادث، وقد استمر تأريخه في النجوم منذ الفتح الإسلامي في سنة ٢٠ هـ إلى عصره حتى سنة (٨٧٢هـ/ ١٤٦٨م)، أي قبل وفاته بعامين فقط، ولذا يعد أتم وأطول تاريخ لمصر الإسلامية.

وقد انتهج ابن تغري في هذا الكتاب منهجاً مخالفاً لمنهج أستاذه المقريزي، فقد جعل لكل عهد من عهود السلاطين فصلاً خاصاً، ثم ذكر السنين وحوادثها تباعاً داخل الفصل حتى إذا توفى الحاكم جعل له ترجمة منفصلة، فبسط القول في كل أمير وسلطان حكم مصر ابتداء من عمرو بن العاص، ثم أعقب ذلك بترتيب سنوات العهد ترتيباً عددياً، وذكر وفيات كل منها في فصل واحد مع ذكر بعض الحوادث ضمن التراجم.

أما الجزء الخاص بعصره فقد اتخذ شكل السجل اليومي من عهد الناصر فرج تقريباً إلى عهد السلطان الأشرف قايتباي. وقد اعتنى ابن تغري بنهر النيل في كتابه و أحصى تقلباته وأحواله منذ الفتح الإسلامي إلى عصره. كما اهتم بالنشاط العمراني في مصر خلال العصور. ويعد تسجيل التاريخ الحضاري مع التاريخ السياسي إحدى ميزات ابن تغري.

وبالرغم من أن ابن تغري ذكر في مقدمة كتابه أنه كتبه دون طلب من ملك أو سلطان، إلا أنه ذكر في نهايته أنه ألفه من أجل صديقه الأمير محمد بن السلطان جقمق، والذي كان ابن تغري يتوقع أن يصل إلى تخت السلطنة فيختم الكتاب بعهده، إلا أن الأمير محمداً وافته المنية قبل ذلك (توفي سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م).

❋ **السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م)** له كتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، وهو تاريخ كبير جمع فيه مؤلفه

الوفيات من سنة ٨٠١هـ إلى سنة ٩٠٠هـ(١٣٩٨م-١٤٩٤م) ، مرتباً إياها على حروف المعجم في الأدباء والعلماء والقضاة والرواة والشعراء والأدباء والخلفاء والملوك وغير ذلك، مما كان مادة غنية لمختلف فصول البحث، ولاسيما والسخاوي دقيق في ذكر الأنساب والتواريخ بدرجة كبيرة.

*** السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)**، وهو عالم متبحر في العديد من العلوم والفنون، له عدة كتب تاريخية، -أفاد منها البحث-، أهمها:

ـ كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، ذكر فيه ثمانية وعشرين كتابا من الكتب المؤلفة في أخبار مصر فلخصها، وذكر ملوك مصر ونوابها في الدولة الإسلامية وعساكرهم، وما فيها من الجوامع والمدارس والنيل، وما قيل فيها من الأشعار، وهو كتاب في غاية الأهمية، حيث يذكر فيه كثيراً من المؤسسات التعليمية ومن شغلها من العلماء، وكذا عقد فصلاً ترجم فيه لأعلام المتصوفة بمصر، مما أفاد البحث منه.

وللسيوطي كتب أخرى أفاد منها البحث، وهي:

ـ كتاب "تاريخ الخلفاء"، وكتاب "نظم العقيان في أعيان الأعيان" وكتاب "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة".

*** ابن إياس، أبو البركات زين العابدين محمد بن أحمد بن إياس الحنفى الناصري القاهري**(ت٩٣٠ هـ/ ١٥٢٣م)، كان أبوه متصلاً بالأمراء وأرباب الدولة، تتلمذ ابن إياس على السيوطي وغيره، وألّف في التاريخ والجغرافيا ونظم

الشعر، فهو من المؤرخين المعاصرين لآخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة، وقد شاهد أحداث دولتهم، وكتب عنهم بالتفصيل وعلى طريقة الحوليات، في كتابه

ـ "بدائع الزهور في وقائع الدهور"، وأسلوبه مميز في الوصف يحتوي على إنشاء مؤثر، ويكتب ببساطة ووضوح باللغة العربية الفصحى المختلطة بـاللغة المصرية الدارجة .

وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه من المؤلفين القلائل الذين عاشوا في أواخر الدولة المملوكية، وشاهدوا سقوطها، وقد تضمن كتابه أحداثاً في غاية الأهمية، فقد بين الفوضى التي سادت البلاد أواخر العصر المملوكي ، وما تعرض له أهل العلم من المضايقات على أيدي المماليك الجلبان، وقد غطى بتاريخه هذا جزءاً كبيراً من تاريخ الدولة مشاركاً غيره ومنفرداً بالعقود الأخيرة في تاريخ المماليك، وقد استفدت منه في هذه الفترة أكثر ممن أرخ بعده ممن لم يحضرها، لأن عباراته كانت أكثر وضوحاً وصراحة.

* وقد جاء **ابن العماد الحنبلي** (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م) صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" فغطى هذه الفترة أيضاً، مما أفاد البحث وإن كان متأخراً عنه.

* كما أفاد البحث من مصادر أخرى منها:

ـ "تاريخ الدول والملوك"، **لابن الفرات ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم** (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، وهو معاصر لنشأة السلطنة المملوكية الثانية، وقد اهتم بالتاريخ، فكتب تاريخا كبيرا بعنوان: "تاريخ الدول والملوك" أو ما يعرف بـ "تاريخ ابن الفرات"، ابتدأ فيه من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة وتوفي أثناء

تبييضه للقرنين الثالث والرابع، ولكتابه أهمية كبيرة من حيث المعلومات، ولذلك فقد كان مصدرا مهما لمن جاء بعده من المؤرخين كالمقريزي وابن حجر والعيني وابن تغري بردي، برغم من ركاكة أسلوبه أحياناً وما فيه من استطراد وتكرار للروايات التاريخية، إلا أنه قد انفرد بذكر بعض المعلومات الاقتصادية والاجتماعية عن تاريخ السلطنة المملوكية.

ـ"الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين"، و"الانتصار لواسطة عقد الأمصار" **لابن دقماق، إبراهيم بن محمد بن أيدمر** (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م).

ـ "نهاية الأرب في فنون الأداب". **للنويري، شهاب الدين عبدالوهاب** (ت ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م).

ـ "زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك" **للظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين** (ت ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م).

ـ "إنباء الهصر بأبناء العصر" **للخطيب الجوهري علي بن داود الصيرفي** (ت٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)، وقد وضعه على "غرار إنباء الغمر" لابن حجر، وترجم فيه لمعاصريه، وله أيضاً: "نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان".

❋ أما المراجع الحديثة التي أفاد منها البحث فمن أهمها:

- "الأيوبيون والمماليك في مصر والشام" لسعيد عبد الفتاح عاشور.

- "تاريخ الأيوبيين والمماليك" للسيد عبد العزيز السالم.

- "أهل الذمة في مصر العصور الوسطى"، "عصر سلاطين المماليك"، "في تاريخ الأيوبيين والمماليك"، "اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني" لقاسم عبده قاسم.

- "تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام" لمحمد سهيل طقوش.

- "مصر في العصور الوسطى، الأوضاع السياسية والحضارية" لمحمود الحويري.

- "قايتباي المحمودي" لعبد الرحمن محمود عبد التواب. وغيرها كثير.

هذا بالإضافة إلى العديد من المصادر والمصنفات والمراجع التي يزخر بها البحث فقد أكسبته ثراء وأضفت عليه حلة قشيبة.

*** خطة البحث:**

لقد تحصل لي بعد البحث والدراسة أن أكتب في هذا الموضوع تحت عنوان:

(أثر الأوضاع الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية على الحياة العلمية في عهد المماليك الجراكسة في مصر،

"من ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م إلى ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م") .

وذلك من خلال مقدمة وأربعة فصول وخاتمة:

*** المقدمة:** وفيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، والدراسات السابقة وتناول أهم مصادره ومراجعه وعرض لخطة البحث.

*** التمهيد:** الأوضاع العامة في العصر المملوكي الأول وأثرها على الحياة العلمية .

*** الفصل الأول:** الأوضاع الدينية وأثرها على الحياة العلمية ويشمل مبحثين.

المبحث الأول: الطوائف الدينية وأثرها على الحياة العلمية .

المبحث الثاني: العلاقة بين السلاطين والطوائف الدينية وأثرها على الحياة العلمية.

* **الفصل الثاني**: الأوضاع السياسية وأثرها على الحياة العلمية ويشمل ثلاث مباحث.

المبحث الأول: مظاهر اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء والأعيان بالحياة العلمية.

المبحث الثاني: الثورات والفتن الداخلية وأثرها على الحياة العلمية.

المبحث الثالث: الحروب الخارجية وأثرها على الحياة العلمية.

* **الفصل الثالث**: الأوضاع الاقتصادية وأثرها على الحياة العلمية ويشمل مبحثين.

المبحث الأول: الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الإنفاق على شؤون الحياة العلمية (المساجد ـ الكتاتيب ـ المدارس ـ الكتب والمكتبات ـ الأربطة والزوايا).

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية للعلماء وأثرها على عطائهم وإنتاجهم العلمي.

* **الفصل الرابع**: الأوضاع الاجتماعية في مصر وأثرها على الحياة العلمية ويشمل مبحثين.

المبحث الأول: الكوارث الكونية والأوبئة وأثرها على الحياة العلمية .

المبحث الثاني: طبقة المماليك الجلبان وأثرهم على الحياة العلمية.

* **الخاتمة**: وتتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

* **الفهارس**.

ـ فهرس المصادر والمراجع.

ـ فهرس الموضوعات.

والله أسأل أن يجعله عملاً متقبلاً، وأن يجزي كل من أسهم فيه ولو بدعوة مباركة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

نوف بنت محمد الحازمي

مكة المكرمة



التمهيد

التمهيد

الأوضاع العامة في العصر المملوكي الأول

عاشت مصر الإسلامية عهوداً كثيرة، اختلف فيها شروق شمس العلم والمعرفة بين بزوغ ظاهر، وأفول هادئ أحياناً، وحيث إن الحياة العلمية في عصر المماليك الجراكسة حلقة في سلسلة علمية متصلة بما قبله، لذا كان لزاماً أن يتم إلقاء الضوء على الحالة العلمية السابقة لهذا العصر، وهو العهد المملوكي الأول، فالإطلالة عليه تفيد في بيان أوجه التشابه والاختلاف في الجوانب العلمية بين العصرين، كما أن النظم العامة السياسية والدينية المتبعة في العصر الأول استمر كثير منها في العصر الثاني، وإنما جاء الاختلاف مما أحدثه الجراكسة، وهذا يشير إلى أهمية دراسة العصر الأول للتعرف على أسباب التغير وأثره على الحياة العلمية.

ومن هنا كان من المناسب دراسة الحياة العامة في العصر المملوكي الأول قبل الولوج في مطالب البحث.

ويقسم الباحثون العصر المملوكي إلى دولتين: دولة المماليك البحرية وهي التي حكم سلاطينها البلاد من عام (٦٤٨هـ ـ ٧٨٤هـ) / (١٢٥٠م ـ ١٣٨٢م)، وسموا بالمماليك البحرية، نسبة لجزيرة الروضة التي سكنوا بها، بعد أن كثر عددهم أيام سيدهم نجم الدين أيوب.

كذلك سموا بالنجمية والصالحية نسبة لاسم ولقب سيدهم، وقد حكموا مصر والشام والحجاز[1].

---

[1] لمعرفة المزيد عن المماليك البحرية، المقريزي: السلوك، ج١، ص٣٤٠؛ الخطط، ج٢/ ص١٨٣، ١٨٥؛ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص٩٩.

أما الدولة الثانية: فهم المماليك الجراكسة "البرجية"، وقد حكموا البلاد من سنة(٧٨٤هـ -٩٢٣هـ)/ (١٣٨٢م - ١٥١٧م)، وقد سموا بالبرجية نسبة إلى أبراج القلعة التي سكنوها، وبالجراكسة نسبة إلى موطنهم الأصلي، وقد حكموا مصر والشام والحجاز[١].

ويلاحظ الباحث في التاريخ المملوكي أن ثمة اختلافاً كبيراً بين الفترتين، فقيام الدولة الأولى واكب كثيراً من التقلبات السياسية الناشئة عن الوضع السياسي المضطرب في العالم الإسلامي، بدءًا بالحملات الصليبية التي واكبت مطلع العصر متوافدة على الشام ومصر، واستمرت إلى ما بعد قيام دولة المماليك[٢]، وكذلك الهجمة المغولية الشرسة التي اكتسحت دول المشرق الإسلامي، والتي انتهت بسقوط الخلافة الإسلامية في بغداد سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٩٨م)، وما نتج عن هذه الأحداث من فوضى واضطراب، إلا أن دولة المماليك الناشئة قامت بواجباتها السياسية، فكسرت المغول، وجاهدت الصليبيين، وأحيت الخلافة، وازدهرت العلوم في ظل هذه الحالة السياسية القوية.

---

(١) لمعرفة المزيد عنهم المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٢١٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ ص٢٢١؛ محمد مصطفى زيادة: الدولة المملوكية الثانية، ج ٢/ ص٥٠٨؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٤٢.

(٢) لمعرفة المزيد عن حملات الصليبيين على مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، سعيد عاشور: الحركة الصليبية؛ رانسيمان: تاريخ الحروب الصليبية؛ آنِست باركر: الحروب الصليبية؛ محمود عمران: الحملة الصليبية الخامسة؛ جوزيف نسيم يوسف: حملة لويس التاسع على مصر.

في حين كانت الفترة الثانية قصيرة الأمد، لكن اختلاف القيادة السياسية نسبياً ألقى بظلاله على الحركة العلمية، مع كثرة الاضطرابات السياسية التي أدت إلى أفول هذه الدولة وتسلم العثمانيون الحكم بمصر.

*** الأوضاع السياسية في العصر المملوكي الأول:**

قامت دولة المماليك على أنقاض دولة الأيوبيين، فرغم خضوع مصر لحكم الفاطميين الشيعة منذ سنة (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) إلاّ أنهم لم ينجحوا في تأصيل المذهب الشيعي في مصر، فبعد أن نجح صلاح الدين الأيوبي في القضاء على الخلافة الفاطمية في مصر سنة (٥٦٧هـ/ ١١٧٢م) عمل على نشر المذهب السني، ولم يجد معاناة في ذلك، إذ إن التشيع كان ظاهر الحكم ليس إلا.

وعندما انتقلت السلطة إلى المماليك الذين امتد حكمهم في مصر من منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي، إلى الربع الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي شكل عصرهم أهمية خاصة على الصعيدين العالمي والمحلي، ذلك لما واكبه من حوادث مثيرة وتيارات قوية بارزة في مختلف الأنشطة الحربية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وعليه يمكن القول أن مصر كانت تمثل ـ آنذاك ـ الثقل السياسي للعالم الإسلامي والمحور للعلاقات العالمية.

وقد تسلطن في العصر المملوكي الأول قريب من ثلاثين سلطاناً، منهم أربعة قبل الظاهر بيبرس، لم تطل مدة حكمهم معاً على عشر سنوات، ثم حكمت

الأسرة البيبرسية عشرين سنة، وتلتها الأسرة القلاوونية التي حكمت مائة وأربع عشرة سنة، أي حتى قامت دولة الجراكسة عام (٧٨٤هـ/)١٣٨٢م)[١].

وأهم ملامح الأوضاع السياسية في عصر المماليك البحرية تتمثل في كسر شوكة المغول[٢] ، فقد هدد المغول العالم الإسلامي، واجتاحوا كثيراً من البلاد، ثم سقطت الخلافة في سنة (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، حيث قتلوا آخر الخلفاء العباسيين ببغداد المستعصم بالله [٣].

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧/ ص ٣٦ ـ ٣٩؛ سحر السيد: الهجرات وتطور مدينة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، ص ٣٨.

(٢) ظهرت قبائل المغول في منغوليا جنوب شرق سيبريا على حدود الصين،وقد اختلطوا بالقبائل التركية، وفي أواخر القرن السادس الهجري ظهر (تيموجين) الذي جمع المغول فنصبوه ملكاً على قبائلهم، وفي عام (٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م) تسمى بـ (جنكيز خان)وصار إمبراطوراً للدولة المغولية، ومنذ ذلك التاريخ وهو يعمل على توسعة رقعة بلاده، فأخضع الصين، وبدأ في مهاجمة الدولة الخوارزمية المسلمة، وقد قام علاء الدين خوارزم شاه وابنه جلال الدين منكبرتي بدور رائد في مقاومة المغول، وألحقوا بهم هزائم متتالية حتى إن الملك الأشرف صاحب دمشق شبه جلال الدين بن خوارزم شاه بالسد الذي بين الشام وبين يأجوج ومأجوج. رشيد الدين: جامع التواريخ، ج٢، ق١، ص٢٣٢ــ ٢٤٠؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص٤٥٦ــ ٤٦٢؛ العريني: المغول، ص١٨٨؛ الصياد: المغول في التاريخ، ج١/ ص١٨٨.

(٣) المستعصم بالله (ولايته٦٤٠هـ-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م)هو أبو عبد الله محمد بن الإمام الظاهر، دخل المغول بغداد في عهده واستولوا عليها وقاموا بقتله، وقد اختلفت الروايات في الكيفية التي قتل بها، فقيل إن هولاكو لما ملك بغداد أمر بخنقه، وقيل رفس إلى أن مات، وقيل مزق، و قيل لف في بساط وألقي في نهر دجلة . بن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢١٤-٢١٥؛ رشيد الدين: جامع التواريخ، ج٢/ ق١، ص٢٩٠؛ ابن شاكر كتبي: فوات الوفيات، ج١/ ص٤٩٧، ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٧٥-١٨٠.

وامتد تطلع التتار حتى شمل الشام فقد أخضع هولاكو حفيد جنكيز خان كلاً من ماردين ونصيبين والرها ثم حلب في سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م)، ومن ثم أخذوا دمشق والخليل وغزة، وأصبحوا على مشارف مصر، وفي هذه الأثناء انقرضت الدولة الأيوبية بموت الملك الصالح نجم الدين وتسلطن نور الدين علي بن المعز أيبك وكان صبيا صغيرا فاتفق رأي المماليك على أن الصبي لا يستطيع تقويم المملكة، ومن ثم أعلن السلطان قطز سلطاناً على مصر والشام سنة (٦٥٧ هـ/ ١٢٥٨م) وتلقب بالمظفر، وقد أرسل له هولاكو رسالة ملؤها التهديد والوعيد قبل أن يعود إلى المشرق لما علم بوفاة أخيه عام (٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م)، فاستشار قطز الأمراء واتفقت الكلمة على الجهاد[1].

التقى الجيش الإسلامي والتتري في عين جالوت[2] سنة (٦٥٨هـ/ ١٢٥٨م)، فانتصر المسلمون انتصارا ساحقا على التتر وقتل قائدهم كتبغا نوين[3].

تغير ميزان القوى، وانقلبت الأمور، غير أن قطز قتل لدى رجوعه من عين جالوت وتسلطن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وتلقب بالظاهر[4].

---

(١) انظر في أخبار ذلك بالتفصيل: عبد الله الغامدي: جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ / ص ١٤٣.

(٣) كان كتبغانوين عظيما عند التتار يعتمدون على رأيه وشجاعته وتدبيره، بطلاً شجاعاً خبيراً بالحروب، قتل في عين جالوت. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٢ / ص ٢٧٥.

(٤) ولد بيبرس عام (٦٢٠ هـ/ ١٢٢٣ م)، وهو تركي الأصل، اشتراه الأمير أيدكين البندقداري، ثم باعه للسلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب (ت ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م)، فتدرج في الحلقة، وترقى في سلك الجندية، ليصبح من كبار أمراء المماليك الصالحية (نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب). ولما مات الملك الصالح، استمر بيبرس في خدمة ولده الملك المعظم توران شاه، ولبيبرس سيرتان، الأولى:

ومع نبوغ الأسرة البيبرسية استمر الجهاد ضد المغول، فقد فرض السلطان بيبرس هيبة الدولة على أعدائه بكسر شوكة المغول، كما حالف بركة خان زعيم مغول القبجاق، وذلك لمواجهة عدوهما المشترك المتمثل في هولاكو وأولاده، وذلك بعد أن أسلم بركة خان، وأرسل الهدايا للسلطان(1).

وانكسر المغول بعد تسع مواجهات ضارية، بين عامي (٦٧٠ـ ٦٧٥هـ/ ١٢٧١ـ ١٢٧٦م)، كان آخرها المعركة التي جرت في عقر دارهم، حيث ألحق بيبرس بهم الهزيمة في سهل هوفي في صحراء البلستين (آسيا الصغرى)(2).

*** إحياء الخلافة العباسية في مصر سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦١م).**

كان لسقوط الخلافة العباسية أسوأ الأثر على نفوس المسلمين، فهي رمز الوحدة الإسلامية واتباع للأمر الرباني بتنصيب خليفة للمسلمين، فها هو السيوطي يقول عنها: (هو حديث يأكل الأحاديث وخبر يطوي الأخبار،وتاريخ ينسي التواريخ ونازلة تصغر كل نازلة، وخارجة تطبق الأرض وتملؤها ما بين الطول والعرض)(3).

الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، لمحيي الدين ابن عبد الظاهر بتحقيق عبد العزيز الخويطر، عام ١٩٧٦، واختصرها شافع بن علي، المناقب السرية في السيرة الظاهرية؛ والسيرة الثانية تاريخ الملك الظاهر لعز الدين ابن شداد، بتحقيق د.أحمد حطيط عام ١٩٨٣م.

(1) العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، ج ١ / ص ٩٣، وقد جاء في رسالة بركة لبيبرس: (فليعلم السلطان أنني حاربت هلاون الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا، تعصباً لدين الإسلام، لأنه باغٍ، والباغي كافر بالله ورسوله)، وكان ذلك في رجب ٦٦١هـ.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٣/ ص ٢٧٤

(3) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٧٤١.

وهذا يبين الفراغ الذي أحدثه موت الخليفة واحتياج المسلمين إلى إحياء الخلافة مرة ثانية، والشعور الديني المتزايد لضرورة تنصيب الخليفة في أقرب وقت ممكن .

وظلت الخلافة غائبة عن مسرح الأحداث لمدة ثلاث سنوات حتى سنة (٦٥٩هـ-١٢٦٠م) حيث قام السلطان الظاهر بيبرس بإحياء منصب الخلافة في القاهرة، فما كاد يسمع بوصول أحد أبناء البيت العباسي إلى دمشق في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)، حتى أرسل يستدعيه فورا مع اتخاذ كافة الاحتياطات لسلامته وراحته، وبالفعل وصل الابن العباسي إلى مصر وهو المستنصر أحمد بن الظاهر ابن الناصر العباسي فاستقبله بيبرس بالحفاوة والإكرام وبايعه في عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) بمحضر القضاة والأمراء، وأثبت قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز نسب الخليفة بشهادة الشهود ومن ثم بايعه العلماء والأمراء، ومن ثم قاد الخليفة السلطان الأمر والحكم على البلاد والبلاد التي يفتحها [١].

ولما قتل هذا الخليفة في محاولة لاسترداد بغداد بايع الظاهر بعده الخليفة أحمد الحاكم بأمر الله، وبقي في القاهرة، ولم يسمح له بمغادرتها [٢].

وقد تولى الخلافة في العهد المملوكي الأول ثمانية من الخلفاء، من أصل (١٨) خليفة طيلة العهد المملوكي، حتى دخول العثمانيين [٣].

---

(١) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص ١٠٨؛ المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٣٨١؛ ابن الطولوني: النزهة السنية في أخبار الخلفاء، ص١٢١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢/ ص٥٣.

(٢) أبو الفداء: المختصر في أخبار البشر، ج٣/ ص٢١٥؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٧٨.

(٣) ابن الغزي: ديوان الإسلام، ص ٨١؛ محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، ج٧/ ٤٢.

وقد تم تقسيم السلطة بالدولة على أساس أن يكون الخليفة هو الرمز، وأن تكون إدارة شؤون البلاد بيد السلطان وحده، وقد استمر الوضع السياسي على هذا النمط طيلة أيام الدولة المملوكية في عهدها الأول والثاني، وعلى الرغم من أن الحوادث المتكررة تدل على أن السلطة الفعلية كانت بيد السلطان لا الخليفة ومثال ذلك أن الظاهر برقوقاً سجن الخليفة المتوكل على الله[1] في البرج ليلة واحدة عندما خالفه، ثم أعيد إلى مكانه[2]، كما قام الخليفة العباسي المستعين بالله بتولي السلطنة بمصر إلى جانب الخلافة وذلك في سنة (٨١٥هـ/ ١٤٢١م)، مما دفع السلطان المملوكي المؤيد إلى أن قبض عليه وسجنه بدمياط [3]، فهذه الحادثة تبين أنه لم يكن للخلفاء سلطة فعلية وإن كانوا سنداً دينياً لسلاطين المماليك طوال حكمهم[4].

ومن أبرز الأحداث السياسية التي واكبت مطلع الدولة المملوكية في عهدها الأول هو كسر الصليبيين، ولاسيما في عهد الأسرتين البيبرسية، والقلاوونية، فقد نجح السلطان بيبرس[5] في زعزعة بنيان الكيانات الإفرنجية،

---

(١) هو الخليفة المتوكل على الله أبو عبد الله محمد بن المعتضد ابن أبي بكر المستكفي بالله (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، كان خيراً فاضلاً: انظر عنه: ابن تغري بردي: النجوم، ج١٣، ص١٥٤، ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٩٣.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل، ج٣/ ص٢٩٨.

(٣) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٣/ ص٢٧٣، ج٧، ص٥٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢/ ص٨٥.

(٤) عبد العزيز محمود عبد الدايم: تأثيرات المغول الحضارية على دولة سلاطين المماليك، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الثالث، ١٩٨٩م، ص ١٧.

(٥) تقدم بلاء بيبرس ضد الحملة الصليبية التي وفدت إلى مصر أيام الأيوبيين، وبخاصة في معركة المنصورة، عام (٦٤٨ هـ/ ١٢٥٠ م)، التي هزم فيها الفرنج، وأسر قائدهم الملك الفرنسي لويس.

بعد إحدى وعشرين حملة عسكرية عليهم، أدت إلى سقوط إمارة أنطاكية في يـده[1] واستيلائه تباعاً على القلاع والحصون الإستراتيجية المحيطة بكونتية طـرابلس ومملكة عكا. كما قام بيبرس بخمس حملات على بـلاد الأرمـن في آسـيا الـصغرى وأخضعها لسيادته[2].

وفي عام (٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م) سمع السلطان قلاوون (٦٧٨هـ/ ٦٨٩هـ)[3]، بـأن الفرنج في طرابلس نقضوا الهدنة، وأخذوا جماعـة مـن التجـار وغـيرهم، وصـار بأيديهم عدة أسرى، فصمم على فتح طرابلس وتخليصها من الأسر مهما كلفه ذلك من ثمن فسار إليها، وحاصرها بجيش لجب مجهـز أحـسن تجهيـز ودك حـصونها خلال ما يزيد على شهر، ثم اقتحمها يوم الثلاثاء في الرابع مـن شـهر ربيـع الثـاني سنة (٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م) ليعيدها إلى المسلمين، ثم عاد إلى الديار المـصرية، وكـان الفرنج قد استولوا على طرابلس في سنة (٥٠٣هـ/ ١١٠٩م)، فبقيـت بأيـديهم إلى أوائل سنة (٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م)، فيكون مدة لبثها مـع الفـرنج، نحـو ١٨٥ سـنة، وشهور[4].

---

(١) استولى الظاهر بيبرس على أنطاكية في رمضان (٦٦٦/ ١٢٦٨م). ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، ص ٣٠٧ ـ ٣٢٧؛ أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر ، ج٤/ ص ٤ ـ ٥.

(٢) العيني: عقد الجمان، ج١/ ص ٣٩٦، ٣٩٩؛ العبادي: قيام دولة المماليك الأولى، ص ٢٢٢، ٢٢٥.

(٣) هو السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون (ت٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م)، كان ملكـاً حلـيماً، مهيبـاً، حسن السياسة، وافر الوقار، فتح الفتوحات الجليلة، وكسر التتار والصليبيين، كانت مدة حكمه أحد عشر عاماً وشهرين.ابن شاكر كتبي: فوات الوفيات، ج٢/ ص٢٦٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج٣١/ ص١٧٣؛ الصقاعي: تالي وفيات الأعيان، ص١٢٩؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٩٥.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ، ج ١ / ص ٤٧٧.

ويعتبر سقوط عكا على يد السلطان خليل بن قلاوون في عام (٦٩١هـ/ ١٢٩١م)، من الأحداث العظيمة في تاريخ المسلمين، حيث كانت (عكا) آخر معاقل الصليبيين بالشام[1].

وكانت قبرص قبل سقوط عكا في أيدي المسلمين معقلاً هاماً للصليبيين، توجه منها الحملات على الشرق الإسلامي، وكان يتولى حكمها أسرة لوزينان الفرنسية، وظلت مناوشات القبارصة للمماليك مستمرة[2] حتى عهد الجراكسة حين أرسل السلطان برسباي (ت ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)[3] حملته المشهورة في سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م) إلى سواحل قبرص، ثم عادت الحملة إلى القاهرة ومعها مئات الأسرى من ضمنهم ملك قبرص جالينوس، والذي ظل أسيراً حتى عام (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م)، حتى أفرج عنه برسباي بعد دفع فدية كبيرة والاعتراف بسيادة سلطنة المماليك على قبرص، حيث ظلت بعدها قبرص من جملة (بلاد السلطان) حتى نهاية العهد المملوكي[4].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١/ ق٣، ص٧٦٥؛ رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣، ص٦٩٧.

(٢) مثال ذلك ما حدث سنة(٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، حيث أتت مراكب قبرص إلى ميناء الإسكندرية واستولت على مركبين من مراكب المسلمين، كما تكرر هذا الاعتداء ثانية فما كان من الظاهر بيبرس سوى أن استدعى بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم عتاباً شديداً لغدر صاحب قبرص. ابن كثير: البداية والنهاية،ج٧، ق١٣، ص٢٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٤٩.

(٣) هو السلطان الأشرف برسباي، أبو النصر، ساس الملك، ونالته السعادة ودانت له البلاد وأهلها، كانت أيامه هدوءاً وسكوناً، له مآثر عظيمة كالمدارس وغيرها، مات سنة (٨٤١هـ/ ١٤٣٧م). الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٤٢١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١، ص١٦١.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٢٧٦؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٩٤؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص١٢٦؛ هذا وقد ظلت قبرص خاضعة لحكم المصريين حتى بعد سقوط دولة

* الأوضاع السياسية وأثرها على الحالة العلمية:

كان للأوضاع السياسية في عهد دولـة المماليـك الأثـر الكبـير عـلى الحركـة العلمية بها، فقد دأب المصريون على احترام العلماء وتبجيلهم، ولما تسلطن المماليك على مصر عرفوا ذلك، فقدموا العلماء واحترمـوهم وبجلـوهم، فهـم بحاجـة إلى دعامة يستندون عليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب[1]، بحكم مـا للدين ورجاله من قوة وسطوة في النفوس، لأن العلماء ورثة الأنبياء وبهـم عرفـوا دين الإسلام وفي بركة علمهم يعيشون[2]، ولما كان المماليك عصائب يغلبـون عـلى الأمر واحداً بعد واحد، على حد تعبير ابن خلدون[3]، لذا كان عـلى الأمـير الـذي يطمع في الحكم أن يتودد إلى العلماء ليكسبهم إلى جانبه، ليضمن بذلك تأييد الرأي العام في البلاد، ولذا نجد العيني يذكر الأسباب التي بررت استحقاق الملك المؤيد السلطنة، فيقدمها بقوله أنه كان له: (الفضل والكرم والإحسان إلى أهل العلم)[4].

كما أحب الخلفاء العباسيون في مـصر العلـماء فـأولوا الحيـاة العلميـة جـلّ اهتمامهم، وحذا حذوهم سلاطين الدولة المملوكية.

المماليك سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، حيث استمرت الجزيـرة تـدفع الجزيـة إلى الـسلطان العـثماني، حتـى سـنة (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م) حيث حكمها الأتـراك حكـماً مبـاشراً عـن طريـق ولاتهـم الأتـراك، العبـادي: تـاريخ البحرية، ص٣٣٦.

[1] سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٩.

[2] المقريزي: السلوك، ج٣/ ق١، ص١٨٣.

[3] ابن خلدون: المقدمة، ص١٨٣.

[4] العيني: السيف المهند، ص١٦٧، سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٩.

ومن أكبر نتائج إحياء الخلافة في القاهرة؛ كان التصدي للتشيع في مصر والشام ودعم الاتجاه السني داخل الدولة المملوكية، ولقد أحس بيبرس بذلك وربما يكون هذا من الدوافع القوية التي جعلته يحرص على إحياء الخلافة بالقاهرة[1].

وكان لهذا الإحياء أثره على الحياة العلمية بمصر المملوكية، فإننا يمكن أن نلحظ التأثر العام بتحول أنظار العالم الإسلامي من العراق إلى مصر وما يتبعها من بلاد الشام، فقد صارت مصر حاضرة المسلمين وموئل العلماء وطالبي العلم، وصارت مدارسها ومساجدها وشيوخها ذات أثر بالغ مما لم يبلغه مكان آخر، ويؤكد هذا قول السيوطي: (وأعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها، وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة، وعفت منها البدعة، وصارت محل مسكن العلماء، ومحط رحال الفضلاء) [2].

وقد كان للقضاء على شوكة المغول أثره البالغ في تنشيط الحياة العلمية، فقد أمن الناس على أنفسهم، فانصرفوا لأمورهم، وأهمها طلب العلم، بعد أن كانوا مهددين بهذا الخطر الداهم الذي أسقط الخلافة، وأحرق حاضرة العلم بغداد، ونسف معالم حضارتها العلمية وذلك بتدمير الكتب ومراكز العلوم[3].

---

(1) عبد الله الغامدي: جهاد المماليك، ص١٣٦.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢/ ص٩٤.

(3) قال السمهودي: (وقعت الطامة الكبرى بأخذ التتار لبغداد وقتل الخليفة وأهلها بذل السيف فيهم نيفا وثلاثين يوماً، وألقيت الكتب تحت أرجل الدواب، وبنى منها معاليفهم بالمدرسة المستنصرية،

وقد أثرت الحملات الصليبية والجهاد ضد الصليبيين في الحياة العلمية من المؤلفات والخطب وما يقوم به العلماء من دور ريادي في حث الناس على الجهاد، بل قد كانت واقعة إغارة القبارصة على الإسكندرية في الواقعة المشهورة عام(٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)، دافعاً قوياً لأن يضع مؤرخ الثغر محمد بن قاسم بن محمد النويري المالكي، توفي بعد سنة (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)، موسوعته: "الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، يقول ابن حجر العسقلاني: (صنف تصنيفاً في ثلاث مجلدات، عمل فيه صفة الكائنة العظمى التي وقعت للفرنج في أول سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)[1]، حيث ملكوا الإسكندرية ونهبوا أموالها وأسروا نساءها ورجالها، وإنما أطاله باستطراده من شيء إلى شيء، فإنه بدأ بفتح الإسكندرية، فأطال في ذلك وساق أخبارها، فكان خبر الواقعة في جانب ما ذكره كالشامة)[2]، كذلك كان للسخاوي نفس التعليق على الكتاب وأنه استطرد فيه فأصبحت الواقعة في جانب ما كتبه كالشامة[3].

والواقع أن الكتاب عبارة عن موسوعة علمية ضخمة، تناول فيها النويري جميع جوانب المعرفة التي وصل إليها، فإلى جانب التأريخ للحملة

وخلت بغداد ثم استولى عليها الحريق حتى عمّ ترب الرصافة مدفن ولاة الخلافة)، خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ، ج ١ / ص ٣٨.

(١) أي سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) .

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ ص٢٥٩.

(٣) السخاوي: الإعلان بالتوبيخ، ص١٢٢.

القبرصية على الإسكندرية ضمنه معلومات في جوانب مختلفة شملت الدين والاجتماع والاقتصاد والأدب والجغرافية[1].

* الأوضاع الدينية في العصر المملوكي الأول:

بعد أن أصبحت مصر سنية في العهد الأيوبي، وخلعت رداء التشيع، صارت المذاهب السنية هي المنتشرة، بعد انتشار المدارس السنية.

وكان الاتجاه العقدي في مصر المملوكية يحمل سمة المذهب الأشعري[2] عامة فقد حمل الأيوبيون في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام دولتهم، ثم على أيام مواليهم من الأتراك المماليك[3].

وهذا لا يعني أن السلفية كانت مندثرة في عهد الدولة المملوكية أو الأيوبية من قبلها، لكن كان يدعو إليها علماء معدودون غالبهم من الحنابلة، ولم يكن لها ذلك الانتشار كالمذهب الذي تدعمه الدولة.

ومع مجيء الحركة السلفية التي رفع رايتها شيخ الإسلام ابن تيمية في مصر بدأ مذهب السلف ينتشر بين الناس، وبدأ النقاش والمناظرات حوله.

---

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٤/ ص٢٥٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ ص١٨٤؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج٦/ ص١٣٤.

(2) الأشاعرة: نسبة إلى مؤسسه أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري(ت٣٢٤هـ/ ٩٣٥م)، كان معتزلياً، ثم تاب، ونصر مذاهب المحدثين لكن بالعلوم العقلية المأخوذة عن الفلاسفة، فوقعت مخالفات في المذهب لمنهج السلف، نتج عنها تأويل صفات الأفعال لله تعالى، واقترب من مذهب الجبرية في أفعال العباد بسلب الاختيار عنهم ونحو ذلك. ابن تيمية: منهاج السنة، ج٢/ ص٢٢٧-٢٢٩.

(3) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٣٥٨؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج٦/ ص٩٤.

وأما التشيع فقد كان تأثيره قليلاً في الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك فقد حرصوا على أن لا يتولى وظيفة القضاء إلا سني، فها هو الظاهر بيبرس يأمر في سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) باتباع المذاهب السنية، وتحريم ما عداها، وأن لا يُوَلَّ قاضٍ ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى الوظائف من خطابة أو إمامة أو تدريس إلا من كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة[١].

كما أصبح التشيع ممقوتاً بمصر المملوكية، لدرجة أنه أصبح مكيدة تدس على بعض الأشخاص لكي تحل عليه العقوبات (حتى يظهر التوبة من الرفض)[٢].

أما التصوف: فهو طريقة مبتدعة انتسب إليها كثير من الزهاد، إلا أنها انتشرت بكثرة في العصر المملوكي، لعدة أسباب وعوامل، منها وجود كثير من الأوقاف عليهم، مما سهل على الناس أن تجرى عليهم الأرزاق بغير عمل، أو جهد، وبذلك انتشرت الخرافات والبطالة، وتأثر بها العامة والخاصة، واستمر التصوف كحركة اجتماعية، وتصورات دينية إلى قيام الدولة العثمانية[٣].

وقد جرد العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية[٤]، وتلميذه ابن القيم[٥]، أقلامهم وألسنتهم في فضح حال هؤلاء الصوفية، وبيان خروجهم عن الشريعة.

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٤/ ص١٦١.

(٢) مثل ما كان لجلال الدين حسن بن منصور. ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٢، ص٤٦

(٣) حيث اتفقت الطرق والاتجاهات الصوفية في العصر المملوكي الأول والعصر الثاني، لذا قمت ببحث ذلك مفصلاً في الفصل الأول من هذا البحث.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام المجلدان (العاشر والحادي عشر)، في نقد التصوف، وبيان الصحيح من علم السلوك، سوى ما كان مبثوثاً في ميراثه العلمي رحمه الله تعالى.

(٥) كثرت انتقادات الإمام ابن القيم للتصوف والسلوك غير السوي في التزهد، والرد على الصوفية في كثير من مؤلفاته ولاسيما كتابه (مدارج السالكين).

وعموماً فإن النقول عن العلماء كثيرة في الإنكار على من خالف الشريعة، وكذلك الأمر بالنسبة للحكام والسلاطين، والمقصود هنا أن عصر المماليك لما كان معظماً للعلماء، كان يأخذ على أيدي الغلاة فما كان يسمح بالمجاهرة بخلاف ظاهر الشرع.

أما أهل الذمة، فلم يكن لهم حضور قوي في الدولة، وقد يرجع ذلك إلى أن البلاد خاضت حروباً صليبية كثيرة، مما أفقد الاطمئنان لأهل الذمة، ولاسيما مع ظهور خيانات من بعضهم كادت تودي بالدولة الناشئة[1].

وقد اهتم المماليك بتنظيم الوظائف الدينية، والتي تشمل القضاء والمظالم والحسبة، وكذلك تشمل الخطابة والوعظ والتدريس، ووظائف المدارس وخزائن الكتب وغير ذلك[2].

---

(١) يقول ول ديورانت في نتائج الحروب الصليبية: (إذا نظرنا إلى الحروب الصليبية من حيث أغراضها المباشرة التي دارت رحاها من أجلها قلنا إنها أخفقت لا محالة. ذلك أنه بعد أن دامت هذه الحروب قرنين من الزمان بقي بيت المقدس في أيدي المماليك، وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة وزادت مخاوفهم. يضاف إلى هذا أن الحكومات الإسلامية التي كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى قد ذهب عنها تسامحها بسبب الهجمات المتكررة على بلادها، ولم يبق في أيدي المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام التي انتزعوها من قبل لتستقبل التجارة الإيطالية، وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية في رقتها، وأسباب راحتها، وتعليمها وأساليبها الحربية). قصة الحضارة، ج ١ / ص ١٢٣.

(٢) فممن تولى القضاء أحمد بن محمد بن عبد الله الشهير بابن المخلطة (ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٧م)، وممن تولى الحسبة القاضي زين الدين الإسعردي (ت ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م). ابن فرحون: الديباج المذهب في

* المناصب العلمية في هذا العصر:

كان منصب قاضي القضاة المنصب الهام الذي يلي الخلافة، وكان لابد أن يكون شافعياً طوال الدولة الأيوبية، لكن استجد المماليك نظاماً جديداً، فجعلوا القضاة أربعة كباراً يمثلون المذاهب السنية، وأول من عين القضاة الأربعة: السلطان الظاهر بيبرس، ويقال أن ذلك بسبب توقف قاضي القضاة الشافعي آنذاك ابن بنت الأعز في تنفيذ بعض الأحكام، وكثرة الشكاوي في حقه سنة (٦٦٣ هـ/ ١٢٦٤م)[1].

وظل كبير القضاة شافعياً، وكان مرسوم تولي القضاء، كمرسوم تولي الخلافة يعلن في الجامع في عواصم السلطنة، وينوب قضاة أقل درجة في أحياء العاصمة والأقاليم عن كبار القضاة، ويسمون أحياناً بنواب الأحكام[2]، وربما كثروا جداً فيأتي الأمر بعزلهم، كما في عام (٧٣١هـ/ ١٣٣٠م) حيث رسم بعزل

معرفة أعيان علماء المذهب، ج١ / ص ٤٢؛ الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج١ / ص ٢٢٩ . وسيرد تفصيل هذه الوظائف في الفصل الأول من هذه الرسالة.

[1] المقريزي: الخطط، ج٢، ص٩٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٩، ص٣٤، ٣٥؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص ٢٩٨؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج١، ص١٠١.

[2] يقول غرس الدين خليل عن منصب قاضي القضاة أنه: أعظم الأركان وقعاً وأعمها نفعاً، وعليهم مدار مصالح الأمة عقلاً وشرعاً... وأجلهم قاضي القضاة الشافعي ثم الحنفي ثم المالكي ثم الحنبلي، ولكل منهم نواب يحكمون بالديار المصرية). زبدة كشف الممالك، ص٩٢.

نواب قضاة القضاة الأربعة بالقاهرة ومصر، وكانت عدتهم قد بلغت نحو الخمسين نائباً، فعزلوا بأجمعهم[1].

وتولى بعض القضاة مناصب إدارية كالوزارة إلى جانب القضاء، ونظروا في الدواوين، وأكثرهم جمع بين القضاء والتدريس، أو القضاء والخطابة في المساجد الكبرى، ومنهم من زاد على ذلك مثل القاضي ابن بنت الأعز حيث جمع له قضاء الديار المصرية بكمالها والخطابة والحسبة.[2]

ومنصب شيخ الشيوخ من المناصب الدينية الرفيعة، عرف في الدولة الأيوبية، وظلت أهميته طوال العصر المملوكي، وكان يلقب به شيخ خانقاة سعيد السعداء بالقاهرة غالباً وأحياناً شيخ خانقاة الناصر بسرياقوس، فهو لقب شيخ الشيوخ الصوفية في القاهرة ودمشق[3].

*** الأوضاع الدينية وأثرها على الحالة العلمية:**

نظراً لدعم الدولة للمذهب السني، فقد انتشرت مدارس أهل السنة وازداد نشاطهم العلمي وظهرت مؤلفات ترد على التشيع بقوة، ولعل على رأسها الموسوعة العلمية الكبيرة: "منهاج السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية" لشيخ الإسلام ابن تيمية[4].

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ ، ص٤٧١.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٢٤٩.

(3) علي محمد محمد الصَّلاَّبي: السيرة الزنكية ، ج١ ، ص٤٧٤.

(4) وقد طبع في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بتحقيق محمد رشاد سالم في تسع مجلدات في عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

كما كان للحركة الصوفية تأثير إيجابي وتـأثير سـلبي عـلى الحركـة العلميـة، فالتأثير الإيجابي تمثل في ردود العلماء على المتصوفة ونشاط الحركة العلمية في ذلك، أما الأثر السلبي فيمكن أن نجده مـن خـلال عـدة عنـاصر، لعـل مـن أهمهـا أن التصوف كان يقوم على الأوراد والأذكار، بل وعلى عقيدة الجـبر كـما صـنف ابـن عطاء الله[1] كتابه "التنوير في إسقاط التدبير"، وهو كما يظهر من اسمه يقرر مذهب الجبرية[2] في إسقاط العبد التدبير، فكل ذلك مما عطل التأليف العلمي الصحيح.

لم يكن المتصوفة يشتغلون بتدريس العلـوم الـشرعية إلا عـلى طريقـة أهـل الكشف، بمعنى أن تفسيراتهم للقرآن على منهج التفسير الإشاري[3]، الذي يحمِّـل

---

(١) ابن عطاء الله تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بـن عبـد الكـريم الـسكندري، يعـد أحـد أركـان الطريقة الشاذلية، وقد اشتغل ابن عطاء الله في صغره بمذهب مالـك، وكـان مُنكـراً أول أمـره عـلى الصوفية حتى التقى بأبي العباس المرسي عام (٦٧٢هـ/ ١٢٧٥م)، واستمع إليه فجذبـه إليـه وصـار تلميذاً له، وتوفي ابن عطاء بالمدرسة المنصورية بالقاهرة سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) ودفن بتربة الإمـام الشافعي.

اليافعي: مرآة الجنان، ج٤، ص٢٤٧؛ ابن تغـري بـردي: النجـوم، ج٨، ص٢٨٠؛ الـشيال: أعـلام الإسكندرية، ص٢١٥.

(٢) الجبرية: هم القائلون بأن العبد لا فعل له ، وأن فعله بمنزلة طوله ولونـه، فهـو مجبـور عـلى أفعالـه ، ورئيسهم الجهم بن صفوان السمرقندي ، قتله سالم بن أحوز أمير خراسان سنة١٢٨هـ، انظر: خالـد حمزة: تقريب الطحاوية، ج٢، ص٨٥٠.

(٣) المراد بالتفسير الإشاري: هو الذي تؤول به الآيات على غير ظاهرها، والتي يرى المفسر أنها تستنبط على طريق الرمز والإشارة، مع محاولة الجمع بين الظاهر والخفي، صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن،ص ٢٩.

الألفاظ ما لا تحتمل من جهة اللغة، وأما إقراؤهم الحديث أحياناً[1]، فكانوا يمزجون بشروحاتهم على الطريقة الصوفية، ويضاف إلى ذلك أن انجذاب بعض طلاب العلم للتصوف كابن عطاء الله كان نتيجته تعطيل العلم الشرعي، لأن نتاجه بعد ذلك إنما هي كتب التصوف بإشاراته التي هي أشبه بإشارات الفلاسفة[2].

والقضاء له تأثير كبير على الحركة العلمية، وذلك لأن العلماء ذكروا أنه يشترط في القاضي الكمال أي كمال الأحكام وكمال الخلقة[3]، والعدالة، وأن يكون من أهل الاجتهاد في الدين وهذا يلزم أن يكون عالماً بالكتاب والسنة والإجماع والاختلاف والقياس ولسان العرب[4]، وبذلك يكون تأثيره كبيراً على الحركة العلمية، والمظالم والحسبة في حقيقتيهما نوع من القضاء أيضاً[5].

---

(1) ذكر البلوي أنه قرأ على أبي العباس المرسي المجالس الثلاثة في الحديث وغيرها، البلوي: تاج المفرق، ص٥٨، ٥٩.

(2) ذكر الصفدي أن الشيخ الصوفي كريم الدين عبد الكريم الأيكي شيخ أحد الخانقاوات حضر عند الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد وأخذ يتكلم في طريقتهم وأحوالهم، ويتحدث عن العرفان وقتاً طويلاً، والشيخ تقي الدين ساكت لا يفوه بكلمة، فلما قام من عنده قال الشيخ تقي الدين للحاضرين: هل فيكم من فهم تراكيب كلامه؟، فإني ما فهمت غير مفرداته.الصفدي: شرح لامية العجم، ج١٤، ص١٠٦.

(3) كمال الأحكام: أن يكون بالغاً عاقلاً حراً ذكراً، وكمال الخلقة: بأن يكون متكلماً سميعاً بصيراً، وفي بعض ذلك خلاف وقيود، ابن قدامة: المغني، ج١٤، ص١٢، ١٣.

(4) ابن قدامة: المغني، ج١٤/ ص١٥.

(5) المظالم هي عادة أحدثها السلاطين المماليك، منذ سنة(٦٦١هـ/ ١٢٦٢م)، وكان يجلس بها للفصل في القضايا يحيط به قضاة المذاهب الأربعة، وغيرهم، وكانت القضايا التي تعرض على نظر المظالم تنظر

كما يمكن أن يضاف إلى ذلك أن طبقة القضاة من الطبقات الراقية في المجتمع، وكان لا يولَّى إلا من له باع في العلم، فأدى هذا من حرص الكثير على أن يلحقوا أولادهم بالمدارس رجاء أن يكونوا من هذه الطبقة[1].

❋ الأوضاع الاقتصادية في العصر المملوكي الأول:

كان اقتصاد الدولة في عصر المماليك يقوم على الزراعة والمعاملات الداخلية من حرف وصناعات وغيرها، والتجارة الخارجية.

وتقوم الزراعة على النيل فهي تزدهر بزيادته، وتضعف بنقصه وشح مياهه، وتزداد حصيلة الزراعة بخدمة الأرض ووسائل الري، والاهتمام بالترع والجسور لتنظيم الحصول على الماء وضمان وصول ماء النيل إلى كل الأراضي الزراعية المتاحة[2].

وكانت العلاقات التجارية قائمة بين مصر وسائر دول المشرق والبحر المتوسط وأوروبا من الهند والفرس والتتار واليونان والفرنجة، وعاشت بعض الجاليات الفرنجية المشتغلة بالتجارة في مصر ، مثل الجنويين[3] والبنادقة[4].

وقد أدى هذا النشاط إلى وجود أجهزة إدارية تنظم حركة التجارة بها فسمح سلاطين المماليك بإقامة القنصليات والمنشآت التجارية كالفنادق

في شكاوى الأفراد والشعب عامة والمشكلات والنوازل ونحو ذلك ، المقريزي: الخطط، ج٢، ص٢٠٨ـ ٢٠٩؛ علي حسن: تاريخ المماليك البحرية، ص٣٩٣.

(١) انظر في تقسيم المقريزي طبقات المجتمع المصري في الفصل الرابع من هذه الرسالة.

(٢)ابن تغري بردي: النجوم، ج ٢/ ص ٣٢٠ ـ ٣٢١.

(٣) نسبة إلى مدينة جنوة إحدى مدن ايطاليا.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٢/ ق١، ص١٠٢.

والوكالات، والقيساريات، والخانـات داخـل المدينـة لخدمـة التجـار الأجانـب، وإيوائهم وتسهيل الحركة التجارية لهم وعمليات البيع والشراء، وخزن بـضائعهم وسلعهم[1]، وقد تمتعوا بقسط وافر من الحرية داخل فنادقهم، فقد كـانوا يعيـشون فيها على النمط الذي تحيا عليه شعوبهم في بلدانهم، وقد توفرت في هـذه المنـشآت الاقتصادية الحمامات والمخابز وغير ذلك من الخدمات[2].

كما حرص المماليك على توفير الأمن الـلازم في هـذه الفنـادق، فكانـت أبوابهـا تقفل مع غروب الشمس بواسطة وكيل خاص يوصد أبوابـه مـن الخـارج، كـما يمنـع النـزلاء الأجانب من مغادرة فنادقهم وقت صلاة الجمعـة، وذلـك خـشية أن يـداهم الصليبيون المدينة وأهلها في المساجد[3].

❋ الأسواق التجارية.

أما بالنسبة للأسواق التجارية: فهي عبارة عن شارع طويل يمتـد عـلى جانبيـه صفان من الحوانيت،ولقد تنوعت هذه الأسواق، فمنها للأجناد لبيع الفراء والـسلاح وأسواق لباعة التبن والقماحين، وفي محل آخر: الـصباغون والخراطـون والقـصارون، والفحامون والمنخليون، والشماعون والبزازين والحلاويين والكعكعيـين والعطـارين، وسوق الطيوريين والوزازين والدجاجيين وسوق الأواني النحاسية والكتبيين[4].

وأما الصناعة، فكانت رائجة في العهد المملوكي، وقد اشتهرت صناعة النـسيج والآلات الحربية، وكلاهما كان بالإسكندرية، يقول القلقشندي: (وفيها نسيج القماش

---

(1) المقريزي: الخطط، ج ٢/ ص ٨٦ـ ٩٢؛ نعيم زكي : طرق التجارة، ص ٢٨٧.

(2) عاشور: مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى، ص١٣٨.

(3) نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٢٩٠ـ ٢٩١.

(4) المقريزي: الخطط، ج٢، ٢٥١، ص٣٠١.

الفائق، الذي ليس له نظير في الدنيا)[1]، ويقول المقريزي:(والثياب المنسوجة بالإسكندرية لا نظير لها وتحمل إلى أقطار الأرض)[2].

وكان بالإسكندرية دار لصناعة السفن، أحيطت بالمجانيق[3] لحمايتها من أي اعتداء، تصنع بداخلها السفن[4]، حيث تعددت أنواعها وأصنافها، فمنها الشواني[5] والأغربة[6] والطرائد[7]، وقد اهتم السلاطين بهذه الدور، فزارها الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م)، (ونزل بنفسه إلى دار الصناعة ورتب ما يجب ترتيبه)[8] ثم قام الأشرف شعبان سنة (٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م) بزيارة دار الصناعة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣، ص٤٠٨.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٢، ص ٣٠٣.

(٣) المنجنيق: آلة من خشب لها دفتان قائمتان بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه . القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢/ ص ١٥٢.

(٤) النويري السكندري: الإلمام، ج٢/ ص١٧٧.

(٥) الشيني: هي سفن كبيرة لحمل المقاتلة للجهاد، وكان يقام بها أبراجٌ وقلاعٌ للدفاع والهجوم، وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلاً، سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص٣٥٢.

(٦) غراب: والجمع أغربة وغربان، وهي نوع من المراكب الحربية التي تستخدم في عمليات الاستطلاع والتجسس، إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٣٢

(٧) هي سفن حربية مفتوحة المؤخرة بأبواب تفتح وتغلق، معدة لحمل الخيل، المرجع السابق، ص٢٣٠. فقد ذكر النويري أن الأمير يلبغا الخاشكي، حين دخل الإسكندرية عقيب وقعة القبارصة أمر بعمارة المراكب الغربان والطرائد للثأر من الفرنج ، الإلمام، ج٢/ ص٢٠٨.

(٨) المقريزي: السلوك، ج١/ ق٢، ص٤٤٦ ـ ٤٤٧.

الشرقية للاطمئنان على سير العمل بها ورأى ما فيها من الشواني الغزوانية، والمجانيق الشيطانية، والتي رموا بها أمامه فاستحسن رميها[1].

ضرب السكة: اشتهرت هذه الصناعة الاقتصادية في العهد المملوكي، فأقيمت دور الضرب في ثلاثة مدن: القاهرة والإسكندرية وقوص[2].

ويمكن القول أن الاقتصاد المملوكي لم يتدهور بقوة إلا في العصر الثاني، بسبب الاضطرابات السياسية، كما يأتي ذكره.

*** الأوضاع الاجتماعية في العصر المملوكي الأول:**

لقد تميزت الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي الأول بعدة ظواهر لعل من أهمها النمو السكاني والهجرات، فلقد كانت الحقبة التي سبقت العصر المملوكي والتي تعرض خلالها المشرق الإسلامي لحملات المغول المدمرة ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من المسلمين في كل من تركستان وفارس والعراق وبلاد الشام[3] فظهرت حركة طرد سكانية من إيران والعراق والشام باتجاه الأراضي المصرية التي كانت تنعم آنذاك برخاء نسبي قياساً بغيرها، وذلك نظراً لظهور دولة المماليك الفتية بها، بالإضافة إلى أن الوجود الصليبي كان ما يزال ماثلاً في سواحل بلاد الشام والذي دفع بالكثير من سكانه في الانتقال إلى الأراضي المصرية، وقد أدى هذا كله إلى وجود (تركيبة سكانية) متميزة اختلفت فيها الأجناس، ونعم الناس فيها بالرخاء في ظل الأمن والأمان الذي توفر في مصر المملوكية، ونتيجة

---

(1) النويري السكندري: الإلمام، ج٦/ ص١٠ ـ ١١.

(2) المقريزي: الخطط، ج١، ص١٩٥.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧/ ق١٣، ص٢١٣؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٤٩ـ٢٨٢.

لهذه الهجرات التي جاءت إلى مصر المملوكية اجتمع في مدن مصر أجناس مختلفة من العرب والأتراك والمغاربة ومن المسلمين ومن غير المسلمين،وقد أدى ذلك إلى تطور كبير في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية[1].

وقد قسم المقريزي المجتمع في عصر المماليك إلى سبع طبقات إذ يقول: (اعلم حرسك الله بعينيه التي لا تنام، أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام: القسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز، ويلحق بهم أصحاب المعايش وهم السوقة، والقسم الرابع: أهل الفلح،وهم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذوو الحاجة والمسكنة وهم السُؤَّالُ الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم) [2].

وأهل الدولة الذين وضعهم المقريزي في رأس الطبقات السبع هم سلاطين المماليك والأمراء وأتباعهم من الجند والوزراء والكتاب وأرباب السلطة.

ولأن عصر المماليك كانت العسكرية واضحة فيه، لذا أضفت ظلالها على المجتمع، حيث قضى السلطان أكثر أيامه مع بلاطه وأقاربه وجنده ومماليكه، فاحتاجوا لاتخاذ المساكن والدور، لذا صارت حركة النشاط العمراني ذات

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص١٠٠٨،

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة، ص ٧٢ .

معدلات سريعة، واحتاج الجم الغفير من آلاف الجند إلى آلاف أخرى من العـمال والصناع وتوافد إليها هؤلاء وهؤلاء من الأقطار فجاء معها الرخاء والرواج.

ويبدو أن المقريزي يضم إليهم كذلك القضاة، بينما جعل الفقهاء وطلاب العلم في القسم الخامس بعد أهل الفلح !! وربما بدا ذلك غريباً، لكنه ليس مستغرباً في دولـة يقوم نظامها على العسكرية،والإعداد للقتال من الاهتمام بالفروسية والقتال بالسيف والرمح والنشاب وغيرها من آلات القتال وتقديم ذلك على القلم والكتاب.

وقد بلغ بعض القضاة والفقهاء درجة من اليسار من هبات الـسلاطين، أو بالاشتغال بالتجارة، فسكنوا البيوت الجميلة الأنيقة واقتنـوا الـضياع والبـساتين، وكان لهم الخدم والحشم والجواري والعبيد.

وكانوا يهتمون بإقامة الأعياد البدعية كعيد وفاء النيل، وكان المولد النبـوي أهم الأعياد البدعية عندهم، وكان المماليك يهتمون به اهتماماً كبـيراً ويـصرفون في بذخ، ومن المناسبات البدعيـة التـي اهتمـوا بهـا: موالـد الأوليـاء كمولـد الـسيد البدوي بطنطا، ومولد الشيخ الإنبابي بإنبابة، يقول ابن تغـري بـردي في الأخـير: (وصار هذا الوقت عندهم من جملة النـزه يتواعدون عليـه مـن قبـل عملـه بأيـام ويتوجهون إليه أفواجاً)[1]، ويقول إنهم لا يقصدون زيارة الضريح ولا التبرك بـه، فأكثرهم لا يعرف مكانه، إنما يقصدون اللهو والتنـزه.

---

[1] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ٢٩٢.

وكانت مصر أيام المماليك عامرة بأماكن النزهة، وأهمها البرك، كبركة الحبش وبركة الفيل وبركة الرطلي بالقاهرة، قال المقريزي: (وكان ماء النيل يدخل بركة الحبش من خليج بني وائل مما يلي باب مصر من الجهة القبلية)[1].

أما بالنسبة للطوائف غير المسلمة؛ فمن الملاحظ أن المقريزي لم يشر لتقسيم خاص بهم، مما يؤكد أن التقسيم كان يعم جميع الناس بما فيهم طائفة اليهود وطائفة النصارى، اللهم إلا فيما ألزموا به من الشروط العمرية التي أخذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عليهم في الملابس والمساكن وإخفاء شعائرهم، وكان السلاطين من آن لآخر يجددون أخذ ذلك عليهم[2]، وقد أثرت هاتان الطائفتان في المجتمع المصري وتأثروا به، فيذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م)، وكذلك ابن إياس في حوادث سنة (٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)، أن مع نقصان مياه الفيضان والخوف من المجاعة، خرج المسلمون للاستسقاء وخرج اليهود والمسيحيون معهم[3].

وكان لبعض عادات اليهود تأثير على بعض شرائح المجتمع المصري فقد أشارت بعض المصادر من أن بعض نساء المسلمين اعتدن عدم شراء السمك أو

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص٣٢٩.

(٢) كما ذكر ذلك السيوطي في حسن المحاضرة، ج٢/ ص ٢١١، ٢١٢؛ والمقريزي في السلوك، ج٢/ ص ٢٢٢، ٢٢٨، ٩٢٤، ٩٢٥؛ والقلقشندي في صبح الأعشى، ج١٣/ ص ٢٦٣، وانظر: قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص١٠٤، ١٠٥.

(٣)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٧/ ص ٢٠٦، ٢٠٧؛ ابن إياس: بدائع الزهور،ج١/ ص٢٢٩.

أكله أو إدخالـه البيـوت يـوم الـسبت، كـذلك بالنـسبة لـدخول الحـمام أو شراء الصابون وغسل الثياب، فإن بعض النسوة حرمن فعل ذلك يوم السبت[1]

أما بالنسبة للنصارى فقد كان لهم تأثير كبير على كثير من عـادات وتقاليـد المجتمع المصري فعلى سبيل المثال اعتادت بعض النسوة على عمل عصيدة موافقـة للنصارى في مولد عيسى عليه السلام، واعتقادهم أن من لا يفعلها أو يأكل منهـا في ذلك اليوم يشتد عليه البرد طيلة السنة[2].

وقد عمل اليهود في المهن التي تدر عليهم أموالاً طائلـة كـصياغة الـذهب والتجارة والطب[3]، وأما النصارى : فبالإضافة إلى عملهم في كافـة الأعـمال فقـد كانت تأتيهم المساعدات المالية والعينية من الدول الصليبية والمـسيحية مـن جميـع أرجاء العالم![4] ، وقد مارس اليهود والنصارى شعائرهم الدينية داخـل كنائـسهم ومعابدهم في كافة أقاليم مصر، فيذكر المقريزي أن الكنـائس كثـرت في الـصعيد، حيث أحصى منها ٨٢ كنيسة[5].

وأما اليهود فكانوا أقل من النصارى بكثير، حيث لم يـشر المقريـزي سـوى إلى أحد عشر معبداً يهودياً في القاهرة والفسطاط والأقاليم كلها[6].

---

(١) ابن الحاج: المدخل، ج١،/ ص٢٠١.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص٢٧٠.

(٣) قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر، ص٣٣.

(٤) فايز نجيب إسكندر: مصر في كتابات الحجاج الروس، ص ٥٦ـ ٥٧.

(٥) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص ٥١٠ـ ٥١٨.

(٦) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص ٤٦٣؛ العبادي: تاريخ الإسكندرية عبر العصور، ص ١٢٢.

* الأوضاع العلمية في عهد المماليك البحرية:

أَثْرت الحركة العلمية في هذا العهد بصورة كبيرة ولاسيما مع كثرة الاتجاهات الفكرية التي نشطت وصار لها صولات وجولات آنذاك، وفيما يلي لمحة عن هذه الحركة العلمية متمثلة في علماء هذا العصر وأشهر مدارسه ومناصب العلماء فيه. ولقد نبغ عدد من العلماء في هذا العصر في شتى العلوم ففي مجال التفسير وعلومه نبغ منهم: عز الدين بن عبد السلام (٦٦٠ هـ/ ١٢٦١م)، سلطان العلماء. جمع بين فنون العلم من التفسير والحديث والفقه واختلاف أقوال الناس وأخذهم وبلغ رتبة الاجتهاد ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد وصنف التصانيف المفيدة[1]، فمنهم أبو حيان أثير الدين العالم النحوي المفسر الأندلسي، صاحب التفسير الكبير، له اليد الطولي في التفسير والحديث وتراجم الناس[2]، وبرز جمال الدين محمد بن سليمان المعروف بابن النقيب، (ت٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م)، صنف تفسيرا كبيرا إلى الغاية ذكر فيه أسباب النزول والقراءات والإعراب واللغات والحقائق بلغ خمسين مجلداً أو قيل ستين مجلداً[3].

وفي الحديث وعلومه نبغ ابن الزملكاني، الدماميني، شرف الدين عبد المؤمن بن خلف الحافظ (ت٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م) العلامة النسابة المشهور، كان حافظ زمانه وإمام أهل الحديث المجمع على جلالته، له أكثر من عشرين مجلداً من تصانيفه في

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨/ ص ٣٠٠.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٤/ ص ٣٣٨؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦/ ص ١٤٤.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨/ ص ٤٤١.

الحديث واللغة وجمع معجم شيوخه في أربعة مجلدات[1]، وهناك الحافظ عبد الغني المقدسي الإمام الحنبلي (ت٧١٠ هـ / ١٣١٠م)، والذي وصف بأنه كان أمير المؤمنين في الحديث [2].

وأما الفقه فقد ظهر عددٌ من الفقهاء في هذا العصر منهم الشيخ عبد الوهاب بن خلف المشهور بـ ابن بنت الأعز (ت٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥م) الفقيه الشاعر البارع الخطيب رئيس القضاة بالديار المصرية، وتولى مشيخة الشيوخ والوزارة[3]، ومنهم ابن الرفعة نجم الدين أحمد بن محمد بن علي المصري الشافعي (ت٧١٠هـ/ ١٣١٠م) من الفقهاء الذين ضرب بهم المثل، قال ابن حجر: وإذا أطلق الفقيه انصرف إليه من غير مشارك، مع مشاركة في العربية والأصول، وندب لمناظرة ابن تيمية، فسئل عنه بعدها، فقال: رأيت شيخاً تتقاطر فروع الشافعية من لحيته[4]، وبرز كذلك تقي الدين محمد بن مجد الدين علي بن وهب المنفلوطي الفقيه الشافعي ابن دقيق العيد رئيس القضاة (٧١٢ هـ / ١٣١٢م) قال فيه عز الدين بن عبد السلام: (ديار مصر تفخر برجلين في طرفيها: ابن المنير بالإسكندرية وابن دقيق العيد بقوص)[5]، وهناك تقي الدين علي بن عبد الكافي السبكي (٧٥٦ هـ / ١٣٥٥م) العالم المحدث القاضي الفقيه، قال عنه ابن حجر: (كان أنظر من رأيناه من أهل العلم، ومن أحبهم للعلوم وأحسنهم كلاماً في

---

[1] الكتبي: فوات الوفيات، ص ٣٨ ـ ٣٩ ؛ الشوكاني: البدر الطالع ، ج١ / ص٤٠٤.

[2] الذهبي: تذكرة الحفاظ ، ج ٤ / ص ١٣٧٤.

[3] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٧ / ص ٢٢٣ .

[4] ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج ١ / ص ٢٨٥ ؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج٦ / ص٢٢ .

[5] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج ٨/ ص٢٠٧،ابن العماد الحنبلي:شذرات الذهب، ج ٦/ ص٣٤.

الأشياء الدقيقة،وأجلدهم على ذلك، وكان في غاية الإنـصاف والرجـوع إلى الحـق في المباحث ولو على لسان آحاد الطلبة[1].

ومن علماء العربية ابن الحاجب عـثمان بـن عمـر (ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) صاحب الكافية في النحو والشافعية في التصريف[2]، ومحمد بن سـالم بـن نـصر الله بن سالم بن واصل التميمي الشافعي (ت ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)[3].

ومن علماء التاريخ شمس الدين بن محمد بـن أحمـد بـن عـثمان بـن قـايماز (ت٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م)[4].

ومن أطباء هذا العصر عماد الدين محمد بن عباس الدنيسري (ت٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)[5]، وعلاء الدين علي بن أبي الجرح ابن النفيس الدمشقي وشـيخ الـديار المصرية في الطب (ت ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨م) [6].

❋ الجوامع ودورها في تنشيط الحركة العلمية:

لم يقتصر دور المسجد في الإسلام على مجـرد أداء الـصلوات الخمـس ، بـل تجاوز ذلك فصار مؤسسة اجتماعية تربوية لم تعرف الدنيا لها مثيلا، إذ يعد المسجد النواة الأولية لبث الدعوة الإسلامية ولا أدل على أهميته من أن الرسول ﷺ أول ما

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ،ج ١٤/ ص١٨٣.

(٢) الذهبي: سير علام النبلاء،ج ٢٣/ ص٢٦٦.

(٣) الذهبي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، ج١ / ص ٧٥.

(٤) الذهبي: ذيل تذكرة الحفاظ، ص ١٣.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة ،ج ٤ / ص ٣٤٣ .

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٧ / ص ٣٧٧.

قدم المدينة قام ببناء المسجد النبوي، فأصبح مدرسة المسلمين الأولى، فكان مكاناً للدراسة والسماع والإملاء والوعظ والمناظرات، وقد ذكرت المصادر التاريخية الكثير من المساجد وحلقات العلم التي كانت تدار فيها، والعلماء الذين لازموا التدريس بها[1]، ومن أشهر مساجد القاهرة في هذا العصر:

ـ الجامع الأزهر: أنشأه جوهر الصقلي عام (٣٥٨هـ/ ٩٦٨م) ليكون جامعاً ومدرسة، وقد شهد المسجد إقبالاً من قبل العلماء وطلبة العلم على مر العصور، أولت الدولة المملوكية عنايتها بالمسجد، فكان يدرس فيه الفقه على المذاهب الأربعة، إضافة إلى الحديث والتوحيد وعلوم اللغة العربية والفلك والحساب والجبر، وكان الطالب يلتحق بالأزهر بعد أن يتعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب وحفظ القرآن دون التزام بسن معينة ليتردد على حلقات العلماء ويختار ما يريد من العلماء القائمين على التدريس[2]، وكان الطالب غير ملتزم بالانتظام في الدراسة؛ فقد ينقطع عنها لفترة ثم يعاودها، ولم تكن هناك لوائح تنظيمية تنظم سير العمل أو تحدد المناهج والفرق الدراسية وسنوات الدراسة، والطالب لو أصبح مؤهلاً للتدريس استأذن المشايخ وقعد للدرس، فإذا لم يجد فيه الطلاب ما يرغبون من علم، انفضوا عنه وتركوا حلقته، أما إذا التفوا حوله

---

(١) الوشلي: المسجد ودوره التعليمي عبر العصور، ص٢٢، ٢٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج٥/ ص ٣٨٧؛ السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر، ج١/ ص ٢٩٩؛ عبد الله سالم نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة، ص ٩٢.

ولزموا درسه ووثقوا فيه، فتلك شهادة بأهليته للتـدريس، فيجيـزه شـيخ الأزهـر ويحصل على شهادة الإجازة في التدريس[1].

ـ مسجد أحمد بن طولون: أنشأه مؤسس الدولة الطولونية بمصر أحمد بـن طولون عام (٢٦٣هـ/ ٨٧٦م)، وكان بمثابة جامعة تدرس بـه المـذاهب الفقهيـة الأربعة وكذلك الحديث والطب إلى جانب تعليم الأيتام[2].

ـ جامع عمرو بن العاص: هو أول مسجد بنـي في مـصر بعـد فتحها،كـان يسمى أيضا بمسجد الفـتح والمـسجد العتيـق، وممـن ألقـى فيـه دروسـا وخطبـا ومواعظ الإمامُ الشافعي والعزُ بن عبد السلام[3].

❋ المدارس ودورها في تنشيط الحركة العلمية في هذا العصر:

اعتنى السلاطين المماليك ببناء المدارس، ونافسهم في ذلـك كبـار القـوم والعلماء، وكانت هذه المدارس تضم قاعات للدرس إضافة إلى خزانة للكتـب ، و سكن للطلاب، وبعضها حوت سكناً للمعلمين، وكان يـصرف عليهـا مـن قبـل

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١/ ص ٣١٠؛ علي مبارك: الخطط التوفيقية ، ج١/ ص ١٩، ٢٠؛ أحمد محمد عوف: المسجد الأزهر في ألف عام، ص ٤٥ـ ١٢٠.

(٢) المقريزي: المواعظ و الاعتبار، ج ٢ / ص٢٦٥ – ٢٦٩.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر القاهرة، ج١/ ص ٢٩٥؛ سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، ص٧٨.

الوقف، ويدرس بها العلوم الشرعية واللغوية وغيرها[1].و سأذكر من هذه المدارس ما اشتهر في فترة البحث:

ـ المدرسة الفاضلية: أنشأها القاضي الفاضل عبد الرحيم البياني في سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، وأوقفها على طائفتي الفقهاء من الشافعية و المالكية، و جعل فيها قاعة للإقراء، و أوقف عليه نحو مائة ألف مجلد في مختلف العلوم [2].

ـ دار الحديث الكاملية: و تعرف بالمدرسة الكاملية نسبة لمنشئها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل أبي بكر الأيوبي سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، وقد أوقفها على المشتغلين بالحديث النبوي، ثم من بعدهم لفقهاء الشافعية، وكان طلبة هذه الدار يتقاضون أجراً كما اشترط الواقف المبيت فيها[3]

ـ المدرسة الصالحية: بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)، ورتب فيها دروساً أربعة لفقهاء المذاهب الأربعة[4].

ـ المدرسة الظاهرية: بناها السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م)، وجعل فيها خزانة كتب جليلة، وبنى بجانبها كتاباً لتعليم الصبيان،

---

(١) عن المدارس في العصر المملوكي انظر: أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها؛ عدنان الحارثي: عمارة المدرسة في مصر والحجاز.

(٢) المقريزي: المواعظ و الاعتبار، ج٢ / ص٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة، ج٣/ ص٢٠؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج ٢ / ص٢٦٢ - ٢٦٥ .

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٣٧٤.

وقرر لمن فيها من أيتام المسلمين الأرزاق والكسوة، وكان يدرس فيها الفقه الحنفي والشافعي إضافة إلى علم الحديث والقراءات[1].

ولقد حفل العصر المملوكي بالعديد من مظاهر التعليم كخزائن الكتب والوراقة وحركة التأليف وما أفرزته من نتاج علمي غزير وفيما يلي بيان ذلك:

❊ خزائن الكتب في هذا العصر ودورها في تنشيط الحركة العلمية:

لقد اقترن النشاط العلمي في عصر المماليك البحرية بحركة أخرى نشطة في ميدان خزائن الكتب أو ما يعرف في وقتنا الحاضر بالمكتبات ، وقد تنوعت ما بين العامة التي تتبع المساجد والمدارس أو الخاصة التي تخص رجال الدولة والعلماء ، والتي تضم الكثير من الكتب النفيسة في علوم التفسير والفقه والحديث والعقيدة واللغة وآدابها والتاريخ والسير وغير ذلك، ويقوم بالإشراف عليها مشرفون وخزنة وخدام، وقد توفر بها الورق والحبر في قاعات رتبت لتصبح مواضع للمطالعة والنسخ[2]، كما كانت تحتوي على فهرس يضم قائمة بأسماء الكتب والمؤلفات وأماكن وجودها على الأرفف ليسهل تناولها واستخدامها للباحثين والدارسين، أما موارد الكتب الوافدة على الخزائن فكانت تأتي بعدة طرق منها الشراء أو الوقف أو الهبة، أو الإهداء[3].

❊ الوراقون في هذا العصر ودورهم في تنشيط الحركة العلمية:

---

(1) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٣/ ص٢٤٢.

(2) النشار: تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي، ص١٣٧ ـ ١٧٨.

(3) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص١٥٠ـ ١٧٥.

لقد كان للوراقين دور كبير في نشر المعرفة في العصر المملوكي من خلال ما قدموه من خدمات سواء تلك التي تتعلق بالكتاب ونشره أو ما يتعلق بأدوات ومستلزمات الكتابة وتوفيرها للقراء، وكانت لهم أسواق معلومة يصفون فيها حوانيتهم التي يكتبون فيها ويبيعون بها الكتب، فيقصدهم من يحتاج كتاباً أو يكلفهم بالبحث عنه ونسخه، كما كانت أماكنهم مركزاً للأبحاث ، ومجمعاً للعلماء والأدباء ومحب العلم والكتب[1].

---

(١) صبح الأعشى: القلقشندي، ج٢/ ص٤٤٣.

الفصل الأول

الأوضاع الدينية وأثرها على الحياة العلمية

ويشتمل على:

- **المبحث الأول: الطوائف الدينية وأثرها على الحياة العلمية.**

- **المبحث الثاني: العلاقة بين السلاطين والطوائــف الدينية وأثرها على الحياة العلمية.**



المبحث الأول
الطوائف والفرق الدينية

ظهور الطوائف والفرق في المجتمعات عادة تحكمه عدة عوامل سياسية وثقافية واجتماعية ودينية، وغير ذلك.

والذي يهمنا في بحثنا هو دراسة الفرق والطوائف المنتشرة في العصر المملوكي الثاني، لمعرفة تأثيرها على الحياة العلمية.

وقد اتسم العصر المملوكي الثاني بالعديد من الشرائح الاجتماعية ذات التوجهات الدينية، التي كانت سائدة في الدولة المملوكية الأولى، ولعل أبرزها كانت شريحة علماء السنة الذين عملوا على تأكيد هوية الدولة السنية، وانحسار التشيع.

فإن مصر لما تحولت إلى السنة بعد حكم الإسماعيلية لها أكثر من قرنين ونصف من الزمان، ظهرت فيها المذاهب السنية الفقهية، وأرسى قواعدها انتشارُ المدارس السنية والتي أوقفت عليها الأوقاف الكثيرة فكانت رافداً مهماً لانتشار المذهب السني، على أنقاض المذاهب الشيعية، وَاكَبَ ذلك ازدياد وانتشار طوائف المتصوفة حيث كان التصوف يُنظر له أحياناً على أنه حركة زهادية تواجه موجات الترف في هذا العصر، كما إن بعض من تأثر بالتشيع إبان دولة العبيديين وجد ملاذه في التصوف، للعلاقة الفكرية بين التصوف والتشيع في بعض الأمور.

ولما كان العصر المملوكي الثاني قد ازدادت علاقاته السياسية والتجارية مع أوروبا، فإن ذلك أوجب نوعاً من التغير في النظرة لطائفة أهل الذمة، ولاسيما بلوغ كثير منهم مناصب في الدولة لتسامح أو تهاون بعض الأمراء، أو لضغوط سياسية أو اجتماعية أخرى.

وأعرض فيما يلي حال هذه الشرائح وأثرها على الحركة العلمية.

أولا: التشيع في مصر:

فتحت مصر سنة عشرين للهجرة، في زمن عمر بن الخطاب، ومنذ ذلك التاريخ أصبح الدين الغالب على أهلها الإسلام، وانتشرت فيها مذاهب أهل السنة والجماعة، وكان المذهب الشافعي[1] والمالكي[2] الأكثر انتشاراً بمصر[3]، والتي بقيت سنية المذهب حتى جاء الفاطميون وحاولوا جاهدين في نشر المذهب الشيعي[4]، والذي لم تعتنقه إلا القلة من سكان مصر[5]، ولكنه أثر كثيراً على عاداتهم وسلوكياتهم الثقافية والاجتماعية حتى عصرنا الحاضر، وقاموا بإنشاء الجامع الأزهر، وكان يعتبر

---

(١) المذهب الشافعي: نسبة إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي، وقد سموا بأصحاب الحديث، لأن عنايتهم بتحصيل الحديث، ونقل الأخبار، وبناء الأحكام على النصوص فقط لا غير، ولا يرجعون إلى القياس الجلي والخفي، ولا يحتجون بالمراسيل أو عمل أهل المدينة، وأقوال الصحابة، وقد انتشروا في مصر والعراق والشام وخراسان واليمن والحجاز،ومن أشهر كتب المذهب "الأم" للإمام الشافعي. الشهرستاني: الملل والنحل، ص ١٧.

(٢) المذهب المالكي: نسبة إلى الإمام مالك بن أنس، وهم أيضاً سموا بأصحاب الحديث كالشافعيين، وأهم كتبهم "الموطأ" للإمام مالك بن أنس، وقد انتشر المذهب في الحجاز والمغرب والأندلس وصعيد مصر والسودان. الشهرستاني: الملل والنحل، ص ١٧٠.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص ٣٣٩.

(٤) المذهب الشيعي: ويطلق على الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته، نصاً ووصية، إما جلياً وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو تقية من عنده، ثم تطور الأمر حتى أصبحت فرقاً عقائدية وسياسية، متباينة ومغايرة تماماً لمذهب أهل السنة والجماعة. الشهرستاني: الملل والنحل، ص ١١٧.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١/ ص٣١؛ عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، ص ١٧.

أول مسجد أسس بالقاهرة[1]، وقاموا بوقف كثير من أرباع مصر عليه، وأجروا لعلمائه المنافحين عن المذهب الشيعي المعاليم والأرزاق الشهرية والسنوية، تشجيعاً منهم على مواصلة تعليم الطلبة المذهب الشيعي، وبالتالي نشره في بقية أرجاء العالم الإسلامي، حتى جاء صلاح الدين الأيوبي[2]، وقام بإزالة الدولة الفاطمية، وعزل قضاة الشيعة[3]، وبنى بمصر مدرسته للفقهاء المالكية وسميت بـ (المدرسة القمحية)[4]، ومدرسة للفقهاء الشافعية وسميت (المدرسة الناصرية)[5]، وقد كانت الحنفية قليلة الانتشار بمصر فابتنى لهم (المدرسة السيوفية) [6] بالقاهرة، وما زال مذهبهم ينتشر ويكثر

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٤/ ص ٥١.

(٢) صلاح الدين الأيوبي: هو السلطان صلاح الدين الملك الناصر أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شادي ابن مروان بن يعقوب الدويني الأصل، مؤسس الدولة الأيوبية، ولد بقلعة تكريت في سنة ٥٣٢هـ، وتوفي بقلعة دمشق في صفر سنة ٥٨٩هـ. ابن شداد: المحاسن اليوسفية، ص ٣٦٣؛ ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥/ ص ٤.

(٣) المقريزي: الخطط ، ج٣/ ص ٤٠٥.

(٤) المدرسة القمحية: تقع بجوار الجامع العتيق بمصر، أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي لتكون مدرسة لفقهاء المالكية، وسميت بالقمحية لأنه أوقف عليها ضيعة بالفيوم، وكان محصولها القمح الذي يفرق على فقهائها. المقريزي: الخطط، ج٤/ ص ٢٠١.

(٥) المدرسة الناصرية : وعرفت في عصر المماليك بمدرسة (زين التجار) وهو أبو العباس أحمد بن المظفر بن الحسين الدمشقي، أحد أعيان الشافعية، درس بهذه المدرسة مدة طويلة، ثم عرفت بالمدرسة الشريفية حتى عصر المماليك الجراكسة. المقريزي: الخطط، ج٤/ ص ٢٠٠.

(٦) المدرسة السيوفية: بنيت في القاهرة، وعرفت بالسيوفية لأنها أنشئت على باب سوق السيوفيين، وقفها السلطان صلاح الدين على الحنفية، وتعتبر أول مدرسة وقفت على الحنفية بالديار المصرية، ولم تزل كذلك حتى عصر المماليك الجراكسة. المقريزي: الخطط، ج٤/ ص ٢٠٤.

أتباعهم منذ تلك الفترة[1] وقد قام السلطان صلاح الدين الأيوبي بإحياء مذاهب أهل السنة والجماعة بمصر وإعادتها كسابق عهدها، قبل دخول الفاطميين لمصر، ونجح في ذلك، وعادت القاهرة مركزاً يشع في أرجاء المعمورة[2] بالعلم الشرعي السني الصحيح.

انحسار التشيع في العصر المملوكي:

عند قيام دولة المماليك أمر السلطان الظاهر بيبرس (ت٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م) بإتباع المذاهب السنية الأربعة، وتحريم ما عداها، كما أمر ألا تقبل شهادة أحد، ولا يرشح لإحدى وظائف الخطابة أو الإمامة أو التدريس ما لم يكن معتنقاً لإحدى هذه المذاهب[3] وبالتالي حافظ المماليك على نهج أسلافهم الأيوبيين في الاهتمام بالعلم الشرعي السني الصحيح، وقاموا ببناء المدارس والإنفاق عليها، ورعاية العلماء وصرف مرتبات شهرية، ومكافآت سنوية لهم، لتحفيزهم في تعليم الطلبة حتى أصبحت القاهرة مركز جذب لطلاب العلوم الشرعية والعربية من كل أنحاء البلاد الإسلامية، وبالتالي سيطرت الروح الشرعية السنية بمذاهبها على عقول علماء ذلك العصر، وقد استمر التنديد بالرفض والرافضة منذ العهد المملوكي الأول، حتى إن قاضي القضاة الحنبلي عزر الشيخ الطوفي (٧١٦هـ/ ١٣١٦م) ، رغم أنه من كبار الحنابلة لما شهد عليه بالرفض[4]، قال ابن رجب: (وكان يشارك في علوم،

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٤/ ص ١٦٦.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٤/ ص ١٦٧.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٤/ ص ١٦١.

(٤) وكان الطوفي يقول عن نفسه: (حنبلي رافضي ظاهري ... أشعري هذه إحدى الكبر)، ويقال إنه تاب أخيراً من الهجاء والرفض..انظر الصفدي: أعيان العصر وأعوان النصر، ج١، ص ٤٧٨.

ويرجع إلى ذكاء وتحقيق...، إلا أنه كان قليل النقل والحفظ، واشتهر عنه الرفض، والوقوع في أبي بكر وابنته عائشة رضي الله عنهما، وفي غيرهما من جملة الصحابة رضي اللهّ عنهم، فرفع أمر ذلك إلى قاضي قضاة الحنابلة سعد الدين الحارثي، وقامت علية بذلك البينة، فتقدم إلى بعض نوابه بضربه وتعزيره وإشهاره، وطيف به، ونودي عليه بذلك، وصرف عن جميع ما كان بيده من المدارس، وحبس أياماً، ثم أطلق)[1].

واستمر الأمر على ذلك طيلة العصر المملوكي الثاني، وصار الأمر إلى أن يشهد على أحدهم بالرفض حتى يكون هذا مدعاة إلى تعزيره ونفيه وربما قتله، حسب ما يرسم به القضاة السنيون، وحسب الجرم وتفاصيل القضية.

ومن الأمثلة على ذلك: علي بن عبد القادر المراغي الصوفي (ت٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م) اشتغل في بلاده ومهر في الفقه والأصول والطب والنجوم وفاق في العلوم العقلية، وقام عليه جماعة من أهل خانقاه السميساطية[2] وكان صوفياً بها، فشهدوا عليه بالاعتزال، وكان ينسب إلى الرفض، فاستتيب بعد أن عُزِّرَ[3]، بينما كان محمد بن مكي العراقي عارفا بالأصول والعربية لكنه على الرفض ومذهب النصيرية سنة

---

(١) ابن رجب الحنبلي: ذيل طبقات الحنابلة ، ج١/ ص ٢٩١.

(٢) الخانقاه السميساطية: نسبة للسميساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي الحبشي من أكابر الصوفية بدمشق، توفي بها سنة (٤٥٣هـ).النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ج٢/ ص١١٨.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ / ص١٢١؛ السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج٢/ ص٨٨.

(٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)[1]، وصار هذا الأمر هو السائد حتى عند الأمراء، ومنهم من انتسب للعلم مثل الأمير ناصر الدين أبي المعالي محمد بن الملك الظاهر جقمق الجركسي الأصل القاهري الحنفي (ت٨٤٧ هـ/ ١٤٤٤م) ولد بالقاهرة؛ وقرأ بها القرآن وحفظ كتباً واغتبط بمحبة العلم والعلماء وقربهم وأحسن إليهم، عرف بكثرة إنكاره على ما لا يليق بالشرع وشدة بغضه للبدع وعيبه لمن يفعلها سيما الرافضة[2].

وقد أثرت هذه النظرة على الحركة العلمية من جهتين:

الجهة الأولى: انتشار مذاهب أهل السنة ومؤلفاتهم، وهو ما ستتم دراسته لاحقاً.
الجهة الثانية: استمرار التصنيف في الرد على الرافضة وفضح عوارهم. فممن صنف في الرد عليهم: غياث الدين محمد بن محمد البغدادي الشافعي المعروف بابن العاقولي ت ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م)، صنف مجلداً في الرد على الرافضة[3].

ثانياً: أهل السنة والجماعة:

مذهب السلف: يطلق على الطريقة التي كان عليها القرون المشهود لهم بالخيرية في قوله ﷺ ((خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم))[4].

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص ١١٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع ، ج٣ / ص٥٠٠؛ الزركلي : الأعلام ، ج٦ / ص٧٣.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٦/ ص٣٥٠؛ ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية، ج٣ / ص ١٧٨.

(٤) أخرجه البخاري،ج ٥ / ص ١٩٩؛ ج ٧ / ص ٦ ؛ و مسلم ، ج ٧ / ص١٨٤ - ١٨٥ .

ومذهب أهل السنة والجماعة: هو مذهب الصحابة ليس مذهبًا حادثًا ولا فكرًا بشريًا[1]،ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنة والجماعة[2].

وبالتالي فأهل السنة والجماعة هم: سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ومعتقدهم هو الاعتقاد الثابت عن النبي ﷺ، وهذا هو مقتضى الحديث آنف الذكر: ((خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم))، فمذهب أهل السنة والجماعة هو الصراط المستقيم، الذي أُمر المسلمون جميعًا بسلوكه واتباعه.

وهذا الأمر مع وضوحه، إلا أنه لم يكن له كبير مردود على مصر المملوكية لسطوة الأشاعرة وحماية الدولة لذلك، ولم يكن مذهب أهل الحديث مشتهراً، فعلى الرغم من الفكر السني الذي جدد نشاطه شيخ الإسلام ابن تيمية في العهد المملوكي الأول والذي بقي صداه إلى يومنا، إلا أنه بقيت معارضة قوية لما طرحه ابن تيمية في العصر المملوكي الثاني، ولعل أكبر الدوافع لذلك هو معارضة الدولة لهذه الآراء، وتسلط المذهب الأشعري على المناصب الدينية منذ الأيوبيين[3].

---

(١) الشميري: مفهوم أهل السنة والجماعة ، ج ١/ ص٨ – ١١.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة ، ج٢/ ص٦٠١.

(٣) يقول المقريزي: (وأما العقائد؛ فإن السلطان صلاح الدين حمل الكافة على عقيدة الشيخ أبي الحسن عليّ بن إسماعيل الأشعري، وشرط ذلك في أوقافه التي بديار مصر، فاستمرّ الحال على عقيدة الأشعري بديار مصر وبلاد الشام وأرض الحجاز واليمن وبلاد المغرب، حتى أنه صار هذا الاعتقاد

ولهذا ظل مذهب السلف موضع خفاء عند الكثيرين، بل وصار لا يعرف إلى من خلال محبي شيخ الإسلام ابن تيمية، ولذا نجد في تراجم علماء الدولة المملوكية الثانية من يورد في ترجمته محبته لابن تيمية **وكأن ذلك من الاتهام له،** ومن هؤلاء:

عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي الحافظ زين الدين بن رجب (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) ولد ببغداد وسمع بمصر، وكان صاحب عبادة وتهجد ونقم عليه إفتاؤه بمقالات ابن تيمية ثم أظهر الرجوع عن ذلك فنافره التيميون فلم يكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء وكان قد ترك الإفتاء بأخرة)[1].

ويضيف ابن فهد: (وعند ابن رجب بعض نزعات إلى شواذ ابن القيم وشيخه في مؤلفاته وإن أظهر الرجوع عنها فلعل ذلك فيما ألّفه قبل فتطالع كتبه على حيطة)[2].

وهناك أبو بكر بن علي بن يوسف الهاشمي الحسني الموصلي نزيل القاهرة اشتغل كثيرا وكان يميل إلى المذهب الظاهري وامتحن بسبب ذلك مرة وكان يحفظ شيئا من البخاري بأسانيده وكثيرا من كلام ابن تيمية وكان فقيرا قانعا

بسائر هذه البلاد، بحيث أن من خالفه ضرب عنقه، والأمر على ذلك إلى اليوم). المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ٨٤.

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ / ص١٧٤.

(٢) ابن فهد المكي: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، ج١ / ص١١٩.

ملازما للصلاة والعبادة حسن السمت يتكلم على الناس بالجامع الحاكمي مات في سنة (٨١٥هـ/ ١٤١٢م)[١].

أما أحمد بن عبد الله المالقي الناسخ فذكر المؤرخون أنه كان شافعي المذهب إلا أنه يحب ابن تيمية ومقالاته وكان حسن الخط كتب ثلاثمائة مصحف وعدة نسخ من صحيح البخاري. مات سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٤م)[٢].

وكذلك خالد بن قاسم بن محمد أبو البقاء الشيباني الحلبي، أحب مقالة ابن تيمية، نزل القاهرة؛ ولم يزل بها حتى توفي سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م) ودفن بالقرافة[٣].

وأيضاً أحمد بن يوسف المرداوي الحنبلي؛ وكان فقيهاً نحوياً حافظاً لفروع مذهبه مفتياً، قال بعضهم لا يعاب بأكثر من ميله لابن تيمية في اختياراته. توفي في صفر سنة (٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م)[٤].

حتى إن عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، وهو من كبار العلماء لما لخص بعض مؤلفات ابن تيمية تعرض للوم الشديد، فيذكر السخاوي ذلك فيقول في ترجمته: (أبرز جزءاً له في تحريم المنطق جرده من مصنف لابن تيمية فقام عليه الفضلاء بحيث كفه العلم البلقيني عنه وأخذ ما كان

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ / ص٤٠٠.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ / ٤١٦؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١ / ص٢٣٩.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٢ / ص ٨٨.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج١ / ص٤٢٥.

استكتبه به في المسألة ولولا تلطفي بالجماعة كالابناسي وابن الفالاتي وابن قاسم لكان ما لا خير فيه)[1].

هذا غير من كان يصرح بمخالفته لشيخ الإسلام، أمثال: أحمد بن عمر بن عثمان بن علي الشهاب(ت٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م)، وكان عالماً صالحاً ديناً مصرحاً بالحط على الطائفة العربية[2] بل وأتباع ابن تيمية بحيث أنه قال مجيباً لمن سأله عن اعتقاده من المخالفين له: اعتقادي زيتونة مباركة لا غربية ابن عربي ولا شرقية ابن تيمية [3].

بل تعدى الأمر إلى من صرح بتكفير شيخ الإسلام ابن تيمية، وعلى رأسهم مثير الفتنة محمد بن محمد أبو عبد الله البخاري الحنفي[4]، ولعله من المناسب أن أقف مع هذه الفتنة قليلاً.

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع ، ج٢ / ص٢٣١.

(٢) أي أتباع ابن عربي الحاتمي، وهم أصحاب وحدة الوجود، وهي عقيدة إلحادية مفادها أنه لا شيء إلا الله،وكل ما في الوجود يمثل الله عز وجل لا انفصال بين الخالق والمخلوق، وأن وجود الكائنات هو عين الله تعالى ليس وجودها غيره ولا شيء سواه البَّتة، انظر إلى هذه العقيدة بالتفصيل: العواجي: فرق معاصرة، ج٢، ص٨٤٧..

(٣) السخاوي: الضوء اللامع ، ج١ / ص ٢٧٩.

(٤) محمد بن محمد بن محمد بن العلاء أبو عبد الله البخاري العجمي الحنفي كان يسلك طريقاً من الورع فيسمج في أشياء يحمله عليها بعده عن معرفة السنن والآثار وانحرافه عن الحديث وأهله بحيث كان ينهى عن النظر في كلام النووي ويقول هو ظاهر ويحض على كتب الغزالي وأغلق أبواب المسجد الحرام بمكة مدة حجه فكانت لا تفتح إلا أوقات الصلوات الخمس ومنع من نصب الخيام وإقامة الناس فيه أيام الموسم وأغلق أبواب مقصورة الحجرة النبوية ومنع كافة الناس من الدخول إليها

يحدثنا ابن حجر عن هذه الفتنة التي ثارت بين الحنابلة والأشاعرة بدمشق والتي وصل صداها إلى القاهرة، في شأن الصراع حول الآراء السلفية التي نادى بها ابن تيمية، قال: (وفي هذه السنة (٨٣٥هـ) ثارت فتنة عظيمة بين الحنابلة والأشاعرة بدمشق وتعصب الشيخ علاء الدين البخارى نزيل دمشق على الحنابلة، وبالغ في الحط على ابن تيمية وصرح بتكفيره فتعصب جماعة من الدماشقة لابن تيمية وصنف صاحبنا الحافظ شمس الدين ابن ناصر الدين جزءا في فضل ابن تيمية وسرد أسماء من أثنى عليه من أهل عصره فمن بعدهم على حروف المعجم مبينا لكلامهم وأرسله إلى القاهرة فكتب له عليه غالب المصريين بالتصويت وخالفوا علاء الدين البخاري في إطلاقه القول بتفكيره وتكفير من أطلق عليه أنه شيخ الإسلام وخرج مرسوم السلطان على أن كل أحد لا يعترض على مذهب غيره ومن أظهر شيئا مجمعا عليه سمع منه وسكن الأمر)[1].

وممن انتصر لمقولة شيخ الإسلام الشيخ: قاضي طرابلس ابن الحمصي عمر بن موسى القرشي المخزومي القاهري الشافعي، نظم قصيدة تائية تزيد على مائة بيت في إنكار تكفير العلاء البخاري لابن تيمية وموافقته لبعض علماء مصر فيما أفتوا به من مخالفته وتخطئته في ذلك وفيها أن من كفر ابن تيمية هو الكافر[2].

وكان يقول: ابن تيمية كافر وابن عربي كافر، فرد فقهاء الشام ومصر قوله في ابن تيمية وجمع في ذلك المحدث ابن ناصر الدين مصنفاً). السخاوي: الضوء اللامع ، ج٤ / ص ٤٦٤.

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص٥٨٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع ، ج٣ / ص٢٢٥.

وعلى الرغم من بُعد هذا الحوار على أدب العلم والعلماء إلا أنه أثار حفيظة العلماء الذين تصدوا لمثل هذه الأقوال المنحرفة عن شيخ الإسلام ، وأمثاله من العلماء المحققين الذين صنفوا المصنفات للدفاع عن أفاضل علماء أهل السنة والتنبيه إلى انحراف أفكار من ينال منهم.

مفهوم أهل السنة في العصر المملوكي:

إطلاق مصطلح (أهل السنة) يختلف بالقرائن التي تحف بالكلام، فإنه قد يطلق (أهل السنة) مقابل التشيع، فيدخل في هذا المصطلح المذاهب الفقهية السنية، وكذلك الفرق غير الشيعية كالأشاعرة والماتريدية بل والمعتزلة أيضاً.

يقول شيخ الإسلام: (والمقصود بأهل السنة والجماعة: الاصطلاح الخاص فإن للفظ أهل السنة اصطلاحين اصطلاح العامة واصطلاح الخاصة:

فأهل السنة هم أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول: إن القرآن غير مخلوق، وأن الله يُرى في الآخرة، ويثبت القدر، وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة، والاصطلاح العام: هو اصطلاح العامة: كل من ليس برافضي، قالوا: هو من أهل السنة)[1].

وفي إطلاق آخر نجد أن المراد بـ(أهل السنة والجماعة) أي أهل الحديث والأثر وأقوالهم وآراؤهم في الاعتقادات والأعمال، فتخرج فرق التشيع والاعتزال وآراء الخوارج، فيُدخل في هذا المصطلح إضافة إلى أهل الحديث كلٌّ من الأشعرية والماتريدية.

(١) ابن تيمية: منهاج السنة، ج ٢/ ص٢٢١.

وهذا الرأي الأخير كان السائد في العصر المملوكي، بل ما كانت تدرس آراء الأشعرية والماتريدية إلا على أنها أقوال أهل السنة، باعتبار أن المراد بالسنة ما سوى التشيع والمعتزلة والخوارج، ولاسيما أن المذهب الأشعري الذي كان المذهب الرسمي للدولتين الأيوبية والمملوكية، فقد كان السلطان صلاح الدين الأيوبي من معتنقي المذهب الأشعري[1]، وسار الأمر بعده في الدولة المملوكية، باعتباره مذهبَ السنة فيما ظنوه لنصرة السنن والرد على الشيعة والمعتزلة والخوارج.

وثمة مصطلح آخر لمصطلح أهل السنة، وهو أنه يطلق على المذاهب الفقهية الأربعة (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) خاصة، بل وتطلق في مقابلة التشيع على هذا، كما قال ابن تغري بردي: (ملكت العبيدية مصر فمحوا آثار السنة وولوا قضاة الشيعة وبطلوا الأربعة مذاهب من مصر إلى أن زالت دولتهم وتولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله فولى قاضياً شافعياً فقط كونه كان شافعياً، وأذهب الرافضة، واستمر ذلك نحو تسعين سنة حتى ولي الملك الظاهر بيبرس فجدد المذاهب الثلاثة)[2].

ولذا فمن المناسب اعتبار ذلك لمعرفة أثر أهل السنة على الحياة العلمية في مصر المملوكية في عهد الجراكسة.

رتب السلطان الظاهر بيبرس القضاة على المذاهب الأربعة، فقد كان القضاء أول الأمر في يد القاضي تاج الدين ابن بنت الأعز الشافعي، ولما كثرت

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص ١٦٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج٢ / ص ٢٩١.

الشكايات منه وتوقفه في كثير من الأحكام جعل قضاة أربعة من كل مذهب من مذاهب السنة الأربعة المعروفة[1]، ومن هنا بدأ الاهتمام بالمذاهب الفقهية الأربعة، فقامت المدارس والأوقاف لمساندة نشاط هذه المذاهب العلمية.

وبما أن المجتمع أصبح أقل فصاحة وفهماً وإدراكاً لمعاني اللغة العربية ، أخذ علماء الشريعة واللغة العربية وفنونها يؤلفون الكتب الشارحة للمتون، وإيجازها بعبارات تُسَهِّلُ على طالب العلم الأخذ بما ورد فيها من أحكام.

وبالتالي كثرت كتب المختصرات، والموسوعات الضخمة في كل فن وعلم[2]، إلاَّ أن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك نبوغ لعلماء استطاعوا إعادة روح الاجتهاد في نصوص الشريعة إلى سابق عهدها، بل وكان بعضهم ينبغ في أكثر من علم وفن وليس فقط في مذهبه.

وأعرض فيما يلي أهم علماء هذه المذاهب الفقهية، ونتاجهم العلمي في عصر المماليك الجراكسة:

فمن المذهب الشافعي برز شيخ الإسلام سراج الدين أبو حفص عمر بن رسلان البلقيني الكتاني الشافعي (ت ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) كان غزير العلم، أذن له بالفتيا وعمره خمسة عشر عاماً، برع في الفقه وأصوله واللغة العربية، والتفسير، وتولى القضاء عدة مرات في عهد المماليك الجراكسة، وقد انفرد في أواخر عمره برئاسة المذهب الشافعي[3]، قال عنه ابن حجر: (ناظر الأكابر، وظهرت فضائله

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣، ص٤٦٦؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٢٧٥.

(٢) محمود رزق سليم: موسوعة عصر سلاطين المماليك، ج٣/ ص ١٢٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢/ ص ٢٨١.

وبهرت فوائده، وطار في الآفاق صيته، حتى كان لا يجمع به أحد من العلماء إلا ويعترف بفضله ووفور علمه، وحدَّة ذهنه)[١]، ووصفه السخاوي بـ: (الإمام الفقيه، العالم القوي الحافظ، سريع الإدراك، طلق العبارة مع فصاحة، ذاكراً لكثير من المتون والفوائد الحديثية، وطارت فتاويه في الآفاق، وأخذ عنه الفضلاء من كل ناحية، طبقة بعد أخرى حتى صار أكثر الفضلاء من تلامذته)[٢]، ومن أشهر تصانيفه: "شرح لأحاديث الترمذي"، "شرح لعشرين حديثاً من صحيح البخاري"، "شرح الصحيح المنهاج"، ولكنه لم يكمله لوفاته[٣]، "القول المفيد في اشتراط الترتيب بين كلمتي التوحيد"، "التذكرة"[٤].

ومنهم : الفقيه الشافعي ابن الزركشي بدر محمد بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م)[٥]، قال عنه ابن العماد: (كان فقيهاً أصولياً، أديباً، فاضلاً في جميع ذلك، ودرَّس، وأفتى)[٦]، من أشهر تصانيفه: تكملة "شرح المنهاج" للأسنوي، و "خادم الشرح"، و "الروضة"، و النكت على البخاري"، و "البحر" في الأصول، و "شرح جمع الجوامع" للسبكي، و "لقطة العجلان وبلة الظمآن"، و "تخريج أحاديث الرافعي"، و "التجريد" في أصول الفقه[٧].

---

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٢/ ص ٢٤٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ ص ٣١٥.

(٣) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٧٧.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ ص ٣١٥.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٢/ ص ١٠٣.

(٦) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٨٥.

(٧) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج١/ ص ٤٤٦.

ومن علماء هذا العصر أيضاً ابن العماد شهاب الدين أحمد بن عماد بن يوسف الأقفهسي (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، قال عنه ابن حجر: (أحد أئمة الفقهاء الشافعية في هذا العصر، اشتغل قديماً وصنَّف التصانيف المفيدة نظماً وشرحاً)[1]،له العديد من المصنفات منها: "أحكام المساجد"، و"أحكام النكاح"، و "حوادث الهجرة"، وكتاب "التبيان فيما يحل ويحرم من الحيوان"، و "رفع الإلباس عن وهم الوسواس"، و "شرح حوادث الهجرة"، و "القول التام في أحكام المأموم والإمام"[2]، و "شرح المنهاج"، و "التعقيبات على المهمات"[3].

كما برز في هذا العصر شيخ الإسلام نور الدين علي بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م)، قاضي قضاة الديار المصرية، وعالمها وحافظها وشاعرها[4]، برع في الفقه واللغة العربية[5]، أخذ عنه كثير من طلاب العلم، كان كثير التأليف والتصنيف، ومن أهم مصنفاته: "تعليق التعليق"، وهو أول تصانيفه، وشرح "البخاري" في ما يقرب من عشرين مجلداً سماه: "فتح الباري"، وله: "فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في البخاري"، وله في

---

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٢/ ص ٣٣٢.

(٢) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ١٩٩.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٣٧٨.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٥/ ص ٢٥٩.

(٥) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٤٠٧.

التفسير كتاب: "تجريد التفسير من صحيح البخاري على ترتيب السور"، "طبقات الحفاظ"، و"الدرر الكامنة في المائة الثامنة"، و "إنباء الغُمر بأبناء العمر"، و "قضاة مصر"، و"الإعلام بمن ولي مصر في الإسلام"، و "تعريف الفئة بمن عاش من هذه الأمة مائة"، و "القصد الأحمد فيمن كنيته أبو الفضل وسمه أحمد"[1]، وألف كتاباً في فضائل القرآن سماه: "الإتقان"، وله "الآيات النيرات للخوارق المعجزات"، و"النبأ الأنبه في بناء الكعبة"، و "بلوغ المرام بأدلة الأحكام"، و "شرح مناسك المنهاج"، وغير ذلك من المصنفات، ولقد كانت جنازته تدل على عظم شأنه، فقد حضرها السلاطين والأمراء وأعيان الدولة والعلماء، وتزاحموا على حمل نعشه[2].

كما نبغ وبرز العديد من العلماء في المذهب المالكي منهم: أحمد بن محمد ناصر الدين الإسكندراني الزبيري (ت٨٠١هـ / ١٣٩٨م)، أحد العلماء الفضلاء، برع في الفقه واللغة العربية واشتهر في بلده الإسكندرية، وتولى قضاءها[3]، ثم ذهب إلى القاهرة، فتولى قضاء المالكية[4]، له تصانيف مفيدة منها: "شرح التسهيل"، و "مختصر ابن الحاجب"[5].

---

(١) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٤٠٩.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع ، ج ٢/ ص ٤٠.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج٢/ ص ٦٣.

(٤) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ١٢٨.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٣٩٨.

أما تاج الدين بهرام بن عبد الله الدميري المالكي (ت ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م) فقد تولى قضاء المالكية بالديار المصرية ، وقال عنه ابن حجر: (كان فاضلاً في مذهبه، وله نظم ، وكان محمود السيرة) [١]، ومن أهم مصنفاته: "الشامل" في الفقه، وشرح "مختصر الشيخ خليل"، وشرح "أصول بن الحاجب"، وشرح "ألفية بن مالك"[٢].

ونشير أيضاً إلى قاضي القضاة شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد السباطي المالكي النحوي (ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)، برع في العديد من العلوم كالفقه والعربية والمعاني والبيان[٣]، له العديد من المصنفات منها: "المغني" في الفقه[٤]، و"شفاء الغليل في مختصر الشيخ خليل"، وشرح "ابن الحاجب الفرعي"، وحاشية على "المطول"، وحاشية على "شرح المطالع" للقطب، وحاشية على "المواقف"[٥].

واشتهر في هذا العصر من علماء المالكية: بدر الدين محمد بن أبي بكر المخزومي الإسكندراني المالكي الفقيه النحوي الأديب (ت ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)، برع في الفقه والنحو والنظم والنثر والخط، وله من التصانيف: "شرح

---

(١) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٢/ ص ٢٤٢.

(٢) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ١٧٥؛ السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٣٩٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٤/ ص١٢٥.

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة، ج١/ ص ٣٩٩.

(٥) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٣٨٠.

الخزرجية"، و"جواهر البحور" في العروض، و"تحفة الغريب في شرح مغني اللبيب"، وشرح "البخاري"، وشرح "التسهيل"، و"عين الحياة" مختصر "حياة الحيوان" للدميري[1].

ونبغ أيضاً في المذهب الحنفي علماء اشتهروا وذاع صيتهم في كل مكان منهم: العلامة أكمل الدين محمد بن محمود الحنفي (ت٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)[2]، برع في الفقه والعربية والأصول[3]، قال عنه السيوطي: (خاتمة المحققين ، برع وساد، ودرَّس وأفاد)[4]، من أهم تصانيفه: شرح "مشارق الأنوار"، و"التقرير في شرح البزدوي"، وشرح "الهداية"، وشرح "مختصر ابن الحاجب"، وشرح "المنار والتلخيص"[5]، وشرح "ألفية ابن معطٍ"، وحاشيته على "الكشاف"[6].

وممن اشتهر في هذا العصر من الحنفية شيخ الإسلام كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد المعروف بابن الهمام (ت٨٦١هـ/ ١٤٥٦م)، كان علامة محققاً جدلياً نظَّاراً[7]، صنَّف في الفقه والأصول والنحو والتصريف والمعاني والبيان والتصوف و غيرها من المعارف والفنون، ومن أهم مصنفاته: "فتح

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٧/ ص ١٨٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ ص ٢٤٨.

(٣) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٣٧.

(٤) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٤٠٧.

(٥) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج١/ ص ٢٩٨.

(٦) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٤٠٧.

(٧) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٤٠٩.

القدير للعاجز الفقير"، و"التحرير" في أصول الفقه، و"المسايرة" في أصول الدين، وكراسة في "إعراب سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم"، وله مختصر في الفقه سماه: "زاد الفقير"[1].

وأما العلامة المفسر تقي الدين أبو العباس أحمد بن خلف الله الشمني ، فقد كان من مشاهير النحويين والمحدثين في هذا العصر[2]، قال عنه السيوطي: (قرة عين الزمان وإنسانها، وواحد عصره في العلوم بحيث خضعت له رجالها وفرسانها، وشجرة المعارف التي طاب أصلها وفاحت زهورها وتنوعَّت أفنانُها)[3]، انتفع به كثير من طلبة العلم، وتزاحموا عليه، وافتخروا بالأخذ عنه[4]، من أهم تصانيفه: "شرح المغني" لابن هشام، وحاشيته على "الشفا"، و "شرح مختصر الوقاية" في الفقه، و "شرح نظم النخبة" في الحديث لوالده، و "أرفق المسالك لتأدية المناسك"[5].

ومن علماء الحنفية المبرزين في هذا العصر: الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الجمالي المصري (ت٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م)، كان من العلماء الأجلاء، أخذ عنه ما لا يحصى كثير[6]، له الكثير من المصنفات وخاصة في الحديث، ومن أهم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦/ ص ١٦٠؛ ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٤٣٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج٢/ ص ١٧٤.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٤١٠.

(٤) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٤٥٧.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٤٠٧.

(٦)السخاوي: الضوء اللامع، ج٦/ ص ١٨٤.

مصنفاته: "شرح درر البحار"، و"شرح معاني الآثار" للطحاوي، و"شرح القدوري"[1].

أما المذهب الحنبلي فقد برز في هذا العصر علماء أجلاء كان لهم دور كبير في الحركة العلمية، على الرغم من قلة انتشار مذهبهم بمصر[2]، ومن أبرزهم: العلامة شيخ الإسلام محب الدين أبو الفضل أحمد بن نصر الله (ت٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)، عالم الحنابلة في زمانه[3]، برع في الفقه وأصوله، والحديث والعربية و التفسير، كان مفتياً ومدرساً وقاضياً في عهد المماليك الجراكسة[4]، وكان يرتحل في طلب العلم ، فقد كان من مواليد بغداد، ثم ارتحل لطلب العلم إلى الشام، ومنها إلى مصر، وأخذ من مشايخها، وتولى قضاء الحنابلة بالديار المصرية[5]، وله تصانيف منها: كتابٌ في شرح "شرح مسلم"، وله حواشٍ على "المحرر"، وحواشٍ على "الفروع"[6].

ونشير أيضاً إلى الشيخ أبي بكر أبي المجد السعد الحنبلي عماد الدين (ت٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) ، كان له سماع كثير من علماء الحديث، وقد اختصر كتاب "تهذيب الكمال"، وألف مصنفاً في تجريد الأوامر والنواهي من الكتب الستة[7].

---

(١) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٤٧٠.

(٢) المقريزي: الخطط، ج٤، ص ٥٠.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥/ ص٢٢٠.

(٤) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٤، ص ١٦٤.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٤١٨.

(٦) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٣٨٦.

(٧) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١/ ص ٤١٦.

أما الإمام العالم المحقق المتقن شيخ عصره وقدوته عز الدين أبو البركات أحمد بن إبراهيم الكناني، العسقلاني الأصل، المصري المولد والوفاة (ت٨٧٦هـ/ ١٤٧١م)، فقد كان من العلماء البارزين في ذلك العصر، قال عنه السيوطي ذاكراً فضله ومكانته: (قاضٍ مشى على طريقة السلف، وسعى إلى أن بلغ العُلا لما كلَّ غيره ووقف، من أهل بيت في العلوم والقضاء عريق)[1]، وقد تولى قضاء الديار المصرية، ودرَّس للحنابلة بغالب مدارس مصر، له من التصانيف: "مختصر المحرر" في الفقه، و "توضيح الألفية وشرحها"، واختصر "تصحيح الخلاف المطلق المقنع" للنابلسي، إضافة إلى منظومات متعددة فقهياً ونحوياً وأصولاً وتصريفاً وبياناً وبديعاً وحساباً[2].

ونجد من المذاهب الفقهية السنية غير المشتهرة المذهب الظاهري، وقد أسس هذا المذهب داود بن علي الأصفهاني (ت ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م)[3]، وهو أول من نفى القياس في الأحكام الشرعية، وتمسك بظاهر النصوص، وقد عظم شأن هذا المذهب، وكثر أتباعه في القرن الرابع الهجري[4]، ومن أعظم أتباع هذا المذهب ومناصريه الفقيه علي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ/ ١٠٦٦م)، وقد ألف المصنفات المؤيدة للظاهرية[5]، وعلى الرغم من ذلك نجد أن هذا المذهب حورب في هذا العصر وأقصي أتباعه، ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة عند ترجمته للشيخ ناصر الدين بن مقبل الجندي (ت ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) بأنه: (كان لا يتكتم الاقتداء بمذهب أهل الظاهر)[6].

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤١٩.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٤٦٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ٦٠.

(٤) آدم ميتز: الحضارة الإسلامية، ج١/ ص٣٩٠.

(٥) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ٤٨٢.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢/ ص ١١٠.

وربما يعود سبب سيطرة المذاهب الفقهية السنية الأربعة المشهورة على فكر ذلك العصر ويؤكد ذلك أن بعض العلماء ألف كتباً تدعو إلى اتباع المذاهب الأربعة وترك ما سواها، فقد قام الحافظ عبد الرحمن بن رجب الحنبلي (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) بتأليف كتاب سماه: "الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة"، وحمل فيه على من تمذهب بغير المذاهب الأربعة المشهورة.

ومن أشهر علماء الظاهرية الإمام الشيخ أحمد بن علي بن عبد القادر تقي الدين المقريزي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م)، انتقل في ريعان شبابه من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي، ثم أخذ ينتقد المذهب الحنفي وشيوخه، حتى قيل أنه كان يميل إلى مذهب أهل الظاهر[1]، ثم بعد ذلك عكف على دراسة التاريخ ومن أشهر تصانيفه كتاب "الخطط"، و "عقد جواهر الأسقاط في ملوك مصر والفسطاط"، و "الطرفة الغريبة في أخبار حضرموت العجيبة"، وله كتاب تاريخي كبير سماه: "المقفى"، اقتفى فيه أثر كل من كان في مصر من علماء وقضاة ومن أتى عليها من أهل البلاد الأخرى، وقد ألف كتاباً يعد من أهم الكتب المؤرخة للمجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)، ولم يسبقه في ذلك أحد، وسماه: "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، وله رسائل صغيرة في مواضيع شتى مثل: "النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم"، و "شذور العقود في ذكر النقود"، وغير ذلك من مصنفات[2].

ثالثاً: التصوف والصوفية:

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص٣٩٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢/ ص٢٢.

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر بأنباء العمر، ج٤/ ص ١٨٨.

التصوف: نزعة من النزعات، وليس فرقة مستقلة ثابتة الآراء والأهداف والتعليمات[1]، إنما هي طريقة في الأخلاق والسلوك انتسب إليها كثير من الزهاد، وتنسب إلى لبس الصوف، على مقتضى اللغة، وقد قيل تنسب إلى الصُّفة، وهي الموضع الذي بني لإيواء فقراء المسلمين بالمسجد النبوي، وقيل نسبة إلى الصَّف الأول في الصلاة، وقيل نسبة إلى الصفاء، أو إلى قبيلة عربية جاهلية يقال لها صوفة، وقيل غير ذلك[2].

والصحيح أنها نسبة إلى لباس الصوف فيقال: تصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمص إذا لبس القميص، وتبرقعت المرأة إذا لبست البرقع، وإنما نسبت الصوفية إلى لباس الصوف لكثرة لبسها للصوف زهداً وتورعاً من لبس فاخر الثياب حيث كان الصوف من أحطها آنذاك[3].

وصار التصوف يطلق في الاصطلاح على ما يتميز به الصوفية من خصائص، فاختلفت تعاريفه بناء على ذلك.

---

(1) مريزن سعيد عسيري: الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، ص ١٤٣.

(2) انظر في اشتقاق كلمة التصوف: القشيري: الرسالة، ص٢١٧، ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج١٠، ص٣٦٩؛ ابن خلدون: المقدمة، ص٣٣٤.

(3) أحمد بناني: موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية، ص٦٧- ٧٠؛ فتحية النبراوي: تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، ص٢٢١.

فقيل:(الصوفي يضع الأشياء في مواضعها، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم، ويقيم الخلق مقامهم، ويستر ما ينبغي أن يستر، ويأت بالأمور من مواضعها بحضور عقل، وصحة توحيد،وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص)[1].

---

(1) وهو قول السهروردي. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج٤، ص٢٨١.

وهذا التعريف تنبيه على ما ينبغي أن يكون عليه الصوفي، وليس تعريفاً للصوفي والتصوف.

وعرفه آخر فقال: (الصوفي من قد صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر، واستوى عنه الذهب والمدر)[1]، ومن قائل: (التصوف ترك كل حظ للنفس)[2]، أو: (أن تكون مع الله بلا علاقة)[3].

ووصف ابن خلدون طريقة التصوف بقوله: (وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد في الخلوة للعبادة)[4].

وكأن ابن خلدون بهذا التعريف أراد جهة الزهادة والزهاد، إلا أن ابن الجوزي نبه على الفرق بين الزهد والتصوف بقوله: (فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما أن الزهد لم يذمه أحد، وقد ذموا التصوف)[5].

---

(1) وهو قول سهل بن عبد الله ابن يونس التستري الصوفي(ت٢٨٣). الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٣، ص٣٣٠.

(2) وهو قول لأبي الحسين أحمد بن محمد النوري (ت ٢٩٥)، كان يأنس بصحبة الجنيد، وهو شيخ الطائفة الصوفية بالعراق. سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٧٠.

(3) وهو تعريف الجنيد بن محمد البغدادي شيخ الصوفية (ت٢٩٧). الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج١٤، ص٦٦؛ غالب عواجي: فرق معاصرة، ج٢، ص٧١٨ـ ٧٢١.

(4) ابن خلدون: المقدمة، ص٣٣٣.

(5) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص١٦٥.

ولأجل انتشار طرق المتصوفة، فلا نستطيع أن نجزم بتعريف يشمل كل ما يجمع هذه الفرق، إلا أنها في مجملها: طريقة سلوكية تميل إلى الزهد والانعزال.

ويدل على ذلك اسم (الخانقاه)[1] وهو البيت الذي يسكنه الصوفية، المشتق من (الخنق) لتضييقهم على أنفسهم[2].

وقد لعب التصوف دوراً مهماً في عهد الأيوبيين والمماليك، وبدأت كحركة ظاهرة وواضحة المعالم في مصر منذ القرن الثالث الهجري[3]، ثم بدأ عليها انحرافات واضحة أدت إلى محاربتها في كثير من البلدان، حتى جاء الاهتمام بها من قبل الأيوبيين، إذ اهتم بها الناصر صلاح الدين باعتبارها حركة سنية زهادية، فشرط ذلك في بعض أوقافه التي بالديار المصرية[4].

وتقبل كثير هذه الظاهرة لاعتبارات عديدة، بداية من الزهد الظاهر، ثم بدأ يروج الفكر الصوفي باعتبار أنهم يجمعون بين علمي الظاهر والباطن، كما كان يؤثر عن أبي العباس المرسي أنه قال: (شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه)[5] ونتيجة لهذا انزلق في سبيل كثير من الناس بل وأيضاً بعض من كان ينتسب للعلم،

---

(١) الخوانق: جمع خانقاه، وهي كلمة فارسية، وقيل أصلها خونقاه، أي الموضع الذي يأكل فيه الملك والخوانق حدثت في الإسلام في حدود الأربع مائة من سني الهجرة، وجعلت لتخلي الصوفية فيها لعبادة الله تعالى. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص ٢٨٠.

(٢) الشعراني: لواقح الأنوار، ج٢، ص٤٢.

(٣) سحر السيد إبراهيم : الهجرات وتطور مدينة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، ص ٥٦.

(٤) كالمدرسة الناصرية، والمدرسة الناصرية الشريفة، والمدرسة القمحية، وخانقاه سعيد السعداء، وكلها مما أنشئ بالعصر الأيوبي. خطط المقريزي، ج٤، ص٢٠٠، ٢٠١، ٢٨٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم ج٧،ص٣٧١.

وكنتيجة أيـضاً لكثـرة أوقـاف الـصوفية، بحيـث تجـرى علـيهم الأرزاق إذا أظهـروا التصوف، ووافق هذا أن بعض السلاطين كانوا يميلون إلى رواجه بمصر عامة تغطيـة على بعض الأخطاء التي كانوا يرتكبونها، فالتصوف يمنع الإنكار والثورة على الظلـم، ولاسيما وقد خالطته عقيدة الجبر، فينظر العبد إلى مراد الله ولا يكون له مراد بين يـدي مولاه، فينظر إلى سير إرادة الرب ولا يخالفها[1].

فأصبح التصوف بذلك ظاهرة شـائعة يعتقـدها الحكـام وطبقـة الأمـراء، وبقية أفراد المجتمع.

وكانت الروايات عنهم تبالغ في تقشف الصوفية وتركهم المأكل والملبس ولبس الخشن والمرقع من الثياب، ونظراً لهذه النظرة فـإن كثـيراً مـن هـؤلاء الـصوفية تركـوا التكسب، فنشأت طائفة المجاذيب أو الـدراويش الـذين اشـتهروا بالبطالـة والأفعـال الغريبة، تدل على الجنون والبلاهة، ويزعمون أن الولي لا ينكر عليـه حالـه، والفقـراء يسلم لهم حالهم ولا يعترض عليهم، وشاع ذلك حتى أن مؤرخاً كابن خلدون يقـع في الاعتقاد فيهم فيقول: (ومن هؤلاء المريدين من المتصوفة قوم بالليل معتوهـون أشـبه بالمجانين من العقلاء، وهم على ذلك صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الطريقة)[2].

وقد تحولت الصوفية مـن مطلـب اجتماعـي للزهـد في الـدنيا إلى فـسق ظـاهر وفلسفات خطيرة، وبدع عبادية، فمن الفسق الظاهر ما انتشر بين الصوفية من معاشرة المردان وتعاطي المخدرات التي هي الحشيشة، ويزعمون أنها (تحرك العزم الـساكن إلى

---

(1) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية،ج١٠،ص ١٦١-١٦٤، ٤٩٧،٤٨٢.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص١٢٤ـ ١٢٥.

أشرف الأماكن)[1]، ومن الفلسفات الخطيرة، ما كان عليه همُّ غلاة المتصوفة من الوصول إلى الغاية في الفناء في توحيد الربوبية، وهو درب الاتحاد بحيث يرى أنه لا يوجد خالق ومخلوق، وأن جميع الموجودات لا حقيقة لوجودها غير وجود الله، فكل شيء في زعمهم هو الله تجلى فيه، وما إلى ذلك من الترهات الكفرية، حتى إن أحدهم ليتفوه بالعظائم بسبب هذه العقائد كأن يقول: (ما في الجبة إلا الله)، وما أشبه ذلك تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً[2]، ومن العبادات البدعية: الخلوات البدعية والعزلة والتعبد بترك الجمعة والجماعات والتعري ولباس الليف وتغطية الوجه وملازمة لباس الصوف والوقوف في الشمس أو على السطح دائماً، ولبس الإزار والرداء على وجه الإحرام، وتفتيل الشعر وحمل الحيات ولباس الفتوة والخرقة، والجوع والعطش المفرط، والاختفاء وإحداث أذكار وأدعية مبتدعة والسماع الملحن[3].

ومن ذلك اتباع أوامر المشايخ وترك الأمر الشرعي واعتقاد أن الأولياء أفضل من الأنبياء والاعتماد على المخاريق الشيطانية بدخول النار وأكل الحيات والعقارب ونحو ذلك[4].

---

(1) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٣٤، ص٢١٠.

(2) انظر في الرد على هذه العقيدة الباطلة: ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٢، ص٢٨٦ـ ٢٩٣، ٣٧٧؛ غالب عواجي: فرق معاصرة،ج٢، ص٨٣٩ـ ٨٤٨.

(3) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٣٦، ص١٩٤ـ ٢٠١.

(4) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج٣٦، ص٢٠١ـ ٢١٢.

ويعتبر عصر المماليك الجراكسة من أزهى عصور التصوف، اعتباراً بالطرق الصوفية، وأماكنها، وأوقافها، فقد ظهرت الزوايا الخاصة بكل فرقة أو طائفة أو شيخ، وكثر عدد الخوانق و التكايا والزوايا في مصر.

ومن أشهر الطرق الصوفية التي ذاعت وشاعت بمصر في عصر المماليك الجراكسة:

* **الطريقة الشاذلية**: طريقة صوفية تنسب إلى مؤسسها أبي الحسن الشاذلي تقي الدين علي بن عبد الله (ت٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م)، والذي ادُعي أن نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، وهو من (شاذلة) بتونس، إلا أنه ارتحل واستقر بالإسكندرية وبدأ يلقي دروسه في التفسير والوعظ والدعوة في مسجد العطارين بها [١]، وقد انتشرت طريقته بين مريديه والذين يعتقدون بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية، وإن كانت تختلف عنها في بعض الطرق والمسالك بالإضافة إلى اشتهارهم بالذكر المفرد: (الله .. الله)، أو مضمراً (هوْ..هوْ)، وكانت مؤلفات مؤسس الطريقة الشاذلية نفسها تنتشر بين مريديه وأتباعه في مصر، وبالأخص الأوراد كحزب البحر وغيره، والذي انتشر حتى إن ابن بطوطة يذكر في رحلته

---

[١] الذهبي: تاريخ الإسلام، ص٢٧٣؛ الصفدي : نكت العميان، ص ٢١٣؛ ابن منقذ: الوفيات، ص٣٢٣؛ يحي العامري: غربال الزمان، ٥٣٥؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ج١، ص٤٥٨، الشيال: أعلام الإسكندرية، ص١٧٩.

حين زار مدينة (هو) قرب أخميم أن أهلها يقرأون كل يوم بعد صلاة الصبح حزباً من القرآن ثم يقرؤون أوراد الشيخ الشاذلي، وحزب البحر[1].

قال الذهبي لما ترجم له في تاريخه بعد أن ذكر نسب الشاذلي إلى الحسن بن علي بن أبي طالب: (هذا نسب مجهول لا يصح ولا يثبت، وكان الأولى به تركه، وترك كثير مما قاله في تواليفه في الحقيقة، وهو رجل كبير القدر، كثير الكلام على المقام، له شعر ونثر فيه متشابهات وعبارات يتكلف له في الاعتذار عنها، ورأيت شيخنا عماد الدين قد فتر عنه في الآخر، وبقي واقفاً في هذه العبارات، حائراً في الرجل)[2]، ونقله الصفدي عن الذهبي ثم قال: (وللشيخ تقي الدين بن تيمية مصنف في الرد على ما قاله الشاذلي وحزبه)[3].

ثم خلف من بعده أبو العباس المرسي[4]، وله مقام كبير عند الصوفية، ومسجد باسمه في الإسكندرية[5]، وقد استمر أبو العباس بعد وفاة شيخه الشاذلي ثلاثين عاماً يدعو إلى نشر العلم وتهذيب النفس، حتى توفي عام (٦٨٦هـ/

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٣٤ .

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام، حوادث الفترة، ص٢٧٣،٢٧٤، الصفدي : نكت العميان، ص ٢١٣.

(٣) الصفدي : نكت العميان، ص ٢١٣.

(٤) هو أحمد بن عمر شهاب الدين المرسي (ت٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، فقيه متصوف من أهل الإسكندرية، لأهلها فيه اعتقاد كبير، أصله من مرسية في الأندلس. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص ٣٧١.

(٥) الإسكندرية تعتبر العاصمة الثانية لمصر والعاصمة القديمة لمصر، وأكبر مدنها بعد القاهرة، تقع على البحر المتوسط ، ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج١/ ص١٢٠.

١٢٨٧م)، ودفن بالإسكندرية[١] وبني على قبره ضريح مشـهور، يزوره أهل الإسكندرية وغيرهم، من المترددين عليها، ولهم فيه اعتقاد زائد ولاسيما المغاربة[٢].

وتعد مصر مركز الشاذلية الأول، وبخاصة مدينة الإسكندرية، ثم انتشرت في باقي البلاد العربية[٣].

ومن أشهر شيوخ الطريقة الشاذلية في عصر المماليك الجراكسة: الحسن بن عبد الله الحبار (ت٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)، كان يجلس للوعظ، وحفظت عنه كلمات فيها إشكال، أي على طريقة الصوفية في إشاراتهم[٤]، ومنهم ابن المليق، قاضي القضاة ناصر الدين أبو المعالي محمد المصري الشاذلي (ت٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)، اشتغل بالعلم ووعظ الناس وإرشادهم[٥]، وأيضاً صلاح الدين محمد الكلائي (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، كان من مشاهير الوعاظ على الطريقة الشاذلية في عصر المماليك الجراكسة، كان خليفة في مكان الشيخ حسين الحبار بعد وفاته[٦]، ومنهم

---

(١) اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج٤، ص٣١٨؛ ابن إياس: بدائع الذزهور، ج١، ص٣٥٦.

(٢) علي باشا: الخطط التوفيقية، ج٧، ص١٨٠.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والأحزاب المعاصرة، ج١/ ص ٢٧٩.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ١ / ص ١٤٤؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٦.

(٥) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٦، ولم يكن له دراية بالقضاء حتى قيل فيه كما في. الضوء اللامع، ج ٤ / ص ٣٠١:

إن ابن مليق شيـخٌ ربُّ زَاوِيَةٍ ... بالناس غرٌّ وبالأحوال غير دري

قد ساقه قدر نحو القضاء ومن ... يسطيع رد قضـاء جـاء عن قدرِ

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ١/ ص ٢٣١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٧.

كذلك أبو الحسن علي بن وفا بن محمد الشاذلي (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م)، عرف عنه حدة الذكاء والحفظ، له نظم وأشعار، أذن له في الكلام والوعظ وهو دون العشرين، أسس الطريقة الوفائية، وهي من الفرق المشهورة المنبثقة عن الشاذلية(١)، ومنهم أبو بكر بن عبد الله الملوي الشاذلي (ت ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) كان كثير الذكر والعبادة والوعظ، قال ابن حجر: يفسر القرآن برأيه على قاعدة شيخه، فضبطوا عليه أشياء ورفع إلى القاضي جلال الدين فمنعه من الكلام إلى أن قرأ من تفسير البغوي، وشبهه واجتمع بي بسبب ذلك فوجدته حسن السمت إلا أنه عري عن العلم(٢)، أيضاً منهم شمس الدين محمد بن حسن الحنفي الشاذلي (ت ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م)، من مشاهير شيوخ الشاذلية، أخذ عن آخر طبقات المحدثين، وأخذ التصوف عن ناصر الدين ابن المليق، وأسس الفرقة الحمزاوية المنبثقة عن الشاذلية، وفي شعره شطحات منها:

فإن قلبي بيت لربي ... تطوف من حوله القلوب(٣).

* **الطريقة الرفاعية:** تنسب الرفاعية إلى الشيخ أحمد الرفاعي (ت٥٧٨هـ/ ١١٨٢م)(٤)، ويطلق عيها أيضاً الطريقة البطائحية نسبة إلى مكان ولاية بالقرب من

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ١/ ص ٣٠٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٧.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ٢ / ص ١٤٦؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٨.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٨؛ الزركلي : الأعلام ، ج ٦ / ص ٨٨.

(٤) أحمد بن علي بن يحي الرفاعي، صوفي، مؤسس الطريقة الرفاعية، من مدينة واسط بالعراق، تفقه وتأدب على عدد من مشايخ بلدته، وتصوف فانضم إليه خلق كثير من الفقراء، توفي بقرية أم عبيدة بين واسط والبصرة، ودفن بها، وقبره مزار لأتباعه. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١/ ص ٥٥؛ اليونيني: مرآة الزمان، ج٨/ ص ٣٧٠؛ الزركلي: الأعلام ، ج ١ / ص ١٧٤.

قرى البطائح بالعراق وينسب إليه أتباعه كثير من الأساطير والخرافات بل يرفعونه إلى مقام الربوبية[1] ـ تعالى الله عن ذلك ـ، وأتباع هذه الطريقة يستخدمون السيوف، ودخول النيران في إثبات كراماتهم، وقد ناظرهم على هذا شيخ الإسلام ابن تيمية[2].

ولقد كان للرفاعية انتشار كبير بمصر في عهد المماليك الجراكسة على الخصوص، وكثرت زواياهم في القاهرة خاصة.

وتتفق الرفاعية و الشيعة في أمور منها: إيمانهم بوجود كتاب (الجفر) الذي فيه العلوم كلها، واعتقادهم في الأئمة الاثني عشر، وأن شيخ طريقتهم الشيخ أحمد الرفاعي هو الإمام الثالث عشر، ومشاركة الشيعة حزنهم يوم عاشوراء هذا على الرغم مما ورد عن شيخ طريقتهم أحمد الرفاعي من الحض الشديد على اتباع السنة واجتناب البدعة[3].

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١/ ص١٧١-١٧٢؛ الموسوعة الإسلامية الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج١/ ص٢٥٨.

(٢) انظر مناظرة ابن تيمية للبطائحية. مجموع الفتاوى، ج١١/ ص٤٥٦-٤٥٧؛ الموسوعة الإسلامية الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج١/ ص٢٦٦.

(٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج١/ ص٢٦٦.

* **الطريقة البدوية (الأحمدية):** وعرفت باسم الأحمدية نسبة إلى أحمد البدوي (ت٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م)[1]، وذاعت في مصر بشدة، وهي تحمل جزءاً كبيراً من آداب وأفكار مؤسسها، ثم أخذت تتفرع عنها فرق وأفكار مختلفة، وكانت لهم زوايا وتكايا كثيرة، وأول خليفة بعد الشيخ أحمد البدوي كان الشيخ عبد العال (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)، والذي اشتهر بين أتباعه بالصلاح والتقوى، وكان يقصد للزيارة والتبرك به، واشتهر أصحابه بالسطوحية أيضاً[2].

ولقد خرج عن هذه الطائفة فرق اختلفت عنها في بعض الأمور وإن كانت متفقة في أصول أفكارها في حلقات الذكر الجماعي، واحتفالات الموالد[3].

وكانت الطريقة البدوية ذات انتشار واسع في عصر المماليك الجراكسة، حتى قيل إنها تفرعت إلى ١٦ شعبة[4]، ويمكن أن نعتبرها في الجملة تابعة للمدرسة الشاذلية[1].

---

(١) أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد البدوي الشريف، أصله من بني بري من عرب الشام، ثم سكن والده المغرب، وبها ولد ونشأ، فحفظ القرآن وقرأ شيئا من فقه الشافعي، عرف بالبدوي للزومه لبس اللثام، لم يتزوج قط، لزم الصمت فكان لا يتكلم إلا بإشارة وتوله، مات بطنطا، وجعلوا على قبره معلماً. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٥/ ص ٤٩٠؛ سعيد عاشور: السيد أحمد البدوي شيخ طريقة، ص ٣٥.

(٢) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٤، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨ / ص ٣٤٥.

(٣) الموسوعة الإسلامية، ج٥/ ص ٣١٨.

(٤) ابن الغزي: ديوان الإسلام، ص٢١؛ الموسوعة الإسلامية، ج٢٤/ ص٢٣٩.

وكانت للبدوية مكانة كبيرة في مصر وسائر أقاليمها ومحافظاتها، وقيل إنها فرقة صوفية ذات مذهب علوي لأن مؤسسها البدوي يرجع إلى نسب علي بن أبي طالب ﷺ، ويلاحظ شدة التأكيد على النسب الشريف في هذه الطرق الصوفية، الشاذلية والأحمدية وغيرها، لأن ذلك أدى إلى رواجها عند العامة، فالبدوي هو أول صوفي يتحدث عن النور المحمدي والحسيني، وكثير من العلماء اتهموا الشيخ بأنه جاسوس فاطمي لارتباط أفكاره ومعتقداته بالمذهب العلوي الشيعي، ولا يمكن إنكار حقيقة أن البدوي كان ذا شعبية كبيرة في مصر لكثرة التكايا المرتبطة بمذهبه، والأموال الطائلة التي كان يجنيها أصحاب هذا المذهب من السلاطين والأمراء وأفراد المجتمع[2].

* **الطريقة الدسوقية:** نسبة إلى مؤسسها إبراهيم بن أبي المجد الدسوقي الهاشمي الشافعي القرشي (ت٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م)، وقد يطلق عليها البرهامية[3].

والدسوقي معاصر للبدوي، وتتلمذ عليه، ومن مبادئ الطريقة الدسوقية: الذكر الجهري، الاستغراق في العبادة، مداومة أحكام الشريعة والطريقة، وجوب الاقتداء بالأولياء واتباعهم وإطاعتهم طاعة عمياء، قتل النفس البشرية من خلال كبح جِمَاحِ شهواتها ورغباتها المادية، ويقوم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٢/ ص ٣٢٨؛ الجهني: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ج١/ ص ٢٥٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٢/ ص ٣٢٨؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٤؛ الموسوعة الإسلامية، ج٥/ ص٣١٩.

(٣) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص٤.

رجال الدسوقية بترديد لفظ (يا دائم)، بصفة مستمرة في حلقات الذكر الجهري ولباسهم دائماً باللون الأخضر[1].

❋ أثر الطرق الصوفية على تصورات المجتمع واعتقاداته:

كان للصوفية والمتصوفة أثر عظيم في المجتمع المصري عقدياً واجتماعياً، فعلى الرغم من تحول مصر إلى السنة على يد صلاح الدين، إلا أن بعض العادات والبدع الشيعية أطلت برأسها من خلال الصوفية، ومن أشهر هذه المظاهر بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، وموالد الصالحين، وزادت عليها الصوفية موالد الأولياء، إذ وجدوا في ذلك رواجاً لطرقهم التي تكسبهم مكانة اجتماعية من جهة، وتؤمن لهم جمع الأموال من جهة أخرى.

ومما روج لفكرة الموالد، أن بعض العلماء ذكر أن ذلك ليس مذموماً بالنسبة للمولد النبوي، فقد جاء في السيرة الحلبية: (أن ابن حجر الهيتمي قال: والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على ندبها، وعمل المولد واجتماع الناس له كذلك أي بدعة حسنة، ومن ثم قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النووي: ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء مشعر بمحبته وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكر الله على ما منّ به من إيجاد رسوله الله الذي أرسله رحمة للعالمين، هذا كلامه.

---

(١) الموسوعة الإسلامية التركية، ج٩/ ص ٢١٢.

قال السخاوي: (لم يفعله أحد من السلف في القرون الثلاثة، وإنما حدث بعد، ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون المولد، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم!!!. ... وقد استخرج له الحافظ ابن حجر أصلاً من السنة، وكذا الحافظ السيوطي، وردا على الفاكهاني المالكي في قوله إن عمل المولد بدعة مذمومة)[1].

ولأجل هذا صار الاحتفال بالمولد من احتفالات الدولة الرسمية، لكن ربما كان في أول ربيع، أو في أيامه الأول، ولم يخصص الثاني عشر له، ويحضر السلطان والعلماء والقضاة، ويمد له سماط الطعام في النهار ويمتد عادة إلى ثلث الليل، وربما بكروا به كما كان في سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م)، حيث ذكر ابن حجر أنه في هذا العام (وفي يوم الخميس السابع من ربيع الأول عمل المولد النبوي وابتدأوا به من بعد الخدمة، ومد السماط بعد صلاة العصر وفرغ بين العشاءين، وكانت العادة أن يبدأ بعد الظهر ويمد السماط المغرب ويفرغ عند ثلث الليل)[2].

ولسنا هنا بصدد الترجيح الفقهي بين بدعية المولد أو عدم بدعيته، وإن كان كثير من محققي العلماء ذكروا بدعيته المذمومة على ما ذكره الفاكهاني وغيره، إلا أن من استحسنه رأى أمراً أعجبه، فقال بجواز

---

(١) القابسي: السيرة الحلبية، ج ١٦/ ص ١٨٤.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ٢ / ص ٣٨.

ذلك، لكن هـذا إنـما قالـه مـن قالـه في (مولـد النبـي ﷺ) ولكـن مـا بـال موالـد المشايخ والأولياء كما زعموا؟؟

لقــد كــان مــن الطبيعــي وفي ظــل الاعتقــاد الراســخ لــدى النــاس بكرامـات الأوليـاء أن يحرصـوا عـلى إحيـاء الموالـد السـنوية للأوليـاء في المكـان الـذي كـان يوجـد بـه قـبر الـولي، حيـث كـان يعـد الاحتفـال بـذكرى مولـده الشاهد الملموس عـلى أن هـذا الـولي مـا زالـت ذكـراه حيـة في القلـوب ومـا دام النــاس يدعونــه في الســراء والــضراء ويلتمــسون إليــه عونــاً عــلى حــل مشكلاتهم فإحياء ذكرى مولده يعد أهم تكريم له.

لقد كانت هذه الموالد مصدراً أساسياً لترويج البدع العقدية والعبادية، والتي اندست بين مظاهر الاحتفالات التي كانت تقام بدعاية كبيرة ينجذب إليها كثير من العوام، كما كانت الموالد مرتعاً لأهل الفسوق أيضاً، حتى إن بعض مشايخ الصوفية ربما أبطلها لأجل ذلك، فقد أرخوا في سنة (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) أنه قد هبت ريح عظيمة بمصر وتراب شديد إلى أن كاد يعمى المارة في الطرقات وكان ذلك صبيحة المولد الذي يعمله الشيخ إسماعيل بن يوسف الأنبابي[١] فيجتمع فيه من الخلق من لا يحصى عددهم بحيث أنه وجد في صبيحته مائة وخمسون جرة من جرار الخمر فارغات إلى ما كان في تلك الليلة من الفساد من الزنا واللواط والتجاهر بذلك فأمر الشيخ إسماعيل بإبطال المولد بعد ذلك[٢].

---

(١) الشيخ إسماعيل بن يوسف الإنبابي (ت٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) اشتغل بالعلم، ثم انقطع بزاويته وصار يعمل عنده المولد كما يعمل بطنطا. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦ / ص ٣١٠.

(٢) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٦ / ص ٣١٠.

وبدأت فكرة (خوارق الأولياء)[1] تطل برأسها في توجهات العوام، حيث اجتمعت عدة عوامل في المجتمع المملوكي ساهمت في رواج الأساطير عن الأولياء، حيث وجد كثير منهم في اللجوء إلى الأولياء والمشايخ عزاء لهم فيما يعانونه من شظف العيش وكدر الحياة، فنجدهم ينسبون إليهم أعمالاً كثيرة خارقة للعادة، عرفت عندهم بالكرامات، ويؤرخ لنا السخاوي عن أحد الأولياء الذي كان له شاة كبيرة، فحلب منها ذات مرة لفقير لبنا، ثم أراد هذا الفقير عسلاً فحلب له أيضاً من نفس الشاة عسلاً، فزاد الناس في الاعتقاد فيه والإقبال عليه[2].

ومن مشهور ما اعتقده الناس أيضاً أن أعظم كرامات السيد أحمد البدوي هي إحضار الأسرى من بلاد النصارى وكان هذا بعد موته، ولهم أغان في ذلك يتغنون بها[3].

ويبدوا أن قلق الناس وخوفهم من وقوع الأزمات وما يصاحب ذلك عادة من انعدام الأمن واضطراب الأحوال، إلى جانب عدم وجود من يساندهم ويخفف عنهم من أصحاب السلطة الشرعية في معظم الأحوال، قد أفسح الطريق أمام كثير منهم إلى المزيد من اللجوء إلى هؤلاء الأولياء، على أمل أن تكون خوارقهم طوق النجاة الوحيد، والذي لا بديل عنه للخروج من تلك الأزمات والهموم بأسرع وقت ممكن، باعتبار

---

(١) كرامات الأولياء مما يثبته أهل السنة والجماعة، لكن ليس كل خارق يكون كرامة، ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ، ج ١ / ص ٥٠٠.

(٢) السخاوي: تحفة الأحباب، ص ٢٨، ٢٩.

(٣) سعيد عاشور: أحمد البدوي شيخ وطريقة، ص ١٧٠.

أنهم على الأقل الطبقة الوحيدة التي تسمع أو تحاول إظهار أكبر قدر من الاهتمام بمشكلاتهم ومصائبهم المتكررة كل حين.

فكثيراً ما توجه الناس إلى الأولياء، حينما يتوقف النيل عن الزيادة، فيسألونهم أن يدعوا الله تعالى بوفاء النيل، فإذا حدث الوفاء كان ذلك سبباً في تأكيد صحة اعتقادهم في ذلك الشيخ[1].

وإلى جانب ذلك نجد أن الكثير من الناس حينما كان يشتد بهم وطأة الطاعون ويطول، يذهبون إلى من يعتقدون من الأولياء والشيوخ، يسألونهم أن يدعوا الله بأن يرفع الطاعون عنهم، أو يحاولون أن يعرفوا متى ينتهي ذلك الطاعون مثلما حدث وأن توجه الكثيرون ممن يعتقدون في الشيخ علي الروبي في طاعون تفشى عام (٧٨٣هـ/ ١٣٨١م)، يسألونه بأن يَدْعُوَ الله بأن يخفف عنهم ما هم فيه من كرب وبلاء، فما كان منه إلا أن قال: (إن الطاعون يرتفع في آخر ربيع الآخر، فوقع كما قال)، فزاد بالتالي من يعتقد فيه الولاية[2].

والصوفية كانت تحاول أن تروج بدعتهم من خلال ما يظهرونه للناس من الخوارق، وربما ترجم لهم بها، ولم ينبه على فساد ذلك، فمن ذلك ما كان بترجمة أبي علي الصوفي(ت٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)، المدفون بساحل بولاق حيث نقل في الشذرات عن المناوي أنه قال في طبقاته: (هو من أهل التصريف ... ، وكان كثير التطور يدخل عليه إنسان فيجده سبعا ثم يدخل عليه آخر فيجده جنديا ثم يدخل

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج١/ ص ٦.

(٢) ابن حجر : إنباء الغمر، ج١/ ص ٢٣١.

عليه آخر فيجده فلاحا أو فيلا وهكذا، ...ودخل عليه أعداؤه ليقتلوه فقطعوه بالسيوف ليلا ورموه على كوم بعيد فأصبحوا فوجدوه قائما يصلي بزاويته، ومكث بخلوة في غيط خارج باب البحر أربعين سنة لا يأكل ولا يشرب وباب الخلوة مسدود ليس له إلا طاق يدخل منه الهواء ، ... وكان إذا سأله أحد شيئا قبض من الهواء وأعطاه إياه ... وضرب قايتباي رقاب - جماعته - لما شطحوا ونطقوا بما يخالف الشريعة)[1] .

لقد زلزلت هذه الأساطير عقائد الكثيرين، فأضفوا صفات الربوبية على مشايخ الطريقة، وأقعدهم هذا عن النظر في أسباب النهوض والرقي.

ولقد كان من الطبيعي في ظل ذلك الاعتقاد في كرامات الأولياء أن يحرص الناس على زيارة مشاهد الأولياء، فعلى سبيل المثال كان الناس يزورون قبر الحسين ويتمسحون بالكسوة التي على الشاهد، ويطوفون حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله وبركة التربة المقدسة[2].

كذلك حرصت النساء على تشخيص أيام معلومة لزيارة قبور الأولياء فجعلن يوم الاثنين للسيد الحسين ويوم الثلاثاء والسبت للسيدة نفيسة، والجمعة للقرافة ولزيارة الإمام الشافعي[3]، وفي تلك الأماكن كانوا يتزاحمون ويسألون ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده من وفاء الدين من غير جهة معينة، وطلب الولد

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج ٢ / ص ٣٤٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٣٧.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج١/ ص٢٦٩.

ونحو ذلك، ويحملون النذور من الزيت وغيره إليهم ظناً أن ذلك ينجيهم من المكاره ويجلب إليهم المنافع[1].

كذلك نجد أن الكثير من عامة الناس قد يتنافسون على شراء ملابس أحد الأولياء بعد موته للتبرك بها حسب اعتقادهم[2].

وعلى أية حال فقد تأثرت سلوكيات معظم الناس بالأولياء، فنجد الزوجة في حالة عدم إنجابها تتجه إلى الأولياء والمشايخ وهي تحمل النذور عسى أن يمن الله عليها بالإنجاب[3].

إلى جانب حرص الكثير من الآباء والأمهات عل أن ينزل مولودهم في ثوب أو خرقة أحد هؤلاء الأولياء للتبرك[4].

ويبدو أن هناك من فطن إلى محاولة الاستفادة من تكالب الناس على الأولياء ومزاراتهم، فنجد رَجُلاً يدعى شعيباً قد حفر حفرة كبيرة وزعم أنها موضع صحابي جليل، وأشاع أن من يزر تلك الحفرة يبرأ مما به من مرض أو عمى، وصار يأخذ جماعة ممن يظهرون أنه من أهل هذه العاهات وينزل بهم الحفرة ثم يخرجهم وهم يصيحون: الله أكبر الله أكبر، ويزعمون أنه قد زال ما كان

---

(١) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص ٤٩، ٥٠.

(٢) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٣/ ص ٣٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥/ ص ١١٥.

(٣) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص ٤٩، ٥٠.

(٤) ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص٢٨٥.

سببهم، فافتتن الناس بتلك الحفرة، فكان شعيب ينزل إلى تلك الحفرة من يريد زيارتها مقابل بعض الدنانير والدراهم[1].

وتعدى هذا الأمر إلى ادعاء الولاية من بعض النساء ، فالمرأة قد نجحت في هذا العصر أن تكون هي الأخرى (شيخة)، ومن (الأولياء الذين يعتقد فيهم)، ويكون لها المريدون، وإن كان ذلك الأمر قد استنكره بعض المعاصرين مثل ابن الحاج والذي استنكر ذلك بقوله: (وبعضهم فعل فعلاً قبيحاً وهو ما أحدثوه من اعتقاد بعض النسوة وزيارتهن، وهن على ما يعلم من قلة العلم بالسنة المطهرة، إضافة لذلك ما يفعله من تسمى بالشيخة من الذكر جماعة بأصوات النسوة، وفي أصواتهن من العورات ما لا ينحصر)[2].

ومما لا شك فيه أن كل ما سبق من عوامل كثيرة دفعت الناس إلى اللجوء إلى الأولياء والاعتقاد فيهم، إلا أن أهم عاملين فيما يظهر هما:

العامل الأول: قلة انتشار العلم بين العوام، فلم تكن ثمة تربية دينية صحيحة، بل كانت عبارة عن اعتقادات بأهمية أهل الدين ووجوب الاعتقاد بهم، وبصلاحهم، وربما اختلاط الناس بأهل الذمة والذين لديهم تلك الموروثات من أديانهم، أدى إلى زيادة ذلك.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢/ ص٦٤٩.

(٢) ابن الحاج : المدخل، ج١/ ص ١٤١.

والعامل الثاني: قعود بعض العلماء عن القيام بدوره، بل منهم من شجع ودعم ذلك، فلا ينكر حقيقة تأثر بعض العلماء وغيرهم بالفكر الصوفي الداعي إلى الزهد وعدم الاغترار بالدنيا وملذاتها، واعتقادهم في مشايخهم.

وكذلك كان السلطان يحرص على حضور العلماء والقضاة المولد النبوي، وكان احتفالاً رسمياً، ذكر ابن حجر في أحداث سنة (٨١٣هـ/ ١٤١٠م) (خرج السلطان في رابع ربيع الأول بالعسكر بعد أن عمل المولد النبوي في أول ليلة من ربيع الأول، وجلس عن يمينه ابن زقاعة ودونه الشيخ نصر الله ودونه بقية المشايخ، وعن يساره القضاة، وأنعم في هذه السنة على قاضي الحنابلة بمائة دينار ليتجهز بها دون بقية القضاة، وقرر في مشيخة التربة التي أكمل عمارتها، وكان أبوه أسسها صدر الدين أحمد ابن العجمي ورتب عنده الصوفية)[1].

بل تعدى الأمر إلى الاحتفال ببعض الموالد الأخرى، فهذه البدع الصوفية من عمل موالد الصالحين لم يكن أمراً مستنكراً من قبل العلماء، فقد ذكر لنا ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباي رسم بعمل مولد السيدة نفيسة رضي الله عنها، ودعا إليه القضاة الأربعة وأعيان العلماء والأمراء، ولم يصدر عن أحد منهم أي اعتراض على هذا العمل المنكر في السنة الصحيحة[2].

❊ أثر التصوف على الحياة العلمية في العصر المملوكي الثاني:

---

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ١ / ص ٣٦٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٢٠٦.

يتضح مما سبق أن انتشار الصوفية الواسع في فترة المماليك الجراكسة كان له أثره على حياة الناس العامة، وقد امتد ذلك أيضاً إلى العلوم، فكان للصوفية تأثير كبير سلباً وإيجاباً على الحياة العلمية، ويؤخذ هذا من طبيعة التصوف المائل عن تعاليم الشرع، الداعي إلى نوع من الركود والجمود في العقل والتفكير الداعي إلى إعمار الأرض، فكان هذا منشطاً لحركة علمية مقابلة للرد على هذا الفكر وذلك الركود.

وحيث كانت الصوفية من بدايتها انحرافا عن منهج الزهد الذي حث عليه الإسلام وهو الزهد المقترن بالعلم والعمل والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونفع الأمة ونشر الدين، فالمال (ليس تركه من الزهد المشروع بل ترك الفضول التي تشغل عن طاعة الله ورسوله هو المشروع. وكذلك في أثناء المائة الثانية صاروا يعبرون عن ذلك بلفظ "الصوفي" لأن لبس الصوف يكثر في الزهاد)[1].

إن منهج ترك العلم والعمل منهي عنه شرعاً، ولذا رفضه الرسول عليه الصلاة والسلام من بعض أصحابه، لما أرادوا الانقطاع للعبادة وترك العمل[2].

---

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ١١/ ٢٨-٢٩.

(٢) أخرج البخاري ومسلم عن أنس بن مالك يقول : " جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا : وأين نحن من رسول الله ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فأنا أصلي الليل أبدا وقال آخر : أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ! فجاء رسول الله ﷺإليهم فقال : أنتم الذين قلتم كذاوكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " . أخرجه البخاري في كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح،

ثم دبَّ الانحراف في الأمة شيئاً فشيئاً، وزاد الانحراف عندما اختلط التصوف بالفلسفات الهندية واليونانية والرهبانية النصرانية في العصور المتأخرة[1]، وتفاقم الوضع وأصبحت الصوفية تجارة للدجالين ممن قلت بضاعتهم في العلم وقصر سعيهم عن العمل والكسب الحلال، وبرز بقوة في العهد المملوكي الثاني، فولدت هذه السلبية الواضحة بتلك الفترة الركود العلمي والثقافي مما أدى إلى التخلف الحضاري وعدم التطوير، وتعتبر خانقاه سعيد السعداء[2]، مركزاً تخرج به الصوفية في مصر، وكانت محل نزول صوفية الآفاق وعلى الأخص المغاربة والأندلسيين الواردين إلى مصر، من شتى أنحاء العالم من عهد الأيوبيين وحتى نهاية عصر المماليك الجراكسة.

ونلحظ أيضاً كثرة تفريعات الطرق والاختلافات فيما بينهما، وقد كان أوائل الصوفية ينفرون من السلاطين والأمراء فصاروا أصدقاء (أي

(٥/ ١٩٤٩ ـ ح ٤٧٧٦) وأخرجه مسلم في النكاح باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، (٤/ ١٢٩ ـ ح٣٤٦٩)

(١) يذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه النبوات ص ١٦٠ أن (ابن سبعين وابن عربي أخذوا مذاهب الفلاسفة وأدخلوها في التصوف)، ويعتبر الحارث المحاسبي من القرن الثالث هو أول من مزج التصوف بالكلام، ثم اشتد الأمر في الذين أخذوا عنه فمن بعدهم. عبد الرحمن المعلمي اليماني: التنكيل بما تأنيب الكوثري من الأباطيل، ص ٨٧.

(٢) خانقاه دار سعيد السعداء: تقع بخط رحبة باب العيد من القاهرة، مقابل دار الوزارة، كانت أولاً داراً تعرف بدار سعيد السعداء، وهو قنبر أو عنبر، عتيق الخليفة الفاطمي المستنصر، و أحد خدام القصر. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص ٢٨٢.

بعد أن صار التصوف حرفة وتكسباً صاحبوا الأمراء والسلاطين)[1]، وصارت كل فرقة تسعى لكسب مؤيدين جدد من السلاطين وطبقة الأمراء وأفراد الشعب، والذين كان لتربيتهم الدينية البسيطة أثرٌ على تخبطهم ومجانبتهم للنهج النبوي الصحيح، ويؤكد ذلك أن جميع هذه الطرق تدعو إلى الزهد في الدنيا، وترك العمل، والجهاد في سبيل الله، والدعوة إلى الخلوة، وجهاد النفس على الطاعة والأعمال الصالحة، وترك الذنوب والمعاصي.

بل قد ألفت المؤلفات التي تؤسس هذا المنهج، فوضع ابن عطاء الله تلميذ المرسي أبي العباس، كتابه "التنوير في إسقاط التدبير"، وهو كما يظهر من اسمه يقرر مذهب الجبرية في إسقاط العبد تدبيره مع الرب، وأصبحت مرحلة الدراويش هي المسيطرة على الساحة الفكرية والثقافية بتلك الفترة المتأخرة من عصر المماليك والذين جاؤوا من بعدهم العثمانيون.

لكن في المقابل تولَّدت حركة علمية مضادة لهذا الفكر، ولاسيما من العلماء الذين تربوا على المنهج السلفي الذي رفع بنيانه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فنجد أن الإمام ابن أبي العز الحنفي (ت٧٩٢/ ١٣٨٩م) يشن حملة كبيرة على هذه الفئات، ويصفهم بأوصاف شديدة، ويفضح عوارهم، فيصف من يفعل الأفعال الخارجة عن الشريعة بأنهم: (من المشايخ النصابين، والفقراء

(١) عبد الرحمن عبد الخالق، الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، ٣/ ١٦١ .

الكاذبين،.... فمن اعتقد في بعض البله أو المولعين، مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله أنه من أولياء الله، ويفضله على متبعي طريقة الرسول ﷺ، فهو ضال مبتدع، مخطىء في اعتقاده . فإن ذاك الأبله، إما أن يكون شيطاناً زنديقاً،... أو مجنوناً معذوراً، فكيف يفضل على من هو من أولياء الله المتبعين لرسوله أو يساوى به ... وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة، من الهذيان، والتكلم لبعض اللغات المخالفة للسانه المعروف منه، فذلك شيطان يتكلم على لسانه، كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية، وكيف يكون زوال العقل سبباً أو شرطاً أوتقرباً إلى ولاية الله،...فيظن هذا الضال أن كل من خبل أو خرق عادة كان وليا لله، ومن اعتقد هذا فهو كافر)[1].

ويعيب ابن حجر على رئيس من رؤسائهم ممن ولي مشيخة الطريقة الدسوقية، ويقال له ابن المغيربي أحمد بن محمد المصري (ت٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)بأنه (لم يشتغل بعلم ولا تميز في شيء ... وكان ممن يأكل الدنيا بالدين، ولا يتوقى من يمين يحلفها فيما لا قيمة له مع إظهار تحري الصدق والديانة البالغة، وكان يتوسع في المآكل والملابس من غير مادة، فلا يزال عليه الدين ويشكو الضيق)[2].

وهذه النصوص تشير إلى أمور:

---

(١) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية ،ج ٢ / ص٩ـ ١٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر بأبناء العمر ،ج ٢ / ص ١٩٥.

منها أن العلماء ما كانوا يغضون الطرف عن هذا الانحراف الحاصل في التصور والفهم الوارد من قبل الصوفية.

وأيضاً ينبهنا على أن كثيراً من هؤلاء من المحتالين يظهرون للناس أموراً خارجة عن الشريعة ليروج أمرهم عندهم، وأن بعضهم يصل إلى الكفر بهذه الأفعال، ومن الطبيعي أننا نجد بعضاً من الصوفية قد شارك في بعض علوم الشريعة، لأنهم يحتاجون إليها في تعليم المريدين، لكن كان أكثر ما شارك هؤلاء فيه هو الفقه، وربما ولي أحدهم القضاء، لكن لم يكن للصوفية مشاركة ظاهرة في الحديث وعلومه، حتى عدَّ الصوفي المحدث من النوادر[1].

يترجم ابن حجر لبعض الصوفية فيقول: (محمّد بن محمّد بن جعفر الدمشقي، مات في شهر رمضان سنة تسع وثمانمائة بالقاهرة، وكان من الصوفية بسعيد السعداء، وكان جاور بمكة عدة سنين، ...ولم يكن يعرف شيئاً من العلم واتفق له أنه قال في الدرس وهو قاضٍ، عن سعيد أبي جبير)[2].

ومصنفات الصوفية كانت في الغالب لشرح أحوال المريدين، ورسائل السلوك، ولهم إشارات ورموز في مصنفاتهم تشير إلى أمور يقصدونها، ومصطلحات السكر والاصطلام والفناء وغيرها.

---

(١) ابن تغري بري: النجوم الزاهرة، ج ٣ / ص ٤٩٠.

(٢) إنباء الغمر بأبناء العمر، ج ١ / ص ٣٣٥. وهو يشير إلى جهله الشديد بالحديث لأن التابعي المشهور هو سعيد بن جبير، تلميذ ابن عباس، وليس سعيد أبي جبير.

وكذا ما صنفه محمد بن حسن بن علي التيمي البكري الشاذلي، أبو عبد الله شمس الدين الحنفي (ت٨٧٤هـ/ ١٤٤٣م) فله: "الروض النسيق في علم الطريق" [1].

وكذلك ما ألفه ابن زغدان أبو المواهب محمد بن أحمد المالكي الصوفي (ت٨٨١هـ/ ١٤٧٦م) فمن تصانيفه: "مراتب الكمال" في التصوف، و"شرح الحكم" لم يتم ، و"مواهب المعارف" وكتاب "فوائد حكم الإشراق إلى صوفية جميع الآفاق"، وله مؤلف في "حل سماع العود"[2].

ووضع جلال الدين الكركي الصوفى البرهامى(ت٩١٢هـ/ ١٥٠٦م)[3] "الفتح الذوقى في الكلام على بعض كرامات سيدي إبراهيم الدسوقي"، "نور الحدق في لبس الخرق"، "الهدية الدسوقية في توحيد رب البرية"، "مراتب السلوك إلى منازل السلوك"[4].

---

(١) البغدادي: هدية العارفين ج ٢ / ص ٣١٩؛ الأعلام للزركلي ، ج ٦ / ص ٨٨.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ٣/ ص ٣٩٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج ٢ / ص ٣٣٥.

(٣) هو جلال الدين محمد بن احمد بن احمد ابن محمد الكركي الصوفى الشافعي البرهامى المتوفى في حدود سنة ٩١٢هـ. البغدادي: هدية العارفين، ج ١ / ص ١٥٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع ، ج ٣ / ص ٣٩٦؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ، ج ٢ / ص ٣٣٥؛ البغدادي: هدية العارفين، ج ١ / ص ١٥٦.

إلا أن بعض هذه التوجهات قد ارتبط بفلسفات باطنية، تعنى بوحدة الوجود، ولاسيما بعد انتشار كتب ابن العربي (ت٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م)[1]، وابن الفارض (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م)[2]، وغيرهما من شيوخ الصوفية الاتحادية.

وعلى الرغم من أن بعض العلماء صرح بكفر هؤلاء الاتحادية حتى قال ابن أبي العز (ت٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م): (وكفر ابن عربي وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾[3]، ولكن ابن عربي وأمثاله منافقون زنادقة، اتحادية في الدرك الأسفل من النار)[4].

إلا أنه في المقابل كان من يدافع عنه، كابن زغدان (ت٨٨١هـ/ ١٤٧٦م)، فإنه كان (داعية إلى ابن عربي شديدا في المناضلة عنه والانتصار له)[5]

وكذا ابن خطيب بستيل (ت٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م)، فقد ذكر السخاوي أنه (عني بالنظر في كلام الصوفية وفتن بمقالة ابن عربي فكان داعية إليها)[1].

---

(١) أبو بكر محي الدين محمد بن علي الطائي الأندلسي ابن العربي، من أهالي مرسية، ارتحل لطلب العلم، فطرق بلاد الشام والروم والمشرق وبغداد، حيث حدث بها بشيء من مصنفاته. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥/ ص٣٠٨.

(٢) هو شرف الدين أبو القاسم عمر بن علي الحموي الأصل المصري، قدم أبوه من حماة إلى مصر وقطنها، وصار يثبت الفروض للنساء على الرجال بين يدي الحكام، ثم ولي نيابة الحكم فغلب عليه التلقيب بالفارض، أما عمر فقد ولد بمصر، وترعرع على حب العلم، فاشتغل بالفقه الشافعي، والحديث، استفاد من علمه العديد من الطلبة. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥/ ص٢٥٦.

(٣) سورة الأنعام ، الآية: ١٢٤.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ، ج ١ / ص ٤٩٧.

(٥) وهو من نقباء الطريقة الدسوقية، ترجم له في : إنباء الغمر بأبناء العمر ، ج ١ / ص ٢١٣.

وقد أحدثت حركة التصوف هذه أثراً علمياً واضحاً في تأليف كتب التراجم، بحيث زاد الاهتمام بتراجم أعلام التصوف، والتنبيه على كراماتهم، أو التحذير من أفعالهم.

فالسيوطي عند تأليفه "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة"، ذكر فيه فصلاً عن أعلام المتصوفة بمصر.

كما ألف الشيخ عبد القادر العيدروس كتاباً في التراجم سماه: "النور السافر عن أخبار القرن العاشر"، ذكر فيه تراجم مطولة عن أعلام الصوفية، ويوضح الكتاب مدى تأثر طبقة العلماء بتلك الفترة بمناهج التصوف وعدم إنكارهم ما كانوا عليه من مخالفات لنصوص صريحة في القرآن والسنة.

وكذلك الحال مع ابن العماد الحنبلي مؤلف كتاب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب"، فقد ترجم للكثيرين منهم.

بل نجد أيضاً جملة كبيرة منهم في كتب العلماء المحدثين، كابن حجر في "الدرر الكامنة"، و"إنباء الغمر"، وكتاب "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع" للسخاوي وغيرهم كثر.

لكن لم ينص في تراجم الكثيرين منهم على أثر علمي واضح، إلا ما سبق ذكر نماذج منه من رسائل السلوك والتصوف.

---

(١) أحمد بن محمد بن محمد بن عبد المهيمن البكري القاهري الشافعي ويعرف بابن خطيب بستيل، ترجم له في الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٣٧٩، وقال: (ورث من أبيه مالاً جزيلاً فمزقه في اللهو).

وغايته أن يقال هو صوفي صاحب أحوال وكرامات ونحو ذلك، وهذا جل ما في كتاب العيدروس، وتراجم المناوي التي ينقل عنها ابن العماد، كما في ترجمة: الشيخ الشريف عبد الله بن علي ابن أبي بكر، (ت٩٤٢/ ١٥٣٥م)، فقد ذكره العيدروس بأنه: (كان من الأولياء العارفين والعلماء العاملين، وكان والده يقول فيه: عبد الله صوفي حقاً. ومن كراماته ... إلخ)[1].

أما أمثال ابن حجر والسخاوي، فربما زادوا ما يشير لتعلقه من العلم بطرف، وإن لم يكن له مؤلفات، كما في ترجمة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عساس الأنصاري الخزرجي (ت٩٢٢هـ/ ١٥١٦م)، فقد ترجم له السخاوي، وذكر أنه كان فقيهاً صوفياً عارفاً بعلم الصوفية والحديث والعربية وأصول الدين غواص الفكر على الدقاق واستنباط الفوائد ويذاكر بأشياء مفيدة[2].

إلا أننا لا نجد مؤلفات كثيرة في الرد على التصوف، وقد يعزى ذلك لأمور منها:

ـ سطوة الدولة، وميل كثير من الأمراء للصوفية والمتصوفة، وسيأتي دراسة ذلك في المبحث التالي.

ـ ما كانت الصوفية تذيعه من سطوة المتصوفة الباطنية، فيخاف العوام من نشر كتب الرد عليهم لئلا يحدث لهم مكروه، يذكر ابن العماد عن المناوي أنه اجتمع الإمام ابن دقيق العيد بالبدوي فقال له ابن دقيق العيد: إنك لا تصلي وما هذا سنن الصالحين، فقال البدوي: اسكت وإلا أغبر دقيقك، ودفعه، فإذا هو

---

(١) العيدروس: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ج ١ / ص ١٠٣.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج ١ / ص ٢١٣.

بجزيرة عظيمة جداً، فضاق خاطره حتى كاد يهلك، فرأى الخضر فقال لا بأس عليك أن مثل البدوي لا يعترض عليه، لكن اذهب إلى هذه القبة وقف ببابها؛ فإنه يأتي عند دخول وقت العصر ليصلي بالناس، فتعلق بأذياله لعله أن يعفو عنك ففعل فدفعه فإذا هو بباب بيته، ثم ذكر أن ابن اللبان أنكر على البدوي، ووقع فيه فسلب القرآن والعلم فصار يستغيث بالأولياء حتى أغاثه ياقوت العرشي[1].

ـ ميل بعض العلماء للصوفية، وإن لم يروا التصوف، وغالب ذلك لما وجدوه في بعضهم من انجماع عن الدنيا في خضم التكالب عليها، فوقع في أنفسهم تعظيم الصوفية، بل ونجد بعض العلماء يُنص في تراجمهم على ما كان منهم من اعتقاد في الصوفية، وإن لم يكونوا من كبار العلماء، إلا أن هذا مما كان يروج أمر الصوفية ولاشك، ومما ذكر في ذلك السيد شرف الدين الشريف الشافعي العلامة المدرس بزاوية الحطاب بمصر، ذكروا في ترجمته أنه (كان على مجلسه الهيبة والوقار وله صحة اعتقاد في الصوفية يتواجد عند سماع كلامهم)[2]، وكذا العالم الفاضل الجمال أبو الفتح إبراهيم بن علي بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن علي القلقشندي(ت٩١٤هـ/ ١٥٠٨م)، والذي عمر حتى انفرد بعلو الإسناد وتزاحم عليه الطلبة من العباد، فقد ذكروا في ترجمته أيضاً أن له اعتناءً بالتحديث، واعتقاداً في الصوفية[3].

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج ٨ / ص٣٤٥، ٣٤٦.

(٢) انظر ترجمته في وفيات (٩٤٠هـ) في ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨ / ص٢٣٧؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج ١ / ص ٢٨٥.

(٣)العيدروس: النور السافر عن أخبار القرن العاشر، ج١ / ص٥٧.

ـ بعض ما كان يأتي به الصوفية من بدع كانت مما يرى بعض العلماء أنها بدع حسنة ، كما مرَّ في شأن المولد، فكان هذا يسهل دخول باقي البدع على العوام.

ـ مداهنة بعض الصوفية للعلماء، ومحاولتهم كسب ودهم بالحضور في مجالسهم، فقد ذكر السخاوي أن أحدهم وهو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن السطوحي المنير (ت٨٠١هـ/ ١٤٠٧م)، من المشايخ الأحمدية. لازمه في الإملاء وغيره مدة، قال: (بل وقرأ علي في البخاري والمجلس الذي عملته في ختمه وتمسح على طريقتهم)[1].

رابعاً: أهل الذمة:

الحديث عن أهل الذمة يعتبره بعض الباحثين شائكاً، حيث إنه يحوي كثيراً من العناصر المثيرة لاهتمام الباحثين، والفائقة الحساسية، ويفرض على الباحث نوعاً من الصرامة الموضوعية الخالصة[2].

والذي اتضح لي أن سبب هذه الحساسية في الحديث عن أهل الذمة هو الخلط بين ما وقع تاريخياً، وما ينبغي أن يكون، وهذا في الواقع لا يوجب هذا التوتر، لأنا دوماً نتحدث عن التاريخ بموضوعية، مع علم القارئ أن الإسلام فرض كذا وكذا، وأن كثيراً مما فرضه الإسلام لم يطبقه الناس في الواقع.

---

(١)السخاوي: الضوء اللامع ، ج ١ / ص ٣٣٨.

(٢) ومن هؤلاء الدكتور قاسم عبده قاسم في كتابه: "أهل الذمة".

بل الجميع يعلم أن المماليك لا يجيز الدين توليهم السلطنة وهم أرقاء، حتى إن العز بن عبد السلام صرح بذلك وباعهم، وقبض ثمنهم، ثم أشهد على عتقهم، ومع هذا فإنا نكتب تاريخهم باعتبارهم السلاطين قبل هذه الحادثة.

فلا ضير أن يكتب المؤرخ كذلك وقائع طوائف غير المسلمين، وينقد ما يراه منتقداً في ظل النصوص الشرعية والوقائع التاريخية[1].

وأهل الذمة اصطلاح عرفه الفقه الإسلامي يطلق على من يجوز عقد الذمة معهم، وهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى[2]، ومعنى الذمة: التزام تقرير (توطين) أهل الكتاب في ديار الإسلام وحمايتهم مقابل الجزية[3].

أي يمكن اعتبار أن الجزية بمثابة الجزية ضريبة دفاع وحماية وأمن.

وعقد الذمة يوجب التزام اليهود والنصارى بشروط ستة: عدم ذكر الإسلام بذم له أو قدح فيه، و عدم ذكر كتاب الله بطعن له أو تحريف فيه، عدم ذكر الرسول بتكذيب له أو ازدراء، وألا يصيبوا مسلمة بزنا أو باسم نكاح، و لا يفتنوا مسلماً عن دينه أو يتعرضوا لماله أو دمه، وألا يعينوا أهل الحرب[4].

---

(١) وهذا ما أحاول أن أكتب من خلاله مع البضاعة المزجاة.

(٢) كما اعتبر المجوس أهل ذمة وأخذت منهم الجزية، واعتبر السامرة والصائبة كذلك بشرط أن يوافقوا اليهود والنصارى في أصل عقيدتهم. ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١/ ص ١٠.

(٣) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٣٧؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣، ص ٣٥٦، ٣٥٧

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص ١٣٧، ١٣٩؛ النويري: نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٣٨، ٢٣٩

وخرق هذه الشروط يوجب إلغاء العقد ويطبق على المخالف حكم الشرع في ذلك، من قتل أو حل مال، ونحو ذلك.

ومع وجود عقد الذمة ونفاذه، يصبح أهل الذمة جزءاً من المجتمع المسلم، وليسوا منعزلين عنه، ولا أدلَّ على ذلك من التفاعل الاجتماعي الذي يبرز في حل أطعمة أهل الكتاب وذبائحهم التي ذكروا اسم الله عليها، وفوق ذلك إباحة التزوج منهم، وهي أكبر علامات العلاقات الاجتماعية الودية قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾[1]، كما أجاز عيادتهم أثناء المرض وشهود جنازتهم وتعزيتهم في مصابهم وتهنئتهم في أفراحهم[2]، وثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام جواز معاملتهم في البيع والشراء ومشاركتهم في التجارة[3].

ولم تزل هذه أوضاع أهل الذمة في عهود الإسلام الزاهرة، وسعد بذلك أهل الذمة الذين لم يعرفوا حضارة أرقى ولا أسمى من أمة الإسلام في إعطاء الحقوق، إلا أنه في بعض العهود حصل انتكاس في التصور الصحيح لأهل الذمة في الدولة إفراطاً أو تفريطاً، ولم تختص دولة بذلك دون أخرى، فمثلاً يعتبر العصر العبيدي (الفاطمي) عصر تساهل شديد مع أهل الذمة، لبلوغهم مراتب عليا في الدولة، إلا أنه في المقابل فقد كانت تشديدات غير شرعية في بداية حكم الخليفة

---

(١) سورة المائدة، آية ٥.

(٢) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١/ ص ٢٠٠، ٢٠٦ .

(٣) ابن قيم الجوزية : أحكام أهل الذمة، ج١/ ص ٢٤٤، ٢٤٥ .

الحاكم بأمر الله، فخيَّر كثيراً منهم بين اعتناق الإسلام أو الرحيل عن مصر، وصادر أموالهم وهدم الكثير من كنائسهم، ونقلهم من أحيائهم إلى حي زويلة [1].

ونتيجة لهذه الضغوطات؛ تحول الكثير منهم للإسلام، وفر آخرون خارج البلاد، غير أن الحاكم تسامح معهم في أواخر أيامه[2].

وعلى الرغم من الحملات الصليبية التي وردت على مصر والشام لاحقاً، إلا أن العصر الأيوبي كان عصراً هادئاً بالنسبة لأهل الذمة، فقد أتاحت الدولة بمفهومها الديني لرعاياها من اليهود والنصارى قدراً كبيراً من الحرية[3].

واستمر ذلك في العصر المملوكي، حيث كانت السلطة في العصر المللوكي قائمة على التنافس بين الأمراء على السلطة، وحرص الأمراء على تقرير التزامهم العدالة تجاه غير المسلمين، ويظهر ذلك من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر، والتي تأمر على أن تكون جهتهم مرعية على الدوام وذمتهم محفوظة بذمة الإسلام، وذلك عملاً بحكم الملة الإسلامية والشريعة المحمدية لأنهم أهل ذمة وكتاب[4].

وكانت الجزية (ويقال لها الجوالي) من موارد الدولة، وقد لوحظ أنها قد قلت جداً بعد القرن (الثامن الهجري/ الخامس عشر الميلادي)، وسبب ذلك كثرة

---

(١) المقريزي: الخطط، ج١،/ ص ٣٥٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤/ ص ١٧٨.

(٢) عبده قاسم: أهل الذمة، ص ٥٢.

(٣) عبده قاسم: أهل الذمة، ص ٥٤.

(٤) المقريزي: الخطط، ج١/ ص١٠٦.

إظهار النصارى الإسلام ابتداءً من عصر الناصر محمد بن قلاوون[1].

وفي القرن (٩هـ/ ١٦م) كانت الجزية تجمع سلفا في أول العام وفي بعض الأقاليم كانت تجبى قبل السنة بشهر أو شهرين، وأحياناً كانت تتأخر الدولة في جبايتها، ثم تلزم أهل الذمة بقضائها، كما أمر السلطان المؤيد شيخ النصارى واليهود بحمل الجزية عن كل فرد على حده سنة (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) وألزمهم بدفع الجزية عن السنوات الماضية، وأعيد فرض الجوالي على كل فرد منهم بحسب اختلاف أحوالهم، وتكرر ذلك سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٤م)[2].

وربما أصدرت الدولة المملوكية قرارات لجمع أموال بعض أهل الذمة، أو مصادرات مالية لهم، وظهر ذلك في العصر المملوكي بدولتيه، ففي سنة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) صودرت أوقاف الكنائس والأديرة ووزعت على الأمراء[3]، وفي سنة (٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م) قبض الأمير يلبغا السالمي على بطريرك اليعاقبة وألزمه بشراء بضائع معينة مقابل مبلغ حدده له، وفي سنة (٨١٦هـ/ ١٤١٤م) ألزم والي القاهرة النصارى واليهود بحمل ثلاثمائة جرة خمر إلى الجيزة وجمعت منهم بالعنف والضرب فضلاً عن الأموال التي غرموها[4]، وفي عام (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م) أحضر السلطان الأشرف قايتباي بطرك النصارى ورئيس اليهود

---

(١) عبده قاسم: أهل الذمة، ص ٥٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤/ ص ١٤٧؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص ٣٨، ٣٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/ ص ٩٢١.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٤/ ص ٢٧٢.

وألزمهما بمبالغ من المال اللازم لتجهيز الجيش لقتال العثمانيين، وفي عام (٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) صادر السلطان قايتباي اليهودَ والنصارى مرتين[1].

وربما صدرت القرارات بتميز أهل الذمة في اللباس وهو ما يقال له (الغيار) أي المغاير لما يرتديه المسلمون، فألزم النصارى باللون الأزرق، واليهود باللون الأصفر، والسامرة اللون الأحمر، كما حرم عليهم ركوب الخيل والبغال النفيسة وحمل السلاح والتقلد بالسيوف وما إلى ذلك، وكان على المحتسب أن يراعي التزامهم بذلك[2].وقد أمرت الدولة رؤساء أهل الذمة بالتزام هذه القيود.

وفي عام (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) ألزم اليهود والنصارى بلبس العمائم الكبيرة والجبب بالأكمام الواسعة، وكان السلاطين ينظرون في شكاوى أهل الذمة لرفع عنهم بعض ما كان يرونه من قيود زائدة، كما حدث في عام (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) حيث رفع أهل الذمة الشكوى إلى السلطان برسباي الذي جمع مجلساً من الفقهاء أسفر عن تخفيف تلك القيود، ثم تجددت القيود عام (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) على أهل الذمة، لكونهم تعدوا في ذلك وزادوا عن الحد المفروض عليهم[3].

وقد اتسمت النظرة لأهل الذمة في فترة حكم المماليك البحرية ببعض التوتر لوجود حوادث أوجبت ذلك منها: ثبوت خيانة بعض موظفي الدولة من النصارى، تلك الخيانة التي مكنت بطرس لوزينان ملك قبرص، بمساعدة ملوك

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٣٤٣.

(٢) ابن الأخوة: معالم القربة، ص ٤١، ٤٣؛ ابن بسام: نهاية الرتبة، ص ٢٠٧، ٢٠٨.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ عص ٣٨٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥/ ص ٤٠٧.

الغرب بالهجوم على الإسكندرية، في سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)، وساعده في دخول المدينة شمس الدين بن غراب وهو نصراني من موظفي الثغر الرسميين، وقد قام أمير الإسكندرية بقتله لاحقاً، نتيجة خيانته[١].

وقد قام الصليبيون في هذه الحملة بتدمير شامل للمدينة ومنشآتها دون تمييز بين أملاك المسلمين والمسيحيين واليهود، وقد قام أحد اليهود بدور الوساطة بين السلطات المملوكية وبطرس لوزينان، من أجل تبادل الأسرى المسلمين بأسرى تجار الفرنج، ولكن المفاوضات فشلت في تحقيق غرضها[٢].

إن وجود هذه الحادثة أدت ولا شك إلى توتر في النظرة إلى أهل الذمة وولائهم للدولة، وأدت إلى تشديد من الدولة تجاههم.

هذا إضافة إلى ما ترافق من الحروب الصليبية التي جاءت برفع الصليب حرباً على الإسلام والمسلمين، وما كان من مواقف أهل الذمة تجاهها، مما كان مثار انتقاد المؤرخين، حتى إن باحثاً له مواقف مضادة نسبياً لسياسات الدولة المملوكية يجد أن رد الفعل المملوكي ضد هذه الحروب كان مبرراً، وأن الحروب الصليبية لم تفعل شيئاً سوى استنفار مشاعر السلاطين ضد رعاياهم من المسيحيين[٣].

فكل هذا أدى إلى تشدد في السياسات المملوكية في العهد المملوكي الأول، تجاه أهل الذمة، إلا أنه لم يستمر هذا التوتر في العصر التالي، بل كانت فترة حكم

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ٤٢٥؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص١٢٢٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ١١٢.

(٣) قاسم عبده قاسم في كتابه: أهل الذمة، ص ٨٨.

المماليك الجراكسة في الجملة فترة هدوء بالنسبة لأهل الذمة، فكانت السلاطين تنظر إلى ذمتهم بعين الرعاية، وتنظر في شكاتهم حتى لو كان الطرف الآخر أميراً بل قاضياً!!، ففي عام (٧٩٣هـ/ ١٣٥٤م) نودي في القاهرة ومصر ألا يتعرض أحد لليهود ولا النصارى، وحين قام الأمير ناصر الدين بن أقبغا بالتضييق على النصارى قاموا بالشكاية عند السلطان الظاهر برقوق فقام بمصادرته، وفي عام (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م) قام السلطان برقوق بضرب القاضي المالكي نائب قاضي القضاة قصاصاً منه بسبب شكوى أحد النصارى[1].

أما تأثير هذه الشريحة من المجتمع (أهل الذمة) على الأوضاع العلمية في العهد الجركسي، فلم أجد كبيرَ تأثير في ذلك، كما أن المعلومات المتاحة عن النشاط الثقافي لهم غير متوفرة فيما بين أيدينا من المراجع، ولم أعثر على مؤلفات أو نشاطات علمية لهم بين أيدينا[2]؛ وإن وجد فهي إشارات في كتب تلمز بأن لهم نشاطا علميا ملحوظاً، فقد أورد زقلمة في كتابه أنه في عام (٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م) حين هجم عرب الوجه القبلي على ديري أنطونيوس وبولاق وقتلوا جميع من فيهما من الرهبان والأقباط وبقيا خراباً نحو ثمانين سنة، وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة فجمعوها وأحرقوها

(١) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ٨٣؛ ابن الفرات: تاريخ ابن فرات، ج٩/ ص ٤٠٢.

(٢) ذكر د.قاسم: أن المعلومات المتاحة عن موقف أهل الذمة من الحياة الثقافية والعلمية في عصر المماليك قليلة بدرجة لا تمكننا من إعطاء أية صورة تفصيلية عنها. أهل الذمة في مصر، ص١٥٧.

عن آخرها، ولم يبق منها إلا ما خفي عن عيونهم[1].

ففي هذا النص ما يشير إلى جمع أهل الذمة للكتب في معابدهم، وإن كان يغلب على الظن أنها تعنى ببيان أوجه عبادتهم وصلواتهم، إلا أننا في المقابل نشعر من قوله: (وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة) ما يشير إلى احتوائهما على كتب أخرى.

وحتى التأثير العكسي لم يظهر في هذا العصر، وأعني به وجود مؤلفات علمية تبين أحكام أهل الذمة، أو ترد على انحرافات لديهم، فإنه قد وجد في العصر المملوكي الأول مؤلفات من علماء المسلمين في أحكام أهل الذمة والرد عليهم، كمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم وغيرهما، إلا أن العصر الجركسي لم أعثر فيه على مؤلفات في هذا الجانب.

كما أن علوم الطب والفلك التي كانت عادة ما ينبغ أن يبرز فيها بعض أهل الذمة، لم أعثر على ما يمكن أن يكون بارزاً في العصر الجركسي.

ويمكن أن نرجع هذا إلى أمور:

أولاً: تداعيات الحملات الصليبية، أمثال واقعة الإسكندرية ودخول بطرس القبرصي لها في سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) كما تقدم، وكذا الكثير من الأعمال التي قاموا بها وكانت تثير حفيظة المسلمين، والتي أوجبت قيام دولة المماليك البحرية والشعب عليهم غير مرة، كما كان في أعوام (٧٢١هـ/ ١٣٢٠م)

---

(١) أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص ١٤٦.

(٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)، وغيرها[1]، مما جعل أحوال أهل الذمة أكثر استقراراً، فلم تظهر مصنفات الرد ونحو ذلك.

ثانياً: أن العصر كان عصر تقدم علوم الشريعة والعربية، وأهل الذمة لا يبرزون في هذه العلوم، وأما علوم الطب التي كانوا يبرعون فيها عادة، فقد منعوا من ممارستها العملية أحياناً، كما كان قبل دولة المماليك البرجية في عام (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)، حيث (امتنع اليهود والنصارى من تعاطي صناعة الطب وبذل الأقباط جهدهم في إبطال ذلك، فلم يجابوا إليه)[2]، وربما منعوا من تطبيب المسلمين خاصة، كما في عام (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) حيث رُسِم (بمنع اليهود والنصارى من طب أبدان المسلمين)[3].

ثالثاً: كثرة من دخل في الإسلام من أهل الذمة، في أواخر عهد المماليك البحرية، بحيث صار المهتم بالعلم منهم من جملة المسلمين، وقد أرَّخ المقريزي ذلك في عام (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م) فقال: (وكثرت الأخبار من الوجه القبلي والوجه البحري بدخول النصارى في الإسلام، ومواظبتهم المساجد، وحفظهم للقرآن، حتى أن منهم من ثبتت عدالته وجلس مع الشهود. فإنه لم يبق في جميع أعمال مصر كلها قبليها وبحريها كنيسة حتى هدمت، وبني مواضع كثير منها مساجد. فلما عظم البلاء على النصارى، وقلت أرزاقهم، رأوا أن يدخلوا في

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص٢١٦؛ قاسم عبده: أهل الذمة، ص١٧١.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢/ ص٢١٥.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص٢٨٧.

الإسلام. ففشا الإسلام في عامة نصارى أرض مصر، حتى أنه أسلم من مدينة قليوب خاصة في يوم واحد أربعمائة وخمسون نفراً .... فنكح هؤلاء الذين أظهروا الإسلام بالأرياف المسلمات، واستولدوهن، ثم قدم أولادهم إلى القاهرة، وصار منهم قضاة وشهود وعلماء)[1].

وقد كان الأمر ينظر إليه بتوجس ولذا يعلق المقريزي على إسلامهم بقوله: (وحمل كثير من الناس فعلهم هذا على أنه من جملة مكرهم، لكثرة ما شنع العامة في أمرهم)، إلى أن قال: (ومن عرف سيرتهم في أنفسهم، وفيما ولوه من أمور المسلمين، تفطن لما لا يمكن التصريح به... وأنهم بعد التزامهم أحكام العهد يعودون إلى ما نهوا عنه)[2].

وقد تولى الكثير ممن أسلم من أهل الذمة المناصب الرفيعة في البلاد، إلى أن تولى بعضهم الوزارة، وكثير منهم أسهم في الحياة العلمية بعد إسلامهم، من بناء المساجد والمدارس، أو جمع الكتب وتشجيع طلبة العلم، ومن هؤلاء: عبد الله بن المقسي شمس الدين (ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م) كان يقال له (شمس)، وهو نصراني فلما أسلم لقب شمس الدين وسمي عبد الله ويقال : إنه كان حسن الإسلام، وتجديده الجامع بباب البحر وأوصى أن يدفن بجواره وكان يقرب العلماء، ويحب الصلحاء[3]. والصاحب سعد الدين إبراهيم البشيري (ت٨١٨هـ/ ١٤١٥م)

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢/ ص٢١٦.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢، ص ٢٥.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١/ ص١٧٤.

وكان معدوداً من رؤساء الأقباط، ولكنه أسلم وحسن إسلامه، وتنقل في عدة وظائف إلى أن ولي الوزارة غير مرة، ونظر الخاص، وكان أقل ظلماً من غيره من الوزراء، وكان جيد الإسلام، وجدد بناء الجامع المجاور لبيته الذي في بركة الرطلي [1]. وعبد الوهاب بن عبد الله بن موسى بن أبي شاكر، تاج الدين، القبطي الأصل، المصري، (ت٨١٩هـ/ ١٤١٦م)، تفقه على مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه، وكان صحيح الإسلام، وولي الوزارة بالديار المصرية إلى أن توفي بالقاهرة[2]. وعبد الله بن شاكر (ويقال: عبد الكريم بن أبي شاكر) بن عبد الله بن الغنام القبطي الصاحب كريم الدين (ت٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) ولي الوزارة في حياة الأشرف ثم باشرها مرارا وحج كثيرا وجاور وجعل داره مدرسة وعمر أزيد من تسعين سنة، وقيل بل أناف على المائة وحواسه سليمة)[3]. وعبد الرزاق بن عبد الله بن عبد الوهاب، الصاحب الوزير تاج الدين بن شمس الدين بن علم الدين، الشهير بابن كاتب المناخ (ت٨٢٦هـ/ ١٤٢٤م)، وزير الديار المصرية[4]. وحسن بن سويد المصري المالكي القاضي بدر الدين (ت٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م) لازم الاشتغال بالعلم، وبنى المدرسة السويدية، ومات قبل أن تكمل وأوصى لها بأربعة

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ج١/ ص٤٢٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٤/ ص ٥٨؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٥٧.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ، ج٢ / ص١٥٢.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ج١/ ص ٤٨٧؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢/ ص ١٣٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٩.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢ / ص١١٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٤٢.

آلاف دينار لتكميلها فصيرها أولاده بعد جامعا[1]. وسعد الدين أبو غالب القبطي، (ت٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م)، الذي عرف بحبه لطلبة العلم والكتب، قال ابن تغري بردي: (وكانت لديه فضيلة ومشاركة جيدة ومحاضرة حسنة مع محبة طلبة العلم وجمع للكتب وتجنب القبط والنصارى وبالجملة فكان خير أبناء جنسه رحمه الله)[2]، ويقول عنه السخاوي: (وجمع الكتب ولذا تردد إليه جماعة من الفضلاء والأعيان ...وحمدوا عقله وأدبه وكرمه)[3].

وأما علوم الطب فقد برز في ذلك ممن أسلم من أهل الذمة: بيت نفيس الداودي، وكان نفيس يهودياً، اختص بالأمير شيخو العمري وطلبه، وصار يركب بغلة بخف ومهماز، وهو على اليهودية، ثم أنه أسلم على يد السلطان حسن بن قلاوون[4]. وقد برز في الطب ولده: الشيخ الإمام بديع بن نفيس، صدر الدين التبريزي، الحكيم الطبيب رئيس الأطباء (ت٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)، كان إماماً في الطب كثير الحفظ لمتونه، جيد التدبير، حاذقاً، ماهراً، مقرباً عند الملوك والأكابر، رأساً في صناعته، وهو صاحب التصانيف، ولم يزل في رئاسة الطب إلى أن مات[5]. ومن بعده ابن أخيه: فتح الدين فتح اللهّ بن معتصم بن نفيس الداودي، ولد سنة

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص٥٤٤؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٠٤.

(٢) حوادث الدهور: ج١/ ص١٦٤.

(٣) الضوء اللامع : ج٥/ ص ٢٩٢.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ / ص٤٩٤.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١ / ص٢٤٩؛ النجوم الزاهرة، ج٣ / ص٣٦٦.

تسع وخمسين، وقدم مع أبيه إلى القاهرة، فمات أبوه معتصم وهو صغير فكفله عمه بديع بن نفيس، فتميز في الطب، وبرع وقرأ في الفقه، وتردد إلى مجالس العلم، وتعلم الخط وباشر العلاج، واستقر في رئاسة الطب بعد موت عمه بديع، ثم عالج السلطان الظاهر برقوقا، فأعجبه، وكان يدري كثيرا من الألسنة ومن الأخبار، فراج عند الظاهر واختص به، وصار له مجلس لا يحضر معه فيه غيره، وباشر رئاسة الطب بعفة ونزاهة، ولما توفي العلامة القاضي بدر الدين محمود بن عبد الله الكلستاني السرائي الحنفي، كاتب السر الشريف بالديار المصرية، ولي بعده كتابة السر فتح الدين، وفي سنة (٨١٦هـ/ ١٤١٣م) رسم السلطان شيخ المحمودي بخنق فتح الله فخنق تحت الليل ودفن ولم يشعر به أحد، وكان فاضلاً ماهرا في عبارة التوقيع، حسن الخط، ماهراً في علم الطب، أصله إسرائيليٌّ من أبناء اليهود، كان في ابتداء أمره طبيباً في البيمارستان ثم رقي في أيام الظاهر برقوق حتى بقي كاتب السر بالديار المصرية[(١)].

(١)ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص ٤١٢؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣ / ص ٤٣٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٦.

المبحث الثاني

العلاقة بين السلاطين والطوائف الدينية، وأثرها على الحياة العلمية

مع تنوع الطوائف الدينية في مصر المملوكية، كان لابد أن تنشأ علاقة بين الدولة وهذه الطوائف بمختلف الأشكال، مما يضمن بقاء المماليك حكاماً، فصار كثير من سلاطينهم يتودد إلى بعض الطوائف على حساب طوائف أخرى، وربما انتمى أحد السلاطين إلى طائفة فيناصرها على غيرها، بل امتد هذا إلى أهل الذمة، فأصبحت هناك علاقات حميمة بين السلاطين والنصارى واليهود، أثرت إلى حد بعيد في توجهات السلاطين ضدهم، بل وكان لها أبرز الأثر في علاقة السلاطين بالمسلمين.

ومن المتوقع أن تتأثر الحياة العلمية نتيجة هذه العلاقات المتعددة المتباينة، والتي اتخذت منحى متشابهاً في الغالب في فترة المماليك الجراكسة، مع وجود بعض الاختلافات التي أوجبت تأثيراً مخالفاً في فترة حكم بعض السلاطين، وفيما يلي بيان هذه العلاقة وتأثيرها على الحياة العلمية مع مختلف الطوائف.

*** العلاقة بين السلاطين والشيعة والتشيع:**

بعد البحث في ثنايا الكتب والتراجم لم أجد أثراً لوجود علاقة بين السلاطين والشيعة، لأن التشيع يكاد يكون قد اختفى من مصر المملوكية، كما تقدم بحث ذلك في المبحث الماضي، وإنما كانت هناك بقايا من أقوال **الباطنية**، وكان السلاطين ينكلون بمن تقام عليه الحجة بانتمائه لهذه الطوائف المارقة.

فمن ذلك الطائفة النسيمية[1] أو (الحروفية)[2]، فقد ظهر بعض المنتسبين لهذه الطريقة، وذلك في عهد السلطان برسباي، في أواخر رمضان (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) حيث حضر عند السلطان شريفٌ من الشام ومعه أوراق بخط الشيخ علاء الدين البخاري[3] فيما يتعلق بالنسيمي وشيخه فضل الله، وأن بالشام ومصر جماعة على عقيدته، وأنه تصدى لتتبعهم وكشف عورتهم، وأنه وجد بالقاهرة شخصا منهم، فقرئ كتاب الشيخ علاء الدين فأمر السلطان بإحضار الرجل وما في بيته من ورق ففعل ذلك، فلما كان في رابع شوال عقد مجلس بالقصر عند السلطان وأحضرت الكتب وبعضها من كلام شيخه وهي باللسان الفارسي فقرأ من أول واحد منها شيئا يسيرا وفسره بالعربي وهي مقالة

(١) تنسب إلى الشيخ نسيم الدين التبريزي ، سكن حلب وكثر أتباعه وشاعت بدعته فآل أمره إلى أن أمر السلطان بقتله فضربت عنقه وسلخ جلده وصلب سنة (٨٤١ هـ/ ١٤٣٧م). ابن حجر: إنباء الغمر، ج٧/ ص ٢٦٩.

(٢) الحروفية: أسسها فضل الله بن عبد الرحمن الحسيني الإستراباذي الشيعي، كان يتنقل بين مدن فارس، قتل سنة (٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، وسميت الحروفية لاعتنائهم الزائد بالحروف وأسرارها على طريقة الطلاسم، واستنطاق الحروف والتنجيم. ابن حجر: إنباء الغمر، ج١/ ص ٤٥٢؛ محمود عبد الرءوف القاسم: الكشف عن حقيقة الصوفية: ج ١/ ص٣٤٣.

(٣) علاء الدين البخاري: هو محمد بن محمد بن محمد البخاري الحنفي(ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)، رحل إلى الأقطار، وأخذ عن العلماء، وتوجه إلى الهند فاستوطنه مدة وعظم أمره عند ملوكه، ثم قدم مكة فأقام بها ودخل مصر فاستوطنها وتصدر للإقراء بها ونال عظمة بالقاهرة، ثم توجه إلى الشام ومات بها.ابن العماد: شذرات الذهب، ج ٢/ ص٢٤٠.

مركبة من قول المشبهة[1] والاتحادية[2]، فقرأ الشافعي خط الشيخ علاء الدين، وفيه أن شعر الإنسان في وجهه ورأسه سبعة شعور: شعر أجفانه الأربعة وحاجباه ورأسه، وأن في وجهه آخر سبعة، وأن عقد أصابعه في اليدين أربعة عشر، فذلك عدد حروف المعجم ونحو من هذا، وفيه أن الإلهية انتقلت من الله لآدم ومن آدم لآخر إلى أن انتقلت لفضل الله وكلاما من هذا حاصله إن الله هو الحروف، ثم أحضر الرجل فسئل عنها فقيل إنه شراها من حصن كيفا بثلاثين درهماً ولا يعتقد شيئا مما فيها وأعلن بالشهادتين والتبرؤ من كل دين يخالف دين الإسلام وصرح بكفر من صنف هذه الكتب وشيخه أو يعتقد ما فيها، فقال له الشافعي إن كنت صادقا فاحرق هذه الكتب بيدك، فامتثل ذلك بعد أن حاد عن الجواب وباشر إحراق ذلك بنفسه، ثم سأل السلطان: هل علي إثم إذا أخرجت هذا ومثاله من بلادي؟ فقال: لا، فنودي من عرف من أهل مذهب النسيمي ووجد عنده شيء من كتبه وأحضره للسلطان كان له مائة دينار ثم أمر فنودي أن يخرج جميع العجم من القاهرة والقلعة بأسرهم ولا يتأخر منهم إلى ثلاثة أيام ثم لم يتم ذلك[3].

---

(١) المشبهة: هم في أصلهم: جماعة من الشيعة الغالية صرحوا بتشبيه الخالق بالمخلوق، وأن الله على صورة ذات أعضاء وأبعاض إما روحانية وأما جسمانية.الشهرستاني: الملل والنحل ، ج١/ ص٤٨.

(٢) الاتحادية: ظهرت الاتحادية عندما اختلط التصوف بالفلسفة اليونانية ، وظهرت أفكار الحلول والاتحاد ووحدة الوجود ، وبذلك تعد هذه الطبقة من أخطر طبقات ومراحل التصوف والتي تعدت مرحلة البدع العملية إلى البدع العلمية التي بها يخرج التصوف عن الإسلام بالكلية. أبو العزايم جاد الكريم بكير: طلائع الصوفية ، ج١/ ص١٣.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١/ ص٦١٤.

فهذه الحادثة تبين قوة العلاقة بين أهل السنة والسلاطين من جهة، ومدى قوة الدولة في الضرب على مبتدعي المتشيعة من جهة أخرى، حيث نودي أن يخرج العجم من القاهرة والقلعة، لأن هذه البدع كانت منتشرة فيهم، ولعل عدم تمام الأمر يرجع لنوع من التروي بعدم أخذ الصالح بجريرة الطالح، لكن محل الشاهد ظاهر في ذلك، إلا أن عدم تمام الأمر كما يذكر ابن حجر؛ فقد يرجع إلى أمور كثيرة، وقد يفسر بنفوذ العجم، أو بالتواني في أجهزة الدولة عن تطبيق أمر السلطان، إلا أنه يحتمل أيضاً أن يكون ثمة شفاعات ظهرت في الأفق، مما رأى السلطان معه المصلحة في عدم التطبيق.

لكن بلا شك فمثل هذا القرار لا بد أن يكون له تأثير كبير على التوجه الحضاري والناحية العلمية في هذه الفترة، فذلك يؤدي حقيقة إلى كشف زيف التوجه العقائدي الشيعي أمام الملأ والسلطان، وذلك مدعاة للناس لعدم النظر إلى هذه الفرقة ومبادئها وفكرها وعلومها.

ومعلوم أن مثل هذا يكون له تأثيره في الناحية العلمية، من انصراف الناس عن التشيع، وهو ما ظهرت آثاره إلى نهاية الدولة المملوكية.

*** العلاقة بين السلاطين وأهل السنة:**

كانت العلاقة بين السلاطين وأهل السنة في أوج عهودها في الدولة المملوكية، فقد دأب المصريون على احترام العلماء وتبجيلهم ، ولما تسلطن المماليك على مصر عرفوا ذلك، فقدموا العلماء واحترموهم وأجلوهم، فهم بحاجة إلى

دعامة يستندون عليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب[1]، بحكم ما للدين ورجاله من قوة وسطوة في النفوس، لأن العلماء ورثة الأنبياء وبهم عرفوا دين الإسلام وفي بركة علمهم يعيشون[2]، ولما كان المماليك عصائب يغلبون على الأمر واحداً بعد واحد، على حد تعبير ابن خلدون[3]، لذا كان على الأمير الذي يطمع في الحكم أن يتودد إلى العلماء ليكسبهم إلى جانبه، ليضمن بذلك تأييد الرأي العام، ولذا نجد العيني يذكر الأسباب التي بررت استحقاق الملك المؤيد السلطنة، فيقدمها بقوله أنه كان له: (الفضل والكرم والإحسان إلى أهل العلم)[4].

وكانت هذه العلاقة القوية هي الطابع العام في دولة المماليك عامة، والمماليك البرجية خاصة، وذلك لأن بعض السلاطين والأمراء كان له اشتغال بالعلم وتقريب للعلماء، وتخصيص أوقاتٍ لهم للمنادمة دون غيرهم من طوائف الشعب، بل كان من السلاطين من يقوم للعلماء إذا وردوا عليه كما كان حال السلطان الظاهر، فإنه كان يحب أهل الخير والصلاح، وكان يقوم للقضاة والفقهاء وأهل الخير، وهذا شيء لم يعهد من ملك قبله في الدولة التركية[5].

ومن خلال قوة هذه العلاقة؛ قام العلماء بدور الوساطة بين أفراد الرعية والسلاطين، فكان الناس يلجأون إلى العلماء لرفع الشفاعات إلى السلاطين، وممن

---

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٩.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص١٨٣.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص١٨٣.

(٤) العيني: السيف المهند، ص١٦٧؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص٢٩.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج١ / ص ٢٧٠.

اشتهر بذلك: الشهاب ابن الناصح (ت ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، وكان إماماً شافعياً اشتهر بالصلاح والتفاني في خدمة الناس فترددوا إليه، وسألوه حوائجهم، فتصدى لقضائها عدة سنين في الأيام الظاهرية وكانت شفاعاته مقبولة عند السلطان والأمراء لا ترد ورقته[1].

ومن أبرز صور قوة العلاقة بين السلاطين وعلماء السنة، ما كان من اصطفاء السلاطين لبعض العلماء للمنادمة والاختصاص، وهذا يؤدي بدوره إلى قوة ارتباط الناس بالعلماء، مما أدى دوره في تنشيط الحالة العلمية.

بل ربما كان للسلطان أكثر من نديم من العلماء، من مختلف المذاهب، فكان السلطان المؤيد شيخ ينادمه مجموعة من العلماء منهم: المحدث شمس الدين محمد بن أحمد بن معالي الحبتي الحنبلي الدمشقي (ت٨٢٥هـ/ ١٤٢١م)، وكان يقرأ البخاري عند السلطان، وهو أحد فقهاء الحنابلة وأحد ندماء الملك المؤيد شيخ وأصحابه قديماً، ولاه مشيخة المدرسة الخروبية بالجيزة[2].

ومنهم الشيخ الإمام العالم بدر الدين محمود ابن الشيخ الإمام شمس الدين محمد الأقصرائي الحنفي (ت ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م)، كان بارعاً ذكياً فاضلاً فقيهاً مشاركاً في عدة فنون، حسن المحاضرة، مقرباً من الملوك ومات ولم يبلغ الثلاثين، وهو أحد ندماء الملك المؤيد شيخ، ثم الملك الظاهر ططر، وعظم أمره عند الملك

---

(١) المقريزي:درر العقود، ج٢/ ص ٣٩٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص٢٩٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤/ ص ١٩٥.

الظاهر ططر واختص به إلى الغاية، وتردد الناس إلى بابه، ورشح إلى الوظائف السنية، فعاجلته المنية ومات بعد مدة يسيرة[1].

ومنهم القاضي بهاء الدين محمد بن بدر الدين حسن بن عبد الله المعروف بالبرجي (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢٠م)، وقد ولي عدة وظائف، فولي حسبة القاهرة غير مرة، ووكالة بيت المال ونظر الكسوة، وباشر عمارة الجامع المؤيدي. وكان من أصحاب الملك الظاهر ططر[2].

كما كان قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني محتسب القاهرة يقرأ للأشرف برسباي في الليل تواريخ الملوك ويترجمها له بالتركية[3]

وبلغ من قوة العلاقة بين العلماء والدولة أن السلطان الظاهر، لما أفتى العلماء بقتله بعد حبسه بالكرك، خرج وتسلطن، إلا أنه لم يعاقبهم، بل اختلف عليهم في المقابلة والود، لكن لم يترك عادة إكرامهم، يقول ابن تغري بردي: (وتنكر للفقهاء بعد حبسه بالكرك؛ من أجل أنهم أفتوا بقتله، ومع ذلك كان لا يترك إكرامهم)[4].

أثر العلاقة بين السلاطين والعلماء على الناحية العلمية:

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص ١٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص٢٨٨؛ ج١٥/ ص١٠٩.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩/ ص ٨٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص٧٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٤٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص١١٩.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ، ج١ / ص٢٧٠.

نتج من قوة العلاقة بين السلاطين والعلماء تطور في الحركة العلمية وتنشيط لها في مجالات مختلفة، وسيأتي في مبحث (مظاهر اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء والأعيان بالحياة العلمية)[1] صور جلية تدل على ثمرة هذه العلاقة بين السلاطين وأهل السنة.

إلا أني أحب أن أبين هنا أثر هذه العلاقة على الناحية العلمية إيجاباً وسلباً.

فمن الناحية الإيجابية كان هناك تشجيع لحضور مجالس العلم، ومنها مجالس سماع الحديث، فكان السلاطين يضعون المكافآت لمن يحضرها، وعندما هم بعض السلاطين بوقفها، شفع العلماء لعودتها، ففي رمضان (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) أمر السلطان برسباي بترك أكثر الخلع التي قررت لمن يحضر سماع الحديث، ثم شفع فيهم وقيل له: لو كان هذا قبل أن يحضروا، فإن كان ولا بد وقد قضوا المدة كلها تصرف لهم هذا العام ثم يعلموا ويقطعوا فيما يستقبل، فأمر بالصرف لهم[2].

كما أن العلاقة القوية بين السلاطين والعلماء أدت ببعض السلاطين إلى أخذ بعض ما وكل إلى العلماء وتوليه بأنفسهم، فكان الملك الظاهر ططر مائلا إلى العدل وأهل العلم يحبهم ويكرمهم ويتكلم في مسائل من الفقه على مذهب أبي حنيفة، وعنده استحضار لمذهبه، وكان ملازماً للقراءة على مشايخ القراء، وكان يتصدى للأحكام بنفسه[3].

---

(١) في الباب الثاني: الأوضاع السياسية.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٨ / ص ٣٥٠، ٣٥١؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١، ص٢٥١.

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢/ ص٤٦٣؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١/ ص٢٨٥.

وربما تعدت العلاقة إلى نوع من العلاقة العلمية، فربما أورد بعض السلاطين في مجالسهم المسائل على العلماء، وجرى الحديث في جوابها، ولا سيما في مجالس المهتمين بالعلم كالسلطان ططر وجقمق ونحوهم، بل أورد السلطان الأشرف قايتباي ٣٠٠ سؤالاً للعلماء، تصدى الفقيه الحنفي أحمد بن محمد بن حسن بن علي بن محمد العباسي: (ت نحو ٨٩٠ هـ/ نحو ١٤٨٥م)، للرد عليها في مصنف مستقل أسماه (تحفة السائل إلى أجوبة المسائل)[1]

كما نشطت الترجمة من خلال علاقة العلماء بالسلاطين، فقد كان قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني محتسب القاهرة يقرأ للأشرف برسباي في الليل تواريخ الملوك ويترجمها له بالتركية[2]

ولاشك أن هذا يشير إلى تضلعه في اللغة التركة، ويشير إلى نوع من الفنون برز من خلال هذه العلاقة بين السلطان والعلماء، وهو (فن الترجمة)، ولم يكن مشهوراً في مصر المملوكية، إذ كانت اللغة العربية هي السائدة بعامة في العلوم والمصنفات.

إلا أنه في المقابل كانت بعض هذه العلاقات لها مظاهرها السلبية، فمثلاً رغم أن السلطان الظاهر ططر كان كثير الصلاة ديناً كثير التقشف والتواضع،

---

(١) الزركلي: الأعلام، ج١ / ص٢٣١؛ كحالة: معجم المؤلفين، ج ٢ / ص ٩١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص ١١٩.

يقوم للفقهاء والصلحاء إذا دخلوا عليه، إلا أنه كان عنده حدة في المزاج مع بطش وسوء خلق ولهذا حبس في سجن المقشرة جماعة من العلماء والقضاة والأعيان(1).

ولعل من أسباب ذلك أنه كان شديد التعصب لمذهب الحنفية، مع طيش وخفة في خلقه، فكأنه يريد أن لا يدع أحدا من الفقهاء غير الحنفية(2).

وأشد من ذلك أن يستولي على عقل السلطان بعض الطوائف من أهل السنة فيكيدوا لغيرهم من خلال سطوة الدولة، فكان من المظاهر السلبية للعلاقة بين السلاطين والعلماء، وأبرز حادثة لهذه هي معاقبة الشيخ ابن أبي العز الحنفي (٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) على أمر هو محق فيه، إلا أن مخالفيه أوضحوا الأمر للسلطان على غير وجهه، فكانت هذه الشائعات المغرضة سبباً في اعتقاله وحبسه، وهو من خيار العلماء، ويحدثنا ابن حجر عن هذه الحادثة فيقول: (وفيها (أي ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م) كائنة الشيخ صدر الدين علي ابن العز الحنفي بدمشق، وأولها أن الأديب علي بن أيبك الصفدي عمل قصيدة لامية على وزن [بانت سعاد](3) وعرضها

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص٢٥٨؛ ابن تغري بردي : حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور، ج٢ / ص٤٦٣.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع ، ج١ / ص ٢٨٥.

(٣) وهي القصيدة المشهورة المنسوبة للصحابي الشاعر كعب بن زهير بن أبي سُلمى والتي أنشدها معتذراً بين يدي النبي ﷺ وقد تناولها العلماء والأدباء بالشرح والتعليق، ومطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول.

ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ، ج ٥ / ص ٥٩٢؛ أبو زيد القرشي: جمهرة أشعار العرب ، ج ١/ ص ٨٠.

على الأدباء والعلماء فقرظوها ومنهم صدر الدين علي بن علاء الدين بن العز الحنفي، ثم انتقد فيها أشياء فوقف عليها علي ابن أيبك المذكور، فساءه ذلك ودار بالورقة على بعض العلماء فأنكر غالب من وقف عليها ذلك، وشاع الأمر فالتمس ابن أيبك من ابن العز أن يعطيه شيئاً، ويعيد إليه الورقة فامتنع، فدار على المخالفين وألبهم عليه، وشاع الأمر إلى أن انتهى إلى مصر، فقام فيه بعض المتعصبين إلى أن انتهت القضية للسلطان فكتب مرسوما طويلا، قال فيه: (بلغنا أن علي بن أيبك مدح النبي ﷺ بقصيدة وأن علي بن العز اعترض عليه وأنكر أموراً منها: التوسل بالنبي ﷺ والقدح في عصمته وغير ذلك وأن العلماء بالديار المصرية خصوصا أهل مذهبه من الحنفية أنكروا ذلك، فتقدم بطلبه وطلب القضاة والعلماء من أهل المذاهب ونعمل معه ما يقتضيه الشرع من تعزير وغيره)[1].

وفي المرسوم أيضا بلغنا أن جماعة بدمشق ينتحلون مذهب ابن حزم وداود[2] ويدعون إليه، منهم القرشي وابن الجائي والحسباني والناسوفي، فتقدم بطلبهم فإن ثبت عليهم منه شيء عمل بمقتضاه من ضرب ونفي وقطع معلوم، ويقرر في وظائفهم غيرهم من أهل السنة والجماعة.

---

(١) من الواضح أن الأمر نقل للسلطان على أنه (حط من مقام النبي ﷺ) لذا أمر بذلك.

(٢) مذهب داود وابن حزم هو المذهب الظاهري، وهم من أهل السنة، إلا أن التعصب حمل بعضهم على استغلال العلاقة بينه وبين السلطان لفعل هذا.

وفيه: وبلغنا أن جماعة من الشافعية والحنابلة والمالكية يظهرون البدع ومذهب ابن تيمية فذكر نحو ما تقدم في الظاهرية[1].

فطلب النائب القضاة وغيرهم فحضر أول مرة القضاة ونوابهم وبعض المفتين فقرأ عليه المرسوم، وأحضر خط ابن العز فوجد فيه قوله: حسبي الله، هذا لا يقال إلا لله، وقوله: اشفع لي، قال: لا يطلب منه الشفاعة، ومنها: توسلت بك، قال: لا يتوسل به، وقوله: المعصوم من الزلل، قال: إلا من زلة العتاب، وقوله: يا خير خلق الله، الراجح تفضيل الملائكة[2]، إلى غير ذلك فسئل فاعترف ثم قال: رجعت عن ذلك وأنا الآن أعتقد غير ما قلت أولاً[3].

فكتب ما قال وانفصل المجلس، ثم طلب بقية العلماء فحضروا المجلس الثاني وحضر القضاة أيضا، وممن حضر: القاضي شمس الدين الصرخدي، والقاضي شرف الدين الشريشي، والقاضي شهاب الدين الزهري، وجمع كثير، فأعيد الكلام فقال بعضهم: يعزر، وقال بعضهم: ما وقع معه من الكلام أولا كاف في تعزير مثله، وقال القاضي الحنبلي: هذا كاف عندي في تعزير مثله، وانفصلوا ثم طلبوا ثالثا وطلب من تأخر وكتب أسماؤهم في ورقة، فحضر

---

(١) هذه كانت نظرة الدولة لشيخ الإسلام ابن تيمية، ويعزى ذلك إلى تسلط أصحاب البدع على مناصب في الدولة، وتقربهم من السلطان مما دفعهم إلى تشويه ما يطرحه ابن تيمية والقول بأنه دين جديد وما أشبهه، وحمل السلطان على ذلك.

(٢) انظر في مناقشة هذه المسائل مقدمة تحقيق التركي لشرح الطحاوية، ص٩١ ـ ١٠٥.

(٣) لا يكون هذا إلا على سبيل التعريض منه رحمه الله، وهو يشير إلى ما كان من مدى سطوة الدولة على مذهب السلف بسبب النواحي السيئة لعلاقة العلماء الأشعرية بالسلاطين.

القاضي الشافعي، وحضر ممن لم يحضر أولا: أمين الدين الأتقى، وبرهان الدين بن الصنهاجي، وشمس الدين بن عبيد الحنبلي وجماعة، ودار الكلام أيضا بينهم، ثم انفصلوا ثم طلبوا، وشدد الأمر على من تأخر فحضروا أيضا وممن حضر: سعد الدين النووي، وجمال الدين الكردي، وشرف الدين الغزي، وزين الدين بن رجب، وتقي الدين بن مفلح، وأخوه، وشهاب الدين بن حجي، فتواردوا على الإنكار على ابن العز في أكثر ما قاله، ثم سئلوا عن قضية الذين نسبوا إلى الظاهر وإلى ابن تيمية فأجابوا كلهم أنهم لا يعلمون في المسمين من جهة الاعتقاد إلا خيرا، وتوقف ابن مفلح[1] في بعضهم.

ثم حضروا خامس مرة واتفق رأيهم على أنه لا بد من تعزير ابن العز إلا الحنبلي، فسئل ابن العز عما أراد بما كتب؟ فقال: ما أردت إلا تعظيم جناب النبي ﷺ وامتثال أمره أن لا يعطى فوق حقه، فأفتى القاضي شهاب الدين الزهري بأن ذلك كاف في قبول قوله وإن أساء في التعبير، وكتب خطه بذلك، وأفتى ابن الشريشي وغيره بتعزيره، فحكم القاضي الشافعي بحبسه فحبس بالعذراوية، ثم نقل إلى القلعة، ثم حكم برفع ما سوى الحبس من التعزيرات، ونفذه بقية القضاة، ثم كتبت نسخة بصورة ما وقع وأخذ فيها خطوط القضاة والعلماء وأرسلت مع البريد إلى مصر، فجاء المرسوم في ذي الحجة بإخراج وظائف ابن العز، فأخذ تدريس العزية البرانية شرف الدين

---

(١) ابن مفلح: هو إبراهيم بن محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج الصالحي الحنبلي تقي الدين ابن العلامة شمس الدين ولد سنة (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) وحفظ كتبا واشتغل حتى مهر وولي قضاء الحنابلة وكان بارعا عالما بمذهبه، توفي سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١، ص٢٥٥.

الهروي، والجوهرية على القليب الأكبر: واستمر ابن العز في الاعتقال إلى شهر ربيع الأول من السنة المقبلة(1).

وأحدث من يومئذ عقب صلاة الصبح التوسل بجاه النبي ﷺ، أمر القاضي الشافعي بذلك المؤذنين ففعلوه(2).

لقد انتقد ابن أبي العز في القصيدة المذكورة أموراً من الغلو، ومعه الحق في كل ذلك، ولو فرض أنه خالف فيها المشهور عند الدولة، فما كان ينبغي فعل هذا معه بل يكفي المناظرة، ولايزال العلماء يختلفون، وهذا يثري الحقيقة ويجليها، فبضدها تتميز الأشياء.

والعجب أن ابن أبي العز رجع إلى وظائفه بتغير الدولة بعد أن أقام مدة فقيراً خاملاً، فقد ردها عليه الأمير سيف الدين يلبغا بن عبد الله الناصري الأتابكي أحد كبار الأمراء في سنة (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)(3).

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٢ / ص٩٥، ٩٦، وعلى الرغم من تسلط الدولة على الإمام ابن أبي العز واستمرار حبسه إلا أن صوته خرج للناس وتناقلوا كتبه وعلومه ولاسيما شرحه للعقيدة الطحاوية الذي انتشر كثيراً فيما بعد زمانه وحتى يومنا هذا.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٢ / ص٩٥، ٩٦، وهذا من شر ما فعلوا، فإنهم حملوا الناس على قولهم، وهو في حقيقته مخالف للشريعة، فلا ريب أن الأذان الوارد عن النبي ﷺ ليس فيه هذا التوسل إن قيل بجوازه، على أنه بدعة. فالتوسل إلى الله بجاه النبي في الدعاء لم يرد فيه نص صحيح صريح، فهو كيفية في العبادة لم يأتِ بها الشرع فيمنع منه، وقد ألفت مصنفات في حكم هذا التوسل البدعي منها كتاب: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج ١ / ص ١٥٤؛ عبد الله زقيل: فوائد في تراجم مختصرة متنوعة، ص ٣.

والظاهر أن ابن أبي العز قد نسب لابن تيمية، وكانت العلاقة قوية بين السلاطين مع علماء الأشعرية المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية، فكان من الأثر السلبي لهذه العلاقة التنكيل بكل من يميل لفتوى ابن تيمية في أحد المسائل التي خالفهم فيها حتى في مسائل الفقه، كما كان الحال مع شمس الدين محمد بن خليل الحريري المنصفي، الذي عزره ابنُ الزهري بسبب فتواه بمسألة الطلاق على رأي ابن تيمية وبسبب قوله: الله في السماء[1]، وكان الذي شكاه القرشي فضربه ابن الزهري بالدرة وأمر بتطويفه على أبواب دور القضاة، ثم اعتذر ابن الزهري بعد ذلك وقال: ما ظننته إلا من العوام لأنهم أنهوا إلى أن فلانا الحريري قال كيت وكيت، حكى ذلك ابن حجي، وهذا العذر دال على أنه تهور في أمره ولم يثبت فلله الأمر[2].

❋ العلاقة بين السلاطين والصوفية:

الصوفية شريحة كبيرة من شرائح المجتمع، وكان لا بد أن تكون علاقاتهم بالسلاطين بطريقة تضمن عدم اختلال نظام الحكم في الدولة، إلا أن العلاقة ربما تجاوزت هذا التوازن السياسي فيما إذا اعتقد السلطان بصحة الطريقة الصوفية، إذ قد ظهر ذلك عند بعض السلاطين أمثال السلطان قايتباي، والسلطان قانصوه الغوري، والسلطان طومان باي، وربما كان هذا الإعجاب من السلاطين بهم لأن أغلب سلاطين المماليك كانوا عارفين بالفكر الصوفي المنتشر في أواسط آسيا وبلاد

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢ / ص٩٥، ٩٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر : إنباء الغمر، ج٣/ ص١٧٦.

التركمان في تلك الفترة[1]، والذي يتضمن التبرك بالأولياء وطلب المعونة منهم بالدعاء وسؤالهم عن مستقبلهم في الحكم؛ فأدى ذلك إلى زيادة أعدادهم وانحرافهم عن النهج القويم لأهل السنة و الجماعة.

فقويت الحركة الصوفية في مصر وبالأخص في تلك الفترة، بحيث أن شيخ الشيوخ الذي يقوم السلطان بتعيينه على خانقاه أو تكية يقوم بزيادة عدد الزوايا والتكايا التابعة للطرق المتعددة التي يتم إدارتها من قبله، واهتم السلاطين بتكاياهم، ولاسيما التكية البدوية في طنطا، فتذكر المصادر أن السلطان قايتباي أبدى اهتماماً بالغاً بها، كما أن السلطان قايتباي كان يصرف رواتب شهرية وسنوية على خلفاء الشيخ أحمد الرفاعي في الطريقة[2]، وكان مع الغوري خلفاء مشايخ الصوفية مثل خليفة أحمد البدوي وعبد القادر الجيلاني وإبراهيم الدسوقي وأمثالهم وذلك حين خرج إلى الشام لملاقاة السلطان العثماني سليم الأول، فلما دارت رحى الحرب على الغوري فروا من حوله[3].

وكان لهذه العلاقة بين السلاطين والصوفية أثره على الناس في الاعتقاد فيهم واللجوء إليهم لمساعدتهم في قضاء حوائجهم عندهم فنجد أن الملك الظاهر

---

(١) وقد نبغ من الصوفية ببلاد التركمان طرق كالطريقة البكتاشية والتي تنسب إلى الحاج ولي بكتاش (ت ٧٣٨ هـ/ ١٣٧٧م)، أحد تلاميذ إسحاق باشا وتجمع هذه الطريقة معتقدات مخالفة للشرع، كالتعلق بالأضرحة و القبور. محمد الأرناؤوط: مداخلات عربية - بلقانية في التاريخ الوسيط والحديث، ص٦٩.

(٢) الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء العصر، ص ٣٢٥.

(٣) ابن زنبل: آخرة المماليك، ص ١١٧.

برقوقاً كان يعتقد في أحد الأولياء وهو أحمد بن أحمد العجمي الزهوري (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، وكان يبالغ في تعظيمه واحترامه، فهرع الناس إليه وإلى زيارته، وقد أكثروا من مدحه والثناء عليه، وعف عن تناول مال السلطان، فقويت الرغبة في اعتقاده(١).

وكثيراً ما كان السلاطين يحضرون جنازة مشايخ الصوفية، فعلى سبيل المثال كان السلطـــان الظاهر برقوق يتفقد أحوال مشايخ الصوفية ويسألهم عن مريضهم ويحضر جنازة ميتهم، حتى أنه أوصى بأن يدفن في قبورهم وأن يني عند قبره تربة وخانقاة(٢)، كما حضر السلطان الأشرف برسباي سنة (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) جنازة الشيخ ابن عرب أحمد بن إبراهيم الحنفي(٣) بخانقاه شيخون، وصلى عليه(٤).

ومن المعتاد أن نجد كبار رجال الدولة يعتقد كل منهم في شيخ ويبالغ في تصديقه واحترامه، مثل القاضي جلال الدين البلقيني، الذي كان يعتقد في أحد المجاذيب، وكان يدعى أبا بكر الأضميمي وعرف بأبي الحلق(٥).

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٥٦.

(٢)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص ٣٦١؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤٤١.

(٣) هو: أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عرب أبو العباس، نزيل الشيخونية، قرأ على إمامها خير الدين سليمان بن عبد الله وغيره ونسخ بالأجرة مدة ، ثم انقطع عن الناس فلم يكن يجتمع بأحد بل اختار العزلة مع المواظبة على الجمعة والجماعات، لا يكلم أحداً في ذهابه وإيابه ولا يجترئ أحد على الكلام معه ، وأقام على هذه الطريقة أكثر من ثلاثين سنة. السخاوي: الضوء اللامع، ج١/ ص ١٢٦.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص ٣١٠.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص ٢٣٧.

وكان بعض الصوفية من ندماء بعض السلاطين، كالعلامة شرف الدين يعقوب بن جلال الدين رسولا بن أحمد بن يوسف التباني الحنفي شيخ شيوخ خانقاه شيخون، وكان فقيهاً بارعاً في العربية والأصول وعلمي المعاني والبيان والعقليات، واختص بالملك المؤيد شيخ اختصاصاً كبيراً، وتولى نظر الكسوة ووكالة بيت المال ومشيخة خانقاه شيخون، وأفتى ودرس واشتغل وصنف عدة سنين، وكان معدوداً من علماء الحنفية[1].

ومن جهة أخرى فالتصوف كان قد تغلغل في نفوس العامة حتى لم يكن باستطاعة السلطان المملوكي معاقبة بعض طوائفه لو أراد، أو حتى إلغاء احتفالات المولد التي كانوا يقيمونها سنوياً.

فقد ذكر أن السلطان جقمق أمر بإلغاء الاحتفال بالمولد في سنة من السنين والذي كانت تقيمه طائفة الفقراء الأحمدية أتباع البدوي خاصة، لما فيه من منكرات ومخالفات منكرة في الشرع، فقام عليه كثير من الناس من أمراء وعلماء وغيرهم من أفراد المجتمع ، حتى تم لهم ما أرادوا في سعيهم، فأصدر السلطان جقمق أمراً بإعادة السماح لهم بإقامة المولد[2].

وهذه السلبيات تؤثر على عقائد الناس، وكذا على التواصل الاجتماعي بين السلطان والرعية ولعل هذا يرجع إلى أن البدوي كان ذا شعبية كبيرة في مصر لكثرة التكايا المرتبطة بمذهبه، والأموال الطائلة التي كان يجنيها أصحاب هذا

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤ / ص٢٩٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٩٥.

المذهب من السلاطين والأمراء وأفراد المجتمع، على شكل هبات وصدقات[1]، مما جعل العلاقة بين السلاطين والصوفية تشبه أن تكون ذات طابع الندية، فلقد استمرت حفلات مولد السيد أحمد البدوي تقام في الأسبوع الأخير من شهر ذي الحجة سنوياً لعدة قرون، ويتوافد الآلاف من مصر وغيرها ليحضروا مراسم هذا المولد وهم جميعاً من الصوفية[2].

ومن العجب أن البدوي والشاذلي والمرسي وغيرهم كانوا من الصوفية المغاربة الوافدين إلى مصر، وقد أصبح كثير من السلاطين يقربون هؤلاء المغاربة المتصوفة ويعتقدون فيهم، فقد ذكر أن السلطان الظاهر برقوقا كان يوصي بدفن المتصوفين المغاربة بتربته[3].

وكان سلاطين المماليك وطبقة المماليك وطبقة الأمراء يبنون الزوايا لمن يعتقدون فيهم من المغاربة الصوفية، كزاوية الشيخ أبي عبد الله الركراكي المغربي المالكي، إضافة إلى الخوانق التي أوقفها المماليك وأمراؤهم على فقراء الصوفية[4].

ولم يكن الصوفية المغاربة والأندلسيون فقط هم من اهتم بهم المماليك فهناك الصوفية القادمون من أوساط آسيا، والذين يطلق عيهم كتَّاب السير الأعاجم، وكان أيضاً يتم الاحتفاء بهم من قبل السلاطين المماليك وأمرائهم،

---

(١) الموسوعة الإسلامية، ج٥/ ص٣١٩.

(٢) الموسوعة الإسلامية، ج٥/ ص٣١٩.

(٣) ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨/ ص٩٣.

(٤) يأتي ذكر ذلك في الأوضاع الاقتصادية عند ذكر مراكز التعليم.

وكانوا يعدون لهم الخوانق والزوايا لسكنهم، منها زاوية إبراهيم الصائغ بوسط الجسر الأعظم على بركة الفيل، وزاوية العروبة بالقرافة[1].

وفي عصر المماليك الجراكسة خرج كثير من هؤلاء المتصوفة العجم عن التصوف، وبدأوا يأتون بأمور بعيدة عن التصوف والزهد في الدنيا وأهلها فخرجوا إلى الأسواق والطرقات، يستجدون الناس أحياناً، وأحياناً أخرى يظهرون الصلاح والجنون ويأتون بتصرفات منافية للعقل والدين ويعتقد فيهم كثير من السلاطين والأعيان والناس، وكان البعض من رجالهم يحلقون رؤوسهم ولحاهم وحواجبهم وأهدابهم[2].

إلا أنه لما ظهر من بعضهم عقائد الحلول والاتحاد كالحروفية، كما تقدم بحثه، أصدر بعض سلاطين الأوامر بخروج العجم من القاهرة نتيجة ازدياد أعدادهم وما يلحقونه من مفاسد وأضرار بها[3].

فاعتقاد السلاطين في بعض الصوفية أدى إلى رواج التصوف في زمانهم، ويضاف إلى أسباب ذلك أيضاً: أن بعض السلاطين كانت تميل إلى رواج التصوف بمصر من باب التغطية على بعض الأخطاء التي كانوا يرتكبونها، فالتصوف يمنع

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٢/ ص ٣٦٠.

(٢) بير طافور : الرحلة، ص ٦٣؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص١٧٠.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٤/ ص ٢٠٦.

الإنكار والثورة على الظلم، ولاسيما وقد خالطته عقيدة الجبر، فينظر العبد إلى مراد الله ولا يكون له مراد بين يدي مولاه، فينظر إلى سير الإرادة الربانية ولا يخالفها[1].

إن انتشار التصوف وغلبته على الحياة في مصر كان له أثره السلبي على الحياة العلمية، وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الأمة وفكرها في انحرافات بعيدة عن المنهج الرباني، بل وأدى ذلك إلى أن الأمة الإسلامية بعدت عن معاني العلم الصحيح والتقدم المعرفي في العصور اللاحقة، بل سببه الرئيس الصوفية المنحرفة التي ظهرت في العهد المملوكي الثاني[2]، والتي ركن أفرادها إلى الاستجداء من السلاطين والأعيان والتشبه بأفعال المجانين واعتبارهم العلم الغير شرعي مضيعة للوقت، وبذلاً لجهد ضائع ليس فيه أجر من رب العالمين[3].

❋ العلاقة بين السلاطين وأهل الذمة.

كانت السلطة في العصر الملوكي قائمة على التنافس بين الأمراء، وحرصهم على تقرير التزامهم العدالة تجاه غير المسلمين، ويظهر ذلك من خلال الوثائق الكثيرة التي خلفها لنا ذلك العصر، والتي تأمر على أن تكون جهتهم مرعية على

---

(1) انظر في عقيدة الجبر عند الصوفية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج١٠/ ص ١٦١-١٦٤، ٤٨٢،٤٩٧.

(2) زادت الأوضاع سوءاً في الابتداع الفاسد في الشريعة من بعد سنة سبعمائة للهجرة.. على قول المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٥١.

(3) بيرو طافور: الرحلة، ص ٦٣.

الدوام وذمتهم محفوظة بذمة الإسلام، وذلك عملاً بحكم الملة الإسلامية والشريعة المحمدية لأنهم أهل ذمة وكتاب[1].

إلا أنه اتسمت النظرة لأهل الذمة في فترة حكم المماليك البحرية ببعض التوتر لوجود حوادث أوجبت ذلك منها:

ـ ثبوت خيانة بعض موظفي الدولة من النصارى، تلك الخيانة التي مكنت بطرس لوزينان ملك قبرص بالهجوم على الإسكندرية في سنة (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)، وساعده في دخول المدينة شمس الدين بن غراب وهو نصراني من موظفي الثغر الرسميين، وقد قام أمير الإسكندرية بقتله لاحقاً، نتيجة خيانته[2].

وقد قام الصليبيون في هذه الحملة بتدمير شامل للمدينة ومنشآتها دون تمييز بين أملاك المسلمين والمسيحيين واليهود، وقد قام أحد اليهود بدور الوساطة بين السلطات المملوكية وبطرس لوزينان، من أجل تبادل الأسرى المسلمين بأسرى تجار الفرنج، ولكن المفاوضات فشلت في تحقيق غرضها[3].

إن وجود هذه الحادثة أدت ولا شك إلى توتر في النظرة إلى أهل الذمة وولائهم للدولة، وأدت إلى تشدد الدولة تجاههم.

ـ هذا إضافة إلى ما ترافق من الحروب الصليبية التي جاءت برفع الصليب حرباً على الإسلام والمسلمين، وما كان من مواقف أهل الذمة تجاهها، مما كان مثار انتقاد المؤرخين، حتى إن باحثاً له مواقف مضادة نسبياً لسياسات الدولة المملوكية

---

(١) المقريزي: الخطط، ج١/ ص١٠٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣/ ق١، ص ٤٢٥؛ سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص١٢٢٤.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣/ ق١، ص ١١٢.

يجد أن رد الفعل المملوكي ضد هذه الحروب كان مبرراً، وأن الحروب الصليبية لم تفعل شيئاً سوى استنفار مشاعر السلاطين ضد رعاياهم من المسيحيين(١).

وقد ساءت العلاقة في آخر العهد المملوكي الأول بين الدولة وأهل الذمة، حتى من أسلم منهم، ويقول المقريزي: (جال الحديث في أمر اليهود والنصارى وإعادة وقائعهم الماضية، وأنهم بعد التزامهم أحكام العهد يعودون إلى ما نهوا عنه. فاستقر الحال على أنهم يمنعون من الخدم في جميع الأعمال، ولا يستخدم نصراني ولا يهودي في ديوان السلطان، ولا في شيء من دواوين الأمراء، ولو تلفظ بالإسلام، على أن أحداً منهم لا يكره على الإسلام، فإن أسلم برضاه، لا يدخل منزله، ولا يجتمع بأهله، إلا إن اتبعوه في الإسلام، ويلزم أحدهم إذا أسلم. بملازمة المساجد والجوامع ... إلى أن قال: .. وحل بهم من ذلك بلاء شديد كان

أعظمه نكاية لهم أنهم منعوا من الخدم بعد إسلامهم، فإنهم كانوا فيما مضى من وقائعهم إذا منعوا من ذلك كادوا المسلمين لإظهار الإسلام، ثم بالغوا في إيصال الأذى لهم بكل طريق، بحيث لم يبق مانع يمنعهم لأنه صار الواحد منهم فيما يظهر مسلماً ويده مبسوطة في الأعمال، وأمره نافذ، وقوله ممتثل. فبطل ما كانوا يعملون، وتعطلوا عن الخدم في الديوان، وامتنع اليهود والنصارى من تعاطي صناعة الطب، وبذل الأقباط جهدهم في إبطال ذلك، فلم يجابوا إليه)(٢).

---

(١) قاسم عبده قاسم: أهل الذمة، ص ٨٨.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢/ ص٢١٥.

كل هذا أدى إلى تشدد في السياسات المملوكية في العهد المملوكي الأول، تجاه أهل الذمة، إلا أنه لم يستمر هذا التوتر في العصر التالي، بل كانت فترة حكم المماليك الجراكسة في الجملة فترة هدوء بالنسبة لأهل الذمة، فكانت السلاطين تنظر إلى ذمتهم بعين الرعاية، وتنظر في شكاتهم حتى لو كان الطرف الآخر أميراً بل قاضياً!!، ففي عام (٧٩٣هـ/ ١٣٥٤م) نودي في القاهرة ومصر ألا يتعرض أحد لليهود ولا النصارى، وحين قام الأمير ناصر الدين بن أقبغا بالتضييق على النصارى قاموا بالشكاية عند السلطان الظاهر برقوق فقام بمصادرته، وفي عام (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م) قام السلطان برقوق بضرب القاضي المالكي نائب قاضي القضاة قصاصاً منه بسبب شكوى أحد النصارى[1].

وكان السلاطين ينظرون في شكاوى أهل الذمة لرفع عنهم بعض ما كان يظن أنه قيود زائدة، كما حدث في عام (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م) حيث رفع أهل الذمة الشكوى إلى السلطان برسباي الذي جمع مجلساً من الفقهاء أسفر عن تخفيف تلك القيود، ثم تجددت القيود عام (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) على أهل الذمة، لكونهم تعدوا في ذلك وزادوا عن الحد المفروض عليهم[2].

كما تولى من أسلم منهم المناصب الرفيعة في دولة المماليك البرجية، حتى إن منهم من تولى الوزارة كما تقدم في المبحث السابق، وكثير منهم أسهم في الحياة العلمية بعد إسلامهم، مثل بناء المساجد والمدارس، أو جمع الكتب وتشجيع طلبة العلم كما تقدم.

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣/ ق ٢، ص ٨٣؛ ابن الفرات: تاريخ ابن فرات، ج٩/ ص ٤٠٢.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص ٣٨٢؛ ابن تغري بردي: النجوم، ج١٥/ ص ٤٠٧.

إلا أن المصادر أرخت لبعض الوقائع أقام لأجلها السلاطين على أهل الذمة ما كان عليهم من شروط، ولاسيما في عهد المؤيد شيخ.

ففي سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) منع يلبغا السالمي اليهود والنصارى من دخول الحمامات إلا بشعار يعرفون به نساء ورجالا، وشدد في ذلك فبلغ ذلك نائب الغيبة فنادى بإبطاله ثم وصل كتاب السلطان في أوائل جمادى الأولى وفيه أن يلبغا السالمي لا يحكم إلا فيما يتعلق بالديوان المفرد خاصة[1].

وفي عام (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) جمع المؤيد شيخ اليهود والنصارى، وحضر جماعة من أهل العلم منهم ابن النقاش وشمس الدين التباني وشهاب الدين بن سنقري مع المحتسب ابن العجمي، وكتب أسماء أهل الذمة وقررت عليهم الجزية على قدر أحوالهم، على الغني أربعة دنانير والوسط ديناران والفقير دينار واحد، فبلغت الجزية في هذا السنة عشرة آلاف دينار، وكانت في العام الماضي ألفا وخمسمائة فقط[2].

وفي عام (٨٢٠/ ١٤١٧م) منع النصارى من تكبير العمائم، ولبس الفراجي والجبب بالأكمام الواسعة كهيئة قضاة الإسلام، وركوب الحمير الفره واستخدام المسلمين[3].

وفي سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) أحضر المؤيد شيخ بطرك النصارى في الإصطبل بعد أن جمع القضاة والمشايخ فسأله عما يقع في الحبشة من إهانة

---

(١)ابن حجر: إنباء الغمر، ٤ / ص ٢٢٥؛ المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ٢٩.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٧ / ص ٧٣.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٧ / ص٢٧٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٣٧.

المسلمين فأنكر ذلك، ثم انتدب له المحتسب فأنكر عليه تهاون النصارى بما يؤمرون به من الصغار والذل، وطال الخطاب في معنى ذلك واستقر الحال بأن لا يباشر أحد من النصارى في دواوين السلطان ولا الأمراء ولا غيرهم . ثم أغرى شهاب الدين الإمام ابن أخي قاضي أذرعات[1] السلطان بالأكرم فضائل النصراني كاتب الوزير، فاستدعى به وضربه بالمقارع بحضرته وشهره بالقاهرة عريانا وسجنه، ثم آل أمره إلى أن أمر السلطان بأن يقتل فقتل، فصغر النصارى العمائم ولزموا بيوتهم وضيقوا أكمامهم ومنعوا من ركوب الحمر بالقاهرة وإذا خرجوا في ظاهرها ركبوها عرضا، فأنف جماعة من النصارى من الهوان فأظهروا الإسلام فانتقلوا من ركوب الحمر إلى ركوب الخيل المسومة وباشروا فيما كانوا فيه وأزيد منه . وألزم النصارى ألا يدخلوا الحمامات إلا وفي أعناقهم الجلاجل وأن يلبس نساؤهم المصبغات ولا يمكنوا من الأزر البيض، فاشتد الأمر عليهم جدا وسعوا جهدهم في ترك ذلك فلم يعفوا لتصميم السلطان على ذلك[2].

وأما كنائس مصر وأديرتها فالأصل أن يقر النصارى وكذلك اليهود على معابدهم القديمة لا أن يستحدثوا كنيسة ومعبداً جديداً [3]، وقد خالف أهل

---

(١) أذْرِعات: بلد في أطراف الشام يجاور أرض البلقاء وعمان، ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص١٣٠.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٧ / ص ٣٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤، ص ٣٨.

(٣) ذكر هذا في الشروط العمرية فقد روي عن عبد الرحمن بن غنم قال: كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى أهل الشام: (بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين من نصارى مدينة كذا وكذا لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرارينا وأموالنا وأهل ملتنا وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نحدث في مدينتنا ولا في ما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب

الذمة ذلك مما استوجب أن تهدم بعض الكنائس، وبعضها عظمت أفعال أهل الذمة بها مما اقتضى هدمها، ففي سنة(٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م) توجه سودون النائب وبعض القضاة إلى الكنيسة المغلقة بمصر فهدموا منها أماكن جددها النصارى[١].

ويذكر ابن حجر أنه في سنة (٨٣١/ ١٤٢٧م) في عهد السلطان برسباي، أمر بهدم ما كان اليهود أحدثوه من بناء درب محدث يغلق على كنيستهم وسياج كالسور، حازوا فيه كثيرا من دور المسلمين التي تهدمت، وكانوا فعلوا ذلك في سنة (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م) بغير إذن من حاكم، فقام الشريف شهاب الدين النعماني في ذلك، وكان لما أنكر عليهم لبسوا على قاضي الحنابلة وأخذوا خطه على قصة[٢]، وكان القائم معهم في ذلك نقيب الحنبلي جمال الدين عبد الله الإسكندراني، فحمل النعماني أعيان الناس على الحنبلي حتى أوضح له القصة فحكم بهدم ما أحدثوه من السياجات والأبواب والخوخ[٣]، وسجل على نفسه بذلك في سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)، فلما كان في هذه السنة رفعوا للقاضي الحنفي العينتابي قصة، فأذن فيها لبعض النواب ممن كان الشافعي منعه من الحكم وكان من شيعة الهروي فتوسل للعينتابي بذلك، فأذن له في الحكم وعين عليه هذه القصة، فكتب محضرا يتضمن

ولا نجدد ما خرب منها، ولا نحيي ما كان منها في خطط المسلمين)، وقد أخذ على نصارى مصر نحوه). ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢/ ص١٧٥.

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٩ / ص٢٣٦، ٢٣٧.

(٢) على قصة: أي على رقعة، كما يظهر في السياق، أي كالقصاصة، والقصاصة في المعجم: ما قص من الهدب والشعر والورق ونحوهما، والجمع قصاصات، المعجم الوسيط ج٢، ص٧٤٠.

(٣) الخُوَخ جمع خوخة، وهي الباب القصير، أو مخترق ما بين كل دارين لم ينصب عليها باب بلغة أهل الحجاز وعم به بعضهم فقال هي مخترق ما بين كل شيئين، ابن منظور: لسان العرب، ج٣ ، ص ١٤.

أن الذي كانوا جددوه مختص بالكنيسة وليس فيه شيء من أبنية المسلمين ولا من حقوقهم وإنما تعصبوا عليهم في القصة التي تقدم ذكرها، فأثبت ذلك وأذن لهم في إعادة ما كان الحنبلي حكم بهدمه، فسارعوا إلى بنيانه، فقام النعماني وحمل الناس على العينتابي حتى نفذ حكم الحنبلي، ثم أخذ النعماني في التشنيع على النائب الذي تعاطى ذلك وهو عبد الله البرلسي حتى اتصلت القصة بالسلطان، فأذن للشافعي والحنبلي أن يتوجها بمفردهما ومعهما ناظر الأوقاف إلى المكان المذكور ويشخصوه وينظر القاضيان فيما حكم به ابن المغلي ثم البرلسي ويفعلا فيه الواجب، فتوجها يوم الجمعة ثاني عشر صفر، وكان النعماني استكتب شيوخ المصريين في محضر شهدوا فيه أن الذي أعيد الآن هو عين ما كان ابن المغلي أمر بهدمه، وأذن العينتابي لليهود في كتابة محضر بأنه غيره وكتب فيه جماعة[1].

قال ابن حجر: (فلما تأملت المحضرين وشاهدت الأمكنة المجددة أغنت المشاهدة عن الخبر فظهر الحق بيد النعماني، لكن رأيت الغوغاء قد اجتمعوا ومعهم المساحي والمعاول، فلو أذنت بهدم شيء ما لهدمت الكنيسة كلها ونهب ما فيها، وكان ذلك وقت العصر فقلت لهم: لا بدمن كشف كنيسة النصارى حتى ينظر ما أحدثوا أيضا وبهدم الجميع، فأعجبهم ذلك وافترقنا على العود في أول النهار، ثم استوفى الشافعي والحنبلي الشروط في المسألة وحكما بهدم ما أحدث وإبطال حكم البرلسي، وكان البرلسي قبل ذلك خشي القالة فأشهد على نفسه بأنه رجع الحكم المذكور، ثم توجه لكاتب السر فأعلمه بذلك واتصل ذلك

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٨ / ص ١٣٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٢/ ص ٤٦٠.

بالسلطان، وكنت عند الافتراق أمرت الوالي أن يزيل ما أحدثوه من الأبنية الجديدة كلها بالليل، ففعل ذلك وانحسمت المادة بعون الله تعالى)[1].

ومن ذلك ما كان في زمن السلطان برسباي، ففي سنة (٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) توجه أحد الأمراء بإذن السلطان إلى الوجه البحري (فهدم دير المغطس وهو دير روماني من قبل الإسلام لكنهم يبالغون في تعظيمه ويخصون له يوما معينا كالعيد، يجتمع فيه من جميع أقطار الإقليم مشاة وركبانا، ويتشبهون بالحجاج، ويعلنون فيه بسب أكابر المسلمين كالصحابة خصوصا خالد بن الوليد، وقد حاول الشيخ ناصر الدين الطنباوي القيام في أمره عام (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م)، وسعيه في هدمه فلم يتفق، فقيض الله هذا الرجل وهو جركسي قريب العهد بالإسلام لكن إسلامه قوي، فعرفه بعض الصلحاء بالقضية ففهمها، فقام فيها إلى أن أذن السلطان للقضاة بالحكم بهدمه)[2].

وفي سنة (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)، أمر السلطان الظاهر جقمق القضاة بالتوجه إلى الكنيسة المعلقة والكنيسة المعروفة بشنودة وكشفتا، وهدم من المعلقة أشياء جددت ما بين شبابيك مخروطة وكتيبات مطعمة ودقيسيات، وألزموا بتكملة هدم البناء المجدد الزائد عما سبق لهم من حكم نائب الحنفي بترميمه[3].

وفي سنة (٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) في عهد الظاهر جقمق؛ توجه القاضيان الشافعي والحنفي والمحتسب وجماعة إلى كنيسة اليهود الكائنة بقصر الشمع

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٨ / ص١٣٧.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٩ / ص ٦؛ المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ٤٠٣.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٩ / ٣٤٥؛ المقريزي: السلوك، ج٣، ص ٤٢٥.

بمصر، فوجدوا فيها منبرا ثلاث عشرة درجة يشبه أن يكون قريب العهد بالتجديد، فتشاوروا في أمره فهم في أثناء ذلك ظهر في الدرجة التي يقف عليها الخطيب أو يقعد كتابة يلوح أثرها، فقال لهم الشافعي: تأملوا هذه الكتابة، فتداولها جماعة منهم حتى تبين أنها محمد وهي ظاهرة وأحمد وهي خفية، فاقتضى الرأي إزالة المنبر المذكور فصورت دعوى، وحكم نور الدين بن آقبرس نائب الحكم وناظر الأوقاف بإزالته وتأخر المحتسب لذلك وافترقوا، ثم قام الشيخ ا أمين الدين يحيى ابن الأقصرائي في كشف كنائس اليهود والنصارى فأبطلت عدة كنائس، ختم على أبوابها إلى أن يتضح أمرها، فمنها واحدة للملكيين، وجد فيها دعائم بالحجر العص[1] لتنحيت مثل الأعمدة، فادعوا أنها كانت ذات أعمدة رخام فاحترقت في سنة ثلاث وسبعمائة، وأخرجوا لها محضرا ثبت على القاضي جلال الدين القزويني وأذن في مرمتها فرموها بالحجارة وهي دون الرخام[2].

وفي سنة (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م) في عهد الظاهر جقمق أيضاً ختم على كنيسة النصارى الملكيين، لأنه وجد داخلها أعمدة كدان من الحجارة المنحوتة وأكناف جدد فزعموا أن معهم مستندا بذلك، فلما أبطأوا بإحضاره ومنعوا من دخولها[3].

وكشف في حارة زويلة عن دار كانت لبعض أكابر اليهود وكانوا يجتمعون عنده للاشتغال بأمور دينهم فمات فجعلها محبسة لذلك فصارت في حكم الكنيسة، فرفع عنهم أنهم أحدثوا كنيسة، فأكد عليهم عدم الاجتماع فيها وأن

---

(١) العص: هو الأصل الكريم، ابن منظور: لسان العرب، ج٧ ، ص ٥٤.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٩ / ص ١٦٩.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص ٦٩٢.

تسكن بالأجرة أو لمن يستحق سكناها، وفوض الأمر فيها لبعض نواب الحنفي فحكم بانتزاعها من أيدي اليهود، وأشهد على الكثير منهم بعد أن ثبت عنده أنها إن أحدثت كنيسة أن لا حق لهم في رقبتها، فحكم بها لبيت المال، فنودي عليها في يوم الأربعاء ثاني عشره[1].

وفي سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) حضر القضاة عند السلطان للتهنئة بالشهر، فأمر الشافعي أن يتوجه مع كاتب السر إلى مصر بسبب كنيسة للملكيين، فرفع ابن آقبرس ناظر الأوقاف للسلطان أن جدارها عال على مسجد يجاورها وأنه يجب هدمه، وكان السبب في ذلك أن برد دار ابن آقبرس تسلط على بطرك الملكية وكان قريب العهد بالاستقرار فيها فقرر عوض الذي مات في السنة الماضية وطمع فيه، فرفع البطرك أمره للسلطان بقصة أعطاها لكاتب السر، فبادر ابن آقبرس حمية لمن هو من جهته فذكر ذلك، فأمر بالكشف فتوجهوا، فقيل: إنهم رأوا الجدار الذي من جهة المسجد مائلا، فحكم نائب الشافعي بهدمه خشية أن يسقط على المسجد، وانفصل المجلس على ذلك، وكان السلطان يظن أنه يجب هدم الكنيسة أصلاً، وكان الحنفي المنفصل حاضرا فتغيظ عليه لكونه قال: ما يهدم إلا بشرط أن تكون حادثة، فإن كان المسجد قديما وجب هدم ما يعلو عليه، فقال له: فلما كنت حاكما لم لا فعلت ذلك بل كنت تفعل عكسه - أو نحو هذا من القول[2].

وهذا يشير إلى أنهم ما كان يهدمون إلا ما كان حادثاً أو علا جداره على المساجد لأجل حفظ عورات المسلمين.

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩ / ص ١٨٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص ١٧٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٩ / ٢٣٦، ٢٣٧.

وأما ما هدم ما كان قديماً، فقد ألزم السلطان بإعادته، ففي سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) في عهد المؤيد شيخ كانت كائنة الشيخ سليم وذلك أنه كان بالجيزة بالجانب الغربي من النيل كنيسة للنصارى فقيل إنهم جددوا فيها شيئا كثيرا، فتوجه الشيخ سليم من جامع الأزهر ومعه جماعة فهدموها، فاستعان النصارى بأهل الديوان من القبط فسعوا عند السلطان بأن هذا الشيخ تحايل على المملكة وفعل ما أراد بيده بغير حكم حاكم، فاستدعى بالمذكور فأهين، فاشتد ألم المسلمين لذلك، ثم اتصل النصارى ببعض قضاة السوء إلى أن أذن لهم في إعادة ما تهدم، فجر ذلك لهم أن شيدوا ما شاءوا بعلة إعادة المنهدم الأول فلله الأمر[1].

ومن ذلك ما كان في سنة (٨٤٤/ ١٤٤٠م) سأل النصارى في ترميم كنيسة كانت قديمة ببساتين الوزير وتركها أهلها من أجل تخريبها، فرفعوا قصة إلى السلطان فأذن في ذلك، ورفعوا أمرهم إلى القاضي الحنفي وهو حينئذ بدر الدين العيني فكتب لبعض من ينوب عنه بالتوجه لتلك الجهة وإعادة الكنيسة على ما كانت عليه بأنقاضها من غير مزيد على ذلك ففعل[2].

وقد تولى بعض النصارى المناصب الرفيعة في البلاد، وتلقب بألقاب المسلمين[3]، ومنهم: تاج الدين عبد الوهاب الأسلمي المعروف بالخطير ولاه

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٧ / ص١٩١.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٩ / ص ٤.

(٣) قد اصطلح أهل الذمة على ألقاب يتلقبون بها غالبها مصدرة بالشيخ، ثم منهم من يجري على الرسم الأول في التلقيب بالإضافة إلى الدولة فيتلقب بولي الدولة ونحوه، ومنهم من يحذف المضاف إليه في الجملة ويعرف اللقب بالألف واللام فيقولون الشيخ الشمسي والشيخ الصفي والشيخ الموفق وما

السلطان الأشرف نظر الإسطبل السلطاني عوضاً عن ابن مزهر، وكان الخطير المذكور قريب عهد بالإسلام، وله قدم في دين النصرانية، وكان يباشر عند الملك الأشرف في أيام إمرته فرقاه إلى هذه الوظيفة، وبعد أن كان يخاطب بالشيخ الخطير صار ينعت بالقاضي، فيشترك هو وقضاة الشرع الشريف في هذا الاسم[1].

ويعلق الأتابكي على ذلك فيقول: (وأنا لا ألوم الملوك في تقديم هؤلاء لأنهم محتاجون إليهم لمعرفتهم لأنواع المباشرة، غير أنني أقول: كان يمكن الملك أنه إذا رقى واحداً من هؤلاء إلى رتبة من الرتب لا ينعته بالقاضي، وينعته بالرئيس أو بالكاتب أو مثل ولي الدولة وسعد الدولة وما أشبه ذلك، ويدع لفظة قاض لقضاة الشرع ولكاتب السر وناظر الجيش ولفضلاء المسلمين، ليعطي كل واحد حقه في شهرته والتعريف به)[2].

إلا أن هذا لم يستمر في كل العصر، بل صدرت الأوامر أحياناً بعدم مباشرة النصارى الوظائف، ففي سنة (٨٢٥/ ١٤٢١م) في عهد السلطان نودي أن لا

أشبه ذلك . فإذا أسلم أحدهم أسقطت الألف واللام من أول لقبه ذلك وأضيف إلى لفظ الدين فيقال في الشيخ الشمسي: شمس الدين، وفي الصفي: صفي الدين، وفي ولي الدولة: ولي الدين، وما أشبه ذلك ، وربما كان لقب الذمي ليس له موافقة في شيء مما يضاف إلى الدين من ألقاب المسلمين فيراعى فيه إذا أسلم أقرب الألقاب إليه مثل أن يقال في الشيخ السعيد مثلا إذا أسلم سعد الدين ونحو ذلك. القلقشندي: صبح الأعشى، ج٥ / ص ٤٦٠.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤ / ص١١١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤ / ص١١١.

يباشر نصراني في ديوان أحد من الأمراء، ثم انتقض ذلك بعد مدة، وكذا كان ضيق عليهم في الأيام المؤيدية ثم تراجعوا قليلاً قليلاً[1].

وأما من أظهر الإسلام من النصارى، فقد توطدت صلة بعضهم بالسلاطين حتى ولوا المناصب الرفيعة: فمنهم من تولى الوزارة، كالوزير تاج الدين عبد الرزاق بن شمس الدين بن عبد الله المعروف بابن كاتب المناخ وهو غير وزير، وابنه الصاحب كريم الدين عبد الكريم قد ولى الوزارة في حياته، وكان جد أبيه باشر دين النصرانية ثم حسن إسلام آبائه، وكان مشكور السيرة في ولايته للوزارة لكنه استجد في أيام ولايته مكس الفاكهة، ثم عزل بعد مدة يسيرة وصار ذلك في صحيفته إلى يوم القيامة. قلت: هذا هو الشقي الذي ظلم الناس لغيره[2].

ومنهم: مجد الدين ماجد بن النخال الأسلمي القبطي كاتب المماليك السلطانية، وكان أصله من نصارى مصر القديمة، وخدم في عدة جهات وهو على دين النصرانية، ودام على ذلك إلى أن أكرهه الأمير نوروز الحافظي على الإسلام، فأظهر الإسلام[3].

ومنهم رئيس الأطباء علم الدين سليمان بن جنيبة، وكان أبوه يهودياً ثم أسلم، ونشأ سليمان هذا مسلماً[4]، يقول عنه المقريزي: (كان يتكسب بصناعة الطب...من مشهوري الأطباء ....، وعرف بحسن العلاج، ثم ولي رياسة الأطباء

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٧ / ٤٥٦.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤ / ص ٢٩٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٥ / ص٢١٨.

(٤)ابن حجر: إنباء الغمر، ج١/ ص ٣٨٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤ / ٧٢.

في سنة ثلاث عشرة، وكان فاضلاً في علم الطب، هشاً، جميل المعاشرة، يكتب الخط الجيد)[1].

ومنهم: من تولى كتابة السر بمصر ، فقد أنفق أبو الجمال الكركي مبلغاً كبيراً كي يتولى كتابة السر بالديار المصرية[2].

ويعلق صاحب المنهل بقوله: (قلت: وعد ولاية هذا الجاهل لمثل هذه الوظيفة العظيمة من غلطات الملك الأشرف وقبح جهله، فإنه لو كان عند الملك الأشرف معرفة وفضيلة لانتظر حتى يرد عليه كتاب من بعض ملوك الأقطار يشتمل على نثر ونظم وفصاحة وبلاغة، وأراد الأشرف من كاتب سره أن يجيب عن ذلك بأحسن منه أو بمثله، كما كان يفعله الملك الناصر محمد بن قلاوون وغيره من عظماء الملوك، لعلم تقصير من ولاه لهذه الوظيفة، ولاحتاج لعزله في الحال ولولاية غيره ممن يصلح، لئلا يظهر في ملكه بعض تقصير ووهن لأنه يقال في الأمثال تعرف شهامة الملك وعظمته من ثلاث: كتابه، ورسله، وهديته، فهذا شأن من يكون له شهامة وعلو همة من الملوك، وأما الذي بخلاف ذلك فسد بمن شئت وول من كان بالبذل، ... ولهذا المقتضى ذهبت الفنون، واضمحلت الفضائل، وسعى الناس في جمع المال حيث علموا أن الرتب صارت معذوقة[3] بالباذل لا بالفاضل، وهذا على مذهب من قال:

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص٢٦١.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ٢٧٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤/ ص ١٠٨.

(٣) معذوقة بمعنى موسومة. مرضى الزبيدي: تاج العروس، ج٢٦، ص١٣٠؛ أي هي موسومة أو معلقة بمن يدفع الرشاوي.

المال يستر كل عيب في الفتى   والمـال يـرفع كـل وغـد سـاقــط

فعليك بالأموال فاقصد جمعها   واضرب بكتب الفضل بطن الحائط)[1].

ولم تحدثنا المصادر عن دور العلاقة بين السلاطين وأهل الذمة، إذ في غالب العهد لم يستخدمهم السلاطين، وأكثر من استخدموه كان ممن أظهر الإسلام.

ومن خلال هذه الدراسة تتبين لنا أثر علاقة السلاطين بالطوائف الدينية على الحياة العلمية، ويمكن أن تكون خلاصتها كما يلي:

أولاً: لم يظهر في الدولة المملوكية الثانية (دولة المماليك الجراكسة) أي بروز قوي للتشيع، مما لم يوجب أي علاقة بين الدولة وبين الشيعة، وكأن التشيع قد انتزع من مصر ولم يبق له أثر إلا ما كان التشيع يلتقي فيه مع الاتجاهات الدينية الأخرى كالصوفية، في إحياء الموالد والرقص وما إلى ذلك.

ثانياً: كان لوجود العلاقة القوية بين الدولة وأهل السنة دوره البارز في التأثير على الحياة العلمية، بحيث صار العلم مطلباً لتكون لصاحبه المكانة الاجتماعية والحظوة عند السلاطين، مما شجع الحركة العلمية على النمو المطرد.

ثالثاً: كان للصوفية حضور سلبي في الحركة العلمية في العصر المملوكي للتواكل وعقيدة الجبر وترهات الأخذ من علوم غير الشريعة.

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ٤٣٥.

رابعاً: ولم تتأثر الحياة العلمية بالعلاقة بين السلاطين وأهل الذمة أيضاً لعدم وجود ما يمكن أن يفرز علوماً لكونهم لم يستخدموا في غالب العصر من قبل السلاطين، اللهم ما تكون من تعليقات في كتب المؤرخين عنهم.

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية وأثرها على الحياة العلمية

ويشتمل على:

- ۞ المبحث الأول: مظاهر اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء والأعيان بالحياة العلمية.
- ۞ المبحث الثاني: الثوارت والفتن الداخلية وأثرها على الحياة العلمية.
- ۞ المبحث الثالث: الحروب الخارجية وأثرها على الحياة العلمية.



المبحث الأول

مظاهر اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء والأعيان بالحياة العلمية

إن الحياة العلمية في أي عصر ترتبط ارتباطاً مباشراً بمدى اهتمام قادته بالعلوم، وكلما كان ذلك الاهتمام وثيقاً كان له الأثر البالغ على الحياة العلمية.

لقد حض الإسلام على العلم، (والملك لا بد أن يكون من أهل العلم فإن الجاهل ذليل مزدرىً غير منتفع به، وأن يكون جسيما لأنه أعظم في النفوس وأهيب في القلوب)[1].

والعادة أن الناس يميلون إلى ما عليه ملوكهم، وأشار إلى ذلك ابن كثير رحمه الله تعالى بقوله: (كانت همة الوليد في البناء وكان الناس كذلك يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول ماذا بنيت ماذا عمرت؟، وكانت همة أخيه سليمان في النساء وكان الناس كذلك يلقى الرجل الرجل فيقول كم تزوجت ماذا عندك من السراري؟، وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن وفي الصلاة والعبادة وكان الناس كذلك يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول كم وردك كم نقرأ كل يوم ماذا صليت البارحة. والناس يقولون: الناس على دين مليكهم...وهذا يوجد في بعض الأزمان وبعض الأشخاص)[2]، ويذكر ابن تغري بردي موافقته للمقريزي على ذلك فيقول، (على أني موافقه على أن الزمان يصلح ويفسد بسلطانه وأرباب دولته)[3].

---

(1) النسفي: تفسير النسفي، ج١/ ص١٢٥.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية،ج ٩/ ص١٦٥.

(3) النجوم الزاهرة ، ج١٣/ ص١١٠.

وظهر هذا الأمر جلياً في دولة المماليك الجراكسة في عهد الملك الظاهر جقمق، (ت٨٥٧هـ/ ١٤٥١م)، قال ابن تغري بردي عنه أنه (كان عفيفاً عن المنكرات والفروج، لا نعلم أحداً من ملوك مصر في الدولة الأيوبية ولا التركية على طريقته في ذلك، لم يشهر عنه في صغره ولا في كبره أنه تعاطى مسكراً ولا منكراً، حتى قيل إنه لم يكاشف حراماً قط، وأما حب الشباب، فلعله كان لا يصدق أن أحداً يقع في ذلك لبعده عن معرفة هذا الشأن. وكان جلوسه في غالب أوقاته على طهارة كاملة)[١].

وقد أثَّر ذلك على الأمراء والرعية بشكل ظاهر جداً، فكانت محاسنه أكثر من مساوئه، وهو أصلح من ولي ملك مصر من طائفته، في أمر الدين والتقوى؛ فقد قمع المفسدين والجبارين، وتصولح معظم أمرائه وجنده، وبقي أكثرهم يصوم الأيام في الشهر، ويعف عن المنكرات؛ كل ذلك مراعاة لخاطره، وخوفاً من بطشه، ولم يبق في دولته ممن يتعاطى المسكرات إلا القليل، وصار الذي يفعل ذلك يتعاطاه في الخفاء[٢].

ويذكر العيني أن من ضمن الأسباب التي بررت استحقاق المؤيد شيخ للسلطنة فضله وكرمه وإحسانه إلى أهل العلم[٣]، كما يؤكد على رعاية القادة للعلوم بقوله: (ينبغي للسلطان أن لا يخلي مجلسه من كبار العلماء، وأن يجعل للعلماء منه مجلساً خاصاً يذاكرونه فيه بالعلم ويذكرونه آلاء الله عليه وإحسانه

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤ / ص ٣١٥.

(٢)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤ / ص ٣١٥.

(٣) العيني: السيف المهند، ص١٩٧.

إليه، والمراد من العلماء الفقهاء الذين فقهوا عن الله أمره ونهيه وهم أهل الفقه والحديث وما يتعلق بهما من العلوم الشرعية)[1].

ويصفه ابن إياس بأنه: (كان محباً للعلماء ، يقوم لهم إذا دخلوا عليه، منقاداً إلى الشرع، مشاركاً للفقهاء في بعض المسائل الفقهية، وكثيراً ما كان يتباحث معهم في بعضها، وكان مع المؤيد إجازة لا تفارقه بخط شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني، بقراءة صحيح البخاري)[2].

ومنذ قيام الدولة المملوكية، والاهتمام كان واضحاً بالعلم والعلماء، فقد فهم المماليك كيف تعظم الشعوب المسلمة أهل العلم والدين، ولاسيما وقد كان نزوح العلماء من المشرق إلى بلاد مصر كثيراً مع سقوط بغداد، وانعدام الأمن في المشرق، فاجتياح المغول المشرق الإسلامي أدى إلى لجوء كثير من العلماء إلى الأراضي المصرية[3]، ولا شك أن مجيء عدد من علماء المشرق ونزولهم بمصر كان له الأثر الإيجابي في نشاط الحركة العلمية بكل مدن مصر والشام التي كانت تحت سلطة المماليك البحرية، واستمر هذا الأثر إلى عهد المماليك البرجية. وكان بعض الخلفاء العباسيين بمصر له باع في العلوم الشرعية ومشاركة فيها وحباً وتعظيماً لأهلها، أمثال الخليفة المستعين بالله (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) الذي وصف بأنه كان ديناً فيه خير وإحسان ولين[4].

---

(١) العيني: الروض الزاهر، ص٣٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٦٠ـ ٦١.

(٣) المقريزي : الخطط، ج١، ص٣٦٤ ـ ٣٦٥.

(٤) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٨٠٢، ٨٠٣؛ السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٦٧ـ ٤٦٨.

وأما السلاطين، فقد كان معروفاً عن كثير منهم حب العلم والعلماء والمشاركة في العلوم، منهم الظاهر برقوق (ت ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م) كان محباً لأهل الخير والعلم، إذا أتاه أحد منهم قام إليه، ولم يعرف أحد قبله من الملوك الترك يقوم لفقيه، وقلما كان يمكن أحداً منهم من تقبيل يده[1]، كما أنشأ السلطان برقوق من العمائر المدرسة بخط بين القصرين من القاهرة، والتي وصفت بأنه لم يعمر داخل القاهرة مثلها، ولا بأرض مصر والشام نظيرها، بعد مدرسة السلطان حسن، ولا أكثر معلوماً منها، بعد خانكاة شيخو[2].

وكان هناك من سلاطين المماليك من تصدر للتدريس، فقد تصدر السلطان المؤيد شيخ المحمودي (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) للإقراء والتدريس، وكان يروي صحيح البخاري إجازة من الشيخ سراج الدين البلقيني (ت٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)[3]، وكان له إحسان إلى أهل العلم، فحين قدم الشيخ شمس الدين الهروي من القدس الشريف إلى القاهرة تلقاه بالقبول والتعظيم ثم أنزله في بيت عظيم، ورتب له كل يوم مائتي درهم، وثلاثين رطلاً من اللحم، وأنعم عليه بقطع من القماش الصوف وغيرها، وأعطاه فرساً، ومن جملة تعظيمه للعلم ومحبته

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٥/ ص٢٣١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣ / ص٢٨٤؛ المنهل الصافي ، ج١ / ص٢٧٠.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٥/ ص٢٣١.

(٣) هو عمر بن عبد الحق الكناني القاهري، البلقيني، ولد ببلقينة من بلاد الغربية بمصر، ويعد من أشهر العلماء في الحديث والفقه والأصول، وله كثير من المصنفات، السخاوي: الضوء اللامع، ج٦/ ص٨٥؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص٥١.

لأهله أنه كان يصرف كل سنة من شهر رمضان جملة من الذهب والفضة لقراء البخاري وسامعيه في القصر السلطاني»[1].

وكان يتكلم في مسائل فقهية على مذهب أبي حنيفة[2]، وقد عده الحافظ ابن حجر العسقلاني في عداد مشايخه في كتابه "المجمع المؤسس"، وكان المؤيد كثير التعظيم لأهل العلم مكرماً لهم، وكان لا يميل إلى شيء من البدع[3].

ومن ضمن مظاهر اهتمام السلاطين بالعلماء إكرامهم وتعظيمهم، كما كانت حال عامة المماليك، ومنهم المؤيد شيخ (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)، كان شهما شجاعا عالي الهمة كثير الرجوع إلى الحق محبا للشرع، صحيح العقيدة كثير التعظيم لأهل العلم والإكرام لهم[4].

وكان السلطان ططر (ت٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) ملماً بالمسائل الفقهية على المذهب الحنفي، وقد وجه البدر العيني لترجمة متن القدوري[5] إلى اللغة التركية، وكان يتقرب إلى العلماء ويحضر مجالسهم العلمية[6].

---

(١) العيني: السيف المهند، ص ٢٦٨ـ ٢٦٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣/ ص ١٦٣.

(٢) الشوكاني: البدر الطالع، ج١/ ص٣٠٢.

(٣) ابن حجر: إبناء الغمر، ج٣،/ ص٢٣٧؛ المقريزي: السلوك، ج١/ ص٥٥٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٧ / ص٤٠٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٢٠٦.

(٥) من أشهر المتون الفقهية عند الحنفية لأبي الحسين أحمد بن محمد البغدادي (ت٤٢٨هـ/ ١٠٣٧م)، ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٧٩؛ سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢/ ص١٤٩٧؛ بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج٣/ ص٢٦٩.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٢٥٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص ٤٤، ٤٧.

أما السلطان الأشرف برسباي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)، فقد كان البدر العيني يعلمه أمور الدين عند منادمته، وقد استفاد الأشرف من مسامرة العيني جداً عندما كان يسامره بقراءة التاريخ، وقد ترجم العيني كتابه "عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان" إلى اللغة التركية، وقدمه للسلطان هدية[١]

وكان كثيراً ما يقرأ عنده تواريخ الملوك السالفة وأفعالهم الجميلة، ويذكر ما وقع لهم من الحروب والخطوب والأسفار والمحن، ثم يفسر له ذلك باللغة التركية، وينمقها بلفظه الفصيح، ثم يأخذ في تحبيبه لفعل الخير والنظر في مصالح المسلمين، ويرجعه عن كثير من المظالم، حتى لقد تكرر من الأشرف قوله في الملأ: (لولا القاضي العيني ما حسن إسلامنا، ولا عرفنا كيف نسير في المملكة)[٢].

وكان الأشرف برسباي اغتنى بقراءة العيني له في التاريخ عن مشورة الأمراء في المهمات، لما تدرب بسماعه للوقائع السالفة للملوك. (وما قاله الأشرف في حق العيني هو الصحيح، فإن الملك الأشرف كان أمياً صغير السن لما تسلطن، بالنسبة لملوك الترك الذين مسهم الرق، فإنه تسلطن وسنه يوم ذاك نيف على أربعين سنة، وهو غر لم يمارس التجارب، ففقهه العيني بقراءة التاريخ، وعرفه بأمور كان يعجز عن تدبيرها قبل ذلك)[٣].

---

(١) سركيس: معجم المطبوعات العربية والمعربة، ج٢/ ص١٤٠٣.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤ / ص ٢٩٠؛ العيني: السيف المهند، ص (و) المقدمة.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤ / ص ٢٩٠، ومعلوم أن سن الأربعين هو سن الإدراك العقلي الكامل، ولذا كانت الرسل تبعث في هذا السن، لكن ابن تغري بردي أراد مقارنة بينه وبين ملوك الترك الآخرين، وكونه ليس ذا خبرة وتجارب.

وكان العيني يثني على الأشرف برسباي ويصفه بأنه كان محباً للعلم محسناً للطلبة والقراء والفقهاء[1].ويذكر ابن تغري بردي أنه كان: (يميل إلى فعل الخير، مغرماً بإنشاء العمائر، من ذلك: مدرسته الأشرفية[2] بالقاهرة، وجامعه بالقليوبية، وأوقف على ذلك عدة أوقاف)[3].

كما عرف عن الأشرف برسباي حبه لأهل الشريعة وتقريبه للفقهاء[4].

وكان الملك الظاهر جقمق (ت٨٥٧هـ/ ١٤٥١م) ممن اشتغل بطلب للعلم وكان يستحضر مسائل جيدة يباحث بها العلماء والفقهاء، ويلازم مشايخ القراءات ويقرأ عليهم دوماً، وكان مولعاً باقتناء الكتب لا سيما الكتب النفيسة، ويعطي فيها الأثمان الزائدة عن ثمنها الأصلي من أجل شرائها[5]، وكان يحب مجالسة الفقهاء[6]، يقوم لمن دخل عليه من الفقهاء والصلحاء كائناً من كان، معظماً للشريعة، وكان إذا قرأ عنده أحد فاتحة الكتاب نزل عن مدورته وجلس على الأرض تعظيماً لكلام الله تعالى، وكان محباً للعلماء وطلبة العلم[7]، يقدر الأكفاء

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ ص٩.

(٢) تقع بخط العنبر بين القصرين. المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٢٧، ٢٨.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣/ ص٢٧٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٨٨ـ ١٨٩.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤/ ص٢٩٦ــ ٢٩٩؛ النجوم الزاهرة، ج١٥/ ص٤٥٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص٢٩١؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١/ ص١٨٢ـ ١٨٦.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤ / ص ٣١٥.

(٧) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١ / ص٣٨٩.

منهم ويوليهم المناصب العليا كالقضاء[1]، كما أظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كان لا يلبس إلا القصير من الثياب، ونهى الأمراء وأكابر الدولة وأصاغرها عن لبس الثوب الطويل، وأمعن في ذلك حتى أنه ضرب جماعة كثيرة بسبب ذلك، وقص أثواب جماعة آخرين من أعيان الدولة في الموكب السلطاني بحضرة الملأ من الناس، وكان كثيراً ما يوبخ من يلبس الثوب الطويل، ومن لا يحف شاربه من الأتراك[2].

كما عرف عن السلطان خشقدم (تولى عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م) تواضعه للعلماء وحبه لمناقشتهم في المسائل الفقهية التي تحيره وتسترعي انتباهه، وكان يتكلم باللغة العربية الفصحى رغم بعض اللحن في لسانه، كما كان السلطان الظاهر تمربغا (تولى ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) على معرفة ودراية للمذهب الحنفي ولفروعه، محباً للعلماء ، مجالساً لهم، ويحب التاريخ والشعر والأدب، واستذكار أي شي مفيد من العلم[3]، وكان السلطان الأشرف قايتباي (تولى عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) يجتمع بالعلماء والفقهاء ويتباحث معهم في القضايا الشرعية وتلك التي تهم الدولة، ويطلب منهم المشورة والمعونة، محباً لمطالعة كتب السيرة النبوية وسير الخلفاء والملوك[4].

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص ٢٢٣؛ الموسوعة الإسلامية، ص ١٩٣.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ، ج١ / ص ٣٨٩.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦/ ص ٥٧٢.

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٧٥؛ العيدروس: النور السافر في أخبار القرن العاشر، ص ٣٨.

ومما يؤكد مكانة العلماء في الدولة المملوكية حضور كلٍّ من السلطان المؤيد أحمد (تولى ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م) والظاهر تمربغا (تولى ٨٧٢هـ/١٤٦٧م) [١] جنازة الشيخ محمد بن محمد المالقي، وكانا ممن حملا نعشه، وترحما عليه[٢].

ومن الاهتمام بالعلماء تقريب أولادهم والاعتناء بهم، كما كان حال السلطان الأشرف قايتباي (ت٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) مع الشيخ برهان الدين بن إبراهيم الحلبي النحوي الشافعي، وكان فاضلاً في العربية والفرائض والفقه، وكان له ولد صغير نحو سبع سنين فأقرأه القرآن وعلمه إعراب بعض آيات من كتاب الله، فصار يسأله عنها بحضور السلطان الأشرف قايتباي ومن عنده فيجيبه حفظا فيحسن له السلطان بالذهب والكتب مثل البخاري[٣].

وبنى الأشرف قايتباي (ت٩٠١هـ/ ١٤٩٥م) المدارس بمكة والمدينة والقاهرة ودمشق والإسكندرية وغزة، وكان له اشتغال بالعلم،كثير المطالعات في الكتب، وكان يعظم العلماء ، ووضع ديواناً لطيفاً من نظمه في مناقبه ومآثره سماه "الدرة المُضِيَّة في المآثر الأشرفية"[٤].

---

(١) لقد تولى المؤيد أحمد سلطنة البلاد لأقل من سنة ليقيم بعد ذلك إقامة جبرية بالثغر السكندري، كذلك الحال بالنسبة للظاهر تمربغا الذي ما استقر في السلطنة سوى شهرين فقط ليلحق بالمؤيد أحمد. العلائي الظاهري: وثيقة عهد السلطان المؤيد، ص١٠؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧/ ص٧٠.

(٢) هو محمد بن محمد بن أحمد أبو عبد الله بن الناصري السكندري الشافعي (ت٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م)، سمع البخاري ، تفنن في القراءات وتلا بالسبع، وبرع في الفقه وأصوله والعربية والصرف والمعاني والبيان والميقات، بالإسكندرية، السخاوي: الضوء اللامع،ج٩/ ص١٩٩.

(٣) الصيرفي: إنباه الهصر، ص ١٩٤.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨/ ص٧؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص٣٢٦.

وأما السلطان قانصوة الغوري (ت٩٢٢هـ/ ٢٥١٦م) فكان يحرص على عقد المجالس العلمية والدينية مرة أو مرتين كل أسبوع[1]، وكان يفهم الشعر وله اهتمام بالعلماء، كثير العطايا لهم ولطلاب العلم، مغرماً بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار[2].

بل بلغ من اهتمام السلاطين بمجالس العلم أن أكد بعض السلاطين على تأديب من يشغب فيها، ففي أول شعبان (سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) أمر السلطان برسباي القاضيَ الشافعي إذا حضر المجلس لسماع الحديث أن يحضر صحبته فلقة وعصى، ومن تعدى في كلامه أو أساء الأدب أُدِّب، وأكد في ذلك[3].

ولم يكن الاهتمام بالعلم وأهله مقتصراً على الخلفاء السلاطين فحسب، بل تعداه إلى كبار أمراء الدولة، فقد كان الكثير منهم محباً للعلم والعلماء مشاركاً في العلوم نذكر منهم: المقام الناصري: محمد بن السلطان الملك الظاهر جقمق، كان مولده بالقاهرة، وبها نشأ تحت كنف والده، إلا أنه توفي في حياة والده بعد مرض طال به، وكان قد حج في سنة (٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م)، واشتغل اشتغالاً يسيراً حتى برع في المعقول وشارك في المنقول، وساد في فنون كثيرة من العلوم، يساعده في ذلك جودة ذهنه وحسن تصوره وعظيم حفظه، حتى صار معدوداً من العلماء[4].

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٨/ ص١١٦؛ الغزي: الكواكب السائرة، ج١/ ص٢٩٤؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج٢/ ص٥٥.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور ،ج ٢/ ص٨؛ ج٤، ص ٣٩٩؛ الموسوعة الإسلامية، ص ١٦٤.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٨ / ص٣٥٠، ٣٥١.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٥/ ص٢٣٥.

ويعلق على هذا ابن تغري بردي فيقول: (ولا نعلم أحداً من أبناء جنسه من ابن أمير ولا سلطان وصل إلى هذه الرتبة غيره قديماً ولا حديثاً، بل ولا في الدولة التركية قاطبة من المشاهير أولاد الملوك، هذا مع المحاضرة الحسنة والمذاكرة اللطيفة والنوادر الطريفة والإطلاع الزائد في أخبار السلف وأيام الناس)[1].

ومنهم: الأمير ططر قبل أن يلي السلطنة، فقد جاء عنه أنه كان يقعد للحكم بين الرعية، ورد المظالم، وأنه ساس الناس أحسن سياسة فإنه كانت لديه فضيلة وعنده يقظة وفطنة ومشاركة جيدة في الفقه وغيره، وله محبة في طلب العلم لاسيما مذهب السادة الحنفية، فإنهم كانوا عنده في محل عظيم من الإكرام[2]، والأمير بكلمش العلائي (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، أحد الأمراء الكبار بالديار المصرية وصف بأنه محبٌ للعلماء، يجلس معهم ويذاكر بمسائل ويتعصب للحنفية[3]، ومنهم الأمير أحمد بن طوغان بن عبد الله الشيخوني دويدار النائب، كان محباً لأهل الخير والصلاح، ثم ترامى على أهل الحديث واختص بهم، وتوفي سنة (٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م)[4].

ولقد كان لاحترام السلاطين والأمراء الكبار للعلم وأهله أن حظي العلماء في عصر المماليك بمنزلة كبيرة، ويمكن أن يعود ذلك لأسباب أهمها ما تمتع به

---

(١) النجوم الزاهرة ، ١٥/ ص٢٣٥.

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص١٠.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢/ ص٦٩.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢/ ص٣٣١.

العلماء من مكانة عالية عند عوام الناس، فلقد كان الناس محبين للعلم والعلماء معظمين لشأن الفقهاء، محترمين لهم ولأقوالهم.

ومن مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بالعلم والعلماء إكرام الفقهاء والعلماء الواردين على مصر، من غير أهلها، حتى في المجالس، بل كانت العادة أنه لا يجلس أحد فوق الأمير الكبير من القضاة ولا غيرهم، حتى ولا ابن السلطان، غير صاحب مكة المشرفة مراعاةً لسلفه الطاهر [1].

وفي سنة (٨٢٥هـ/ ١٤٢١م) قدم الشيخ شمس الدين محمد الخافي الحنفي من مدينة سمرقند - قاصداً الحج - وهو أحد أعيان فقهاء القان شاه رخ بن تيمور، وولده ألوغ بك صاحب سمرقند واجتمع بالسلطان الأشرف برسباي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م)، فأكرمه وأنعم، عليه بأشياء كثيرة[2].

ومن أبرز مظاهر اهتمام السلاطين بالعلوم والذي أثر إيجابياً على الحركة العلمية ما كان من مجالس التحديث بالصحيحين المستمرة في كل عام.

وكان من أكثرهم اهتماماً بذلك الأشرف برسباي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) فقد تكرر حضوره هذه المجالس، والعادة أن تكون في رمضان، إلا أنه ربما جعلها في شعبان كما في حضوره مجلس التحديث بصحيح مسلم في شعبان سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م) ابتدئ بقراءة الحديث بالقلعة وبدأ القارئ يقرأ في صحيح مسلم، وأمر السلطان بإحضار القضاة، وخلع عليهم في يوم الختم[3]، واستمرت

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٦٤ / ص٦٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٥/ ص١٠٩.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٨ / ص١٠٦، ١٠٧.

هذه عادته حتى سنة وفاته (٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) حيث ختمت قراءة صحيح البخاري بين يدي السلطان بقلعة الجبل[1]، وقد حضر قضاة القضاة الأربعة، وعدة من مشايخ العلم وجماعة من الطلبة، كما جرت العادة من أيام المؤيد شيخ[2].

وقد نصب السلطان قانصوه الغوري سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م) خيمة بالحوش لختم البخاري واجتمع القضاة الأربعة ومشايخ العلم وفرقت الخلع والصرر على العادة[3]، ثم في عام (٩٢١هـ/ ١٥١٥م) كان ختم صحيح البخاري بالقلعة، وأخلع السلطان الأشرف قانصوه الغوري على القضاة الأربعة وأعيان العلماء ومن له عادة، وفرقت الصرر على جاري العادة، وكان ختماً حافلاً[4].

---

(١) أمر ببنائها السلطان صلاح الدين الأيوبي، لما أزال الدولة الفاطمية من مصر لتكون مقراً لسكناه وكان ذلك عام تسع وستين وخمسمائة، ويحيط بها سور عظيم، ولها بابان، وبها ثلاثة قصور، ومسجد وحمام، وطباق يسكنها المماليك والخدم السلطاني. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢/ ص ٣٩٥.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٧/ ص٣٥٠.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص١٦٧.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٦/ ص ٤٧٨

المبحث الثاني

الثورات والفتن الداخلية وأثرها على الحياة العلمية

كانت الفتن والحروب والخلافات السياسية والمذهبية من ضمن أهم الأمور التي فتت في عضد هذه الأمة ، وجرت ذيولها الرزايا والآلام ، وكانت أشد معول هدم لكيان المسلمين في كل الدول والعصور.

وقد بين النبي ﷺ أن الفتن تكثر في آخر هذه الأمة فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص أن النبي ﷺ قال: ((إن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضُها بعضها، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هَذه هذه فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه))[1].

والفتنة التي تظهر في بلد ما، يكون تأثيرها على جميع فئات الناس، ويمتد تأثيرها على العلماء والعلم أيضاً، سواء كانت هذه الفتنة قد لابسها عالم، أو نأى عنها..

وإذا أردنا أن نبحث عن تأثير الفتن والثورات على الحياة العلمية في العهد المملوكي الثاني؛ فإننا نحتاج أن نحدد مفهوم الفتنة والثورة، حتى يتم لنا فهم هذا التأثير وأبعاده، ومن ثم نحدد حالة المجتمع المصري بعامة إبان حدوث الفتن.

فالفتن: يراد بها: هياج الناس عند الاختلاف في الآراء، فمادة (الفاء والتاء والنون) في اللغة هي أصلٌ يدلُّ على ابتلاء واختبار، والفَتْنُ: الإحراق، قال الله

---

(1) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، ج٣ / ص ١٤٧٢ ـ ح١٨٤٤.

تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[1]،والفاتِنُ المُضِلُّ عن الحق والفاتِنُ الشيطان، والفتنة: اختلاف الناس في الآراء، وأَما قول النبي ﷺ ((إِني أَرى الفِتَنَ خِلالَ بُيوتِكم))[2] فإِنه يكون القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فِرَقِ المسلمين إِذا تحَزَّبوا ويكون ما يُبْلَوْنَ به من زينة الدنيا وشهواتها فيُفْتَنُونَ بذلك عن الآخرة والعمل لها[3].

ومن هذا الباب: قال رسول الله ﷺ ((يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن))[4].

والثورات: المراد بها أيضاً هياج الناس عند الاختلاف في الآراء، فالثورة مادتها في اللغة (الثاء والواو والراء) أصْل يدل في أحد معنييه على انبعاثِ الشيء، يقال: ثارَ الشيءُ ثَوْراً وثُؤوراً وثَوَراناً وتَثَوَّرَ، إذا هاج، ويقال: ثارَ به الناسُ، أي وثَبوا عليه. ويقال: انتظِرْ حتَّى تسكن هذه الثورةُ، وهي الهَيْجُ. وثَوَّرَ فلانٌ عليهم الشرَّ، أي هيَّجه وأظهره[5].

---

(1) سورة الذاريات، آية ١٣.

(2) البخاري: الجامع الصحيح، ج ٦/ ص ٢٥٨٩، ح ٦٦٥١. ولفظه عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: أشرف النبي ﷺ على أطم من آطام المدينة فقال: (هل ترون ما أرى). قالوا لا قال: (فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر).

(3) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ٤ / ص ٤٧٢؛ الجوهري: الصحاح، ج ٢ / ص ٣٣؛ ابن منظور: لسان العرب، ج ١٣/ ص ٣١٧؛ الزبيدي: تاج العروس، ج ١/ ص ٨١٢٩.

(4) البخاري: الجامع الصحيح، كتاب الفتن، ج ٦/ ص ٢٥٩٧ح ٦٦٧٧.

(5) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، ج ١/ ص ٣٩٥؛ الجوهري: الصحاح ، ج ١ / ص ٧٦؛ ابن منظور: لسان العرب ، ج ٤ / ص ١٠٨.

فاتفق أن من المعاني اللغوية للفتنة والثورة هياج الناس عند الاختلاف، وهذا هو المراد في هذا العمل.

ورغم أن الدولة المملوكية امتدت في حكم مصر أكثر من قرنين ونصف من الزمان، إلا أنها كانت فترة غير مستقرة في معظم الأوقات، فما أن تنعم البلاد بأمن ساعة، حتى تقوم فتنة وتدخل البلاد في بلاء شهوراً عديدة، فقد كان الحكم للأقوى دوماً، ولذا قلَّ أن يحكم سلطان حتى وفاته، فإما أن يخلع، وإما أن يقتل، ولاسيما في الفترة الأخيرة من عمر الدولة، وبالتحديد من وفاة المؤيد شيخ وحتى سقوط الدولة، أي من سنة (٨٢٤هـ - ٩٢٣هـ/ ١٤٢١م - ١٥١٧م)، فقد اتسمت هذه الفترة بكثرة عزل وتولية السلاطين، حيث حكم خلالها عشرون سلطاناً لم يكن أحد منهم يتسم بسمات وصفات الحاكم الصالح، ولم يكن لأحد منهم القدرة على ممارسة أمور السلطنة إلا بواسطة أمراء سرعان ما يَنْقَلِبُوْنَ عليه، بل اعتلى العرش في خلال أربعة عشر شهراً أربعة سلاطين، وكان مجموع من حكم فترة تقل عن السنة: خمسة عشر سلطاناً[١]، ونُصب عبد العزيز بن برقوق سلطاناً لفترة أقل من ثلاثة أشهر ثم خلع، وتسلم أيضاً الخليفة المستعين السلطنة خمسة أشهر ثم خلع، بل إن منهم من لم تزد مدة سلطنته عن ليلة واحدة وهو خير بك، فقد بويع بالسلطنة مساءً وخلع صباحاً!![٢].

ولعل أقوى حادثة تبين مدى الاضطراب وسوء أحوال السلطنة وزيادة الخوف من منصبها أن السلطان قنصوه الغوري كان يرفض أن يتولى السلطنة

---

(١) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧/ ص ٧٢.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٤٥٥

خوفاً من القتل!!، ويصور حاله ابن إياس بقوله: (سحبوه وأجلسوه، وهو يمتنع من ذلك ويبكي، وحين ألحوا عليه اشترط عليهم ألا يقتلوه، وأن يصرفوه بالمعروف إذا أرادوا عزله)[1].

ونحن نجد فترات الهدوء النسبي في عهد المماليك البحرية واضحة عنها في عهد المماليك البرجية، مما مكَّن وجود أسر حاكمة قادرة ومتمكنة، هما أسرتا بيبرس وقلاوون، لكن في المقابل كانت فترة المماليك البرجية أشد توتراً، بحيث كان العرش مشاعاً بين القادرين من أمراء المماليك، ولم نجد إلا برقوقاً وولديه من الأسر الحاكمة، إذ كانت العادة عند وفاة السلطان أن يخلفه ابنه ثم لا يستمر الأمر إلا بضعة أشهر، حيث إن بقاءه كان أشبه بمرحلة انتقالية حتى يظهر المملوك الأقوى لينتزع السلطة منه، فصار مبدأ الوراثة إنما هو حل مؤقت حتى ينجلي الوضع السياسي لا غير، وأصبح السائد في التصور السياسي عند الجراكسة هو أن (الحكم لمن غلب)[2].

وقد كان جميع سلاطين المماليك في العهد الثاني من العنصر الجركسي[3]، سوى اثنين فقط هما: خُشقدم وتمربغا فقد كانا من أصل يوناني، والعنصر

---

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص١٦ـ١٧.

(2) قاسم عبده، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٧٣.

(3) يقول المقريزي عن الجراكسة في المواعظ والاعتبار، ج ٢ / ص ٤٤٦: (وهم واللاض والروس أهل مدائن عامرة، ... وملوك هذه الطوائف لملك سراي كالرعية، فإن داروه وهادوه كف عنهم، وإلا غزاهم وحصرهم، وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق، وسبيت نساءهم وأولادهم، وجلبتهم رقيقاً إلى الأقطار، فأكثر المنصور قلاون من شرائهم، وجعلهم وطائفة اللاض جميعاً في أبراج القلعة، وسماهم البرجية، فبلغت عدّتهم ثلاثة آلاف وسبعمائة)اهـ، فأصل الجراكسة من شمال شرق البحر

الشركسي ظهر بقوة مع مؤسس الدولة الثانية الظاهر برقوق، الذي استطاع بدهائه أن يزيح العقبات في سبيل وصوله للحكم، بل ومهد الأمر لابنيه من بعده عبد العزيز، وفرج، ليعتليا عرش السلطنة، وبقي فرج في السلطنة مدة أربعة عشر عاماً (٨٠١-٨١٥هـ/ ١٣٩٨م-١٤١٢م).

والعجب أن كان هذا الأمر ـ وهو تغلب الجراكسة على الحكم ـ مما أشيع أنه سيكون، وذلك في آخر دولة المماليك البحرية، وتحدث به الناس، فقد ذكر المقريزي أن الجراكسة كانت تتحدث فيما بينها بأنه ستكون فتنة كبيرة ثم تخمد، ويثور بعدها فتنة بينهم وبين الترك ينتصرون على الأتراك فيها بعد وقعة، وتعلو كلمتهم عليهم، وصاروا يتدارسون هذا فيما بينهم، لا يشكون في وقوعه. فلما كانت حركة الأمير إينال جهروا بذكر ذلك وأذاعوه، فكان ما تحدثوا به وأرادوا[1].

وكان رجال الدولة من الجراكسة من أهم أسباب الفتن والثورات الداخلية، فإن المماليك كانت بينهم النعرات العصبية مشتعلة دوماً، وكان السلطان في العهد الأول يحيط نفسه بمجموعة من الأمراء من جنسه فيتقوى بهم، إلا أن الأمراء الجراكسة في العهد الثاني لم يكونوا على درجة كبيرة من الإخلاص لأستاذهم، كما كان العهد في دولة المماليك البحرية، وقد يرجع السبب في ذلك أن جلهم كان قد اشتري في سن البلوغ، مما جعلهم لا يتشربون روح النظام والولاء

الأسود، من بلاد القفقاس، وما أشار إليه المقريزي من قتالهم، أي ما كان بين مغول فارس، ومغول القفجاق أي الأسرة الذهبية فالجراكسة في أصولهم من المغول. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧/ ص٧٠.

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٢ / ص ٣٣٦.

لأستاذهم في طفولتهم، فأضحوا مصدر قلق وفوضى وخطر يهدد سلامة السلطان الشخصية بالإضافة إلى سلامة الدولة، وهذا مما دفع بعض السلاطين إلى التنحي عن العرش، كما رفضوا تولية أبنائهم من بعدهم، يأساً من ترضية هؤلاء الجلبان، أو إقناعهم بحرج مركز الدولة[1].

وقد انتبه السلطان برقوق مؤسس الدولة الجركسية لهذا آخر الأمر، فرقى بعض العناصر التركية الأخرى، إلا أن هذا كان بعد أن أحكم العنصر الجركسي يده على مقاليد الحكم نسبياً، وقد أشارت زوجته (خوند الكبرى) عليه بأن ينوع من عساكره، فقد كانت تركية الأصل، فقالت له: (اجعل عسكرك أبلق من أربعة أجناس: تتر، وجركس، وروم، وتركمان، تستريح أنت وذريتك)، إلا أنه ما عرف قيمة نصيحتها إلا في آخر عمره، وقال لها: (الذي أشرت به عليَّ هو الصواب، ولكن هذا كان مقدراً، ونرجو من الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم)[2]، وكان ذلك بعد انتفاضة علي باي الخازندار عليه، وكان عليٌ هذا جركسياً، خاض مؤامرة لخلع برقوق عن العرش في آخر سنة (٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م)، إلا أن برقوقاً أحبطها وقتله، ومات برقوق بعد أقل من سنة في شوال (٨٠١هـ/ ١٣٩٩م)، وعهد إلى ابنه بعده بالسلطنة[3].

---

(١) محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٤٥٥

(٢) المقريزي، ج٣، ص ٩٣٦ ـ ٩٣٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٣ / ص ٣٥٠؛ محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٤٥٥.

الفتن في مطلع دولة الجراكسة فترة السلاطين (برقوق وفرج وشيخ):

الفتنة في عهد برقوق:

تسلطن برقوق مرتين، خلع خلالها على أيدي مناوئيه، وهذا يشير إلى مدى الاضطراب الذي كان في عهده[1]، وقد كان يحاول بادئ الأمر التوطيد للعنصر الجركسي، فلاقى مقاومة كبيرة من العناصر التركية والعربية، ويمكن أن تكون ثمة فتنة من أهم الحركات التي أقضت مضجعه، بل تسببت في خلعه بعد أربع سنوات من السلطنة، وهي فتنة يلبغا الناصري، والأمير منطاش.

ثورة الأمير يلبغا الناصري ومنطاش :

لم ينتهِ السلطان برقوق عامه الأول من توليه الحكم، حتى دبرت له مؤامرة لعزله وإحلال الخليفة العباسي مكانه، ولكن برقوقاً اكتشف المؤامرة وقضى على زعمائها وذلك عام (٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م)، فقام بعزل الخليفة العباسي المتوكل، وأحل مكانه الواثق بالله، كما أنه قام بعزل الكثير من المماليك الأتراك ونفى بعضهم إلى الشام، بسبب مساندتهم لهذه المؤامرة [2]، وحينئذ شعر السلطان برقوق بالخوف والشك في ولاء المماليك اليلبغاوية، إذ التجأ نائب حلب الأمير يلبغا الناصري إلى وسولي بن ذي القدر أحد الأمراء الأتراك المعادي للدولة، فأمر السلطان حضور الناصري إلى القاهرة

---

(١) تحديد بداية عهد الجراكسة مختلف فيه بين الباحثين مع اتفاقهم أن برقوقاً أول سلاطينهم، وما ذاك إلا أن برقوقاً تسلطن مرتين، وتخللهما فترة تسلطن السلطان المنصور حاجي مدة سبعة أشهر، فلذا لم يعد بعضهم فترة حكم السلطان برقوق الأولى من الدولة الجركسية؛ حين عدَّ الفترة الثانية من الدولة لأن حكم الجراكسة استمر دون انقطاع حتى نهاية الدولة. محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٧، ص٧٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢/ ص ١٢٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٦٩

مكبلاً، غير أن نائب حلب تباطأ في تنفيذ الحكم، والجدير بالذكر أن اليلبغاوية حرصوا على أن تبقى الفوضى مسيطرة في الشام كي لا ينعم برقوق بالهدوء ويتفرغ لقتالهم[1].

غضب برقوق من تصرف يلبغا، فاستدعاه إلى القاهرة وعزله عن نيابة حلب، وسجنه بالإسكندرية، وصادر أمواله وذلك عام (٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م)، ثم عفا عنه وسمح له بالإقامة في دمياط حراً، ثم قرر إعادته لمنصبه ليتخذه أداة لحرب منطاش وذلك عام (٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م)[2].

وفي عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) أعلن الأتراك بزعامة الأمير تمربغا الأفضلي الأشرفي المعروف بمنطاش نائب ملطية[3]، أعلنوا العصيان بعد أن جمع منطاش جميع المماليك الأتراك المنفيين في بلاد الشام، كما سانده بعض قبائل التركمان، وأرسل في نفس الوقت للسلطان أنه على طاعته حتى لا يستثيره، غير أن السلطان كان فطناً لهذه الحركة، فقام بإطلاق سراح نائب حلب يلبغا الناصري وأعاده لمنصبه ظناً منه أنه سوف يحصل على تأييد اليلبغاوية ضد الأشرفية، غير أنه لم يجن من هذه الأمور شيئاً بل نرى أنه ما كادت تمضي ثلاثة أيام على مغادرة يلبغا القاهرة في طريقه إلى حلب حتى أعلن منطاش عصيانه مدعوماً بالمماليك الأشرفية، أما يلبغا فقد اكتفى بإخضاع صاحب سيواس لسلطة الدولة، رغم أنه كان بوسعه الدخول إلى ملطية والقبض على منطاش، مما أتاح

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي: ج٦/ ص ١٨٣.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر: ج ١/ ص ٣٣٧.

(٣) ملطية بفتح أوله وثانيه وسكون الطاء وتخفيف الياء، والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء، كانت بلدة من بلاد الروم مشهورة ، تتاخم الشام ، فتحها المسلمون وبنوا بها مسجد جامع كبير. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥/ ص ١٩٣.

الفرصة لهذا الأخير لتقوية موقفه، فما كان من السلطان سوى القبض على نائب دمشق ونائب طرابلس، ففقد ثقة الأمراء الأتراك، وتكتل نواب بلاد الشام ضده[1].

أما يلبغا الناصري فقد قاد حركة التمرد من حلب واتصل بمنطاش وشجعه على الاستمرار في التمرد، وحاول السلطان استعمال الحيلة والدهاء للقضاء على هذه التمردات، فعمل على استدراج يلبغا، وقد نوى الغدر به، فاعتذر الناصري عن الحضور للقاهرة بحجة أنه منشغل بقمع حركتي التركماني ومنطاش، وأنه يخاف على حلب منهما، وفي نفس الوقت أرسل سراً لأمراء مصر يحثهم على الانتفاضة على حكم برقوق. وفي نفس الوقت أرسل برقوق لنائب دمشق للتصدي للناصري، والذي علم بالأمر فقام بتوحيد صفوف الأتراك لإنهاء حكم البرجية وانضوى منطاش تحت لوائه وقررا خلع السلطان برقوق، بعد أن دخل أهل حلب في طاعته، ونتيجة لهذا التصعيد أرسل السلطان حملة عسكرية إلى بلاد الشام لوضع حد لهذا التمرد، ووصلت الحملة إلى دمشق عام (٧٩١هـ/ ١٢٨٩م)، غير أنها لم تحقق ما كانت تنشده، بل انغمس أفرادها في الفساد، وعبثوا بأموال الدمشقيين، مما أثار حفيظة الناس ضد السلطان وقواته، ولقد انتهز يلبغا الناصري فرصة انهماك العساكر بالسلب والنهب بدمشق فتقدم بعساكره صوبها، واستطاع دخولها بعد القضاء على عساكر السلطان[2].

ولقد كانت لوقعة دمشق آثارٌ سيئة على وضع دولة المماليك البرجية الناشئة فقد تركت الفرصة سانحة للعرب والتركمان لنهب دمشق، كما أنها أثرت على الأوضاع

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥/ ص ٤٨٢؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢/ ص ٣٩٠.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢/ ص ٤٥١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ ص ٢٧٥ـ ٢٨٩؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٢٦٧.

الداخلية في مصر، إذ انتشر الاضطراب والفوضى بمجرد وصول خبر الهزيمة فظهر الفساد وأغلقت الأسواق ، إضافة إلى انتشار مرض الطاعون في البلاد، كذلك خسر السلطان ثلاثة من أهم قادته وهم جركس الخليلي الذي قتل في وقعة دمشق، وإينال اليوسفي الذي انضم إلى يلبغا الناصري، ويونس الدوادار الذي قتل على يد اللصوص بإحدى قرى دمشق.

أما يلبغا فقد وظف الموقف لصالحه فقام من حلب بإعلان نبأ خلع السلطان برقوق وتنصيب الخليفة المتوكل، وقد أعلن نواب القلاع الشمالية تأييدهم له[1].

ونتيجة لهذه الأحداث المتسارعة، قام السلطان برقوق باستشارة الأمراء والقضاة بشأن كيفية حلِّ هذه المعضلة، فأشاروا عليه بإرسال حملة ثانية لا تقل عن ألف وأربعمائة مملوك، وبالفعل قام السلطان بتجهيز الحملة، غير أنه لم يرسلها إذ جاءته أنباء عن تقدم يلبغا باتجاه غزة والرملة فأسقط في يده، وتحرج موقفه، ومال إلى تغيير سياسته فتقرب من الخليفة بعد أن أفرج عنه، وكان قد سجنه حتى لا يميل إلى جانب المتمردين، وألغى سائر المكوس في مصر وأعمالها ليكسب تأييد العامة، لكن هذه الإجراءات باءت بالفشل في استقطاب الناس إذ أن السلطان عاد عن قراره في إلغاء المكوس، مما أضعف من ثقة الناس في قراراته، بل فر العديد منهم إلى الشام وانضموا إلى جيش يلبغا الناصري أملاً في الخلاص، خاصة وقد تفشى الطاعون وتدهورت

---

(1) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ٢٧٦؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٣٦٤ ـ ٣٦٩.

الأوضاع الاقتصادية فارتفعت الأسعار وندر وجود السلع. بل ونتيجة لهذا الوضع المتدهور انضم عدد من الأمراء لحركة الناصري بعد أن فروا من مصر متسللين[1].

وفي عام (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) وصلت طلائع جيش الناصري على مشارف القاهرة، وجرت مناوشات بين أفراده وبين المدافعين عن القلعة، انتهت بسيطرة الناصري على الموقف فما كان من السلطان سوى أن طلب الصلح وتنازل عن العرش لقاء البقاء على حياته، وكتب له يلبغا أماناً بذلك وحمل إلى الكرك[2].

وقد حافظ الناصري على أمانه ولعل ذلك يعود لعدة أسباب منها أن السلطان برقوق لم يحاول قتل يلبغا من قبل مع كثرة أخطائه، كما أنه لم يكن من السهل القضاء على برقوق دون التعرض لانقسام المماليك البرجية، إضافة إلى خشيته من انقلاب منطاش عليه ، لذا أوصى بأن يطلق سراح السلطان إن بدر من منطاش ما ينبئ بالغدر، ولم يعلن الناصري نفسه سلطاناً خشية معارضة المماليك الأشرفية له بزعامة منطاش، لذا عمل هو ومنطاش على إعادة السلطنه للبيت القلاووني، فاستقر بهم الرأي على إعادة الملك الصالح أمير حاجي ابن الأشرف شعبان إلى السلطنة، فأجلسوه على العرش ولقبوه بالملك المنصور، وتولى يلبغا الناصري أتابكية العسكر، وأصبح صاحب الحل والعقد في الدولة[3].

---

(١) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٥/ ص ٤٨٩ـ ٤٩٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣، ص ٣٢٦ـ ٣٥٩.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك:ج٥/ ٢٣٠؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٦٩.

(٣) ابن صصري: الدرة المُضِيَّة في الدولة الظاهرية، ص ١٩؛ ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر،ج١/ ص ٣٦٦ـ ٤٣٣؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٣٦٦.

فانصرف إلى تنظيم الأمور الداخلية وفق مصلحته، وعين منطاشاً أمير مجلس، وأفرج عن الأتراك المسجونين، وعين نواباً من الأتراك في بلاد الشام، وطارد المماليك البرجية، وقد أظهرت الأيام القليلة التي كانت البلاد فيها تحت سيطرته بسوء سياسته ، فمال الناس لعودة السلطان برقوق ، كما أن منطاشا شعر بتهميشه هو وأتباعه، وأن الأمر بأيدي يلبغا الناصري وأنصاره، مما دفع مماليك الأميرين لصراع مسلح فيما بينهم، وقد انضم لمماليك منطاش كل من العامة والمماليك البرجية، وقد تمكن منطاش من السيطرة على القاهرة، ونودي فيها بالأمان، ودعي لها على منابرها، وقد انضم أمير يلبغا لصفه، فرجحت كفته، وقبض على يلبغا وسجنه في الإسكندرية مع عدد من أصحابه[1]، كما قام بإبطال المكوس ليستقطب العامة، وعين أنصاره في المناصب الإدارية ووزع الإقطاعات عليهم، وطارد البرجية واليلبغاوية، فعادت الصراعات مرة أخرى نتيجة لهذه السياسة السيئة التي اتبعها منطاش[2].

وقد حاول السلطان برقوق الاستفادة من هذه الفوضى فظهر مجدداً على الساحة السياسية بعد أن بايعه أهل الكرك، وجمع جيشاً قوامه المماليك الجراكسة حاصر به دمشق وأخضعها لسلطانه، ونتيجه لهذا الخطر الحقيقي الذي شعر به منطاش، قام بعقد مجلس حضره الخليفة المتوكل وشيخ الإسلام والقضاة، وأصدر المجتمعون فتوى بوجوب قتال برقوق بحجة أنه خلع الخليفة والسلطان، وقتل شريفاً من أهل بيت رسول الله في الشهر الحرام والبلد الحرام، واستباح أموال المساكين، ثم أخذ يتجهز

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤/ ص ٣١٤ـ ٣٢٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢/ ص ٢٨٠ـ ٣٣٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٣٠١.

(2) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص٣٦٧.

للحرب[1]، وفي (٧٩١هـ/ ١٣٨٩م) غادر القاهرة بجيش قوامه ثلاثون ألف مملوك متوجهاً صوب دمشق، وقد دارت معركة بين الفريقين على مشارف دمشق انتهت بهزيمة منطاش، وانتصار برقوق والذي عاد إلى القاهرة للاستعداد لمواجهة منطاش الذي حصن نفسه في دمشق[2].

ولقد بذل برقوق في سلطنته الثانية جهداً مكثفاً في سبيل تثبيت حكمه وذلك من خلال الاعتماد على العنصر الجركسي والقضاء على المماليك الأشرفية، والتخلص من الخصوم وعلى رأسهم منطاش ويلبغا الناصري، فبدأ عهده بإعادة الهدوء للقاهرة، وأشرك الأمراء الأتراك في الحكم، وجهز جيشاً لمحاربة منطاش قوامه من المماليك اليلبغاوية وبقيادة يلبغا الناصري في محاولة منه لضرب الطرفين في آن واحد، وقد التقى الفريقان في أكثر من موقع ولكن لم تكن النتائج حاسمة فيما بينهما، كما أن السلطان برقوق لم ينتظر النتائج، فنراه ينقلب على المماليك الأتراك عامة ، فما كان من الناصري سوى أن تقرب من منطاش وانضم إليه، لذا قرر السلطان برقوق التوجه بنفسه صوب دمشق والقضاء على حالة التمرد[3]، فوصلها بجيشه عام (٧٩٣هـ/ ١٣٩١م)، وعفا عن يلبغا ليكسب التأييد ورضاء العامة، أما منطاش فقد هرب إلى أحد أمراء التركمان وهو سالم التركماني[4]، وقد راسل الأخير السلطان وأخبره أن منطاشا لديه،

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣/ ص ٦٨٠.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١٥٣؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤/ ص٥١؛ ج ٥/ ص ٩٩- ١١٣؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص ٣٠٢.

(3) المقريزي: السلوك، ج ٣/ ص ٧٥٢ - ٧٥٣؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢/ ص ٣٢- ٣٣.

(4) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، ج٩، ق٢/ ص ٢٧١.

فأرسل السلطان يلبغا لكي يقبض عليه ويأتي به إلى حلب حيث كان السلطان، إلا أنه علم أن يلبغا ومنطاشاً يحاولان الفرار من قبضته، فأمر بقتلهما واستراح من شرهما [1].

الفتنة في عهد السلطان فرج:

يعتبر عهد السلطان فرج عهد فتن، بل تعد سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣هـ) من أكثر سنوات الفتن في عهد المماليك البرجية، وأرخها المقريزي بأنها تدمير للدولة، حيث قال: (وهذه السنة: هي أول سني الحوادث والمحن التي خرجت فيها ديار مصر، وفني معظم أهلها، واتضعت بها الأحوال، واختلت الأمور خللاً أذن بدمار إقليم مصر)[2].

ورغم أن المماليك قد قطعوا العهود للناصر فرج بدعمه قبل موت أبيه، إلا أن بداية الفتن ظهرت عندما أرغم المماليك الصغار من الخاصكية الأتابك أيتمش بسجن الأمراء الكبار، وبدأت الفتنة تطل من الشام[3].

وقد ذبح فرج في ليلة واحدة أربعة وعشرين أميراً، وخنق أربعة آخرين، حتى أوجز ابن تغري بردي عهد السلطان الناصر فرج بأنه بركة من الدماء محورها التسلط[4]. كما قرب فرج العنصر الرومي، وأقصى الكثير من الجراكسة، حتى تخبطت الأحوال بين السلطان وبين المماليك، فوقف طائفة من المماليك الجراكسة، وسألوا أن يقبض على الأمير تغري بردي، والأمير دمرداش، والأمير أرغون، من أجل أنهم من

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٢/ ص ٣٤ـ ٣٧؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج١/ ص٣٦٥؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك ، ص ٣٧٣.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج ٦/ ص١٠٧.

(3) مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي. ص ١٠٢.

(4) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة،ج٣/ ص ٤٨٨؛ مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٠٣.

جنس الروم، وذلك أن السلطان اختص بهم، وتزوج ابنة تغري بردي، وأعرض عن الجراكسة، وقبض على أينال بيه فخاف الجراكسة من تقدم الروم عليهم، وأرادوا من السلطان إبعادهم، فأبى عليهم، فتحزبوا عليه[1]، ثم باح بها أسره، لأنه كان كما يقول المقريزي: (لا يستطع كتمان سر، وأخذ يذم الجراكسة وهم قوم أبيه، وشوكة دولته، وحل عسكره، ويتعصب لهم، وينتمي إليهم، فإن أمه شيرين كانت رومية. فشق ذلك على القوم، وأخذوا حذرهم)[2]. ولعل من أعظم أسباب تحوله عن الجراكسة محاولة إغراقه من قبل أحد الجراكسة في بركة ماء، وتخليص أحد مماليك الروم له من الغرق.

وظهر في الأفق شيخ المحمودي ونوروز، وبدأ النزاع بينهما وبين السلطان، ولم يستطع الأخير مقاومة الأميرين شيخ المحمودي نائب حلب والأمير نوروز الحافظي نائب طرابلس، وعندما خرج لهم السلطان حلت به الهزيمة، فانسحب إلى دمشق، ثم استسلم لهما سنة (٨١٥هـ/ ١٤١٢م) شرط البقاء على حياته، غير أن الخليفة والعلماء أفتوا بقتله لسوء خلقه، وتنكيله بمماليك أبيه[3]. وانتهى الأمر بفرج إلى أن قتل على يد بعض مماليك أبيه عام (٨١٥هـ/ ١٤١٢م)[4]

وبعد مقتل فرج أسند شيخ السلطنة إلى الخليفة المستعين بالله، ولما أراد ممارسة مهام منصبه كسلطان انقض عليه شيخ، بحجة أن البلاد في حاجة إلى سلطان قوي، وتلقب باسم (الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي)[5].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٣ / ص ٧٤.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٣ / ص ٧٦.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور،ج١/ ص٨٢١ ـ ٨٢٢؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك، ص٢٧٣.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص ١٤٣.

(٥) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٥٩.

الفتن في عهد المؤيد شيخ:

على الرغم أن المؤيد شيخا بدأ سلطنته في فتن عامة، بسبب مقتل فرج، وتنصيب المستعين ومن ثم خلعه، إلا أن سياسته الصارمة أدت إلى نوع من الاستقرار النسبي في سلطنته وفي البلاد، فقد عركته السياسة المملوكية، فلم يؤمن بجدوى الصلح، فقبض على نوروز وقتله، وتخلص من أتباعه الأمراء، وانتهج سياسة قتل الخصوم دون سجنهم، كي لا تتجمع رواسب أحقادهم في السجن ثم ينصرفوا إلى إقلاقه، وفي الجملة نعمت البلاد في عهده بعقد من الزمان الهادئ فقد هدأت الثورات والفتن رغم سوء الحالة الاقتصادية، والقحط وانتشار الأوبئة[1].

الفتن في آخر دولة الجراكسة:

ازدادت الأحوال سوءاً بعد موت المؤيد شيخ، وتولى السلطنة عدد من المماليك، إلا أن الذي يجمعهم في الجملة ضعف الشخصية وخضوع كل منهم لنفوذ مماليكه، وبدا أن النزاع المسلح هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالمناصب العليا، إلا أننا يمكن أن ندرك نوعاً من الهدوء في سلطنة كل من:

- الأشرف برسباي (٨٢٥هـ ـ ٨٤١هـ/ ١٤٢٢م ـ ١٤٣٨م).
- جقمق (٨٤٢هـ ـ ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨م ـ ١٤٥٣م).
- خشقدم (٨٦٥هـ ـ ٨٧٢هـ/ ١٤٦١م ـ ١٤٦٧م).
- قايتباي (٨٧٢هـ ٩٠١هـ/ ١٤٦٨م ـ ١٤٩٦م) وهو من أبرز سلاطين دولة المماليك البرجية فقد طالت مدة حكمه، وندرت الفتن في عهده، إلا أن المماليك الجلبان أثاروا له المشكلة تلو الأخرى.

---

(١) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص٢٦٠، ٣٢٦.

ـ قانصوه الغوري (٩٠٦هـ ـ ٩٢٢هـ/ ١٥٠١م ـ ١٥١٦م)، تولى المنصب وقد جاوز الستين، فعركته الحياة مع المماليك، فأثبت أنه رجل قوي صلب .

ومن المناسب أن نبحث بعض أسباب عدم وجود فتن كثيرة في هذه الفترات، ولعل أوضح سبب في ذلك: هو وجود حركة الجهاد، فإن الأمة في حالة الجهاد تقل فيها الفتن، كما في حديث عوف بن مالك قال قال ﷺ: ((لن يجمع الله تعالى على هذه الأمة سيفين: سيفاً منها و سيفاً من عدوها))[1]، وقد اتسم عهد هؤلاء بالجهاد الخارجي كما يأتي تفصيله لاحقاً.

ـ حال البلاد وقت الفتن:

وحتى ندرك طبيعة الفتن في ذاك العصر؛ يحسن أن نطلع على حال البلاد إبان قيام الفتن، فقد ذكر المؤرخون حالة من الهلع العام والفساد والتردي عند نشوب الفتن، وبيان ذلك على النحو التالي:

إغلاق الأبواب وتعليق رؤوس المناوئين عليها:

العادة عند نشوب الفتن، تُتخذ أنواع الحيطة والحذر فيتم إغلاق أبواب القاهرة والأزقة الكبيرة، وكان باب زويلة آنذاك هو أهم أبواب القاهرة، وكان يتم تعليق رؤوس المناوئين عليه إيذاناً بإخماد فتنتهم، وتحذيراً من سلوك سبيلهم،

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم باب ارتفاع الفتنة عند الملاحم، ج٢/ ص٥١٥، ح٤٣٠١.

وقد كثر من علقت رؤوسهم بباب زويلة في العهد المملوكي[1]، واستمر الأمر حتى قبض العثمانيون على آخر سلاطين المماليك طومان باي، وصلبوه على باب زويلة[2]، بل استمر الأمر بعد ذلك أيضاً، كما ذكر الجبرتي في حوادث سنة (١٢٣٢هـ/ ١٨١٦م) أنه قد شُنق شخص بباب زويلة بسبب الزيادة في المعاملة[3]

إفلات المسجونين:

السجن مكان تعزير لذوي الإجرام، فإذا أطلق هؤلاء عاثوا فساداً في الأرض، وكان هذا ما يحدث أثناء الفتن، ففي الفتنة الأولى أيام الظاهر برقوق (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م) تعطلت الأسواق، وغصت القاهرة بالزعر[4]، .. وبقي الناس فوضى، فطمع المسجونون بخزانة شمايل[5]، وكسروا قيودهم، وأتلفوا باب

---

(١) ومن هؤلاء ابن التركية فقد علق رأسه على باب زويلة عام ٨٠٩هـ. السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣ / ص٩٠؛ وكذا عمر بن الفضل، فقد علق رأسه على باب زويلة عام ٨١١هـ . السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ / ص ١٠٣.

(٢) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ، ج١ / ص ١٣٢.

(٣) الجبرتي: عجائب الآثار ، ج٣ / ص ٥٦١.

(٤) أصل الزَّعَرُ: قلة الشعر، والزَّعَارَّةُ بتشديد الراء شراسة الخلق، والعامة تقول رجل زَعِرٌ. ابن منظور: لسان العرب ، ج٤ / ص ٣٢٣؛ الرازي: مختار الصحاح ، ج١ / ص ٢٨٠.

(٥) تقع بجوار باب زويلة ، وكانت مخصصة للمحكوم عليهم بالإعدام أو القطع من اللصوص وقطاع الطرق وكذلك المماليك المغضوب عليهم، وقد هدمها السلطان شيخ المحمودي سنة (٨٢٨هـ/ ١٤٢٤م)، وفاءاً بنذره إن خرج منها سالماً. ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢/ ص ٤٩١؛ بلقاسم الطبابي: سجون وسجناء العهد المملوكي (١٢٤٩م ـ ١٥١٧م)، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، السنة ٢٠٠٤م، ص٢٤٧.

الخزانة، وخلصوا على حمية جملة واحدة، فتشبه بهم أهل سجن الديلم والرحبة، وخرجوا أيضاً. واشتد الأمر حتى خاف الناس على أنفسهم وأموالهم[1].

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥ / ص ٢٣٠.

النهب والقتل والفساد العام:

وكنتيجة لعدم الانضباط الأمني فإن المسجونين والزعر يقومون بعمليات النهب والسطو، وربما تعدى الأمر إلى الهجوم على حريم وممتلكات الناس، كما حدث في فتنة برقوق عام (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)، رغم أن السلطان نادى في الناس بالتنبه لذلك، فنقل المقريزي أنه أرسل من ينادي: (إنا قد سألنا العدو الباغي في الصلح، فأبى وقد قوي أمره، فاحفظوا دوركم وأمتعتكم، وأقيموا الدروب على الحارات والسكك، وقاتلوا عن أنفسكم وحريمكم فتزايد خوف الناس وقلقهم، وشرعوا في عمل الدروب وشراء الأقوات، والاستعداد للقتال والحصار...، وتجمع الزعر والدُعَّار[١] ينتظرون قيام الفتنة، لينتهبوا الناس)[٢].

وهذا يدل على ضعف الدولة في ضبط الأمن الداخلي، وبالفعل وقعت بعدها عمليات النهب والسطو المسلح، من قبل السراق، وقد حاول أهل الحارات والدروب منعهم من سرقة المحال والبيوت[٣].

ويذكر ابن إياس -على سبيل المثال- أنه في حوادث سنة ٩٠٠هـ، و٩٠٢، ٩٠٥، ٩٠٧ أن السراق نهبوا أسواق القاهرة، (و لم ينتطح في ذلك شاتان)[٤].

---

(١) الدَّعَر: الفساد؛ دَعِرَ العودُ يدعَر دَعَراً، إذا نَخِرَ وفسَدَ، وبه سمّي الدُّعّار من الناس لفسادهم؛ ورجل داعر وامرأة داعرة. ابن دريد: جمهرة اللغة ، ج١ / ص ٣٣٣.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ / ص ٣٩٩.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٥ / ص ٢٣٠.

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣/ ص ٣٠٦، ٤٣٤؛ ج٤/ ص ٢٠.

ويبدو من تكرار ابن إياس لهذه العبارة مدى استيائه لما يحدث من سلب ونهب وتخريب للمحلات في الأسواق، وعدم وجود من يقاوم ذلك من رجال الدرك وغيرهم من المسئولين عن أمن البلد.

وقد يكون السلب مقصوداً لكونه عقوبة، بأن يبيح بعض الأمراء سلب من يخالفهم، كما كان الأمر في فتنة برقوق بالشام، فقد تمزقت عساكره، واشتدت الأزمة بأن سُلب جميع القضاة والمتعممين، وقتل خلق كثير[1].

قلة الأقوات، وارتفاع الأسعار:

قد يحصل الغلاء لأسباب اقتصادية وكوارث اجتماعية، إلا أن الفتنة أسهمت أحياناً في ذلك، كما كان في عام (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)، في عهد السلطان شيخ المحمودي، فقد حدث غلاء عظيم بمصر، أنه عندما أهلت هذه السنة كانت الأسعار رخيصة، إلا أن الغيث كان في أوانه قليلاً بأرض مصر، واتفق مع ذلك وقوع الفتنة بأراضي البحيرة وخروج العسكر إليها، فتلف من غلالها شيء كثير[2].

كما أن ثورات العربان وفسادهم في البلاد كثيراً ما كانت تسبب الغلاء والفوضى، ففي عهد السلطان قايتباي المحمودي سنة (٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م) بسبب هجمات العربان إذ أحرقوا القمح والشعير، ونهبوا البلاد، فوقع الغلاء بالديار المصرية، وكانت أحوال البلاد كما يذكر ابن إياس في غاية الفساد[3].

وقد يكون سبب الغلاء هو استيلاء المماليك على بعض الغلال وإفسادهم زمان الفتنة، ومن أوضح الأمثلة لذلك عهد السلطان يلباي، التي وصفت أيامه بأنها: أشر

---

(١) المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، ج٢/ ص٤٢٦

(٢)المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٦/ ص٣٩٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٣٧٠.

الأيام وأقبحها. حيث عثى المماليك الجلبان في الأرض الفساد، وكثر السراق وقطاع الطرق بين مصر والشام، وعمت الفتنة كافة ديار مصر، وزادت الأسعار في جميع المأكولات، وفشا الظلم بين الناس[1].

شيوع المنامات والشائعات:

الشائعات دوماً تكثر في الفتن، وقد يكون ذلك متنفساً للناس، برجاء حصول مطلوب لهم، وقد تكون الشائعات لمقصد سياسي أيضاً، كما كان في الفتنة عهد برقوق حيث قدمت كتب مزورة، تتضمن أن الملك المنصور قد ملك دمشق، وفر الظاهر، فدقت البشائر ثلاثة أيام، وعمل الأمير حسين بن الكوراني[2] وليمة عظيمة وأظهر فرحاً زائداً، ثم كثرت الإشاعات بكسرة منطاش، واستيلاء الظاهر على المنصور والخليفة، وأنه متوجه إلى القاهرة[3]، وفي هذه الفتنة أيضاً تحاكى الناس عدة منامات رأوها، تدل على زوال دولة السلطان، ولهجوا بذلك[4].

لزوم السلاطين منازلهم وعدم قيامهم بأمر الدولة:

الأصل الشرعي في الفتن أن يلزم الإنسان بيته، فإن الشريعة جاءت بالنهي عن السعي في الفتنة، والأصل في ذلك ما رواه أبو داود عن أبي موسى أن رسول الله ﷺ قال: "إن بين أيديكم فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦/ ص٣٣٢.

(2) هو الأمير حسام الدين الحسين بن علي الكوراني، والي القاهرة، كان ظالماً جباراً، كثير الشر، قتل بها مخنوقاً سنة (٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م) بعد عقوبة كبيرة. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ٤٣٢.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢/ ص٨.

(4) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢ / ص ٤٠٠؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص ٣٨٦.

مؤمنا ويصبح كافرا القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي" قالوا فما تأمرنا ؟ قال " كونوا أحلاس بيوتكم"[1].

إلا أنه قد يلزم أحد الأمراء بيته عجزاً عن تدبير ما يلزمه، فيكون ذلك مذموماً، كما كان الأمر زمن الناصر فرج سنة (٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م)، حيث وقعت الفتنة وافترق العسكر فريقين، فرقة مع أيتمش وفرقة مع يشبك. وانقطع يشبك بداره، وأظهر أنه مريض، فتخيل أيتمش ومن معه من الأمراء وظنوا أنها حيلة من حيله، حتى إذا دخلوا لعيادته قبض عليهم، فلزم كل منهم داره، واستعد، وأخلد أيتمش إلى العجز، وأعرض عن إعمال الرأي والتدبير، وكان قد تبين منذ مات الظاهر عجزه وعدم أهليته للقيام بالأمر[2].

بيع الأحرار على أنهم عبيد:

وقد يقع بيع الأحرار على أنهم عبيد، كما في الفتنة التي كانت بالصعيد في عهد برسباي (٨٢٥هـ/ ١٤٢١م) حيث قتل فيها أمير العرب فعاث العرب من أجلها في البلاد، ولما جهز السلطان لهم عسكرا فروا فرجع العسكر وقد أفسدوا في البلاد ببسط أيديهم إلى بعض الضعفاء فنهبوا بعضا وسبوا بعضا وباعوا الأحرار على أنهم عبيد وإماء[3].

---

(١) أخرجه أبو داود في الفتن والملاحم، باب في النهي عن السعي في الفتنة، (ج٢، ص٥٠٣ ـ ح ٤٢٦٢) ، والأحلاس جمع حِلس، وهو الكِسَاء الذي يَلِي ظَهْر البعير تحت القَتَب أي الْزموها.، ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر، ج١/ ص ١٠٢٩.

(٢) ابن حجر: ابناء الغمر، ج ٢/ ص٩٦؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٣ / ص٩.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص ٤٠.

وفي محاولة من الدولة لإسكان الفتن وردع المفسدين والسراق، ونشر الأمن ما قام به السلطان قانصوة الغوري سنة (٩١٦هـ/ ١٥٢٢م) حيث نادى بأن لا يمشي أحد من الناس بعد العشاء في الطرقات، ومن وجدوه يمشي ومعه سلاح يشنق إن عاود، فسكنت الأحوال نسبياً بعد أن عم الفساد وبلغ الغاية[1].

أثر الفتن والثورات الداخلية على الحياة العلمية في عهد الجراكسة:

لقد كانت الفتن ما تلبث تثور بين المماليك أو ضدهم في العهد المملوكي الثاني، فتتأثر الحياة العلمية بذلك، وما كان للمماليك أن يستقر لهم أمر في فتنة إلا بالعلماء، فنجد المتغلب يفزع إلى القضاة ليأخذ منهم أن فعله صحيح، وأنه ينبغي خلع المغلوب، وهكذا، وربما رجع المغلوب ثانية فيصب جام غضبه على من أفتى بخلعه، ويكرم من امتنع من العلماء عن ذلك.

وحتى يمكن دراسة تأثير الأحوال السياسية على الحياة العلمية في عصر الجراكسة، نحتاج أن نتعرف على دور العلماء في الحياة السياسية في العصر المملوكي، ومن ثم دورهم في الفتن والثورات التي كانت تنشب بين الأمراء وأصحاب القرار السياسي في الدولة.

توزيع السلطة في مصر المملوكية ودور العلماء في ذلك:

كان المماليك في الأصل أرقاء، ولعل قصة بيعهم أيام نجم الدين أيوب على يد العز ابن عبد السلام[2] توضح مدى الشعور تجاههم، وأن أحدا منهم لا يصلح للخلافة والملك لكون أصله رقيقا، كما أن شرط القرشية في تعيين الخليفة كان

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٠٨.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية، ج٨/ ص٢١٦-٢١٧.

سائدا في هذه الفترة بين المسلمين[1]، فاحتاج المماليك إلى ما يثبت شرعية حكمهم، فكان لابد من وجود خليفة يقلد السلطان البلاد، فيكونون تابعين للخليفة فيتوطد حكمهم، ولأجل هذا حرص المماليك على إضفاء الشرعية على حكمهم فقاموا لأجل ذلك بإحياء الخلافة العباسية في القاهرة لما واتتهم الفرصة، وصار الخليفة هو الذي يقلد السلطنة للسلطان، ويفوض له الصلاحيات[2].

ولو تتبعنا آثار إحياء الخلافة بالقاهرة، نجد أنه قد تم تقسيم السلطة على أساس أن يكون الخليفة هو الرمز، وأن تكون إدارة شؤون البلاد بيد السلطان وحده، ووصف معظم المؤرخين سلطة الخليفة بأنها كانت شكلية، فيقول المقريزي عنها: (ليس فيها أ مر ولا نهي وحسبه أن يقال له أمير المؤمنين)[3]، إلا أن الحوادث المتكررة دلت على أنه وإن كانت السلطة الفعلية بيد السلطان لا الخليفة، إلا أن وجود الخليفة كان مهماً لاستمرار حكم السلطان، فعلى سبيل المثال نجد أن الظاهر برقوقاً سجن الخليفة المتوكل على الله في البرج عندما خالفه، لكن ما لبث أن أعيد إلى مكانه[4]، بل ربما تطور الوضع فصارت الأمور بيد الخليفة، فقد قام الخليفة العباسي المستعين بالله بتولي السلطنة بمصر إلى جانب الخلافة وذلك في سنة (٨١٥هـ/ ١٤٢١م)، إلا أن هذا كان استثناء، فما لبث أن قام المؤيد شيخ بعزله،

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣/ ص١١٣.

(٢) المقريزي: السلوك، ج١/ ص٤٧٧؛ محمد عبد العال أحمد: أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية، ص ٣٤ـ ٥٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص٤١٨ .

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣/ ص٢٩٨.

بل وقبض عليه وسجنه[1]، إلا أن هـذه الحادثـة في الجملـة تبـين عـلى أنـه لم تكـن السلطة الشكلية للخليفة دائما كما هو مقتضى الحال في دار الخلافة ببغداد[2].

لكن لابد ألا ننسى أنه إذا قيل بصورية الخلافة، ففي المقابل يمكن القول أن السلطنة كانت أحياناً كذلك صورية لأن السلطان إنما يحتفظ بمنصبه من خلال قوة مماليكه ومقدار إخضاعهم لغيرهم من المماليك، فإذا كان ضعيف الشخصية، كانت سلطنته صورية أيضاً.

ومن هنا ندرك خطورة دور العلماء في السياسة في عصر المماليك الجراكسة، فإن تنصيب الخليفة والسلطان منوط بالقضاة والعلماء، وقد التزم المماليك ذلك طيلة بقاء دولتهم، وصار الأمير الذي يتوثب على الحكم يعمل على أخذ موافقة القضاة لتحقيق هدفه في الوصول إلى الحكم[3].

بل لما أراد برقوق أن يقتل الخليفة المتوكل لما ثبت لديه أنه يحرض على الإطاحة به، واستدعى القضاة ليفتوه بقتل الخليفة، فامتنعوا[4]، فلم يتمكن من هذا حيث لم يحصل على الفتوى بذلك، لأن الخليفة من حقه أن يعزل متى شاء[5].

---

(1) ابن حجر: أنباء الغمر، ج٣/ ص٢٧٣، ج٧/ ص٥٣؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢/ ص٨٥.

(2) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص٣٤٥؛ محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٦/ ص١٤٧.

(3) طقوش، تاريخ المماليك في مصر والشام، ص ٣٥٢.

(4) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢ / ص٣٦٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣ / ص٢٦٥.

(5) طقوش، تاريخ المماليك في مصر والشام، ص ٣٥٨.

ومن هنا بات موقف العلماء السياسي قوياً وحرجاً، ولذا كان المماليك يقرونهم، ويعملون على إرضائهم دوماً.

ـ موقف العلماء من الفتن:

العصر المملوكي الثاني لم يخل من علماء كان لهم أكبر الأثر في الحركة العلمية وتطور العلوم حتى يومنا هذا أمثال: سراج الدين البلقيني، والحافظ ابن حجر، والسخاوي، والسيوطي، وغير هؤلاء، وكثير من هؤلاء ممن دخل في الدولة قاضياً، بل قاضي القضاة، وهذا يجعله في موضع خطير ودقيق في مسألة تولية وعزل السلاطين كما تقدم.

والعلماء يرون المصلحة في هذا كله، فكان العلماء يفتون بالخلع أو التولية حسب ما يظهر لهم من ترجيح المصالح على المفاسد، بل كان الكثير من العلماء والقضاة أحجار شطرنج في كل العصور، يوجهونهم الخلفاء والسلاطين والأمراء كيفما شاؤوا ومتى شاؤوا وينفذون لهم ما يريدون حتى ولو كان مخالفاً للشرع، إلا من رحم ربي، فكيف في العصر المملوكي الجركسي وهو العصر الذي ضعف وبغى فيه أمر السلاطين والأمراء، وحقن الدماء مطلب شرعي، وأن (الواجب تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناها هو المشروع)[1].

---

(١) ابن تيمية: السياسة الشرعية ، ج٣/ ص٣٨.

وعلى هذه القاعدة صحح العلماء حكم المتغلب الذي لم تكتمل فيه شروط الإمامة العظمى، كإمامة العبد غير الحر، يقول ابن حجر: (لو تغلب عبد حقيقة بطريق الشوكة فإن طاعته تجب إخمادا للفتنة ما لم يأمر بمعصية)[1].

وليس المقصود هنا بحث الأمر من الناحية الفقهية، فهذا مسطور بأدلته وتفاصيل فروعه في كتب الفقه، وإنما أردت الاعتذار عن العلماء فيما فعلوه من خلع وتنصيب السلاطين.

ومن جهة أخرى فلولا فتاويهم، ما استطاع المتغلب في الفتنة أن يستمر في حكمه، فإن قبول الناس له منوط بفتاوى العلماء في صحة توليه للحكم وعزل من سبقه، ومن الحوادث الدالة على ذلك ما كان من الفتن في مطلع الدولة، فإن برقوقاً لم يستطع أن يأخذ البيعة لنفسه إلا بعد أن جمع الأعيان وأشهد على المنصور حاجي أنه خلع نفسه، وحكم القضاة بذلك . ثم بويع له[2].

وتكرر الأمر في فتنة (منطاش)، فإنه بعد أن سجن برقوقاً، أراد أن يقتله، فاحتال لقتل برقوق بسيف الشرع، فطلب رأي العلماء في هيئة فتيا، يذكرها ابن حجر بقوله: (ورتبت فتيا صورتها: رجل خرج على الخليفة والسلطان وشق العصا وقتل شريفا في الحرم الشريف واستحل الأموال والأنفس إلى غير ذلك)[3]

ومن الواضح أن صورة السؤال قد وضعت لأخذ إجابة محددة، فإن الخروج على جماعة المسلمين وشق العصا يكفي لإقامة حد القتل، فكيف إذا ضم

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ، ج١٣ / ص ١٢٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٢/ ص٨.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ،ج١/ ص١٤١.

إلى ذلك قتل النفس المحرمة في الحرم، واستحلال الأنفس والأموال، ولذا فقد (كتب عليها العلماء والقضاة بجواز قتاله ودفعه عن ذلك)[1].

إلا أن الأمر لم يتم لمنطاش إذ خرج أحد العلماء عن الأمر وهو الشيخ شمس الدين محمد الركراكي المالكي فامتنع من الكتابة فأحضره منطاش، وألزمه بالكتابة على الفتوى في أمر الملك الظاهر برقوق، فامتنع من الكتابة غاية الامتناع[2]، بل وناظر على ذلك فغضب منه منطاش وسجنه في البرج مع مماليك الظاهر بالقلعة، وضربه مائة جلدة[3].

وجدير بالذكر أن برقوقاً لم ينس هذا الأمر للركراكي، فإنه لما تولى ولايته الثانية خلع على الشيخ محمد الركراكي المالكي باستقراره في قضاء المالكية بالديار المصرية عوضاً عن تاج الدين بهرام الدميري. يقول ابن تغري بردي: (والركراكي هذا هو الذي كان امتنع من الكتابة على الفتيا في أمر الملك الظاهر برقوق لما كتب عليها البلقيني وغيره من القضاة والعلماء، وضربه منطاش بسبب عدم كتابته، وحبسه إلى أن أطلقه بطا[4] فيمن أطلق من سجن منطاش، فعرف له الظاهر ذلك وولاه قضاء المالكية)[5].

---

(1) ابن حجر: إنباء الغمر ج١/ ص١٤١.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ٣١١.

(3) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١/ ص١٤١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ٣١١.

(4) هو الأمير سيف الدين بطا بن عبد الله الطولوتمري الظاهري نائب الشام، كان من أعيان المماليك الظاهرية، اتهم الملك الظاهر في أمره أنه اغتاله بالسم النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ٣٦٢.

(5) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص٣٢٤.

ولكن في المقابل فإن العلماء الذين أفتوا بجواز قتله ما كانوا يحمدون الظاهر، بل من يقرأ ما كتبه المقريزي عنه يجد الفرحة بزوال ملكه الأول حيث قال: (وزالت دولة الملك الظاهر كأن لم تكن)[1]، ثم ذكر بعض آثاره الفاضلة من إبطاله بعض المكوس، وأنه كان حازماً، مهاباً، محباً لأهل الخير والعلم، ثم أسهب في ذكر جملة من مساوئه، من أنه كان محباً لجمع المال، وانتشرت الرشوة في عهده جهاراً، وكسدت الأسواق ثم قال: (وبالجملة فمساوئه أضعاف حسناته)[2].

بل إن الركراكي نفسه لم يكن محموداً عند جل العلماء، ففي حين قال عنه ابن تغري بردي بأنه: (كان عالماً ديناً مشكور السيرة)[3]، إلا أن ابن حجر ذكر أنه كان ينسب لسوء الاعتقاد !!،[4] وأن البلقيني لما سمع بموته قال لله در عقارب حمص، يشير إلى أن أرض حمص لا يعيش فيها عقرب وإن أدخل فيها عقرب غريب ماتت من ساعتها[5]، فكأنه ارتاح لموته.

وعلى كل فهذه الحادثة تبين كيف احتاج الأمراء في الفتن إلى أن يستعينوا ويتقووا بالعلماء فيما أرادوا أن يفعلوه.

---

(1) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥ / ص ٢٣٠.

(2) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥ / ص٢٣٠.

(3)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣ / ص ٣٦٠.

(4) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ / ص١٦٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦ / ص٣٣٠.

(5)ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ / ص ١٦٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦ / ص ٣٣٠.

الآثار السلبية للفتن على الحياة العلمية:

الفتن بلاء على المجتمعات، ففيها تتعطل مناشط الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والاقتصادية، وتتأثر بذلك الحياة العلمية كثيراً.

ولعله من أبرز الآثار السلبية للفتن والثورات على الحركة العلمية، ما يصاحبها من تعطيل أنشطة الحركة العلمية عامة، وهو عادة يكون بسبب خوف الطلبة والمعلمين من الخروج من بيوتهم أصلاً، سواء للتعلم أو غيره، لكن قد يتجاوز الأمر ذلك إلى تعدٍ على دور العلم، من المدارس والمساجد والزوايا، وقد تكرر ذلك في العهد المملوكي الثاني، ولا سيما في الفتن التي صاحبت أيام تولي الناصر فرج بن برقوق، في عام (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)، ويتضح ذلك مما حدث لمدرستي أيتمش ومدرسة السلطان حسن، فقد تجمع من المفسدين خلائق، ونهبوا مدرسة أيتمش، وحفروا قبر ولده الذي بها، وأحرقوا الربع المجاور لها من خارج باب الوزير، فلم يعمر بعد ذلك، ونهبوا جامع أقسنقر، واستهانوا بحرمة المصاحف، ونهبوا مدرسة السلطان حسن، وأتلفوا عدة من مساكن المنهزمين، وكسروا حبس الديلم وحبس الرحبة، وأخرجوا المسجونين[١]

ومنها زاوية الظاهري، التي كانت خارج باب البحر ظاهر القاهرة ، نتيجة للثورات والفتن سنة ست وثمانمائة، خربت وبيعت أنقاضها[٢]، وكذا زاوية

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٢/ ص٩٦؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣/ ص٩.

(٢)المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣/ ص ١٩٧.

الطراطرية، التي بناها الملك الناصر محمد بن قلاون، ولم تزل هذه الزاوية عامرة إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة[1].

وكذا امتد الفساد إلى بعض الأوقاف التي تنفق على دور العلم، كما الحال في قيسارية رية الشرب التي أوقفها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على الجماعة الصوفية، بخانقاه سعيد السعداء[2]، ما برحت مرعية الجانب إلى أن كانت أيام الملك الناصر فرج، وحدثت الفتن وكثرت مصادرات التجار، فانخرق ذاك السياج وعومل سكانها بأنواع من العسف[3].

وربما كانت الفتن سبباً في هدم بعض دور العلم لِدَوَاعي الأمن، كما كان الحال في مدرسة الأشرف شعبان ابن حسين التي على باب القلعة، فقد كانت من أعظم الأبنية فجاء الناصر فعكره مكان بقعتها لأن المتغلبين صاروا يستعينون بها على حصار القلعة بالنزول فيها فهدمها، فصارت رابية عالية وحول ما ينتفع به من حجارتها وأخشابها إلى الأمكنة التي يريدها، فبقيت كذلك إلى أواخر دولة المؤيد فأمر بعمارتها مارستانا سكن به بعض المرضى ومات المؤيد فحولوه بعده جامعا ومنزلا للواردين[4].

---

(١)المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ١٩٨.

(٢) وقفها السلطان صلاح بن أيوب، وكانت داراً لسعيد السعداء قنبر - ويقال عنبر - عتيق الخليفة المستنصر، فلما استولى الناصر صلاح الدين على الحكم، وقفها علي الصوفية في سنة تسع وستين وخمسمائة، ورتب لهم كل يوم طعاما ولحماً وخبزاً، وهي أول خانقاه عملت بمصر، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، وكان سكانها من الصوفية. السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٣٠١.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢ / ص ٢٤١.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٢/ ص٤٩٣.

وقد تتعطل دور العلم بسبب الفتن، كما كان الحال في جامع آق سنقر (٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، الذي تعطلت منافعه بسبب تعطل الوقف الوارد إليه من الشام بسبب الفتن هناك، وهذا الجامع قريب من قلعة الجبل وألحق بجانبه مكتباً لإقراء أيتام المسلمين القرآن، وحانوتاً لسقي الناس الماء العذب، وهذا الجامع من أجلّ جوامع مصر، إلاّ أنه لما حدثت الفتن ببلاد الشام وخرجت النوّاب عن طاعة سلطان مصر منذ مات الملك الظاهر برقوق، امتنع حضور مغل وقف هذا الجامع لكونه في بلاد حلب، فتعطل الجامع من أرباب وظائفه إلا الآذان والصلاة. وإقامة الخطبة في الجمع والأعياد[1].

الآثار الإيجابية للفتن والثورات على النواحي العلمية:

لم تكن الفتن والثورات دوماً ذات نتائج سلبية على النواحي العلمية، بل ربما اقترن بها بعض الإيجابيات:

فقد اعتاد الناس في عصر المماليك البحرية على قراءة البخاري في الأزمات من الفتن أو الكوارث، فيذكر ابن كثير في حوادث عام (٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م) أنه (قويت الأخبار بعزم التتار على دخول بلاد الشام فانزعج الناس لذلك واشتد خوفهم جدا وقنت الخطيب في الصلوات وقرئ البخاري وشرع الناس في الجفل إلى الديار المصرية)[2]

واستمر الأمر في دولة المماليك البرجية، فيذكر المقريزي في حوادث عام (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م) أنه (اجتمع القضاة بالمشهد النفيسي لقراءة تقليد ولد الخليفة

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ٤٠.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤ / ص ٢٢.

المتوكل بنظر المشهد المذكور، ثم توجهوا إلى رباط الآثار النبوية، وقرأوا صحيح البخاري، ودعوا الله تعالى للسلطان، وسألوه إخماد الفتنة)[1].

ومن الآثار الإيجابية في الفتن، أن السلاطين ينقادون إلى مطالب العلماء بإبطال المكوس، فترتفع مكانة العلماء عند المجتمع، فيرغب الناس في تعليم أولادهم بصورة أكبر.

وقد تكرر أن يبطل السلاطين المكوس، وربما كان ذلك في موكب يشهده العلماء والقضاة، كما حدث في عام (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م) حيث نودي في القاهرة ومصر بإبطال سائر المكوس، وركب الخليفة المتوكل على الله ونائب السلطة وقضاة القضاة، وشيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقيني، فكان الموكب للخليفة وبجانبه شيخ الإسلام وبين يديه النائب والحجاب والقضاة والأعيان، وساروا ورجل على فرس أمامهم يقرأ من ورقة: أن السلطان قد أزال المظالم، وهو يأمر الناس بتقوى الله، ولزوم الطاعة[2].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢ / ص٣٩٩.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢ / ص ٣٩٩.

المبحث الثالث

الحروب الخارجية وأثرها على الحياة العلمية

لقد قامت دولة المماليك على الجهاد، وهذه حقيقة تاريخية، لا يشك فيها منصف ألبته، وكل ما توجه من نقد لدولتهم؛ إنما كان بسبب كثرة الفتن الداخلية، والظلم والاستبداد وما إلى ذلك،غير أن السواد الأعظم من الكتاب لم يملك إلا أن يشيد بمواقفها الجهادية ضد المغول والصليبيين.

وقد افتتحت هذه الدولة بمعركة (عين جالوت)، التي كانت نصراً للإسلام والمسلمين، وكانت إيقافاً للهجمة المغولية الوحشية على بلاد المسلمين، وذلك على يد السلطان: قطز [1].

وتوالى سلاطين المماليك على اعتبار هذه المهمة الأساسية في الدفاع عن بلاد الإسلام، والجهاد في سبيل الله طيلة فترة حكمهم، وما كانت المماليك البرجية في العهد الثاني بأقل حظاً من ذلك، فقد كانت انتصاراتهم مشهورة أيضاً، وإن كانت أقل شهرة من انتصارات العهد الأول.

ومع ذلك فإن المطالع في تاريخ الدولة يجد تراجعاً نسبياً في القدرة الحربية العسكرية المملوكية، وقد يرجع هذا إضافة إلى الفتن التي كانت بين الأمراء إضافة إلى مجموعة من العوامل، منها ضعف الجيش عما كان عليه في العهد الأول، وضعف جهاد الطلب، وسوء التدبير بشأن الدولة العثمانية، وغير ذلك مما يأتي الإشارة إليه.

---

[1] ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص ٧٧؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٧٣.

تنظيم الجيش في عهد المماليك الجراكسة:

رتب المماليك البحرية أمر الجيش ترتيباً دقيقاً، فقد قسموا العساكر إلى ثلاثة أقسام: قسم يقال لهم أجناد الحلقة، ويعملون في خدمة السلطان، ولكل منهم إقطاع في أعمال مصر، وكل ألف منهم مضافة إلى أمير مائة ومقدم ألف[1].

والقسم الثاني يقال لهم مماليك السلطان، ولهم رواتب مقررة على ديوان السلطان في كل شهر وكسوة في السنة.

والقسم الثالث يقال لهم مماليك الأمراء يخدمون الأمراء. وكل من هؤلاء لا يدخل مع آخر فيما هو فيه[2]

إلا أن هذا التقسيم اختل في دولة الجراكسة، بسبب الطمع في المال، فصار الأمراء يشترون الإقطاعات أو يأخذونها من السلطان باسم مماليكهم، ثم لا يكفيهم ذلك حتى ينزلوهم أيضاً في بيت السلطان برواتب أخرى[3]

ويعلق ابن تغري بردي متوجعاً على حال الجيش: (فيصير الواحد من مماليك الأمراء جندي حلقة ومملوك سلطان وفي خدمة أمير، فيصير رزق ثلاثة أنفس إلى رجل واحد، فكثر متحصل قوم وقل متحصل آخرين، فضعف عسكر مصر لذلك، فعلى هذا الحساب يكون العسكر الآن بثلث ما كان أولا، هذا غير ما خرج من الإقطاعات

---

(1) المراد بأمير مائة ومقدم ألف: أي صاحب مائة مملوك في خدمته ومقدم ألف من هؤلاء أجناد الحلقة. ويضاف أيضاً لكل مقدم ألف أمير طبلخاناه وأمير عشرين وأمير عشرة ومقدم الحلقة. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣/ ص٢٢٠.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣/ ص٢٢٠.

(3) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٣/ ص٢٢٠.

في وجه الرزق والأملاك وغير ذلك، وهو شيء كثير جداً يخرج عن الحد. فمن تأمل ما ذكرناه علم ما كان عدة عسكر مصر أولاً، وما عدته الآن. هذا مع ما خرب من النواحي من كثرة المغارم والظلم المترادف، وقلة نظر الحكام في أحوال البلاد، ولولا ذلك لكان عسكر مصر لا يقاومه عدو ولا يدانيه عسكر)[1]

وهذا الذي توجع عليه ابن تغري بردي، لم يكن إلا طلباً للأكمل، وإلا فقد انتصر هذا الجيش في عدة معارك فرضت هيبة الدولة مدة من الزمان.

تسليح وتمويل الجيش:

عملت الدولة المملوكية على تأمين احتياجات الجيش من الأسلحة والعتاد والأموال وغير ذلك، وقامت دور الصناعة بعمل المعدات الحربية، كدار الصناعة بالإسكندرية والتي كانت السفن الحربية تصنع بداخلها[2]، وقد تعددت أنواعها وأصنافها، فمنها الشواني والأغربة والطرائد[3].

كذلك صاحب صناعة السفن صناعة حربية أخرى هي صناعة السلاح، فقصر السلاح كان مخصوصاً للأسلحة وأدوات الحرب، ويشمل عدة قاعات، في كل قاعة عدة بيوت وفي كل بيت آلاف مؤلفة من السهام والسيوف والرماح وغيرها من آلات الحرب[4]، و (قصر السلاح) ليس مجرد مخزناً للأسلحة، بل قد يكون قسم منه لتصنيع الأسلحة وصيانتها، ومن اهتمامات سلاطين المماليك بدار

---

(1) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج13/ ص220.

(2) النويري السكندري: الإلمام، ج2/ ص177.

(3) إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك ص230.

(4) النويري السكندري: الإلمام، ج2/ ص175، السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص486.

السلاح تجديدها كلما دعت الحاجة لذلك، فتذكر لنا المصادر أنه على عهد الظاهر برقوق عام (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م)قام بتجديد خزائن السلاح بالإسكندرية باعتبارها ثغراً جهادياً [١].

وقد تنوعت الأسلحة والآلات الحربية التي كانت تصنع فيذكر النويري السكندري عدداً منها والتي كانت موجودة في قاعة القرافة، فيقول: (... إن فيها آلافاً مؤلفة من السهام والرماح والمزاريق والأتراس والخوذ والعنابر والزرد والزرديات والأطواق والقراقلات والسواعد والركب والساقات والأقدام الحديد والقسي الملولبة الجرخ والركاب والأعلام .. والحجارة والمدافع والنفط والبارود وحيل الحروب ومكايدها كثير)[٢].

حروب المماليك الجراكسة مع الصليبيين:

يرى بعض الباحثين أن دولة المماليك كانت إفرازاً سياسياً وعسكرياً للتحدي الذي فرضه الخطر الذي تعرضت له المنطقة العربية، وأنه لما زال الخطر الصليبي بنجاح المماليك في القضاء على خطر الفرنج بسقوط عكا عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م) [٣]، ثم تلاشى الخطر المغولي تدريجياً بسبب اعتناق المغول للإسلام؛

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣/ ص٣٤١.

(٢) النويري السكندري: الإلمام، ج٢/ ص١٧٥، ولمعرفة معاني هذه المصطلحات من الأسلحة الحربية انظر: القلقشندي: صبح الأعشى، ج٢/ ص ١٥٢؛ إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٣٩.

(٣) كانت عكا أخر معقل من معاقل الصليبيين في الشام. المقريزي، السلوك، ج١/ ق٣، ص٧٦٥؛ رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ ص٦٩٧.

سلب ذلك دولة المماليك وظيفتها التاريخية العسكرية، وبدأت بذرة الفناء مع الفتن الداخلية، وقد أذكاها عدم وجود سلاطين أقوياء كبيبرس وقلاوون[1]، وفي رأيي أن هذا القول به بعض المبالغة، فقد استمرت الدولة الجركسية لأكثر من قرن وثلث من الزمان، اعتلى عرش الدولة بعض السلاطين الأقوياء أمثال المؤيد شيخ وقايتباي، بل كان سقوط الدولة متزامناً مع اعتلاء قنصوه الغوري السلطنة، وهو من السلاطين الأقوياء في الجملة.

وبقاء الدولة هذا الزمان يرجع إلى أن المماليك في الجملة كانوا على وعي بهذا الخطر الخارجي، فرغم الفتن والثورات الداخلية المستمرة طيلة فترة حكم المماليك البرجية، وبالأخص من وفاة المؤيد شيخ عام (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) إلا أن المماليك عملوا على حصر هذه المنازعات، في دائرة ضيقة داخلية، بحيث لم يمكنوا أية قوى خارجية من التدخل في شؤون البلاد [2].

ولا أدلَّ على ذلك من معالجتهم للمشكلة القبرصية التي كانت من كبريات المشكلات السياسية والعسكرية التي واجهت الدولة خلال عدة عقود، وكانت لها التأثيرات السلبية على الحياة العامة بها، ومن ثم جهادهم ضد الكتيلان وغيرهم، كما تأتي الإشارة إليه.

حروب المماليك الجراكسة مع قبرص:

استفحلت المشكلة القبرصية في آخر عهد المماليك البحرية، إذ كانت قبرص قبل سقوط عكا معقلاً مهماً للصليبيين الغربيين، فمنها توجه الحملات

---

(١) قاسم عبده: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٥٩.

(٢) محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٣٥٢.

على الشرق الإسلامي، كما حدث سنة(٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، حيث أتت مراكب قبرص إلى ميناء الإسكندرية واستولت على مراكب المسلمين، كما تكرر هذا الاعتداء عندما أغار أثنا عشر مركباً للقبارصة على الإسكندرية فما كان من الظاهر بيبرس سوى أن استدعى بعض زعماء الصليبيين بالشام وعاتبهم لغدر صاحب قبرص، وظلت مناوشات القبارصة للدولة مستمرة[١] حتى كانت الواقعة المشهورة عام (٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م)، حيث كان السلطان الأشرف شعبان وقت وصول الحملة ما زال صبياً عمره (١٣) سنة[٢]، وكانت السلطنة في يد الأتابك يلبغا العمري الخاصكي[٣]، دخلت مراكب القبارصة في سنة(٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م) إلى سواحل الإسكندرية، فنهبوا متاجرها وخاناتها وأسواقها[٤]، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بحرق المساجد والمدارس[٥]، وقتلوا الناس بحيث بلغ عدد القتلى نحو من أربعة آلاف شخص، ثم حملوا معهم الغنائم واستاقوا نحواً من خمسة آلاف أسير، وخرجوا من المدينة بعد ثمانية أيام[٦].

وقد ذكر بعض الباحثين أن هذه الهجمة كانت بمثابة الكارثة العسكرية لدولة المماليك، حيث صارت قبرص قاعدة للصليبيين[٧]، ولقد حقق بطرس

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية،ج٧/ ص٢٧١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص١٤٩.

(٢) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٠٩.

(٣) حامد غانم: الأزمات والأوبئة في عصر المماليك، ص٤٥.

(٤) ابن خلدون: العبر، ج٥/ ص٤٥٤ـ ٤٥٥.

(٥) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص١٣٢.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ ص٢٩

(٧) قاسم عبده: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٥٩.

لوزنيان (PIETRO LOZJNAN) هدفه من هذه الحملة وهو إرهاب سلاطين المماليك، وإضعاف هيبتهم، وبث روح الهزيمة في قلوب المسلمين، والمساومة بتحرير الأسرى الذين شحنوا بهم سفنهم إلى قبرص، والإطاحة بالاقتصاد المملوكي بنهب السلع والبضائع بالثغر وبإيقاع الفتنة بين المماليك والبنادقة[1].

فما قام به القبارصة لا يعدو كونه مجرد قرصنة بحرية استهدفت سواحل الإسكندرية، وقد وجه ملوك أوروبا اللوم له قائلين: (أن الذي فعلته هو فعل اللصوص، لا فعل الملوك كنت لما ملكتها أقمت بها، وناضلت عنها، كما فعلت الجنوية بطرابلس الغرب، ولكنك دخلتها لصاً وخرجت منها لصاً، وذلك لعدم قدرتك على مقابلة جيش مصر)[2].

ولا شك أن هذه الحادثة كانت ماثلة أمام مماليك الدولة الثانية الذين قامت دولتهم الجركسية بعد سبعة عشر عاماً من هذه الحادثة، ولاسيما وقد ظلت المشكلة القبرصية مصدر إزعاج للدولة.

فقد ظلت اعتداءات القبارصة مستمرة على البلاد والسفن المملوكية حتى القرن (التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي)، فقد شاركهم قراصنة مسيحيون من مختلف الجنسيات خاصة من المدن الإيطالية الساحلية.

---

(١) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص٦٠؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣١٨.

(٢) سعيد عاشور: العصر المماليكي، ص١٣٣؛ سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية، ص١٢١.

ولقد حاول المماليك السيطرة على جزيرة قبرص بهدف تأمين تجارة مصر في البحر المتوسط من تعديات القراصنة المسيحيين المنطلقين من هذه الجزيرة، إضافة إلى القضاء على البقايا الصليبية في البحر المتوسط[1].

وعندما بادر الجنويون[2] بمصالحة السلطان برقوق سنة (٧٨٨هـ/ ١٣٨٤م)، لم يمنعهم ذلك من الاستمرار في أعمال القرصنة، فقاموا بمهاجمة سفن جماعة من التجار كانوا قادمين من بلاد الشام ومعهم أخت الظاهر برقوق وبعض أقاربه، وأخذوا المراكب وأسروا من فيها، فأمر السلطان جميع نواب السلطنة بالبلاد الساحلية بالقبض على جميع من عندهم من تجار الصليبين وغيرهم، ونفذ نائب الإسكندرية ذلك بدقة حتى اضطر الجنويون إلى إطلاق سراح الأسرى وردوا الأمتعة وما نفق منها فلس واحد[3].

وعاث القبارصة ومعهم الكتيلان فساداً في البحر وكثرت غاراتهم في عهد كل من السلطان المؤيد شيخ، والأشرف برسباي.

وما إن اعتلى برسباي العرش المملوكي في عام (٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م) عمل على السيطرة على قبرص للقضاء على بقايا الصليبيين من جهة وصرف منافسيه

---

(١) العبادي وسالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، ص ٣٢٩.

(٢) سيطر الجنويون على قبرص سنة (٧٧٥هـ/ ص١٣٧٣م) بعد صراع مرير مع حكامها واستمرت حملات القرصنة الصليبية، وزاد التنافس بينهم وبين البنادقة فبدأوا يغيرون على سواحل الشام ومصر ومعهم الكتيلان وأهل رودوس والقبارصة. دراج: المماليك والفرنج، ص٩؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٦٥ـ ٣٦٦.

(٣) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ص٣٨٥.

مــن الأمــراء عــن افتعــال المــشاكل والفــتن الداخليــة في وجهــه، وفي ســنة (٨٢٥هــ/ ١٤٢١م) في بدايـة عهـد الأشرف برسـباي هـاجم القبارصـة مينـاء الإسكندرية وبه مركب تجاري تـصل شـحنته إلى نحـو مائـة ألـف دينـار، فعـزم برسباي على وضع حد لهذه الاعتداءات المتكررة، وقد واتتـه الفرصـة حـين قـام القبارصــة بــالهجوم عــلى مراكــب المــسلمين بــالقرب مــن دميــاط عــام (٨٢٧هـ/ ١٤٢٤م)، واستولوا على ما فيها من البضائع وأسروا ما فيها من رجال وساقوهم إلى قبرص، كما أن ملك قـبرص جـانوس اسـتولى عـلى سـفينة محملـة بالهدايا مرسلة من السلطان برسباي إلى السلطان العثماني مراد الثاني[1].

سير برسباي ثلاث حملات إلى قبرص، الأولى سنة (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)، حيث هاجمت سفن المسلمين على الجزيرة وغنمت غنائم كثيرة وعادت إلى مصر سالمة[2].

والثانيـة في سـنة (٨٢٨هــ/ ١٤٢٤م) حيـث وصـلت سـفن المماليـك إلى سواحل جزيرة قبرص، واستولوا على قلعتها[3]، وقد حققـت الحملـة انتـصارات باهرة للمماليك مما دفع البندقية والتي خافـت عـلى تجارتهـا في الـشرق إضـافة إلى وقوع الجزيرة في قبضة المماليك وتحويلها إلى جزيرة إسـلامية لـذا قامـت بإرسـال

---

(١)خليل بن شاهين الظاهري: زبدة كشف المماليك،ص ١٣٨؛ ابن إياس:بدائع الزهور،ج٢ص ١٠٦.

هو السلطان العثماني مراد الثاني ابن محمد جلبي، تولى الحكم سنة (٨٢٤ هـ/ ١٤٢١م) بعد موت أبيه وعمره ثماني عشرة سنة ، استطاع القضاء على خصومة حماية حدود دولته من أعدائه، حكم البلاد ثلاثين عاماً، توفي سنة (٨٥٥ هـ/ ١٤٥١م). محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ج١ / ص ١٥٨.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣/ ص٧٧؛ سعيد عاشور: الأيوبيين والمماليك، ص٣٠٧.

(٣) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣/ ٧٨ـ ٧٩؛ السيد عبد العزيز سالم:تاريخ الإسكندرية ، ص٣٨٩، ٣٩٠.

نجدة عسكرية إلى قبرص، فما كان من قائد الأسطول المملوكي إلا أن اكتفى بما حققه أسطوله من انتصارات وعاد إلى مصر وبصحبته الغنائم[1].

أما الثالثة فقد خرجت في صيف سنة(٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م)، ووصلت إلى سواحل قبرص، واستولى رجالها على مينائها[2]، وفي تلك الأثناء كان ملك قبرص قد جمع جيوشه واستعد لمنازلة المسلمين، فدارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس، هزم فيها القبارصة شر هزيمة، ووقع ملكهم أسيراً في قبضة المماليك[3]، وقد استمر زحف الحملة المسلمة حتى وصلت إلى نيقوسيا عاصمة قبرص[4]، ثم عادت الحملة إلى القاهرة ومعها مئات الأسرى من ضمنهم ملك قبرص جالينوس، والذي ظل أسيراً حتى عام (٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م)، حتى أفرج عنه برسباي، مقابل فدية مالية كبيرة قدرها مائتا ألف دينار، والاعتراف بسيادة سلطنة المماليك على قبرص، وأن يكون ملكهم نائباً للسلطان في الجزيرة[5]، وتؤدى الجزية السنوية المفروضة عليهم [6].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤/ ص ٧٢٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤/ ص ٢٩١ ـ ٢٩٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٩٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤/ ق٣، ص٧٢٢؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣/ ص٧٨ ـ ٨٨؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣٣٤.

(٣) ابن حجر إنباء الغمر، ج٢، ص١١٢؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣، ص٧٨ ـ ٨٨؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ١٠٨؛ العبادي: تاريخ البحرية، ص٣٣٤.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢، ص١١٢؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص١١٣.

(٥) المقريزي: ج٤/ ص ص ٧٢٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ١٤/ ص ص ٢٩١ ـ ٢٩٥؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٩٢.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور،ج ٢/ ص ١٠٧؛ محمد سهيل طقوش:تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٥٢٠.

وظلت بعدها قبرص في حوزة المماليك حتى نهاية دولتهم[1]، واستمر الأمر لما بعده أيضاً، حيث ظلت قبرص خاضعة لحكم المصريين بعد سقوط دولة المماليك سنة (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، واستمرت الجزيرة تدفع الجزية إلى السلطان العثماني، حتى سنة (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م) ثم حكمها الأتراك حكماً مباشراً عن طريق ولاتهم الأتراك[2].

حروب المماليك الجراكسة مع جزيرة رودس:

لقد أسهمت جزيرة ردوس في الغارات المتكررة على السواحل المملوكية في مصر وبلاد الشام، خاصة بعد نزوح الفرسان الاسبتارية إليها بعد عودة عكا إلى حظيرة الدولة الإسلامية وطرد الصليبيين منها ، ومنهم الاسبتارية.

وتتابعت الحملات الصليبية من جزيرة رودس، فقد استمرت أعمال القرصنة الخاطفة والتي قام بها حاكم جنوة بالاشتراك مع ملك قبرص وفرسان الاسبتارية في جزيرة رودوس سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) بشن غارة خاطفة على الدولة المملوكية، ثم تلا ذلك عبث قراصنة كتلان بسفن المماليك ، مما دفع السلطان المؤيد إلى تطبيق مبدأ المسؤولية الجماعية إزاء جميع تجار الفرنج وقناصلهم بالإسكندرية ، وتحديداً تجار الكتيلان وقنصلهم، فقد أمر بسجنهم بأحد أبراج القلعة، فسارعت البندقية بإرسال سفير من قبلها يؤكد له براءة البنادقة من هذه الأعمال، وقد نجح السفير البندقي في مهمته، وعقد معه معاهدة مؤرخة في سنة

---

(١) ابن شاهين: زبدة كشف المماليك، ص١٤٤؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٣/ ص٢٧٦؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣/ ص٩٤؛ سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص١٢٦؛ العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣٣٦.

(٢) العبادي: تاريخ البحرية، ص٣٣٦.

(٨١٨هـ/ ١٤١٥م)[١]. وعندما اعتلى الفونسو (Alfonso) الخامس عرش مملكة أرغون عام (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) أمر قراصنة الكتيلان بشن الغارات على السواحل المملوكية، فهاجموا عام (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) الإسكندرية [٢]، وقتلوا وأسروا عدداً من الرجال والنساء، كما استولوا على عدد من السفن كانت راسية بالميناء وأبحروا بها وبمن عليها من تجار إلى رودس[٣].

وفي عهد السلطان ططر[٤] أصدر مرسوماً حدد بمقتضاه مدة إقامة الفرنج في أراضي الدولة بأربعة أشهر، وذلك لإنهاء عملياتهم التجارية، وقصد بذلك منعهم من الإقامة الدائمة بالبلاد تجنباً لتآمرهم مع القراصنة، حيث كانوا يمدونهم بالمعلومات عن التحصينات بالسواحل وعن أخبار وصول التجار المسلمين ومغادرتهم للموانئ وعن استعدادات المسلمين لمواجهة غاراتهم[٥].

وقد تتابعت غارات الكتيلان وقرصنتهم على سفن المماليك ففي عهد السلطان الأشرف برسباي شن الكتيلان هجوماً على ميناء الإسكندرية في سنة(٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م)، وقد كانت هذه الغارة من الشدة والعنف بحيث تعذر تقدير الخسائر في الأنفس والأموال، فيذكر ابن تغري بردي أن من ضمن الخسائر التي لحقت

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢/ ص ٢٣٨، ٢٤٣؛ دراج: المماليك والفرنج، ص٢٣.

(٢) الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢، ص٣٧٠.

(٣) دراج: المماليك والفرنج، ص ٢٥؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية، ٣٨٨.

(٤) تولى السلطان الظاهر ططر الحكم سنة (٨٢٤هـ/ ص ١٤٢١م)، وتوفي من نفس العام الذي تسلطن فيه، فكانت مدة ملكه أربعة وتسعين يوماً. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٦/ ص٣٩٧؛ الشوكاني: البدر الطالع، ج١/ ص٣٠٢.

(٥) دراج: المماليك والفرنج، ص٢٨.

بتجار الإسكندرية أن: (الفرنج أخذوا مركباً للتجار من ميناء الإسكندرية بها بضائع بنحو مائة ألف دينار، فشق ذلك على الملك الأشرف إلى الغاية)[1]. مما اضطر برسباي إلى التخطيط للسيطرة على قبرص وإنهاء هذه الاعتداءات.

ونتيجة لفتح قبرص أيقن الفرسان في رودس أن انتصار المسلمين ما هو إلا إنذار بقرب حلول جزيرتهم ، فأرسل رئيس الأسبتارية مندوبه إلى السلطان برسباي معرضاً دفع الجزية في مقابل التعهد من السلطان بعدم مهاجمة الجزيرة، ونتيجة لانشغال برسباي بالإضرابات الداخلية لم يتابع خطواته الجهادية تجاه هذه الجزيرة[2].

ومع بزوغ نجم السلطان جقمق[3] بدأت تراوده فكرة السيطرة على جزيرة رودوس ليضيف انتصاراً جديداً للمماليك على الصليبيين، وبدأ بإنشاء سلسلة من الإجراءات الدفاعية، فعلى الرغم من استئناف العلاقات التجارية مع الصليبيين في عهده إلا أنه جدد المرسوم الططري؛ فأعلن في سنة (٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م) بأنه لن يسمح للتجار الصليبيين بأن يقيموا بدمشق والإسكندرية أكثر من ستة شهور،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص٢٤٩ـ ٢٥٠.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص ٣٠٦؛ زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص ١٩٧ـ١٩٩.

(٣) هو السلطان الظاهر أبو سعيد الجركسي، تولى الحكم سنة (٨٤٢هـ/ ص١٤٣٨م)، اتصف بالعدل والشجاعة والعفة مع التدين وحب الخير، تنازل عن الحكم لولده الملك المنصور بعد مرض طويل ألم به، ثم ما لبث أن توفي بعد خلعه بإثنى عشر يوماً سنة (٨٥٧هـ/ ص١٤٥٣م). ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٤/ ص٢٧٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ج٣/ ص٧١.

وأنه لن يسمح لقناصلهم بالإقامة بهاتين المدينتين أكثر من عام واحد[1]، وقد كـان دخول رودس حلماً لسلفه برسباي الذي قام بفتح قبرص، لكـن تـوتر العلاقـات بين الدولة المملوكية والتيموريين والعثمانيـين صرفـه مـرغماً إلى قبـول مـا عرضـه فرسان الاسبتارية من صلح عام (٨٣١هــ/ ١٤٢٧م)، والـذي بموجبـه تعهـدوا بعدم حماية قراصنة الكتيلان بجزيرتهم، وقد قدم وفد إلى القاهرة للتوقيع على هذه المعاهدة[2].

إلا أن معاودة الـصليبين بتهديـد سـواحل الإسـكندرية سـنة (٨٣٢هــ/ ١٤٢٨م)[3]، دفع السلطان جقمق إلى القيام بـثلاث حمـلات محـاولاً فـتح جزيـرة رودس، كانت أولاها سنة(٨٤٣هـ/ ١٤٤٠م)، إلا أن الرهبان الفرنسسكان بدير صهيون وبيت لحم نقلوا أخبارها إلى فرسان الاسبتارية ، فاستعدوا للحملة، وقـد باءت بالفشل لكونها صغيرة في العَدَد والعُدَدِ، وانسحبت عائدة إلى مصر[4].

ومن هنا أصدر السلطان جقمق أوامره بمنع التجار الصليبيين مـن شـحن بضائعهم التي في ميناء الإسكندرية، ودمياط وصور، وفرض عليهم شراء البهـار

---

(١) دراج: المماليك والفرنج، ص٥٥؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الأسبانية، ص٣٣٦.

(٢) طرخان: مصر في عصر دولة المماليك والجراكسة، ص١٠٥؛ إبراهيم حسن: البحرية في عهد سلاطين المماليك، ص٢٦٨.

(٣) ابن حجر : إنباء الغمر، ج٣/ ص٤٢٠، ٤٢٣؛ العيني: عقـد الجـمان، ص٣٣٦، ٣٦٠؛ ابـن تغـري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص٣٢٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص ٣٠٦؛ زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص ١٩٧ـ ١٩٩.

بأثمان مرتفعة، ولما رفضوا ذلك أمر بالقبض عليهم وترحيلهم من الإسكندرية ليسجنوا بالقاهرة[1].

كل تلك الإجراءات الصارمة من قبل جقمق جعلت البنادقة يخافون على مصالحهم التجارية، فأعلنوا حيادهم من الصراع بين المماليك والاستبارية في رودوس، حيث أصدرت تعليمات بعدم تعرضهم لسفن السلطان، وتجنب الإبحار إلى رودس، وهددوا من يخالف هذه الأوامر بتوقيع عقوبة الموت عليه[2].

وقام السلطان بإرسال الحملة الثانية عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م) التي توجهت صوب بيروت وطرابلس لتنضم إليها القوات الأمامية ثم إلى ليماسول في قبرص للتزود بالمؤن، ومنها تحركت إلى رودس غير أن تموين الحملة لم يكن كافياً إضافة إلى اقتراب فصل الشتاء فعادت إلى مصر[3].

ورغم فشل الحملة الثانية التي سيرها جقمق إلى الجزيرة سنة(٨٤٦هـ/ ١٤٤٣م)، إلا أنه أرسل حملة ثالثة لغزو الجزيرة، وكان ذلك سنة (٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م)[4]، بعد أن أنفق عليها أموالاً طائلة، فخرجت من دمياط وانضم إليها قوات من بلاد الشام، ثم توجهت صوب رودس، وقد حاول

---

(١) العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية، ص٣٦٠، ٣٦٣؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص١٤٠ـ ١٤٢.

(٢) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص٥٧؛ حياة حجي: العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الأسبانية، ص٣٥٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص ٣٠٦؛ زيادة: المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، ص ١٩٧ـ ١٩٩.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥/ ص٣٦٠.

المسلمون الاستيلاء على العاصمة غير أن تحصيناتها كانت قوية إضافة إلى ما كان يصل الجزيرة من إمدادت عسكرية ومؤن وغيرها من قبل القوات المسيحية في أوروبا والتي استطاعت أن تصطدم بالمسلمين وتهاجم أسطولهم، مما دفع بالمسلمين لمغادرة الجزيرة والعودة إلى مصر[1].

ولم تتحقق الآمال المرجوة منها، بل كان لها آثار عكسية، ويعلق السخاوي على ذلك بقوله: (أنه لم يتم للعسكر قصد ولا رجعوا بطايل، ولهذا فترت همتهم عن الجهاد في تلك المدة لهذه الجهة، ولله عاقبة الأمور)[2].

وفي أواخر عهد السلطان الأشرف إينال[3] أغار الصليبيون على سواحل مصر سنة(٨٦٣هـ/ ١٤٥٩م)، فتصدت لهم قواته، وتعقبتهم في عرض البحر وأعقب ذلك معاقبة تجار جنوة الذين حامت حولهم الشبهات، فقبض على تجارهم وعلى قناصلهم بالإسكندرية[4].

وفي عهد الأشرف قايتباي كرر الصليبيون غاراتهم على سواحل الإسكندرية وأسروا تسعة أنفار وعبثوا بالميناء، فأمر السلطان بخروج تجريدة لتتبعهم[5]، وفي سنة (٨٨٠هـ/ ١٤٧٠م)، شن القراصنة الصليبيون غارة على ميناء الإسكندرية، وقاموا

---

(١) ولقد ظل هؤلاء القراصنة الصليبيين في الجزيرة حتى قضى عليهم نابوليون بونابرت وهو في طريقة إلى مصر. محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٥٢٦.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٨٩؛ ابراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٧٤.

(٣) هو السلطان الأشرف إينال بن عبد الله ، تولى الحكم سنة (٨٥٧هـ/ ص١٤٥٣م)، كان ملكاً جليلاً، عادلاً، توفي سنة (٨٦٥هـ/ ص١٤٦٠م). ابن تغري بردي:الدليل الصافي، ج١/ ص١٧٥.

(٤) دراج: المماليك والفرنج، ص٩٠.

(٥) مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي، ص ٢٩؛ ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣، ص٨٩.

بأسر بعض تجارها منهم تاجر السلطان ابن علبية[1]، ثم عادوا إلى ديارهم، مما دفع السلطان إلى القبض على جميع التجار المقيمين بالإسكندرية مع مصادرة أموالهم ومتاجرهم، وإلزامهم بمكاتبة ملوك الصليبيين لإطلاق سراح التجار المسلمين، وتحت التهديدات المملوكية أطلق القراصنة الصليبيون أسرى المسلمين[2].

وقد انتهى الأمر بين المماليك والأسبتارية بعقد صلح بين الطرفين ، غير أن الاشتباكات تجددت فيما بينهم في عهد السلطان قانصوه الغوري فاستمرت غارات القراصنة الصليبين تهدد السواحل المملوكية، ففي سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٥م) هجم فرسان الاسبتارية على خمس سفن قادمة من ميناء الإسكندرية، و كانت تحمل عدداً من المغاربة فأسروهم، واستولوا على متاجرهم، وقيل إن هذا كان بالاتفاق مع بحارة السفن الفرنسية، فقام الغوري بالقبض على القنصل الفرنسي بالإسكندرية وعلى جميع تجارهم بها مع مصادرة متاجرهم، ثم كرر الاسبتارية في سنة (٩١٦هـ/ ١٥١٠م) الهجوم على عدد من السفن المصرية في عرض البحر والتي كانت محملة بالأخشاب لبناء أسطول جديد، قام السلطان الغوري بالقبض على جميع تجار الصليبيين المقيمين بمصر ومصادرة أموالهم والتحفظ على متاجرهم[3]، وفي عام (٩١٨هـ/ ١٥١٢م) تدخلت وساطة فرنسية لعقد تفاهم بين المماليك والاسبتارية غير أنها لم تثمر بنتائج

---

(١) ابن علبية هو: بدر الدين حسن بن إبراهيم بن علبية السكندري أحد رؤساء الكارم بالثغر، وتاجر السلطان قايتباي، وقع في أسر قراصنة الصليبيين أثناء غاراتهم على الإسكندرية سنة (٨٨٠هـ/ ص١٤٧٥م)، وظل في الأسر لمدة عام حتى أطلق سراحه نظير فدية من المال،توفي متأثراً بمرضه نتيجة الأسر عام (٨٨٩هـ/ ص١٤٨٤م). ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص١٤٤، ١١٩، ٢٠٧.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص١١٤.

(٣) أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص١٤٣.

ذات قيمة[1]، وظلت رودس مصدر إزعاج للدولة حتى نهايتها، ثم في عام (٩٢٨هـ/ ١٥٢٢م) أخضع العثمانيون رودس إلى سلطانهم فهجرها الاسبتارية إلى جزيرة مالطة[2].

صراع المماليك الجراكسة مع الصفويين:

ولم تقتصر دائرة الصراع وتهديد الموانى المملوكية على الفرنج بل ضمت الشاه إسماعيل الصفوي[3] الذي اتفق مع الفرنج على أن يهاجم مصر من البر وهم من البحر، فلما علم الغوري بذلك سارع بالقبض على قناصلة البندقية بالإسكندرية ودمشق وطرابلس واحتد عليهم وهددهم بالشنق، ورسم بالتحقيق معهم والقبض على جميع تجارهم والتحفظ على أموالهم وبضائعهم[4].

ولما كان الغوري قد ضاق ذرعاً بالبندقية وبسياستها ذات الوجهين، وفقد الأمل في تقديم المساعدة له في استرجاع السفن التي استولى عليها فرسان

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٥٥.

(٢) لقد ظل هؤلاء القراصنة الصليبيين في الجزيرة حتى قضى عليهم نابوليون بونابرت وهو في طريقه إلى مصر. محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٥٢٦.

(٣)هو إسماعيل بن حيدر بن الجنيد حفيد صفي الدين الأردبيلي (ت٧٢٩هـ/ ص١٣٢٨م)، والذي ينسب إليه الصفويين، وقد تمكن إسماعيل من الاستيلاء على عدد من المدن منها تبريز والتي جعلها قاعدة ملكه، واتخذ المذهب الشيعي منطلقاً لفكرته، وقد توسع بدولته حتى وصل نهر جيحون وساحل الخليج العربي، وعمل مع البرتغاليين ضد العثمانيين رغم أن البرتغاليين كانوا يهددون الأماكن المقدسة وبلاد المسلمين، ولكنه هزم أمام العثمانيين بقيادة سليم الأول في معركة جالديران عام (٩٢٠هـ/ ص١٥١٤م)، وفر هارباً حتى توفي سنة (٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م). محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٨/ ص٣٨٦ .

(٤) ابن اياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص١٩١، ١٩٩؛ أحمد دراج: المماليك والفرنج، ص١٤٧ـ١٤٨.

الاسبتارية في خليج إياس، تحول إلى القنصل الفرنسي في الإسكندرية وطلب منه مساعدة ملك فرنسا للضغط على الاسبتارية لإعادة سفنه والكف عن أعمال القرصنة ضد دولته، غير أن محاولاته باءت بالفشل، حيث رفض الاسبتارية مساعي ملك فرنسا [1]، فما كان من الغوري سوى أن بني أسطولاً جديداً لمواجهة الخطر البرتغالي؛ الذي بدأ يهدد نفوذ دولة المماليك في مياه المحيط الهندي والسواحل الجنوبية للجزيرة العربية، ومدخلي البحر الأحمر والخليج العربي.

حروب المماليك الجراكسة مع البرتغال:

نتيجة لوصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وإنشائهم المراكز التجارية المسلحة على سواحل البلاد الواقعة على هذا الطريق، أخذت السلع الشرقية تأخذ طريقها على السفن البرتغالية إلى لشبونة مباشرة، ومنها إلى سائر أنحاء أوروبا، مما حجب وصول السلع التجارية بكميات كبيرة إلى مصر وبلاد الشام من الهند ، وبدأت الدولة تعاني أزمة اقتصادية عنيفة[2].

ولقد عمد البرتغاليون إلى تدمير السفن المملوكية في البحار أو في الموانئ وقتل ركابها وبحارتها ونهب شحناتها وبضاعتها، ففي عام (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)

---

(١) أحمد دراج : المماليك والفرنج، ص١٥١.

(٢) غسان علي محمد: صراع المسلمين مع البرتغالين في البحر الأحمر، ص ٨١ـ ٨٢؛ مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص١٨٥ـ ١٨٧.

هاجم الأسطول البرتغالي في مياه الهند الأسطول التجاري المملوكي المحمل واستولى على شحنته الكبيرة من التوابل والسلع الهندية[١] .

ونتيجة للقرصنة التي مارسها البرتغاليون على السفن المملوكية وتدميرهم للأساطيل التجارية والاستيلاء على البضائع وقتل الأرواح[٢]، رأى الغوري أن الأمر يحتاج إلى إرسال حملة حربية إلى مياه الهند تعيد الأمور إلى نصابها، فأنزل أسطولاً حربياً مؤلفاً من خمسين سفينة في ميناء الطور، بقيادة الأمير حسين كردي، وقد تجمع الأسطول في ميناء جدة ، وفي عام (٩١٣هـ / ١٥٠٧م) انطلق منها إلى سورات في مقاطعة جوجيرات ، حيث أوقع الهزيمة بالأسطول البرتغالي ، غير أن البرتغاليين لم يستسلموا لهذه الهزيمة إذ قاموا في العام التالي بتدمير الأسطول المملوكي القابع في جزيرة ديو والواقعة شمال غرب الساحل الهندي للتموين وعمل الصيانة لسفنه، مما دفعهم إلى الانسحاب إلى جدة [٣]، وقد أثرت هذه الهزيمة للأسطول المملوكي على خزينة الدولة، فطلب السلطان الغوري المساعدة من العثمانيين، وراح يجدد أسطوله مرة أخرى ليخوض معركة حاسمة مع

---

(١) الشناوي: أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج١/ ص ١٠٤؛ محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٥٥١.

(٢) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ج٤/ ص ٢٤.

(٣)ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤/ ص ١٠٩؛ عاشور: العصر المماليكي، ص ١٧٨ ـ ١٧٩؛ دراج: المماليك والفرنج، ص ١٣٧ ـ ١٣٨.

البرتغاليين، غير أن معركة مرج دابق مع العثمانيين أدت بوفاة الغوري، وبالتالي أدى الأمر إلى إرباك مخططات المماليك(١).

حروب المماليك الجراكسة مع التيموريين.

لقد امتد سلطان تيمورلنك(٢) حتى تاخم أراضي الدولة العثمانية والدولة المملوكية الثانية في مصر وبلاد الشام، وقد قرر هذا القائد إخضاع العالم الإسلامي تحت قبضته، مستغلاً للأوضاع المضطربة بالشام، نتيجة لذلك جهز برقوق جيشاً قوياً لمحاربة توسعات تيمورلنك وتهديداته المستمرة لحدود بلاده، وقد ترأس برقوق قيادة الجيش، وقد مول الجيش من عدة طرق منها اقتراض الأموال من تجار القاهرة لتغطية النفقات، وإستيفاء أجرة الأماكن التي تشغلها الدوائر الوقفية، بالإضافة إلى خراج الأراضي الخاصة بالأوقاف عن سنة كاملة، على أن تبقى الأوقاف على حالها(٣)، كما أقدم السلطان على مصادرة مبلغ خمسمائة وستين ألف درهم من أموال الأيتام، كما جبى الأموال من الناس وانتزع الزكاة من التجار(٤)، وفي (٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م) وصلت طلائع الجيوش المملوكية صوب

---

(١)ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٤/ ص١٨٥؛ محمود الحريري: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٧٢؛ إيفانوف: ص ١٢٠؛ محمد بن حسين الحارثي: الثغور البحرية الحجازية من البعثة إلى نهاية العصر المملوكي، ص ٢٠٣ـ ٢٠٤.

(٢) تَيْمورلَنْك (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م) قائد مغولي مسلم، أقام إمبراطورية كبيرة شملت أفغانستان، وإيران وأسيا الصغرى، وبغداد، ودمشق، غير أن إمبراطوريته كانت قصيرة الأجل، إذ مات بالحمى في معسكره المتوجه لغزو الصين، وتفككت إمبراطوريته بعد موته. الموسوعة العربية العالمية، ص١.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ٣٩٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ٨٠٢ ـ ٨١١.

دمشق، وقام بتحصين الحدود بينه وبين تيمورلنك، والذي فضل عدم مواجهة المماليك، وتوجه صوب الهند عام (٨٠٠هـ/ ١٣٩٨م) مستغلاً وفاة صاحبها فيروز شاه، وقد ظل الوضع العسكري بين السلطان برقوق وتيمورلنك على شيء من الجمود النسبي حتى توفي السلطان المملوكي، فغير تيمورلنك استراتيجيته العسكرية، واستولى على بغداد، وتوغل في بلاد الشام حتى بلغ دمشق، وتحت وطأة الظروف الاقتصادية الصعبة التي أحاطت بالدولة المملوكية، وفي ظل الوضع الداخلي المتدهور، اجتمع السلطان فرج والخليفة والقضاة الأربعة والأمراء وأعيان الدولة لطلب المال اللازم من التجار للإنفاق على تجهيز الجيش الذي يتصد للغازي تيمورلنك، ولم يكن في وسع الفقهاء الامتناع عن الفتوى في أخذ نصف مال الأوقاف لإقطاعها للأجناد لتعبئتهم للقتال[1]، لكن الاجتماع لم يسفر عن إرسال النجدة لبلاد الشام، فاستغل تيمورلنك هذا التخاذل وزحف على حلب واستولى عليها ثم تركها خاوية على عروشها، خالية من سكانها، مظلمة بآثار الحرائق واتجه صوب دمشق وحاصرها، والواقع أن السلطان فرجاً أضاع الكثير من الفرص من أهمها الخروج لمواجهة تيمورلنك، وتركه يدمر هو وعساكره المدن الشامية المدينة تلو الأخرى، مما أثارت هذه الأعمال الوحشية شيخ الإسلام عمر البلقيني والقضاة، فطافوا في شوارع القاهرة يحضون الناس ويدعونهم إلى الجهاد[2]، فجهز جيش بقيادة السلطان فرج وتوجه إلى غزة في عام (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م)، ومنها إلى دمشق، غير أن السلطان عاد إلى مصر إذ أشيع أن

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ٤٣٧.

(٢) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ٤٢٦.

الأمراء المماليك يحاولون الإطاحة بالسلطان وتعيين الأمير لاجين الجركسي[1] مكانه، ونتيجة لهذا الموقف من قبل السلطان اضطر أهل دمشق لعقد الصلح مع تيمولنك، بعد ذلك غادر دمشق، في هذه الأثناء قام السلطان فرج بتعبئة جيشه لمقاتله تيمورلنك، ولما كان بحاجة ماسة إلى المال فقد فرض الضرائب على سائر أراضي مصر، واستولى على حواصل الأوقاف، مما أدى إلى ارتفاع سعر الخبز، ولم تتوقف الضرائب إلا عندما قدم الأمير شيخ المحمودي إلى القاهرة وأخبر السلطان فرج برحيل تيمورلنك إلى بلاده[2].

حروب المماليك الجراكسة مع العثمانيين:

بعد وفاة تيمورلنك وزوال خطره تجددت علاقات الصداقة بين السلطنتين المملوكية والعثمانية، خاصة في عهد السلطان المملوكي الأشرف برسباي[3]، والسلطان جقمق، حيث تبودلت في عهدهما المراسلات والسفارات والهدايا[4]، وعندما تم لمحمد الثاني فتح القسطنطينية، أرسل إلى السلطان المملوكي إينال

---

(1) لاجين بن عبد الله الجركسي (ت ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م)، كان معظما عند الجراكس، وكانوا يتحاكون بينهم أنه يلي المملكة وهو لا يكتم ذلك ويتظاهر به، وكان السلطان والأكابر يبلغهم ذلك فلا يكترثون به ويعدون كلامه من سقط المتاع، وشاع أن الظاهر أراد أن يقرره في نيابة السلطنة ولم يتم ذلك. ابن حجر: إنباء الغمر، ج٥/ ص ٥١.

(2) المقريزي: درر العقود، ج٢/ ص ٤٣٩؛ محمد سهيل طقوش، ص ٤٣٣.

(3) محمد مصطفى زيادة: نهاية السلاطين المماليك في مصر، ص ٢٠٠.

(4) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٢٤٥-٢٤٦.

رسله يبشره بانتصاره الكبير، فاحتفلت القاهرة بهذا الحدث الجلل وزينت الأسواق والحارات وأوقدت الشموع في الشوارع والمآذن وعم الناس الفرح[1].

غير أن فتح القسطنطينية طوى صفحة العلاقات الجيدة بين المماليك والعثمانيين وفتحت صفحة جديدة سادها العداء والقتال فيما بينهما، للهيمنة على زعامة العالم الإسلامي، فقد استولى العثمانيون على القلاع المملوكية الواحدة تلو الأخرى[2]، وقد وقف السلطان المملوكي قايتباي عاجزاً أمام هذه الهزائم، خاصة وأن البلاد في عهده شهدت حالة اقتصادية سيئة، إضافة إلى ثورة الجلبان ضده، فعمد إلى مهادنة العثمانيين وعقد اتفاقية سلام معهم عام(٨٩٦هـ/ ١٤٩١م)[3]، غير أن السلام لم يدم طويلاً بين الطرفين لظهور الخطر الصفوي الشيعي على مسرح الأحداث، حيث نجح الشاه إسماعيل الصفوي في تأسيس دولة شيعية في إيران وتوجه صوب العراق للسيطرة عليها، مما دفع حكامها للاستنجاد بالسلطان المملوكي قنصوة الغوري، والذي لم يتمكن من تقديم العون لهم، غير أن العثمانيين القوة الفتية استطاعت أن توقف الزحف الشيعي فقد انتصر السلطان العثماني سليم الأول[4] على الصفويين في معركة جالديران عام (٩٢٠هـ/ ١٥١٤م)[1]، ثم

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٣١٦.

(٢)ابن إياس:بدائع الزهور، ج٣/ ص٢١٨؛مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص١٢٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ٢٧٥ـ ٢٧٦؛ مفيد الزيدي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ص ١٤٥؛ إيفانون: الفتح العثماني للأقطار العربية، ص ٥٦.

(٤) هو السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني (ت٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م)، تاسع سلاطين الدولة العثمانية، تنازل له والده عن السلطة مكرهًا سنة (٩١٨هـ/ ١٥١٢)، اهتم بتجديد معاهدات الصلح والهدنة مع الدول الأوروبية، ووجه طاقاته العسكرية إلى بلدان شرقية إسلامية، وعلى شمالي إفريقيا، وحاول

زحف بجيشه صوب بلاد الشام عام (٩٢٢هـ / ١٥١٦م) فعسكر بمرج دابق وهناك دارت معركة حاسمة في تاريخ الدولتين، انتصر فيها السلطان سليم العثماني، واستطاع ضم بلاد الشام ثم توجه صوب مصر، وعند الريدانية إحدى ضواحي القاهرة، استطاع الجيش العثماني إلحاق الهزيمة بالسلطان المملوكي طومان باي[٢] وبجيشه عام (٩٢٣هـ/١٥١٨م) والقضاء على سلطة المماليك والاستيلاء على مصر والتي أصبحت ولاية عثمانية[٣].

أثر الحروب الخارجية على الحياة العلمية:

لا شك أن بركة إقامة الجهاد تنعكس إيجاباً على الحياة العامة في أي دولة، فالدولة المجاهدة تنعم بالأمن الاجتماعي والأمن الفكري والأمن الاقتصادي، وأفراد الأمة المجاهدة على هدى من الله ، كما قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤] .

وعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ : ((بعثت بالسيف حتى يعبد الله لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف

أن يجعل من إسلامبول مركزًا علميًا للبحوث المختلفة، كان محباً للعمارة فبنى الكثير من الجوامع. محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص١٨٨.

(١) محمد سهيل طقوش: العثمانيون،ص١٤٢ـ ١٤٦؛ أنور زقلمة: المماليك في مصر، ص١١٦؛ الموسوعة الإسلامية التركية، ص٤٦٣.

(٢) أعدم السلطان طومان باي آخر سلاطين المماليك على باب زويلة، وبعد ثلاثة أيام من تعليق جسده تم إنزاله ودفن بمقبرة عمه قانصوه الغوري. الموسوعة الإسلامية التركية، ج ٣١/ ص ٤٨٨.

(٣) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام: ص ٥٠٥.

(٤) سورة العنكبوت، آية ٦٩.

أمرى ومن تشبه بقوم فهو منهم))[1]، وعن أبي موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ ((إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف))[2]

وفي المقابل فإن الإعراض عن منهج الله يسلك بصاحبه المعيشة الضنك، كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴾[3] قال ابن كثير: أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه، ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حَرَج لضلاله، وإن تَنَعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد. فهذا من ضنك المعيشة[4].

وقد حض الإسلام على الجهاد ورهب من تركه، قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾[5]، وعن أبي هريرة قال رسول الله ﷺ : ((من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق))[6]

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ج ٩/ ص ١٢٣، (ح٥١١٤).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، ج٣/ ص١٥١١، (ح١٩٠٢).

(٣) سورة طه، آية ١٢٤.

(٤) تفسير ابن كثير، ج ٥ / ص ٣٢٢.

(٥) سورة الحج ، آية ٧٨.

(٦) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب ذم من مات ولم يغز أو يحدث نفسه بالغزو، ج٣/ ص١٥١٧، (ح١٩١٠).

وقد راجت دولة المماليك عند المسلمين باعتبارها دولة جهادية، وارتفعت راياتها بانتصاراتها على المغول والصليبيين، ولا شك أن هذا الأمر كان له آثاره الطيبة على الحركة العلمية، وظهر ذلك في **اهتمام العلماء بالتأليف في أحكام الجهاد،** وشرح فروعه، والحض على القتال في سبيل الله.

فقد نص العلماء على أن الجهاد لا يتوقف على أن يكون الإمام مكتمل الشروط الواجب توفرها في السلطان، بل ينقل الحافظ ابن حجر، وهو قاضي قضاة مصر في عهد الظاهر جقمق أنه (قد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه وأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء)[1]

ومن الآثار الإيجابية للحروب الخارجية أيضاً: **ارتفاع الفتن،** فإن الأمة في حالة الجهاد تقل فيها الفتن، كما تقدم في حديث عوف بن مالك قال قال صلى الله عليه وسلم: (لن يجمع الله تعالى على هذه الأمة سيفين: سيفاً منها و سيفاً من عدوها)[2]، وفي المبحث السابق تبين وجود أثر سلبي للفتن على الحياة العلمية، فحيث ارتفعت الفتن ارتفعت معها آثارها السلبية.

وهذه الإيجابيات في تأثر الحياة العلمية بالحروب الخارجية للمماليك الجراكسة، لا تمنع وجود سلبيات صاحبت ذلك، **ومن هذه الآثار السلبية:**

---

(1) ابن حجر: فتح الباري ، ج ٩ / ص ٨.

(2) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم باب ارتفاع الفتنة عند الملاحم، ج٢/ ص٥١٥، (ح٤٣٠١)؛ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، (ح٥٢٢١).

توقف بعض الموارد المالية المخصصة للتعليم: كمخصصات أوقاف المنشآت التعليمية، بسبب وضع السلاطين اليد عليها لتمويل الجيش، إذ لم تكن ثمة سياسة تمويل للجيش تستغني عن أخذ أموال الأوقاف، أو أخذ أموال التجار والشعب.

وكانت هذه الطريقة من سياسات كثير من الدول قبل الدولة المملوكية أيضاً، إلا أنه منذ مطلع الدولة، قام الإمام العز بن عبد السلام بوضع ضابطٍ لهذا الأمر، ففي حرب التتار عندما استشاره السلطان قطز بأمر المملكة وحرب التتار قال رحمه الله: (اخرجوا وأنا ضامن لكم على الله النصر، فقال السلطان له: إن المال في خزانتي قليل، وأنا أريد أن أقترض من أموال التجار ما أستعين به على قتال التتار، فقال: إنه إذا طرق العدو بلاد الإسلام وجب على الإمام قتالهم، وجاز لكم أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وتبيعوا مالكم من الحوائص المذهبة، والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوب وسلاحه ويتساووا هم والعامة، وأما أخذ الأموال من العامة مع بقائه في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا)[1] .

فنفذ الملك والأمراء والجند فتوى العز وامتثلوا أمره، فقد أحضر الأمراء كافة ما يملكون من مال وحلي نسائهم، وأقسم كل واحد منهم أنه لا يملك شيئاً في الباطن، وجمعت هذه الأموال وضربت سكة ونقداً وأنفقت في تجهيز الجيش، ولما لم تقم هذه الأموال بنفقة الجيش أخذ السلطان قطز ديناراً واحداً من كل رجل

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١/ ص٤٢٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٧/ ص٧٢.

قادر في مصر، فجمع بذلك الأسلوب الفريد المال الحلال الذي لا ظلم ولا عدوان فيه، ومع الاستعداد النفسي الذي قام به العز وإخوانه من العلماء تنزَّل نصر الله على عباده المؤمنين، وهزم الله التتار في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ[١]

وكانت فتوى العز هذه بحضور قاضي القضاة بدر الدين حسن السنجاري، وقد قيدها أيضاً بأنه إذا دهم العدو، وجب على الناس كافة دفعه بأموالهم وأنفسهم[٢]

وربما كانت أنظار الأمراء تتجه للأوقاف لتغطية نفقات الجيش، إلا أن العلماء ما كانوا يرضون بذلك، ومن المواقف المشهورة في ذلك ما قام به الشيخ سراج الدين عمر بن إسحاق بن أحمد الهندي (ت٧٧٣هـ/ ١٣٧١م) قاضي الحنفية بالقاهرة ... لما تكلم في أوقاف الشافعية حيث ولي الجاي[٣] نظر الأوقاف وضيق عليهم فقام الهندي في ذلك قياما عظيما وأغلظ له في القول حتى قال : إقطاعك يبلغ ألفي ألف درهم وتستكثر على الفقيه المسكين هذا القدر! فقال: أنا آخذ الإقطاع لحفظ بلاد المسلمين فقال: ومن علمكم الجهاد إلا الفقهاء فسكت وترك كل أحد على حاله[٤].

---

(١) فتاوى العز بن عبد السلام ، ص ١٢٠.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ / ص ١٣٧.

(٣) هو الأمير الكبير الأتابك أجاي اليوسفي (ت ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م)، أحد مماليك الناصري حسن، ترقى حتى صار حاجب الحجاب، ثم أمير جاندار، ثمأمير سلاح، ثم صار الأتابك وإليه أمور الدولة كلها، حتى مات. المقريزي: السلوك، ج٢/ ص ٢٨٤.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص ٩.

إلا أن الأمر اختلف في عهد المماليك الجراكسة، وبدا الأخذ من أموال الأوقاف شائعاً، ولا سيما في عهد الناصر فرج، فإنه لما شرع في تجهيز العساكر إلى دمشق لقتال تيمورلنك، شرع في تحصيل الأموال، وفرض على سائر أراضي مصر فرائض، وأخذ من أموال التجار، وما وجد من حواصل الأوقاف[1].

لكن كان ذلك بغير فتوى من علماء الأمة، وإلا فكان قبله الظاهر برقوق سنة (٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) أمر بالتجهيز إلى الغزاة وطلب من القاضي الشافعي أن يقرضه ما في المودع من أموال الأيتام، إلا أنه امتنع، فاضطر السلطان أن يقترض من ثلاثة من التجار ألف ألف درهم فضة[2].

وكذا حاول السلطان الأشرف برسباي ذلك في سنة (٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م) حيث رسم بعقد مجلس بالقضاة ليتشاوروا في جمع المال لقتال تيمورلنك، إلا أنه لم يتم له ذلك فأعفي القضاة من ذلك، وأشار السلطان بأن من ينسب إلى الغنى يجهز ما يقدر عليه من المقاتلة وقرر على القاضي الشافعي خمسة عشر وعلى الحنفي عشرة ونحو ذلك[3]

وبالجملة تأثرت أوقاف المنشآت التعليمية في بعض فترات حكم الجراكسة بهذه الفروض التي فرضت لجمع المال للحروب الخارجية.

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص٥٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١ / ص ٤٦٩.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤/ ص١٤.

وقد تأثرت الحياة العلمية أيضاً بمقتل بعض الأمراء الذين كان لهم اعتناء بالعلوم، مثل: (آقبغا بن عبد الله الجوهري اليلبغاوي قتل في وقعة حمص وقد قارب الستين وكان كثير المعرفة يذاكر بمسائل فقهية)[1].

والحاصل أن الحروب الخارجية لدولة المماليك الجراكسة أثرت على الحياة العلمية بإذكاء روح الجهاد، وبيان أحكامه، وحض الناس على الصبر في مواجهة العدو، والرغبة إليه في إنزال النصر، وذلك بصورة أكبر من السلبيات التي صاحبت ذلك.

---

(1)ابن حجر: إنباء الغمر ، ج ١ / ص ١٥٢.

الفصل الثالث

الأوضاع الاقتصادية وأثرها على الحياة العلمية

ويشتمل على:

- **المبحث الأول: الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الإنفاق على شؤون الحياة العلمية: (المساجد الكتاتيب ـ المدارس ـ الكتب والمكتبات ـ الأربطة والزوايا).**
- **المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية للعلماء وأثرها على عطائهم وإنتاجهم العلمي.**



المبحث الأول
الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الإنفاق على شؤون الحياة العلمية

شهدت مصر خلال عصر المماليك نشاطًا اقتصادياً ملحوظاً، ويمكن أن نعزو أسباب هذا الازدهار الاقتصادي إلى عوامل عدة، يأتي في طليعتها:

تميز موقعها، فتعد مصر حلقة الوصل بين الشرق والغرب، فهجمات المغول المدمرة على دول المشرق الإسلامي منذ بداية القرن (٧هـ/ ١٣م) والإضرابات السياسية التي نجمت عن ذلك، أدت إلى تدمير طرق التجارة الرئيسة المألوفة بين الشرق والغرب، وخاصة طريق الخليج الفارسي والطريق البري المار بسمرقند، والذي كان يعرف بطريق الحرير[١] الأمر الذي تحول معه طريق التجارة إلى البحر الأحمر ومصر، فكانت تنقل البضائع القادمة من بلاد المشرق بحراً عبر البحر الأحمر ومنها إلى مصر، ومنها تحمل إلى المغرب ودول أوروبا بأثمان باهظة، حيث كانت التوابل تباع في أوروبا الغربية بأثمان باهظة، فكان مردود ذلك كبيراً على ازدهار التجارة بمصر وانتعاش الحركة الاقتصادية بها، بل وعلى جميع مناحي الحياة بها[٢].

كذلك كان من أسباب الازدهار الاقتصادي أيضاً أن الدولة المملوكية دولة جهادية فانتشرت بها الأوقاف، وهذا أدى إلى ازدهار الحياة الاقتصادية بها،

---

(١) محمود عمران: المغول وأوربا، ص٧٣؛ شوقي شعث: طريق الحرير، بحث منشور في مجلة التاريخ العربي، الصادر عن جمعية المؤرخين المغاربة،ص ٢٣٩-٢٤٩.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني، ص٥٢٦-٥٢٨.

فالدول وكذلك عامة الناس على اختلاف شرائحهم يسعون إلى الإنفاق على الجهاد والأوقاف لما فيه من جزيل الأجر، فكان أصحاب الأموال يوقفون الأوقاف الكثيرة على المنشآت التعليمية والاجتماعية بمصر المملوكية(١).

ومما زاد من تطور الحياة الاقتصادية في مصر ما اشتهرت به من كثرة المنشآت التجارية من الفنادق والوكالات والقيساريات والخانات(٢)، إضافة إلى تعدد الأوامر السلطانية بحسن معاملة طائفة التجار وعدم إرهاقهم بالجبايات، حتى إن السلطان قلاوون أمر نوابه بالثغور ألا يجبوا من التجار سوى الحقوق السلطانية(٣)، وكتب منشوراً إلى التجار الوافدين من الشرق والغرب إلى مصر يحثهم على القدوم ويعهد لهم بحسن المعاملة(٤)، كما أقام السلاطين محتسبي الأسواق لمنع التلاعب في الأسعار والسلع(٥).

---

(١) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٩٤ـ ٩٨؛ سعيد عاشور: مصر والشام في عهد الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦٧.

(٢) الفندق: مبنى تقع في أسفله مخازن ومحلات لعرض السلعة، وفي أعلاه حجرات لسكنى الغرباء.

والوكالة: مكان يقضي فيه التجار الغرباء ليلتهم مع بضائعهم وأمتعتهم.

والقيسارية: شبيهة بالفندق والوكالة، وتتكون من فناء مركزي محيط به أروقة بها حوانيت ومساكن لسكنى التجار.

والخانات: قريب من الفندق، وهو اللفظ المستعمل في المشرق مقابلاً للفظ الفندق في المغرب.

نعيم زكي: طرق التجارة، ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨.

(٣) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، ج ٧/ ص ١٩٨؛ سعيد عاشور: مصر والشام، ص ٢٦٧.

(٤)القلقشندي: صبح الأعشى، ج١٣/ ص١٩٨؛محمود الحويري:مصر في العصور الوسطى، ص٢٩٢.

(٥) ابن الأخوة:معالم القربة،ص ٨؛القلقشندي:صبح الأعشى،ج١١/ ص٤١٤؛المقريزي:الخطط،ج٢/ ص٩٢.

وقد اتضحت معالم التقدم الاقتصادي والنشاط التجاري في عدة مظاهر شملت ما يلي:

أولاً: الزراعة: كانت تعتمد على مياه النيل، وتنمو بالاهتمام بوسائل الري والترع والجسور؛ لتنظيم الحصول على الماء وضمان وصوله إلى كل الأراضي الزراعية المتاحة، وقد تنوعت المحاصيل الزراعية ما بين فاكهة وخضروات كالقمح والسمسم وقصب السكر والقلقاس والعنب والنخيل والتفاح[1].

ثانياً: التجارة: اكتسبت مصر من خلال موقعها علاقات تجارية بينها وبين بلاد الشام وسائر دول المشرق والبحر المتوسط وأوروبا والهند والفرس والتتار والفرنجة من جهة أخرى[2].

وقد أدى هذا النشاط إلى وجود أجهزة إدارية تنظم حركة التجارة فسمح سلاطين المماليك بإقامة القنصليات والمنشآت التجارية كالفنادق والوكالات، والقيساريات، والخانات لخدمة التجار وإيوائهم وتسهيل الحركة التجارية لهم وخزن بضائعهم وسلعهم[3].

أما بالنسبة للأسواق التجارية: فقد انتشرت بكثرة في مصر في العصر المملوكي، ولقد تنوعت هذه الأسواق وتخصصت، فهناك أسواق الصباغون، والفحامون، والسراجون، والشماعون، وسوق الحرير، وسوق الحلاويون

---

(١) عامر نجيب: الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكين، ص ١٧٩ـ ٢٠٤.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٢/ ق١، ص١٠٢.

(٣) المقريزي: الخطط، ج ٢/ ص ٨٦ـ ٩٢؛ نعيم زكي : طرق التجارة ص ٢٨٧؛ عاشور: مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى، ضمن بحوث في تاريخ العصور الوسطى، ص١٣٨.

والكعكعيون والعطاريون، وسوق الطيوريون والوزازون والدجاجيون ، وسوق الأواني النحاسية ، وسوق الكتبيون[1].

ومما كان يرد على مصر المملوكية من تجارة التوابل والأحجار الكريمة والبهار، والبخور، ومواد الصباغة والعقاقير الطبية والأخشاب والحديد والنحاس، والفضة والذهب، والزيت والعسل والزبيب واللوز والفراء[2].

وقد عمل سلاطين المماليك على توفير كافة السبل الكفيلة براحة التجار من توفير الأمن لهم ولبضائعهم و تسهيل الإجراءات التجارية الخاصة بهم [3]، حتى أنه كانت لهم نقابة خاصة بهم عرفت بالكارميين[4] لحمايتهم وحماية تجارتهم[5].

ثالثاً الصناعة: اشتهرت الصناعات المملوكية ولاسيما صناعة الأقمشة والمنسوجات والتي كانت تصنع بـ (دار الطراز)[6]، إضافة إلى صناعة السفن وقد تعددت أنواعها وأصنافها[7].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢/ ص ٢٥٤ـ ٢٦٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢/ ص ٣٤؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤/ ص ٤٠٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٣/ ص٢٦٧.

(٤) هم فئة التجار الذين كانت بيدهم تجارة البهار الواردة إلى مصر من الهند عن طريق اليمن، وكان معظمهم في الأصل من أهل بلاد الكانم الإسلامية، الواقعة بين بحر الغزال وبحيرة تشاد بالسودان الغربي، فنسبوا إلى موطنهم بعد تحريف اللفظ، ثم صار هذا الاسم يطلق على الذين يمارسون هذه التجارة بمصر.القلقشندي:صبح الأعشى،ج١/ ص٢٥٣،ج٣/ ص٤٦١،٤٦٩؛ ج٥/ ص٢٨٠.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص٢٢١؛ إيرا لابدوس: مدن إسلامية، ص٢٠١.

(٦) حسن الباشا: موسوعة العمارة والآثار والفنون، ج٢/ ص١٣٧.

(٧)إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٣٠.

كذلك صاحب صناعة السفن صناعة حربية أخرى هي صناعة السلاح وأدوات الحرب كالسهام والرماح والمزاريق والأتراس والخوذ والحديد والقسي الملولبة والمدافع والنفط والبارود[1].

كما سك المماليك الجراكسة العملات، وكانت تسك في (دار الضرب)، وعهد في إدارتها وتحرير أوزان الذهب فيها إلى قاضي القضاة، وقد تدهور حالها في عهد الناصر فرج بن برقوق[2].

وأنشئت في عهد الجراكسة بالإسكندرية دارٌ أخرى لضرب النقود النحاسية والتي عرفت بالفلوس، واستورد الظاهر برقوق كميات من النحاس الأحمر من بلاد الفرنج لذلك، ويذكر المقريزي أن التعامل بها طغى على التعامل بالوَرِق (الفضة)، وبالذهب[3]، وربما كانت هذه الفلوس من أسباب اختلال أحوال الناس الاقتصادية[4]، فلم تكن أسعار صرف الفلوس ثابتة، بل ربما تلاعب بها بعض الأمراء[5]، وربما أدى الغش والتدليس في أوزان الفلوس إلى الأمر بإبطال ضرب هذه الفلوس[6].

---

(1) إبراهيم حسن: البحرية في عصر سلاطين المماليك، ص٢٣٩؛ السيد عبد العزيز السالم: تاريخ الإسكندرية، ص٤٨٦.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج١ / ص٢٠٦.

(3) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص١٣٢ ـ ١٣٣.

(4) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص ٤١٩.

(5) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢/ ص٤٩٣.

(6) المقريزي: السلوك، ج٣، ص١٣٢ ـ ١٣٣.

ورغم اهتمام سلاطين المماليك بالنشاط الاقتصادي، فقد شهدت البلاد تدهوراً اقتصادياً في بعض الأوقات، وخاصة في العهد المملوكي الثاني، ويرجع هذا التدهور بالدرجة الأولى إلى عوامل طبيعية تعرضت مصر المملوكية عامة، من نكسات اقتصادية بسبب الجفاف الناجم عن نقصان ماء النيل، أو الأوبئة كالطاعون والزلازل، وكانت هذه الكوارث تسبب المجاعات والتدهور الاقتصادي، ثم إن المجاعات إذا اجتاحت الريف المصري نزح الفلاحون والبدو إلى كبريات المدن المصرية بحثاً عن الطعام[1]، وساعد أيضاً على تدهور الحالة الاقتصادية، حدوث بعض الاضطرابات السياسية بين طوائف المماليك واندلاع نار الفتن بينهم، حيث تولد عن ذلك حالة من عدم الاستقرار الداخلي أدت إلى هزات اقتصادية كبيرة انعكست آثارها على البلاد[2]

ويصور ابن إياس أثر الاضطرابات السياسية على الناحية الاقتصادية في حوادث سنة (٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م) بقوله: (خرجت هذه السنة عن الناس وهم في أمر مريب، وكانت الأسعار مرتفعة في سائر البضائع، والإشاعات قائمة برجوع عسكر (ابن عثمان) وزحفهم على البلاد الحلبية، وإشاعات قائمة بثوران فتنة كبيرة بمصر بين الجلبان، والأحوال واقفة، والسلطان ناظر إلى الظلم، وآخذ أموال الناس، والأمر إلى الله)[3].

---

(١) عامر نجيب: الحياة الاقتصادية في مصر، ص ٨٩ـ ٩٠، ٢٣١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم، ج٥/ ص٤٠١؛ المقريزي: السلوك، ج٣/ ص١٦٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص٢٤٦.

ومما زاد أيضاً في سوء الأحوال الاقتصادية في مصر، تعاقب عدد من سلاطين المماليك على حكم دولة المماليك الجراكسة خلال مدة وجيزة، فقد ذكر ابن إياس أنه تعاقب على عرش السلطنة عام (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) أربعة سلاطين منهم (خاير بك) الذي يقال له: (سلطان ليلة)، لأنه لم يحكم إلا ليلة واحدة، وأنه وقع بمصر جراء ذلك من الفتن والشرور ما يصعب حصره[1]، كما يذكر أيضاً يذكر في حوادث سنة(٩٢٢هـ/ ١٥١٦م) أنه ونتيجة لاضطراب البلاد بسبب خروج العسكر المملوكي لمقاتلة ابن عثمان وقع : (القحط بين الناس وغلقت الأسواق، والطواحين، واختفى الصنايعيون والخياطون، وصارت أحوال مصر مثل يوم القيامة كل واحد يقول: روحي روحي)[2].

كذلك كانت المصادرات أو الاحتكارات التي انتهجها بعض سلاطين وأمراء المماليك أحد أسباب الكساد الاقتصادي، ولاسيما في أحوال التجارة، فعلى سبيل المثال أمر السلطان الأشرف برسباي سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م) بتحجيره السكر وأن لا يتعاطى أحد بيعه إلا من حاصله[3].

ومن أبرز ما ذكره المؤرخون عن الاحتكارات في الأطعمة ما كان من مرسوم في أعوام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م) على تجار الفلفل بالقاهرة والإسكندرية يقضي بأن لا يباع الفلفل والتوابل إلا للسلطان

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ١٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٥/ ص٢٨.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص ٣٠٩.

الذي كان يشتريه بحساب دون ما يباع على التجار حتى وقع التجار المسلمون والفرنج في بلادهم بلاء شديد بسبب ذلك[1].

ومن أهم أسباب التدهور الاقتصادي أيضاً التلاعب بأسعار صرف العملات من قبل المماليك، مما له دوره في إحداث الأزمات الاقتصادية [2].

كما كان لحملات البرتغاليين على الأسطول المملوكي دوره البارز في تدهور اقتصاد مصر المملوكية، فقد قام الأسطول البرتغالي بقيادة فاسكو دي جاما بالمرابطة أمام البحر الأحمر لمنع خروج السفن المصرية نحو المحيط الهندي، وبذلك تحكم بالطريق التجاري الذي كان يربط مصر بالهند، وضمن لنفسه السيادة على أسواق التوابل وغيرها من أسواق الشرق[3].

---

(1) ابن الصيرفي: نزهة النفوس، ج٣/ ص١٨٥،٢٣٥؛ المقريزي: إغاثة الأمة، ص ٦١.

(2) ابن الصيرفي: انباء الهصر، ص١٤٣؛ نزهة النفوس، ج٢/ ص ٢٨٤ـ ٢٨٩، ج٣،ص٢٤؛ محمود الحريري: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٩٢.

(3) أحمد السيد دراج: المماليك والفرنج، ص١٣٢ـ ١٣٥؛ على إبراهيم طرخان: مصر في عهد المماليك الجراكسة، ص ٢٩٣ـ ٣٠٢.

أثر الأوضاع الاقتصادية في الإنفاق على شؤون الحياة العلمية (المساجد ـ الكتاتيب ـ المدارس ـ الكتب والمكتبات ـ الأربطة والزوايا).

لا شك أنه كان للأوضاع الاقتصادية أثر كبير على نشاط الحياة العلمية في العصر المملوكي، وما ذاك إلا لانتعاش الأوقاف[1]، وقد كثرت الأوقاف في الدولة المملوكية بسبب تحسن الأحوال المادية لكثير من شرائح المجتمع، فقد (كثرت الأحباس كثرة فاحشة واتسع نطاقها لدرجة أنه صار للأوقاف ثلاثة دواوين: ديوان لأحباس المساجد، وديوان لأحباس الحرمين الشريفين، وديوان للأوقاف الأهلية)[2]. وهذا التنظيم أدى بدوره إلى نتائج إيجابية كان من أهمها: ازدهار الأوقاف، وكان الغالب في الإشراف على الأوقاف في السابق أنه تحت نظر القضاة فلقد كانت سلطات القاضي منذ العصر العباسي تشمل النظر في وصايا المسلمين وأوقافهم[3]، وهذا مما يزيد من الثقة بالأوقاف وكونها في أيدي أمينة، وأنه متى خفت أو انعدمت مراقبة الأوقاف ومتابعة عوائدها وتنظيم أمورها، فإن ذلك مدعاة إلى تدهورها وانحسار دورها في المجتمع، بل وتلاشيه كما حصل في كثير من ديار المسلمين في عصورها المتأخرة[4].

---

(١) الوقف لغة: الحبس والمنع، وفي تعريف الفقهاء هو: تحبيس الأصل وتسبيل الثمرة. ابن منظور: لسان العرب، ج ٩/ ص٣٥٩؛ إبراهيم مصطفى وزملاؤه، المعجم الوسيط، ج٢/ ص١٠٥١؛ الجرجاني، كتاب التعريفات،ص٣٢٨؛ ابن قدامة: المغني، ج٥/ ص٥٩٧.

(٢) محمد أبو زهرة: محاضرات في الوقف ، ص١١-١٧.

(٣) إبراهيم بن سليمان الكروي: طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول، ص ٢٨.

(٤) إبراهيم بن محمد المزيني: الوقف وأثره في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، ص١١؛ محمد عبد الستار: نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية،ص ١٠٤.

ولعل مما ساعد أيضاً على التوسع فيه بشكل عام سهولة تنفيذه، فالوقف التزام من جانب واحد فلا يحتاج فيه إلى قبول إذا كان الموقوف عليه جهة من الجهات الخيرية[1]، وهذا اليسر في إنفاذه أدى إلى كثرة الأوقاف.

أيضاً اهتمام المسلم بالعمل الخيري ورغبته فيما عند الله واستشعاراً منه بهموم الآخرين وحرصه على تخفيف المعاناة عن إخوانه المسلمين ونفعهم، وتأسياً بالصحابة والتابعين والسلف الصالح.

الأوقاف المملوكية:

يجدر عند دراسة تأثير الحياة الاقتصادية على الحياة العلمية في العصر المملوكي أن نقوم بدراسة لطبيعة الوقف المملوكي،ومدى تأثر الحياة العلمية به.

فغالباً ما كان الوقف في العصر المملوكي يوكل النظر فيه لأحد أهل العلم من القضاة وكبار العلماء، ولكن يبدو أن سوء تصرف البعض منهم وإهمالهم وعدم صيانتهم للأوقاف ألجأ الناس إلى إسناد النظر إلى البعض من ذوي الجاه والسلطة، إذ يذكر ابن تغري بردي أنه (صار غالب الناس إذا وقف على مدرسة أو رباط أو ذرية أو غير ذلك يجعل النظر فيه للحاجب أو الدوادار أو الزمام ولا يجعله لمتعمم لما ثبت عندهم من التفاتهم إلى مصالح الأنظار فلا قوة إلا بالله)[2].

كما أن بعض متولي النظر على الأوقاف كانوا يستغلون الوقف لمصالحهم الخاصة فعلى سبيل المثال يذكر النويري أنه قام بتدوين شروط وقف المدرسة الناصرية بسبب: (ما وقع في مثل ذلك من إخفاء كتب الأوقاف إذا تطاول عليها

---

(1) إبراهيم فاضل الدبو: الضمان الاجتماعي في الإسلام، ص٩١.

(2) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ص٥.

المدد، وبعد العهد بالأوقاف والشروط، وتداولها النظار والمباشرون واستولوا على الأوقاف وغيروا المصارف عن شروط الواقفين)[1].

الأوقاف التعليمية:

تنوعت الأوقاف المملوكية من أوقاف علمية تعليمية، وأوقاف صحية، وأوقاف اجتماعية وغير ذلك، والذي يعنينا في بحثنا هو الوقف التعليمي باعتباره أكبرها أثراً في الحياة العلمية، وهو يشمل: (المساجد ـ الكتاتيب ـ المدارس ـ الكتب والمكتبات ـ الأربطة والزوايا).

ولقد تنافس السلاطين والأمراء المماليك وغيرهم من الشخصيات الكبرى في وقف الأوقاف للصرف على هذه المنشآت، وكان الكثير منهم يتباهى بما أنشأ من هذه العمائر، وبما أوقف عليها من الأوقاف[2].

وفيما يلي عرض لأهم هذه المراكز التعليمية الوقفية في عصر المماليك الجراكسة.

❋ المساجد:

مما ساعد على نشاط الحركة العلمية بمصر المملوكية كثرة المساجد بها، فالمسجد مركز عبادة المسلمين، ومدرستهم الأولى، ومكان الذكر والوعظ والخطب؛ بل والقراءة الجهرية في الصلوات كل هذا من أساليب نشر العلم في العوام، هذا بالإضافة إلى كون المساجد محل تجمع العلماء وإلقاء دروس العلوم الشرعية المتعددة، ولا شك أن كثرة هذه المساجد تعكس مدى ازدياد الوعي الديني والثقافي لدى أهل مصر حتى شيدوا هذه المساجد الكثيرة.

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٣٢/ ص٤٣.

(٢) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٩٤.

ولم يقتصر دور المسجد على أداء الصلوات الخمس، بل تجاوز ذلك فصار مؤسسة لها خدمات عامة[1]، فكانت المساجد في العصر المملوكي تؤدي دورها العلمي من خلال الخطابة وحلقات الدروس، ودورها الاجتماعي التربوي كذلك، كما أنها لم تغفل الدور الجهادي؛ ولاسيما باعتبار أن دولة المماليك دولة جهادية[2].

أما بالنسبة لدور المسجد في الحركة العلمية، فقد كانت المساجد والمدارس تمثل وحدة واحدة من ناحية التدريس العلمي لعلوم الشريعة، بل صارت كثير من المدارس تقام فيها الصلوات الخمس، بل وصلاة الجمعة أيضاً[3].

وقد اتخذت أساليب الدراسة في المساجد نظام الحلقات العلمية، إذ يجلس المدرس وحوله الطلبة على شكل دائرة أو نصف دائرة، وتكون الدراسة عبارة عن إلقاء المحاضرات وإملائها [4].

وإذا أردنا أن ندرك مدى أهمية المساجد في الحياة العلمية، فإننا ندرك طرفاً من ذلك من خلال الاطلاع على عددها وتوزيعها في قاهرة المماليك، مقارنة بما كان قبل عهدهم، ولقد أرَّخ المقريزي لبناء الجوامع بمصر منذ فتحها، مما يشير إلى أن كثرة الجوامع إنما حدثت في عهد المماليك، حيث قال: (اعلم أن أرض مصر لما فتحت في سنة عشرين من الهجرة، واختلط الصحابة رضي الله عنهم فسطاط

---

(١) الوشلي: المسجد ودوره التعليمي عبر العصور، ص٢٢، ٢٣.

(٢) سعيد عاشور: العلم بين المسجد والمدرسة، ص١١٦ـ١٨.

(٣) محمد حمزة: العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، من أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية ، ص٢٨٨.

(٤) عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر، ص ١٥٩، ١٦٠.

مصر ،...لم يكن بالفسطاط غير مسجد واحد، وهو ...الجامع العتيق، وجامع عمرو بن العاص...، جامع العسكر،... وجامع ابن طولون، والجامع الأزهر، وجامع القرافة، ....جامع الحاكم،.... جامع المقس، وجامع راشدة، فكانت الجمعة تقام في هذه الجوامع كلها إلى أن انقرضت دولة الخلفاء الفاطميين، في سنة سبع وستين وخمسمائة،...، فلما كانت الدولة التركية حدث بالقاهرة والقرافة ومصر وما بين ذلك عدة جوامع، أقيمت فيها الجمعة، وما برح الأمر يزداد ...وقد بلغت عدة المساجد التي تقام بها الجمعة مائة وثلاثين مسجدا)[١].

وأما مساجد الصلوات الخمس والتي لا تقام فيها الجمعة فقد كثرت في العهد المملوكي جداً، حتى قال القلقشندي: (وأما مساجد الصلوات الخمس فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقص بكل خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصلون)[٢].

ولعل أشهر جوامع مصر المملوكية والتي ساعدت الأوقاف على بقائها واستمراره في أداء رسالته العلمية هو (الجامع الأزهر) الذي ابتني في عهد العبيديين، وأهم العمارات التي أجريت على الأزهر في عهد الجراكسة كانت في عهد السلطان قايتباي سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) فقد أعاد بناء بابه الغربي الكبير، وأقام على يمينه منارة رشيقة، وزينها بنقوش وكتابات كوفية مزخرفة، وكانت تلك المنارة مكونة من ثلاث دورات، مع دقة الصنع وجمال الشكل، حتى كانت

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٢ / ص٤٥٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ج٣ / ص٤١٧.

مع الباب الباقي إلى اليوم من طرف بدائع العمارة الإسلامية،وفي سنة (٩١٥هـ/ ١٥٠٩م) أمر السلطان قانصوه الغوري ببناء منارة للجامع، فبنيت المنارة الضخمة المزدوجة الرأس، ولبست بالقاشاني، وكانت من أجمل المنارات التي عرفتها المساجد[1].

ولم يكن دور الأزهر العلمي مقتصراً على ما يعقد فيه من حلقات علمية، فقد شهد الأزهر في عصر المماليك والجراكسة منشآت علمية أخرى ألحقت به وزيدت فيه وهي ثلاث مدارس ، اثنتان في عهد المماليك البحرية، وهما المدرسة الطيبرسية التي بناها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداري عام (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) على يمين الداخل إلى الجامع، وكانت تعقد فيها دروس الفقه الشافعي، وألحق بها مكتبة[2]، والمدرسة الأقبغاوية، نسبة إلى منشئها الأمير علاء الدين أقبغا عبد الواحد[3]، وذلك سنة (٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) وأصبحت تضم مكتبة الأزهر[4].

---

(١)ابن إياس:بدائع الزهور،ج٣/ ص ٣٠٦؛ عبد الله سالم نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة،ج١/ ص٩٥.

(٢) عبد الله سالم نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة ، ١ / ٩٥.

(٣) هو من مماليك الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأخو زوجته ، تناول عدة مناصب في الدولة منها الأستادارية، كان شجاعاً مقداماً خصيصاً عند أستاذه الملك الناصر محمد، معظماً في الدولة إلا أنه كان غير مشكور السيرة في ولاياته، حبس بسجن الإسكندرية وقتل سنة (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م). ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ١٩٤.

(٤) عبد الله سالم نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة ، ج١ / ص٩٥.

وفي عهد الجراكسة ظهرت المدرسة الجوهرية نسبة إلى صاحبها الأمير جوهر القنقبائي خازندار الملك الأشرف برسباي، بناها قبيل وفاته عام (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م)، وكانت من أجمل المدارس وأتقنها على الرغم من صغرها[1].

وبوجود هذه المدارس الملحقة بالأزهر، مع ما ضمه في جنباته من حلقات علمية تحول الجامع الأزهر إلى جامعة حقيقية، بما فيها من مدرسين ومعيدين، وطلبة وعلوم، ونفقات ومبان[2].

ولقد ساهم السلاطين الجراكسة في إنشاء أو ترميم المساجد، والصرف عليها فمنهم من كانت أحواله الاقتصادية تشجعه على إنشاء المساجد والصرف عليها، ومنهم من يكتفي بترميم وإصلاح ما يمكن إصلاحه على حسب قدرته واستطاعته المالية وحالة البلاد الاقتصادية، فعلى سبيل المثال ، أنشأ السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحموديّ الظاهري، سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) الجامع المؤيدي[3]، وكان السبب في اختيار هذا المكان دون غيره أن السلطان حُبس في خزانة شمائل هذه أيام تغلب الأمير منطاش وقبضه على المماليك الظاهرية، فقاسى في إحدى الليالي شدائد السجن، فنذر للهّ تعالى إن تيسر له الملك أن يجعل هذه البقعة مسجداً لله ﷻ، ومدرسة لأهل العلم، فاختار هذه البقعة وفاء لنذره[4].

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ٤٠٥.

(٢) عبد الله سالم نجيب: تاريخ المساجد الشهيرة ، ج١ / ص٩٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص ١٩٥؛ الجبرتي: عجائب الآثار، ج١/ ص ٤٤.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص ٢٥٦؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢/ ص٦٢ـ ٦٣.

كما أقام السلطان برسباي مدرسة ومسجداً سنة (٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م)[1].

وأما الأشرف قايتباي فقد كان أكثر سلاطين الجراكسة بناءً للعمائر الدينية والعلمية، فكانت (آثاراً عظاماً، ما بين مدارس وجوامع ومساجد وأسبلة ومكاتب ودياراً وغير ذلك بعدة مدن من مملكته)[2]، كما أمر بترميم العديد من المساجد القائمة منها مسجد عمرو بن العاص[3]، إذ تذكر المصادر أنه في سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) توجه بنفسه لجامع عمرو بن العاص ليكشف عنه وعن حجم ما به من إصلاحات، فأمر بعمارة ما تهدم منه وترميمه، كما أمر بتجديد جامع الأقمر وعمل الترميمات اللازمة له[4].

وأما الظاهر جقمق فقد أكتفى بتجديد عدة جوامع بالقاهرة وظواهرها[5]؛ وقد حذا حذوه العديد من أهل الصلاح والتقوى، ففي سنة (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م) قام رجل من التجار يقال له عبد الوهاب العيني بتجديد جامع الصالح طلائع بن رزيك خارج باب زويلة [6]، وفي عام (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) تم ترميم جامع الأسيوطيّ، والذي أنشأه القاضي شمس الدين محمد بن إبراهيم بن عمر

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ٤٩٤؛ عبد الباسط الملطي: نزهة الأساطين، ص ١٣١.

(٢) عبد الباسط الملطي: نزهة الأساطين، ص ١٤٥.

(٣) يعتبر من أقدم المعاهد العلمية في مصر بدأت الدراسة فيه سنة (٣٦هـ/ ٦٥٦م). عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر، ص ١٦٠؛ عبد الرحمن عبد التواب: قايتباي المحمودي، ص٢٠٣.

(٤) الصيرفي: إنباء الهصر، ص ٣٣٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٦٣.

(٥) عبد الباسط الملطي: نزهة الأساطين، ص ١٣٤.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٥/ ص١٠٧.

السيوطيّ ناظر بيت المال (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، فجدّد عمارته بعدما تهدّم وزاد فيه ناصر الدين محمد بن محمد بن عثمان بن محمد المعروف بابن البارزيّ الحمويّ كاتب السر، وأجرى فيه الماء وأقام فيه الخطبة يوم الجمعة سادس عشر جمادى الأولى سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)، وصلى فيه السلطان الملك المؤيد شيخ الجمعة في أول جمادى الآخرة سنة (٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م)[١].

وصلاة السلطان فيه تدل على أن سلاطين الجراكسة كانت تقوم بالحث المعنوي على هذه الأعمال الخيرية التي تؤثر في الحياة العلمية تأثيراً مباشراً.

ويعلق على ذلك ابن تغري بردي فيقول: (قلت: الناس على دين مليكهم، وهو أنه لما كانت الملوك السالفة تهوى النزه والطرب، عمرت في أيامهم بولاق وبركة الرطلي وغيرهما من الأماكن،...، إلى أن تسلطن الملك الظاهر جقمق، وسار في سلطنته على قدم هائل من العبادة والعفة عن المنكرات، ...، فعند ذلك تاب أكثرهم، وصار كل أحد منهم يتقرب إلى خاطره بنوع من أنواع المعروف، ...فمنهم من بنى المساجد والجوامع)[٢].

ولربما كان لسوء الأوضاع الاقتصادية والتي كانت تعصف بالقاهرة من حين لآخر أثرها على هدم وتخريب المساجد، فكثيراً ما كانت الفتن بين المماليك الجلبان والناتجة عن عدم صرف رواتبهم، أو عمليات النهب والسلب من قبل بعض الناس لسوء الأحوال الاقتصادية، وغلاء الأسعار وندرة السلع أثرها في عمارة الجوامع، مثلما كان الأمر مع جامع الملك الناصر حسن، والذي يعرف

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص٣٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٥٢.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ٤٢٥.

بمدرسة السلطان حسن، فقد ابتدأ عمارته في سنة (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م)[١]، وكان من أجمل المساجد وأحسنها وأكبرها عمارة، وألحقت به مدارس أربع، وظل يؤدي دوره في عهد الجراكسة، إلا أنه كان في مقابل قلعة الجبل، قلما تكون فتنة بين أهل الدولة إلاّ ويصعد عدّة من الأمراء وغيرهم إلى أعلاه ويصير الرمي منه على القلعة، فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر فهدمت المرج التي كان يُصعد منها إلى المنارتين والبيوت التي كان يسكنها الفقهاء[٢].

وأيضاً حين ساءت أحوال البلاد منذ عام (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣ م)، خربت العديد من المساجد منها مسجد الأمير علاء الدين طيبرس الخازندار نقيب الجيوش، والذي أنشأ سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م)، فنتيجة لسوء الأحوال ومنها الاقتصادية تردت حال المسجد وخرب ما حوله[٣].

❋ الكتاتيب

لقد انتشرت الكتاتيب في جميع أرجاء العالم الإسلامي عبر العصور المختلفة، ولاسيما في العصر المملوكي، والذي انتشرت فيه الجوامع والمدارس، فكانت الكتاتيب[٤] ملحقة بكثير منها، لكي يضمن تيسير الإشراف عليها والعناية

---

(١) المقريزي: السلوك ، ج٣/ ص٦١؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٥/ ص١٠٧.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ٤٩.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص ٤٢ـ٤٨.

(٤) المكتب والكتاب موضوع تعليم الكتاب، والجمع الكتاتيب والمكاتب. ابن منظور: لسان العرب، ج١/ ص ٦٩٩؛ الرازي: مختار الصحاح، ص٤٩٥.

بها سواء في تدبير المدرس المناسب لها أو الصرف المنظم على طلبتها أو الترميمات العمرانية المستمرة عليها[1].

وأصبحت الكتاتيب مددَ المدارس الأول، والسبيل إلى أن تكون بداية تعليم الأولاد تسير على المنهج الأقوم والطريق الأرشد، ففي الكتاتيب يتعلم الأولاد القرآن الكريم ويقومون بحفظه وتلاوته، وكذلك يتعلمون الكتابة والخط، وشيء من المسائل الفقهية، وبعض متون الحديث، وأصول الحساب، وما يعين على إظهار دين الله، ومعرفة أحكامه[2].

وانتشرت الكتاتيب بكثرة في مصر المملوكية؛ فقلما يوجد أمير أو سلطان إلا وأوقف للأيتام مكتباً لتعليمهم والصرف عليهم[3]. وانقسمت الكتاتيب إلى كتاتيب أهلية: وهي التي يتخذها من له قدرة على التعليم وسيلة للتكسب فيُتعلِّم فيها الصبيان بأجر معلوم يدفعه أولياؤهم له[4]، وكتاتيب عامة: وهي التي أنشأتها الدولة أو أصحاب المناصب والجاه من سلاطين وأمراء وتجار وعلماء من جملة الأوقاف بحيث يكون التعليم فيها بدون أجر، وفي العادة تكون للأيتام والمعدمين والفقراء والمساكين[5]، ويقوم على أمر الكتاتيب المؤدب؛ وهو الفقيه أو المعلم،

---

(1) حياة حجي: صورة من الحضارة ، ص١٨٨ـ ١٨٩.

(2) ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٧٠؛ ابن خلدون: المقدمة، ج٢/ ص ٢٨٠؛ ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص٤٥٢.

(3) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ، ص٢٦٢.

(4) ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص٤٥٤ـ ٤٥٥.

(5) عبد الغني محمود عبد العاطي : التعليم في مصر، ص ٩٢.

و قد روعي أن يكون صحيح العقيدة، أميناً على عمله، وعالماً بما يقوم به، متزوجاً[1]، أما سن الالتحاق بالكتاب فهو السبع سنوات، وإن كان بعض الآباء يلحقون أبناءهم في سن أقل[2]، ويتعلم الطالب في المكتب حفظ القرآن الكريم وبعض الأحاديث وشيئاً من الفقه إضافة إلى القراءة والكتابة والخط[3]، ويبدأ اليوم الدراسي من طلوع الشمس وحتى العصر، ما عدا يومي الثلاثاء والخميس، فالدراسة فيهما حتى الظهر، ويوم الجمعة عطلة أسبوعية، بالإضافة لعطلات العيدين[4]، وكان الطلاب يكتبون في الألواح، وهي عبارة عن خشبة يكتب عليها الصبي الآيات القرآنية ليتسنى له حفظها، وبعد ذلك يقوم بمسحها بالماء بخرقة بعد حفظها لكتابة الآيات الجديدة[5]، وتزين الألواح في الأعياد والمواسم لإدخال السرور على الأولاد، وحثهم على مواصلة القراءة وكذلك عند التخرج من الكتاب وإتمام حفظ القرآن وهو ما يعرف في ذلك الوقت بـ(الإصرافة)، وهي عبارة عن احتفال بختم الصبي القرآن [6].

ومنذ بدايات عهد الجراكسة؛ كان الاهتمام بالمكاتب من جميع رجالات الدولة بدءاً برأس الدولة السلطان الظاهر برقوق، حيث عمر مكتباً يقرأ فيه أيتام

---

(1) السبكي: مبيد النعم، ص١٣٠؛ مريزن: الحياة العلمية في العراق، ص ٢١٨.

(2) ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص ٤٥٩، ٤٧.

(3) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣ / ص٤١٠؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص١٧١.

(4) ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص٤٦٢.

(5) ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص٤٦٠.

(6) ابن الحاج: المدخل، ج٢/ ص٤٧٠ـ ٤٧١.

المسلمين القرآن الكريم وجعل عليه وقفاً[1]، والمقصود بالوقف هنا: أي ما يضمن استمرار المكتب في أداء دوره، ليكون ريعه مصرفَ الإنفاق على حاجات المكتب.

واستمر السلاطين في وقف الأوقاف على المكاتب مستقلة أو مدرجة ضمن غيرها، مروراً بالسلطان برسباي، ثم في أواخر العهد حيث أوقف السلطان الغوري وقفاً على ذلك أيضاً[2]. وكذلك يمكن في الجملة أن ندرج وقفية الكتاتيب ضمن الجوامع الكبار والمدارس والأوقاف الخيرية عامة، حيث لا تكاد تخلو وثيقة وقف خيري من تخصيص جزء من ريع ذلك الوقف لتعليم عدد من الأطفال الأيتام، وقلما يوجد مسجد أو مدرسة وقفية في العصر المملوكي إلا ويوجد بجوارها مكتب لتعليم الأيتام[3].

❁ المدارس

لم تُعرف المدارس في زمن الصحابة ولا التابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سني الهجرة، وأن أوّل من بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور، حيث بنيت بها المدرسة البيهقية، وأشهر مابُنِيَ المدرسة النظامية ببغداد لأنها أوّل مدرسة قرّر بها للفقهاء معاليم، بناها الوزير نظام الملك، وأتم بناءها في سنة (٤٥٩هـ/)، فاقتدى الناس به من حينئذ، وقد بدأ ظهور المدارس بمصر منذ عهد العبيديين، في خلافة العزيز باللهّ نزار بن المعز، ثم بنى الحاكم بأمر الله أبو عليّ منصور بن العزيز (دار الحكمة) بالقاهرة، فلما انقرضت الدولة على يد السلطان

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص٣٥٦.

(٢) محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٣٤٨؛ عبد الغني محمود: التعليم في مصر، ص١٠٤.

(٣) محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص٢٦٢.

صلاح الدين يوسف بن أيوب أبطل مذاهب الشيعة من ديار مصر، وأقام بها مذهب الإمام الشافعيّ والإمام مالك، وبنى لكل من الطائفتين مدرسة بمصر[1].

وكانت أوّل مدرسة أحدثت بديار مصر: المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمصر، ثم المدرسة القمحية المجاورة للجامع أيضاً، ثم المدرسة السيوفية التي بالقاهرة[2].

ولقد انتشرت المدارس في مصر المملوكية جداً حتى قال ابن بطوطة لما قدم الديار المصرية: (وأما المدارس بمصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها)[3].

ولقد تفنن المماليك في بناء المدارس، ولم يبخلوا في النفقة عليها، ومنها مدرسة المؤيد شيخ، فقد بلغت عمارتها ما يزيد عن سبعين ألف دينار[4]، في حين كانت مدرسة الغوري قد أنفق في عمارتها نحو مائة ألف دينار[5].

ويعتبر الوقف من أهم أسباب نشوء المدارس وكثرتها ، فقد مال المماليك إلى وقف المنشآت التعليمية خوفاً من الغائلة، فهم كما يقول ابن خلدون: (يخشون عادية سلطانهم على من يتخلفونه من ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشى من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الأوقاف المغلة .... مع ما فيهم غالباً من الجنوح إلى الخير والصلاح

---

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص١٠٩؛ مريزن: الحياة العلمية في العراق، ص ٢٥٤.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص١٠٩.

(3) ابن بطوطة: تحفة النظار، ص٢٧.

(4) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٣٢٨.

(5) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص٥٨.

والتماس الأجور في المقاصد والأفعال، فكثرت الأوقاف لذلك وعمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها)[1].

وقد كثرت المدارس في القاهرة والمدن الكبار، وإن كان قد وجدت بعضها في أنحاء مصر المملوكية، إلا أنها لا تقارن عدداً وفخامة بمدارس القاهرة؛ وما ذاك إلا أنه كما ذكر ابن خلدون: (أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران، لأن التعليم من جملة الصنائع التي تكثر في الأمصار، فزاد التعليم بصورة ملحوظة بالقاهرة، من بلاد مصر، لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم)[2].

وقد افتتح العهد الجركسي ببناء المدرسة الظاهرية، إذ كان الشروع في عمارتها في سنة (٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م)، وانتهت في سنة (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، وكان القائم على عمارتها جركس الخليلي أمير أخور[3]، واختار لها الظاهر جملة من المدرسين منهم: شيخ الصوفية علاء الدين السيرامي مدرس الحنفية بها، وبالغ السلطان في تعظيمه حتى فرش سجادته بيده. وفخر الدين الضرير إمام الجامع

---

(١) ابن خلدون : المقدمة، ص٤١٠.

(٢) ابن خلدون : المقدمة، ص٤١٠.

(٣) هو الأمير جركس الخليلي، أمير أخور. قُتل في محاربة الناصري خارج دمشق سنة (٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م)، وكان مهيباً، عارفاً، خبيراً بالأمور، حسن السياسة، عاقلاً، خيراً. وله بالقاهرة خان يعرف به وقفه على بر يعمل بمكة. المقريزي: السلوك، ج٢/ ص ٤٢٣.

الأزهر مدرس القراءات، والشيخ سراج الدين البلقيني مدرس التفسير[1].

وقد وصفها ابن حجر بأنها (المدرسة الفائقة بين القصرين ...لم يتقدم بناء مثلها في القاهرة)[2].

كما شرع السلطان شيخ المحمودي ببناء مدرسة عظيمة عند باب زويلة عام (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) انتهى من عمارتها سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م)، وبلغت النفقة عليها أربعين ألف دينار[3]،ويضيف العيني: (... وهذا كله من غاية محبته للعلم والعلماء واجتهاده في إقامة منار الشريعة، ورفع أهلها الأجلاء) [4].

وفي عام (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) تم بناء مدرسة السلطان الأشرف قانصوه الغوري، وكانت في غاية الحسن، وقرر بها مدرسين وصوفية وجعل قاضي القضاة برهان الدين بن أبي شريف شيخهم [5].

كما شاركت المرأة في بناء المدارس خاصة الميسورات منهن، واللاتي استطعن من خلال أحوالهن الاقتصادية الحسنة، إيقاف الأوقاف التي كفلت استمرار عمل المنشآت التعليمية التي أقمنها مساهمة منهن في نشر العلم والتعلم، فمن هؤلاء: عصمة الدين مؤنسة خاتون، المعروفة بدار إقبال العلائي، ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب، وشقيقة الملك الأفضل قطب الدين أحمد، وإليه

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١ / ص٣٠٤.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٤ / ص٥٣.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ، ج١ / ص٣٠٤.

(٤) العيني: السيف المهند، ص ٢٧٢.

(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٧ / ص٦٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور ج٤/ ص ٦٨.

نُسبت... وكانت قد سمعت الحديث، ... وكانت عاقلة دينة فصيحة، لها أدب وصدقات كثيرة، وتركت مالاً جزيلاً، وأوصت ببناء مدرسة يُجعل فيها فقهاء وقرّاء، ويُشترى لها وقف يغلّ، فبنيت هذه المدرسة، وجُعل فيها درس للشافعية ودرس للحنفية. وقرّاء)، وقد استمرت هذه المدرسة إلى عهد الجراكسة[1].

وفي سنة (٧٥١هـ/ ١٣٥٠م) أنشأت أيدكن زوجة الأمير سيف الدين بكجا الناصريّ مدرسة سميت بالمدرسة الصغيرة، كما أنشأت في عام (٧٦١هـ/ ١٣٥٩م) خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد بن قلاوون مدرستها المعروفة بالحجازية، وجعلت بهذه المدرسة درساً للفقهاء الشافعية، وقررت فيه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن رسلان البلقينيّ، ودرساً للفقهاء المالكية، وجعلت بها منبراً يخطب عليه يوم الجمعة، وإماماً يقيم بالناس الصلوات الخمس، وجعلت بها خزانة كتب، ومناراً عالياً من حجارة ليؤذن عليه، وجعلت بجوار المدرسة مكتباً للسبيل فيه عدة من أيتام المسلمين، ولهم مؤدّب يعملهم القرآن الكريم ، وقد استمرت هذه المدرسة في القيام بدورها حتى عهد الجراكسة، فقد ذكر المقريزي أنها من أبهج مدارس القاهرة في أيامه[2].

وأنشأت أم السلطان الأشرف شعبان مدرسة في سنة (٧٧١هـ/ ١٣٦٩م) وقررت فيها دروساً للشافعية والحنفية[3].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص ١١٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص١٣٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣/ ص٢١٠؛ ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج٢/ ص ١٤٨.

وفي عهد الجراكسة: أنشأت (خوند مغل زوجة السلطان الظاهر جقمق مدرسة وأوقفت عليها أوقافاً، وكانت خيرة كثيرة البر للفقراء)[1].

والحقيقة أنه بدون الأوقاف كان من الصعب والعسير أن تقوم المدرسة بوظيفتها التي أنشأت من أجلها، فيحدثنا المقريزي عن ثلاث مدارس مماليكية، ولكنها خاوية على عروشها من المدرسين والطلبة لعدم وجود أوقاف تعين على الصرف على العملية التعليمية بها، وهذه المدارس هي المدرسة الخروبية التي مات مؤسسها قبل استيفاء ما أراد منها، فليس فيها مدرس ولا طلبة، والثانية مدرسة إينال ولا يعمل بها سوى قراء يتناوبون على قراءة القرآن، والثالثة مدرسة المحلي وليس بها مدرسٌ ولا طلبة[2]. كما ساعدت الأوقاف التي يصرف ريعها على الطلبة في هيئة رواتب شهرية وعطايا على بقاء الطلبة بالمدارس مدة طويلة، للتعيش والارتزاق إضافة إلى طلب العلم، حتى إن طلبة المدرسة الأشرفية حركوا الدعوى ضد السلطان برسباي يطالبون زيادة مرتباتهم بسبب تغير قيمة صرف العملة[3]. ومما يؤكد على أهمية الأوقاف بالنسبة للمدارس واستمرارها في أداء وظيفتها تلك العبارة التي ذكرها المقريزي عن المدارس إذ يقول عن المدرسة الناصرية[4] وكانت تعرف في عهد الجراكسة باسم المدرسة الشريفة[1] بأنها: (أوّل

---

(١) الصيرفي: ابناه الهصر، ص٤٢٦ .

(٢) محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية، ص ١٢٧ .

(٣) أحمد عبد الستار عثمان، نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، ص١٢٩ .

(٤) تنسب إلى الملك العادل زين الدين كتبغا والذي شرع في عمارتها وإنشائها عام (٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)، وقد رتبت الدروس فيها على المذاهب الأربعة. العيني: عقد الجمان، ج١/ ص ٤٤٠ .

مدرسة عُملت بديار مصر، ولولا ما يتناوله الفقهاء من المعلوم بها لخربت)[2].

وكذلك كان شأن المدرسة القمحية، التي أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي للفقهاء المالكية سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، ووقف عليها أوقافاً[3]، وقد ذكروا أنها (قد أحاط بها الخراب، ولولا ما يُتحصل منها للفقهاء لدثرت)[4].

وقريب من ذلك المدرسة السيوفية، التي أوقفها السلطان الناصر صلاح الأيوبي على الحنفية[5]، قال المقريزي: (وهذه المدرسة هي أوّل مدرسة وقفت على الحنفية بديار مصر، وهي باقية بأيديهم)[6].

ومنها المدرسة العادلية، عمرها الملك العادل أبو بكر بن أيوب للمالكية، درس بها قاضي القضاة تقي الدين أبو عليّ الحسين بن عبد الرحيم بن شاس، فعرفت به[7]، وقد ظلت عامرة حتى زمن المقريزي[8].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١٠٩.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص ١١٠.

(٣) أوقف عليها صلاح الدين قيسارية الوراقين وضيعة بالفيوم، وسميت بالقمحية لأن معلوم المدرسين والطلبة كان يفرق عليهم قمحاً. القلقشندي: صبح الأعشي، ج٣/ ص ٣٤٦؛ ابن دقماق: الانتصار، ج٤/ ص ٩٥.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص ١١٠.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم، ج٢/ ص ١٣٥.

(٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص ٢٧٣.

(٧) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج٥/ ص ٢٤٣؛ أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولة النورية والصلاحية، ج١/ ص ٢٣٠.

(٨) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص ١١١.

ومن المدارس المشتهرة في عهد الجراكسة مما ابتني في عهد المماليك البحرية وكانت للأوقاف دور عظيم في بقائها واستمرارها في أداء رسالتها العلمية:

المدرسة الظاهرية: بناها الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ في (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) ورتب وقفها، وقرّر العلماء فيها الدروس وتناظروا في علومهم[١]، يقول المقريزي: (وهذه المدرسة من أجلِّ مدارس القاهرة، ...، ونظرها تارة يكون بيد الحنفية وأحياناً بيد الشافعية)[٢].

المدرسة الفارسية: بناها الأمير فارس الدين البكيّ (ت٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)[٣]، ووقف عليها وقفاً يقوم بما تحتاج إليه[٤].

المدرسة الطيبرسية: أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس الخازنداريّ نقيب الجيوش (ت٧١٩هـ/ ١٣١٩م)، وجعلها مسجداً للهّ تعالى زيادة في الجامع الأزهر، وقرّر بها درساً للفقهاء الشافعية، وقد تأنق في عمارتها حيث كسا جدرانها بالرخام كما ذهب سقوفها، وانتهت عمارتها في سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)، ثم تداولت أيدي نظار السوء على أوقافها فخربت أجزاء منها[٥]، فأرسل السلطان

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص ٤١٢؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، ج١/ ص٢٤٦.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص١٢٩.

(٣) الأمير فارس الدين البكي الساقي (ت٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، أحد مماليك الملك الظاهر بيبرس. كان من أكابر أمراء الديار المصرية، ثم اعتقل إلى أن أفرج عنه الملك المنصور قلاوون وأنعم عليه بإمرة؛ ثم نقله إلى نيابة صفد فأقام بها عشر سنين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٢ / ص٤٤٣.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص١٥١.

(٥) المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص١٣٦.

الأشرف قايتباي سنة (٨٧٦هـ/ ١٤٧١م) لناظر وقف المدرسة قاضي الشافعية بأن يقوم بعمل التصليحات والترميمات اللازمة لها[١].

المدرسة الصرغتمشية: بناها الأمير سيف الدين صرغتمش الناصريّ (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م)[٢]، وقد أبدع في بنائها، وحضر افتتاحها كبار رجالات الدولة، وقضاة القضاة الأربعة، ومشايخ العلم، ورتب بها المدرسين، وأجرى لهم جميعاً المرتبات من وقفٍ رتّبه لهم[٣].

المدرسة الزمامية: بناها الأمير الطواشي زين الدين مقبل الروميّ سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م) وجعل بها درساً، ومنبراً يخطب عليه في كل جمعة[٤].

المدرسة المحمودية: أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن عليّ الأستادار[٥] سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)، ورتب بها دروساً، وعمل فيها خزانة كتب، ذكر المقريزي أنه (لا يُعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهي باقية إلى اليوم لا

---

(١) الصيرفي: إنباء الهصر، ص ٣٨٧.

(٢) مات مقتولاً بسجن الإسكندرية، كان على دراية باللغة العربية، وجودة الخط، وكثيراً ما كان يشارك في الفقه على مذهب أبى حنيفة. المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٢/ ص ٢٢٩؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢/ ص ٣٦٠.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٢٦١.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ٤/ ص٢٤٩؛ السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ / ص٤٤٣.

(٥) محمود بن عليّ بن أصفر، عينه الأمير جمال الدين الأستادار، لما كانت أيام الظاهر برقوق استقر في وظيفة الأستادارية سنة (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) وصار يتحدث في دواوين السلطنة الثلاثة، وهي الديوان المفرد الذي يتحدّث فيه الأستادار، وديوان الوزارة ، وديوان الخاص المتعلق بنظرالخواص، وعظم أمره ونفذت كلمته لتصرّفه في سائر أمور المملكة. المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص١٥٢.

يخرج لأحد منها كتاب إلاّ أن يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كلّ فن، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر)[1].

المدرسة الملكية: بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار (ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)[2]، وعمل فيها درساً للفقهاء الشافعية، وخزانة كتب كبيرة، وجعل لها عدة أوقاف، وصفها المقريزي بأنها من المدارس المشهورة[3].

المدرسة الجمالية: بناها الأمير جمال الدين الأستادار[4] سنة (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م)، وقرر فيها مدرسين من كبار العلماء، منهم: ابن حجر والبلقيني وغيرهما، (وقرّر عند كلّ من المدرّسين طائفة من الطلبة، وأجرى عليهم الجرايات، ورتب بها إماماً وقومة ومؤذنين وفرّاشين ومباشرين، و كثر من وَقْفِ الدور عليها، وجعل فائض وقفها مصروفاً لذريته، فجاءت في أحسن هندام وأتم قالب وأفخر زيّ وأبدع نظام، ثم صارت هذه المدرسة تُعرف بالناصرية بعدما كان يقال لها الجمالية، بعد أن اشتراها وأوقفها السلطان فرج)[5].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣/ ص١٥٢.

(٢) الأمير شهاب الدين أحمد بن الأمير الكبير سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار أعطاه الملك الناصر محمد بن قلاون إمرة طبلخاناه في حياة أبيه، واستمرت بيده إلى أيام الناصر حسن، ثم أقبل على الزهد ومات سنة (٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م). السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢/ ص٤٤٣.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣/ ص ١٥١.

(٤) قبض عليه السلطان وقتله في سنة (٨١٢هـ/ ١٤٠٩م)، واستولى على أمواله، المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٢٦١.

(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٦/ ص٢١١؛ المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٦١.

كما بنى الطواشي فيروز مدرسة بالقاهرة، ووقف عليها عدة أوقاف، فمات سنة (٨١١هـ/ ١٤٠٨م) قبل فراغها، فأقر السلطان ما قرره في كتاب وقفه من المصاريف على الفقهاء والأيتام وغيرهم[١].

كما شاركت الأسر التجارية العلمية في بناء المدارس، منها أسرة بيت الخروبي بقضاتهم الثلاثة: القاضي تاج الدين الخروبي، والقاضي عز الدين، والقاضي بدر الدين، فأنشأ المدرسة الخرّوبية كبير الخرابية بدر الدين محمد بن محمد بن عليّ الخَرُّوبيّ، (ت٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م)، أنشأها سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)، وأنشأ أيضاً ابن أخيه عز الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن عليّ الخزوبيّ، مدرسة سميت بنفس الاسم: المدرسة الخروبية، وهي أكبر من مدرسة عمه بدر الدين، إلاّ أنه مات سنة (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، قبل استيفاء ما أراد أن يجعل فيها، فليس لها مدرّس ولا طلبة[٢]، كما أنشأ تاج الدين محمد بن صلاح الدين أحمد بن محمد بن علي الخَرُّوبيّ (ت ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م) مدرسة باسم الخرّوبية أيضاً، وصفها المقريزي بأنها (ألطف من مدرسة أخيه، وبجنبها مكتب سبيل، ووقف عليها أوقافاً، وجعل بها مدرِّسُ حديثٍ فقط)[٣].

المدرسة المسلمية: أنشأها كبير التجار ناصر الدين محمد بن مُسَلّم البالسيّ، الذي توفي قبل أن تتمّ في سنة (٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، فوصى بتكملتها وأفرد لها

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص١٤٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١١٧.

(٣)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١١٥؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج١/ ص ١٠٦.

مالاً ووقف عليها دوراً وأرضاً، وشرط أن يكون فيها مدرس مالكيّ ومدرّس شافعيّ ومؤدّب أطفال وغير ذلك[1]. وقد قام الملك المؤيد شيخ بتجديد عمارة هذه المدرسة فعمر مئذنتها وخلاويها[2].

مدرسة المحليّ: أنشأها رئيس التجار برهان الدين إبراهيم بن عمر بن عليّ المحليّ (ت٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)، استغرق بناؤها سبع سنوات، وأنفق في بنائها مبلغاً كبيراً من المال يقارب الخمسين ألف دينار، وجعل بجوارها مكتب سبيل[3].

كما ساهم الأثرياء من العلماء بإنشاء المدارس وتعميرها، فقد أنشأ الشيخ سراج الدين البلقيني مدرسة، هي مدرسة آل البلقيني، وكان ذلك في سنة (٧٩٥هـ/١٣٩٢م)، ودفن بها سنة (٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)، كذلك دفن بها ابنه بدر الدين محمد[4]. وأنشأ حفيده الشيخ ولي الدين البلقيني (ت٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م) مدرسة بجوار المدرسة الشريفية[5].

كما بنى قاضي القضاة شيخ الإسلام بدر الدين محمود العينتابي الحنفي (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) مدرسة بجوار الجامع الأزهر[6].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٦٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٤٨، ٦٣.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١١٥.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١١/ ص٣٨٩؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧/ ص٥١؛ الصيرفي: نزهة النفوس، ج٢/ ص١٧١.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٨٩.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص٣٥٤.

ويمكن اعتبار المدرسة الجاولية مما بناه العلماء لما كان للأمير الجاولي من اشتغال بالعلم، فقد روى وصنف في الحديث، وله شرح كبير على مسند الإمام الشافعي، كما أنه أفتى وكتب بخطه على فتاوى عديدة، واستمرت مدرسته عامرة بطلبة العلم حتى وقت المقريزي[1].

وساهم الأطباء في عمارة المدارس أيضاً: ومنها مدرسة ابن المغربيّ ، (بناها صلاح الدين يوسف بن ابن المغربي رئيس الأطباء، تجاه داره، ومات قبل إكمالها فدفن بعد موته في قبة تجاه جامعه..)[2].

وشارك المسالمة ـ وهم من أسلم من أقباط مصر ـ في بناء المدارس ومنهم : يحيى بن عبد الرزاق الاستادار[3] في دولة الظاهر جقمق، بنى مدرسة مجاورة لبيته بالقرب من المدرسة الفخرية بين السورين، وبالغ في عمارتها، ووقف عليها مكتبة كبيرة، ورتب بها خطبة، ومدرسين منهم ابن حجر العسقلاني ، كما أنشأ مدرسة ثانية ببولاق رتب فيها الدروس ، ثم أنشأ مدرسة ثالثة بالحبانية [4].

ومنهم البقري صاحب المدرسة البقرية، بناها الرئيس شمس الدين شاكر

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص١٥٦؛ عبد الغني محمود، التعليم في مصر، ص ١٢٨.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٢/ ص ٣٣.

(٣) هو يحيى بن عبد الرزاق الزين القبطي القاهري الأستادار، ولي نظر ديوان المفرد غير مرة ، ثم ولي الأستادارية والحسبة ، كان مقرباً عند الظاهر جقمق ، إلا أنه نكب بعد موته مراراً وصودر وعصر وضرب وقاسى أهوالاً وذلاً ونفياً ، وأحسن أحواله الإرسال به إلى المدينة النبوية فدام بها أشهراً. السخاوي: الضوء اللامع، ج٥/ ص ١٣٠.

(٤)السخاوي: الضوء اللامع، ج٥/ ص ١٣٠.

بن غُزيل، المعروف بابن البقري (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، أحد مسالمة القبط وناظر الذخيرة في أيام الملك الناصر الحسن بن محمد بن قلاون، وقرب أهل العلم من الفقهاء، وتفضل بأنواع من البرّ، وأنشأ هذه المدرسة في أبدع قالب وأبهج ترتيب، وجعل بها درساً للفقهاء الشافعية، ثم استجدّ في هذه المدرسة منبر وأقيمت بها الجمعة في سنة (٨٢٤هـ/ ١٤٢١م)[١]. وكذلك بنى عبد الوهاب بن أبي شكر (ت٨١٩هـ/ ١٤١٦م) مدرسة أخرى ووقف عليها عدة أوقاف[٢].

وقد كان لخراب الأوقاف بسبب سوء إدارة النظار أو سوء الأوضاع الاقتصادية أثره البالغ في تعطيل الكثير من المدارس عن عملها بل وربا تعدى الأمر إلى خرابها، فمن المدارس التي خربت بذهاب أوقافها: المدرسة الفاضلية التي بناها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيسانيّ[٣]سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، (ووقفها على طائفتي الفقهاء الشافعية والمالكية، وجعل فيها قاعة للإقراء، ...، وإلى جانب المدرسة كُتّاب برسم الأيتام، وكانت هذه المدرسة من أعظم مدارس القاهرة وأجلها، وقد تلاشت لخراب ما حولها)[٤].

---

(١)المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٤٤.

(٢) عبد الغني محمود، التعليم في مصر، ص١٢٨.

(٣) هو القاضي عبد الرحيم بن عليّ بن الحسن أبو عليّ العسقلانيّ البيسانيّ المصريّ الشافعيّ(٥٩٦هـ/ ١١٩٩م)، لما ملك صلاح الدين يوسف بن أيوب، استخلصه واستعان به على ما أراد من إزالة الدولة الفاطمية، وجعله وزيره ومشيره، واستمر بعد ذلك على ما كان عليه عند الملك العزيز عثمان. المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١١٣.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١١٣.

المدرسة البيدرية: بناها الأمير بيدر الأيدمريّ سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م)، وعمل فيها درس فقه للفقهاء الشافعية، درس فيه شيخ الإسلام سراج الدين عمر بن نصير بن رسلان البلقينيّ، وهي مدرسة صغيرة لا يكاد يصعد إليها أحد، ...وقد تلاشت بعدما كانت عامرة[1].

وقد يرى بعض السلاطين تغييراً في الأوقاف، فتسعد به المدرسة تارة أو يسوء حالها أخرى، فمما يحمد للسلطان برسباي أنه في سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) قرر في مدرسته الأشرفية بقية المذاهب ولم يكن نزل بها أولاً إلا الحنفي[2]. ومعلوم أن هذا لا يكون إلا بعد مشاورة للعلماء، وهو يشير أيضاً إلى اتساع في الوقف لما فيه المصلحة العلمية لتؤدي المدرسة دورها.

وربما كان لبعض السلاطين تسلط على أوقاف المدارس مما كان له الأثر السلبي على الناحية العلمية، فعلى سبيل المثال تذكر المصادر أن السلطان برسباي أخذ بعض أوقاف المدرسة القمحية التي أوقفها عليها السلطان صلاح الدين الأيوبي، (وأنعم بهما على مملوكين من مماليكه لتكون إقطاعاً لهما)[3].

وقد قام بعض السلاطين بهدم المدارس لأسباب مختلفة كما كان الحال مع الناصر فرج حيث: ابتنى الأشرف شعبان بن حسين المدرسة الأشرفية تحت القلعة، ومات ولم يكملها، ثم هدمها الناصر فرج بن الظاهر برقوق لكونها تشرف

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١٤٨.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٨/ ص ٢٠٤؛ محمد عبد الستار عثمان: نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية، ص ١١٨.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١١٠.

على القلعة في سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونقل أحجارها إلى عمارة القاعات التي أنشأها بالحوش بقلعة الجبل ولم تعهد مدرسة قصدت بالهدم قبلها[1]، يذكر ابن إياس أنه بنى مكانها مارستاناً للمرضى[2].

وربما وجد بعض المفسدين من أتباع السلاطين يفتونهم لأسباب سياسة أو مالية بهدم بعض المدارس، كما كان الشأن في مدرسة الأمير جمال الدين الاستادار حيث حَسَّنَ جماعة للسلطان أن يهدم هذه المدرسة ورغبوه في رخامها، فإنه غاية في الحسن، وأن يسترجع أوقافها، فإن متحصلها كثير، فمال إلى ذلك وعزم عليه. (فكرّه ذلك للسلطان الرئيس فتح الدين فتح الله كاتب السر، واستشنع أن يهدم بيت بُني على اسم الله يُعلن فيه بالأذان خمس مرّات في اليوم والليلة، وتقام به الصلوات الخمس في جماعة عديدة، وتتحلق به الفقهاء لدرس تفسير القرآن الكريم وتفسير حديث رسول الله ، وفقه الأئمة الأربعة، ويعلَّم فيه أيتام المسلمين كتاب الله عز وجلّ، ويجري على هؤلاء المذكورين الأرزاق في كل يوم، ومن المال في كل شهر، ورأى أن إزالة مثل هذا وصمة في الدين، ...وما زال بالسلطان يرغِّبه في إبقائها على أن يزال منها اسم جمال الدين وتنسب إليه...، حتّى رجع إلى قوله وفوّض أمرها إليه)[3].

وقد ترددت في بعض الأوقاف نظارة بعض المشايخ للمدارس، مما دفع الواقفين إلى أن يبحثوا عمن يقوم بالنظارة من رجالات الدولة بما يصلح به الوقف، إذ قد يهمل نظار الوقف في إصلاحه مما يؤدي إلى حوادث لا تحمد، ولا أدل على ذلك من حادثة

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ، ج٣ / ص٤١٦.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٣٨.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص ١٦٤.

سقوط مئذنة المدرسة الفخرية القديمة داخل القاهرة، في سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) زمن السلطان جقمق، حيث وقعت على الفندق المجاور لها وعلى عدة أماكن فقتل فيها خلق كثير، فلما بلغ السلطان ذلك أراد قتل ناظرها فشفعوا فيه فسبه ولعنه وألزمه بمال كثير لعمارتها[١]، وعزل السلطان على إثر ذلك على قاضي القضاة ابن حجر، وتغير عليه تغيراً فاحشاً بسبب ذلك[٢]، ويعلق ابن تغري بردي مؤيداً فعل السلطان بقوله: (ولا يعاب على السلطان ما وقع منه في حق القاضي ومستنيبه فإن من شأن القضاة عدم الالتفات لعمارة الأوقاف والمدارس الذي يلون أنظارها وما أدري ما الذي يعتذرون به عن ذلك بين يدي الله عز وجل وما حجتهم عند الله)[٣].

وربما كان السلطان يتفقد بنفسه شروط الواقفين في المدارس الكبار، ولا سيما مع النزاع الذي يقوم بين الفقهاء في ذلك: كما كان الحال زمن السلطان الأشرف برسباي في سنة (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) فقد ألزم القضاة بقراءة كتب الأوقاف بالمدارس الكبار والخوانق، واتباع شرط الواقفين فيها وشدد في ذلك[٤].

وكانت السلاطين تتفقد أحياناً هذه المدارس والأوقاف وتمنحها هبات، ومن ذلك ما كان في زمن السلطان المؤيد شيخ سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م)، حيث (نزل الطواشي زين الدين فارس بمبلغ كبير من الفضة المؤيدية، وطاف في الجوامع والمدارس والخانكاهات، وفرق في أرباب وظائفها الفقهاء والقراء والأئمة والمؤذنين

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور ، ج١ / ص ١١٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص٢٤٨.

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور ،ج١ / ص١١٨.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٥٣٨.

والخطباء والقومة والمترددين مبلغاً كبيراً فحصل في الأكثر لكل واحد أربعة عشر مؤيدياً، وفيهم من تكرر اسمه في خمسة مواضع وأكثر، فأخذ في كل مكان نصيباً، ...، وفرق أيضاً مبلغاً في السؤال، فأقل ما كان نصيب الواحد من المساكين خمسة مؤيدية، عنها مبلغ خمسة وأربعين فلوساً، فعم النفع، والبر عدة طوائف، وكان جملة ما فرق أربعة آلاف دينار)[1].

وقد تؤدي الحالة الاقتصادية المتردية إلى التأثير السلبي على الحالة العلمية، فتهدم المدرسة التي لم يكتمل بناؤها للأحوال الاقتصادية، ومن ذلك: مدرسة ابن المغربيّ ، التي (بناها صلاح الدين يوسف بن ابن المغربي رئيس الأطباء، تجاه داره، ومات قبل إكمالها..، وصارت هذه المدرسة قائمة بغير إكمال إلى أن هدمها بعض ذريته في سنة (٨١٤هـ/ ١٤١١م)، وباع أنقاضها فصار موضعها طاحونة)[2].

وقد تؤدي سوء الأحوال الاقتصادية إلى تردي أحوال المدرسة لقلة الصيانة، وقد تحدث الحوادث المؤسفة نتيجة ذلك، كما كان الحال في المدرسة الفخرية، لما سقطت مئذنتها في سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) زمان الملك الظاهر جقمق، حيث وقعت (على الفندق المجاور لها وعلى عدة أماكن فقتل فيها عالم كثيرون من الخلائق)[3].

وقد تكون أوضاع بعض الشيوخ وإهمالهم عمارة الأوقاف سبباً في التأثير السلبي على الحالة العلمية، فإنه لما كانت الأوقاف هي المنبع الرئيس لبقاء المدارس؛ لذا فإهمالها كان منذراً بتعطل المدرسة، وقد يتطلب الأمر أن يتدخل السلطان في ذلك، كما

---

(١)المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٦/ ص٤٠٤.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص١٤٨.

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١ / ص١١٨.

كان بحادثة وقوع مئذنة المدرسة الفخرية في سنة (٨٤٩هـ/ ١٤٤٥م) زمان الملك الظاهر جقمق، فإنه لما بلغ السلطان ذلك سأل عن ناظرها فقيل له نور الدين القليوبي أحد نواب الشافعي وأمين الحكم فطلبه في الحال، وأمر بقتله، فشفع فيه بعض كبار الأمراء، فألزمه السلطان بمال كثير لعمارتها، وعزله عن القضاء[1].

وقد لا تكفي الأوقاف مرتبات المدرسين، فيكتفى بالمعيدين في التدريس كما كان الحال مع المدرسة الناصرية بالقرافةّ التي أنشأها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب[2]، (ورتب بها مدرّساً يدرّس الفقه على مذهب الشافعيّ، وولى تدريسها جماعة من الأكابر الأعيان، ثم خلت من مدرّس ثلاثين سنة، واكتفى فيها بالمعيدين وهم عشرة أنفس)[3].

❋ الكتب والمكتبات

يؤثر الوضع الاقتصادي دوماً على الحياة العلمية تأثيراً مباشراً في كافة ميادينه وحالاته، ومن ذلك خزائن الكتب أو ما يعرف في وقتنا الحاضر بالمكتبات، فقد شهد العصر المملوكي الكثير من هذه الخزائن والتي مثلت جزءاً هاماً في تنشيط الحركة العلمية بالمدارس ودور العلم المختلفة، لذا نجد العلماء يهتمون في تراجمهم ببيان حال الوراقة، وما ينبغي على الوراق أو المجلد، وأوضاع خزائن الكتب، وطرق حفظ الكتاب، وحال القائمين على الخزانات، وشرط استعارة الكتاب ونحو ذلك.

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج١ / ص١١٨؛ ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤/ ص٢٣٤.

(٢) بناها صلاح الدين الأيوبي بجوار الجامع العتيق، سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، وهو لا يزال وزيراً للعاضد الفاطمي. ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج١١/ ص ١٤٨.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣ / ص١٦٠.

وازدهرت سوق الوراقة في العهد المملوكي، وتفنن الوراقون في تزيين الكتب وفنون نسخها، وقد شجع تحسن الوضع الاقتصادي على قيام أسواق كبيرة للكتبيين في عهد المماليك الجراكسة، وكانت أسواق الكتب أشبه بمنتدى علمي يجتمع فيع العلماء وطلاب العلم ويناقشون فيه قضاياهم العلمية[1].

وقد حدد المقريزي مكان سوق الكتبيين بأنه: (تجاه شبابيك المدرسة الصالحية، بالقاهرة)[2]. ومعلوم أن اختيار هذا المكان قرب المدرسة يؤثر بطريقة ما على النشاط العلمي لقرب الكتب من مكان من يحتاج إليها من طلاب ومدرسي المدرسة.

ومن الخدمات التي هيأتها الدولة لسوق الكتبيين، أن جعلت منازلهم قريبة من مقار عملهم، حيث تم فتح "القيسارية المستجدة" بخط باب الزهومة من القاهرة، وسكنها الكتبيون، وقد وصفت بأنها: (من أحسن ما بني بالقاهرة)[3].

وقد انتشرت تجارة الكتب بالقاهرة أكثر من غيرها من مدن مصر المملوكية، ولا غرو في ذلك، فالحركة العلمية بها أنشط باعتبارها العاصمة، وللتطور الحضاري العمراني بها ، ولذا كانت سوق الكتبيين فيها أكبر وأوسع، بل قد توجد الكتب في غير القاهرة من الأقاليم، فتنقل لتباع بالقاهرة، ومن ذلك أنه لما مات والي الإسكندرية الأمير ركن الدين بيبرس المظفري، سنة (٧٩٩هـ/ ١٣٦٦م)، (بيعت تركته بالقاهرة، فوجد بها نسخة من كتاب "شرح التهذيب"،

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ٢ / ص٢٦٠.

(٢)المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٧/ ص٢٤٧.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٧/ ص٢٤٧.

لأحد أبناء ابن عوف، فاشتراها قاضي القضاة الإخنائي المالكي)[1]. كما اهتم الواقفون بتزويد المدارس خاصة بخزانات الكتب، وقد نصت وثائق الوقف على ذلك، كما نصت عليه وثيقة وقف السلطان الغوري، والتي جاء فيها: (وبها خلوة كبيرة معدة لخزن الكتب، بها جنبات خشب نقي، يمنة ويسرة، وصدر مثبتة معدة لحفظ ما فيها من كتب العلم الشريف لانتفاعهم بها في المدرسة المذكورة)[2].

وهذا حيث لم يكن في مقدرة الطلاب ـ في الجملة ـ اقتناء الكتاب بالشراء، مما يشير إلى أهمية وجود المكتبة بالمدرسة، فبدونها يقتصر الطالب على ما يمليه له أستاذه، ولا يجد فرصة للمقابلة والمراجعة، كما تتيح المكتبة لأذكياء الطلاب فرصة التعرف على علوم ومعارف غير التي يتلقاها في المدرسة، كما كان بإمكانهم الاطلاع مسبقاً على الدروس التي سيقوم المدرسون بشرحها، أو إملائها عليهم، مما يعين الطلبة على سرعة الفهم والتجاوب مع الأساتذة[3].

ويتم تأمين كتب المكتبات إما بالوقف أو الشراء أو الإهداء أو النسخ، فقد يشتري ناظر الوقف الكتب ويضعها في الخزانة، أو يشتري الواهب كتبا ويهبها للخزانة[4]، وما كان يتم عن طريق النسخ، فإنما يكون عند وجود نساخ للخزانة

---

(١) ابن فرحون: الديباج، ج١/ ص٢٩٣؛ ابن حجر: الدرر، ج١/ ص٥٠٩؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٩/ ص٥٠٩.

(٢) محمد محمد أمين: الأوقاف، ص٢٥٥.

(٣) عبد الغني محمود: التعليم في مصر، ص١٨٩.

(٤) زبيدة عطا: مكتبات المدارس في العصر الأيوبي والمملوكي، ضمن أبحاث ندوة المدارس ، ص٢١٨.

لنسخ الكتب التي تحتاجها الخزانة ويصعب الحصول عليها بالهبة أو الشراء(١).

هذا بالإضافة إلى الهدايا والوقف، حيث اعتاد عدد من العلماء والأدباء والسلاطين إهداء الخزائن مجموعات من الكتب والمصنفات، كما فعل المؤيد شيخ حيث أهدى إلى خزانة الكتب الملحقة بالجامع المؤيدي كتباً كثيرة في علوم شتى.

وقد تباع الكتب بعد موت صاحبها، فيسارع الطلاب ونظار المكتبات بشرائها، وقد يوقف العالم كتبه على بعض الخزائن، وكما فعل الدمنهوري (ت٧٢١هـ/ ١٣٢١م) حيث أوقف كتبه على مكتبة جامع الظاهر، واستمر بقاؤها مدة من الزمن هناك(٢).

وربما تنقلت الكتب من مدرسة إلى أخرى، كما كان الحال في مدرسة الأمير جمال الدين الأستادار بناها في سنة (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) فقد اشترى بانيها من مدرسة الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاون جملة من المصاحف والكتب في الحديث والفقه وغيره من أنواع العلوم، اشترى ذلك من الملك الصالح المنصور حاجي بن الأشرف بمبلغ ستمائة دينار، وكانت قيمتها عشرات أمثال ذلك، ونقلها إلى داره، وكان مما فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى خمسة في عرض يقرب من ذلك، أحدها بخط ياقوت، وآخر بخط ابن البوّاب، وباقيها بخطوط منسوبة، ولها جلود في غاية الحسن معمولة في

---

(١) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص١٧٥.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١/ ص١٧٢.

أكياس الحرير الأطلس، ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال جميعها مكتوب في أوّله الإشهاد على الملك الأشرف بوقف ذلك، ومقرّه في مدرسته[1].

وقد انتشرت المكتبات في معظم المدارس الكبار، ومنها ما بني في عهد الجراكسة، ومنها ما بني قبله، واستمر إلى عهدهم، فمن المدارس المشتهرة في عهد الجراكسة مما ابتني في عهد البحرية: المدرسة الظاهرية، التي بناها الملك الظاهر بيبرس البندقداريّ في (٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م) والتي جعل بها خزانة كتب تشتمل على أمهات الكتب في سائر العلوم)[2].

وكذا المدرسة الطيبرسية، الملحقة بالجامع الأزهر، التي أنشأها الأمير علاء الدين طيبرس (ت٧١٩هـ/ ١٣١٩م)، كان فيها خزانه كتب[3].

ومنها: مدرسة ألجاي، أنشأها الأمير الكبير سيف الدين الجاي في سنة (٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م) جعل خزانة كتب[4].

ومنها: المدرسة السابقية التي بناها الطواشي الأمير سابق الدين مثقال الأنوكي مقدّم المماليك السلطانية الأشرفية، (ت٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م)، فقد أوقف بها خزانة كتب[5].

ومن المدارس التي أنشئت في عهد الجراكسة، واشتهرت مكتباتها:

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٦١.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٢٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج١/ ص٣٠٢.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٣٦.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١٥٨.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص ١٥١.

المدرسة المحمودية، أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن عليّ الأستادار في سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)، (ورتب بها درساً وعمل فيها خزانة كتب لا يُعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها، وهي باقية إلى اليوم لا يخرج لأحد منها كتاب إلاّ أن يكون في المدرسة، وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كلّ فن)[1].

ومنها: المدرسة الملكية، التي بناها الأمير الحاج سيف الدين آل ملك الجوكندار، (ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، وعمل فيها خزانة كتب معتبرة، وجعل لها عدة أوقاف، وهي إلى الآن من المدارس المشهورة)[2].

ولم تقتصر المكتبات على وجودها بالمدارس فحسب، بل من الأماكن التي كان بها المكتبات: بعض المدافن لكبار الملوك، مثل: القبة المنصورية تجاه المدرسة المنصورية، وبهذه القبة (المنصورية) خزانة كتب كبيرة ، في كافة أنواع العلوم، مما وقفه الملك المنصور وغيره، وقد ذهب معظم هذه الكتب وتفرق في أيدي الناس[3]، وكذا كان الحال في قبة الظاهر خشقدم[4]. وفي عهد المماليك كان يتولى كبار العلماء نظر المكتبات كما ولي نظر خزانة المحمودية الحافظ ابن حجر مما يشير

---

(١) هو جمال الدين محمود بن علي الأستادار (ت٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م)، كان في مبدأ أمره فقيراً، ثم خدم عند بعض الأمراء، فصلحت حاله، وترقى في الوظائف السلطانية حتى ولي الأستادارية في دولة الظاهر برقوق الأولى، ونكبه الناصري لما ملك مصر، وأعاده الظاهر إلى وظيفة الأستادارية، ثم قبض عليه و مات بخزانة شمائل، ودفن بمدرسته، ومن عظم ما ظهر له من المال، قالت العامة: (ألان الله الحديد لداود، والذهب لمحمود). ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ٣٧١

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص١٤٨.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣ / ص١٣١.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٨/ ص٢٩٢.

لأهميتها وشهرتها[1]،وقد يكون تعيين خازن الكتب يرجع إلى مشورة السلطان وموافقته، كما كان الحال في المدرسة المؤيدية[2] ومدرسة الأشرف برسباي[3].

وتتأثر المكتبات عند تردي الأحوال الاقتصادية سلباً، ومن أشهر ما ذكر في ذلك ضياع الكتب التي كانت بخزانة المدرسة الفاضلية، التي بناها القاضي البيسانيّ، في سنة (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م)، حيث (وقف بهذه المدرسة جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم، يُقال أنها كانت مائة ألف مجلد، وذهبت كلها. وكان أصل ذهابها أن الطلبة التي كانت بها، لما وقع الغلاء بمصر في سنة (٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م)، والسلطان يومئذ الملك العادل كتبغا المنصوريّ، مسهم الضر، فصاروا يبيعون كلّ مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب، ثم تداولت أيدي الفقهاء عليها بالعارية، فتفرّقت)[4]. وقد بقي لها أثر حتى دولة الجراكسة، يفيد ذلك قول المقريزي: (وبها إلى الآن مصحف قرآن كبير القدر جدّاً، مكتوب بالخط الأوّل الذي يُعرف بالكوفيّ، تسميه الناس مصحف عثمان بن عفان، ويقال أن القافي الفاضل اشتراه بنيف وثلاثين ألف دينار، على أنه مصحف أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، وهو في خزانة مفردة له بجانب المحراب من غربيه، وعليه مهابة وجلالة)[5].

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ج٥/ ص١٤٣.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات الإسلامية، ص ٦٧؛ عبد الغني محمود: التعليم في مصر، ص١٩٢.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ج٨/ ص٢٩٢.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١١٣.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١١٣.

* الأربطة والزوايا

لقد كثرت الأربطة[1] في عهد دولة المماليك، ووقفت لها الأوقاف مما جعلها تمتد حتى عهد المماليك الجراكسة، مما يشير إلى أهمية العامل الاقتصادي في بناء الأربطة والزوايا، فتذكر المصادر أنه في سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م) بلغ عدد الأربطة التي بمصر والقرافة: بضعاً وأربعين رباطاً)[2]، سوى ما أنشئ بعد ذلك.

ومن أهم هذه الربط: رباط الآثار: عمره الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد ولد الصاحب بهاء الدين عليّ بن حنا[3]، ومات قبل تكملته، ووصّى أن يكمل من ريع بستان له، وقد قام هذا الرباط بدوره في الحياة العلمية في عهد المماليك البحرية، واستمر في المساهمة في الحياة العلمية في عهد المماليك الجراكسة، وقد تأثر الرباط بما تأثرت به البلاد من الفتن وتردي الأوضاع الاقتصادية، فقد قال المقريزي: (وأدركنا لهذا الرباط بهجة، وللناس فيه

---

(١) الأربطة: جمع رباط، والربط والمرابطة: ملازمة ثغر العدو، قال تعالى: {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل} [الأنفال، آية: ٦٠]. ومن ثم أطلق لفظ (رباط) على البناء المحصن الذي يقوم قريباً من الحدود ويرابط به جماعة من المجاهدين لمهاجمة الأعداء ودفع خطرهم، ثم تحول الرباط إلى المكان الذي ينزل به الصوفية. ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص١٥٦١؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٦٨؛ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ٢١٩.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج١ / ص٤٣١.

(٣) الوزير الصاحب: تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين بن الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا، سمع من سبط السلفيّ وحدث وانتهت إليه رياسة عصره، وكان صاحب صيانة وسؤدد ومكارم، ويجود بالصدقات الكثيرة مع التواضع ومحبة الفقراء وأهل الصلاح ، ونال في الدنيا العز والجاه وتقلد الوزارة ومات في سنة (٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م).نظر: المواعظ والاعتبار ج٣/ ص١٩٥.

اجتماعات، ولساكنه عدة منافع ممن يتردّد إليه أيام كان ماء النيل تحته دائماً، فلما انحسر الماء من تجاهه وحدثت المحن من سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)قلّ تردّد الناس إليه، وفيه إلى اليوم بقية)[١].

وربما تعطل الرباط، واستمر وقفه، فيأخذه من لا يستحقه، وذلك نحو رباط الصاحب: أنشأه الصاحب فخر الدين أبو عبد الله محمد بن الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا سنة (٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م)، ووقف عليه أبوه الصاحب بهاء الدين بعد موته عقاراً بمدينة مصر، وشرط أن يسكنه عشرة من الفقراء المجرّدين، وقد استمر إلى عهد الجراكسة، فقد ذكر المقريزي أنه بقي إلى زمانه، وأنه (ليس فيه أحد، ويستأدي ريع وقفه من لا يقوم بمصالحه)[٢].

ولقد انتشر في دولة المماليك أيضاً أربطة النساء، والتي أوقفت لرعاية الفقيرات من النساء أصالة، إلا أنه كان يقوم بدور علمي أيضاً، فإنه يرتب في مثل هذه الأربطة من تقوم بدور الوعظ، ويعد رباط البغدادية من أشهر ما افتتح في عصر المماليك من أربطة النساء، فقد بنته تذكارياي خاتون ابنة الظاهر بيبرس سنة (٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م) للشيخة الصالحة زينت ابنة أبي البركات، المعروفة ببنت البغدادية، فأنزلتها به لتعظ النساء وتفقههن، وبقي يؤدي دوره حتى عهد الجراكسة، غير أنه خرب سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) لسوء الأوضاع الأمنية[٣].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٩٥.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج ٤/ ص٣٠١.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٣٠١.

* **الخانقاوات**

ظهرت الخانقاوات[1] في الإسلام في حدود الأربعمائة من الهجرة، في الوقت الذي كثرت فيه الصوفية وتعددت مشيخاتها[2]. والظاهر أن الرباط والخانقاه اسمان لمسمى واحد فقد ذكر ابن الحاج أن: (الرباط هو المسمى في عرف العجم خانقاه)[3]، وحتى لما عرف المقريزي الرباط والخانقاه، وذكر كل نوع على حدة، إلا أنه في تعريفه جمع بينهما في المعنى فكان تعريفه لكل منهما أنه: (بيت الصوفية ومنزلهم)[4]، وقد اهتم المماليك ببيوت الصوفية، وصار يعين لكل ربط أو خانقاه شيخ أو أكثر، يعاونه عدد من المتصوفه، واشترط في الشيخ أن يكون: (من جماعة الصوفية ممن عرف بصحبة المشايخ، وألا يكون قد اتخذ من التصوف حرفة)[5].

وقد اختلفت الأربطة والخانقاوات فيما يهدى لها على حسب حال مشيختها، ما بين الأرز إلى اللحوم والفواكه والعسل، وألحق بها الحمامات والمطابخ، كما زود بعضها بخزانة للأشربة والأدوية وطبيب وكحال[6]، مما يدل

---

(١)الخانقاه: وجمعه خانقاوات وخوانق، هي كلمة فارسية تعني البيت، وقيل أصلها خونقاه أي الموضع الذي يأكل فيه الملك، وجعلت لانقطاع الصوفية فيها لعبادة الله تعالى .المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٤١٤؛ سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٦٨.

(٢) الخطيب: درسات في تاريخ الحضارة ، ص٧٣.

(٣) ابن الحاج: المدخل، ج٣/ ص١٨٥.

(٤) المقريزي: الخطط، ج٢/ ص٤٢٧؛ ابن جبير: الرحلة، ص، الخزرجي: سير الأولياء، ص١٣٦.

(٥) حجة وقف بيبرس الجاشنكير عن سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٧١.

(٦) حجة وقف الغوري، عن سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص١٧٢.

على اهتمام السلاطين والأمراء وكبار التجار بوقفيات الصوفية، حيث كان الكثير منهم يتفاخر ويتنافس على بناء الأربطة[1].

وقد عاب ابن الحاج على أهل الخانقاوات السماعات التي كانوا يقيمونها للذكر، ومعهم آلات العزف وما يقومون به من الرقص والتصفيق وهز الرؤوس كما يفعل أهل الخمور سواء بسواء، وكيف أن الشيخ يرقص بغير وقار ولا حياء ويأخذ في المناداة والبكاء وربما مزق ثيابه وعبث بلحيته[2].

وقد أخذ إنشاء الخوانق يتزايد خلال العصر المملوكي كما اختلطت وظيفتها بوظيفة المدارس حيث صارت الخوانق تضم متصوفين يقومون بتلقي العلم والدراسة إلى جانب أدائهم لوظيفة التصوف، وعادة ما كانت وثيقة الوقف تحدد عدد النزلاء بالخانقاه والمترددين عليها، فقد اشترطت وثيقة بيبرس الجاشنكير لا يزيد عدد الوصفية بالخانقاه من المترددين المتزوجين والمقيمين والمجردين عن أربعمائة نفس، بينما كانوا في خانقاه الغوري ثمانين صوفيا من الفقراء المحتاجين وتناقص عددهم في الخانقاه الخروبية إلى عشر[3].

وكانت الرواتب التي يتقاضها الفقراء بالخوانق حقا مكتسباً لهم وليس منّة من المنشئ، فقد قام الطلبة المتصوفون بالخانقاه الأشرفية زمن برسباي برفع شكوى أمام القضاء لنقص رواتبهم نتيجة للإصلاح النقدي الذي أجراه برسباي

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ج١، ص٧١؛ النهرواني: الإعلام، ص٢١٤.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ج١/ ص١٠٤، ج٢/ ص٢ ـ ٦.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٣٠٠؛ ابن حجر في إنباء الغمر، ج ١/ ص ٤٨١؛ عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر، ص ١٨٢.

طلبا لزيادة معاليمهم بمقتضى تغيير المعاملة وزيادة القيمة عن الفضة والفلوس وطلبوا أن يصرف لهم النفقة على الوزن المعين، وقد صدر الحكم لصالحهم بأن يزاد على رواتبهم عشر ما هو مصروف لهم[1].

وعادة تؤدي الخانقاوات وظيفة المدارس، إذا اهتم بانيها بترتيب مدرسيها، وأوقافهم[2]، ومن ذلك خانقاه شيخو ، حيث رتب بها بانيها دروساً عدّة، منها أربعة دروس لطوائف الفقهاء الأربعة، ودرساً للحديث، ودرساً لإقراء القرآن، ووقف عليها الأوقاف الكثيرة[3].

وكانت بعض هذه الخوانق تفتتح بحفل كأنها المدارس العظام، ومنها خانقاه سرياقوس، حيث اكتمل بناؤها سنة (٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م)، فخرج الناصر محمد لافتتاحها، (بنفسه ومعه الأمراء والقضاة ومشايخ الخوانك، ومدّت هناك أسمطة عظيمة بداخل الخانقاه، ...، وكان جمعاً موفوراً)[4].

وقد شاركت المرأة في بناء الخانقاوات، ومنها: خانقاه أمّ أنوك، أنشأتها الخاتون طغاي[5]، وجعلت بها صوفية وقرّاء، ووقفت عليها الأوقاف الكثيرة، قال المقريزي: (وهي من أعمر الأماكن إلى يومنا هذا)[1].

---

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصري، ص ١٦٩.

(٢) عبد الغني محمود عبد العاطي: التعليم في مصر، ص ١٨٢.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٢٩٨.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٢٩٨.

(٥) طغاي الخوندة الكبرى: زوجة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، وأمّ ابنه الأمير أنوك، كانت من جملة إمائه، فأعتقها وتزوّجها، ماتت في سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) أيام الوباء، ودفنت بهذه الخانقاه، الصفدي: أعيان العصر، ج١/ ٣٩٩؛ الوافي بالوفيات، ج٥/ ص ٢٨٤.

وأشهر الخانقاوات بمصر زمن المماليك الجراكسة:

ـ الخانكاه الصلاحية، ويقال لها: دار سعيد السعداء، أو دويرة الصوفية[2]، وهذه الخانكاه كانت أوّلاً داراً تُعرف في الدولة الفاطمية بدار سعيد السعداء، ولما استولى صلاح الدين الأيوبي على ملك مصر جعلها للفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة، ووقفها عليهم في سنة (٥٦٩هـ/ ١١٧٣م)، وولى عليهم شيخاً، ووقف عليهم أوقافاً كثيرة، ورتب لهم في كلّ يوم طعاماً ولحماً وخبزاً، وبنى لهم حمّاماً بجوارهم، فكانت أوّل خانكاه عُملت بديار مصر، ونعت شيخها بشيخ الشيوخ، واستمرّ هذه الخانقاة في أداء دورها إلى أن كانت الحوادث والمحن وتردي الأحوال الاقتصادية منذ سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)، فاتضعت أحوالها وتلاشي أمرها[3].

ـ الخانقاه البندقدارية: أنشأها الأمير علاء الدين أيدكين البندقداريّ الصالحيّ النجمي (ت٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م)[4]، وجعلها مسجداً لله وخانقاه، ورتب فيها صوفية وقرّاء في سنة (٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م)[5].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٩٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٧/ ص ٢٠٦؛ اليافعي: مرآة الجنان، ج٢/ ص١١٨.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٧٩؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج٢/ ص٢٢٧.

(٤) كان أستاذاً للسلطان الظاهر بيبرس، وحين تسلطن ولاه نائباً له على حلب. انظر: ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٢/ ص ٣١٢.

(٥) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٩٨.

ـ خانقاه ركن الدين بيبرس: بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوريّ[1] قبل أن يلي السلطنة سنة (٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م)، وقرّر بالخانقاه أربعمائة صوفيّ، وجعل بها مطبخاً، ورتب فيها القرّاء يتناوبون قراءة القرآن فيها ليلاً ونهاراً، ووقف عليها عدّة ضياع بدمشق والقاهرة والصعيد والوجه البحريّ ، وذكر المقريزي أن (أوقافها عامرة وأرزاقها دارّة بحسب نقود مصر، ... وأنه لم يحتج فيها إلى مرمّة منذ بنيت إلى وقتنا هذا)[2].

ـ خانقاه سرياقوس: أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون، وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفيّ، وبنى بجانبها مسجداً تقام به الجمعة، وبنى بها حمّاماً ومطبخاً، وكان ذلك في ذي الحجة سنة (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)، واستمرت على حالها حتى سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)[3].

ـ خانقاه بكتمر: أنشأها الأمير بكتمر الساقي[4] سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م)، استقر في مشيختها الشمسيّ شمس الدين الروميّ، ورتب له عن معلوم المشيخة

---

(١) الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصوري: اشتراه الملك المنصور قلاون صغيراً ورقاه في الخدم السلطانية وأقيم في السلطنة سنة (٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م)، ثم خلع سنة (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م) فكانت مدّة سلطنته عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً، وسُجن ومات بالسجن، ودفن بقبة خانقاهه، حسن المحاضرة ، ج٢/ ص٢٣٣؛ العيني: عقد الجمان، ج١/ ص ٤٦٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٢٩٨.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٩٨.

(٤) بكتمر الساقي: الأمير سيف الدين، كان أحد مماليك الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، مات بطريق الحجاز في سنة (٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م)، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦/ ص ١٠٣.

في كل شهر مائة درهم، وعن معلوم الإمامة مبلغ خمسين درهماً، ورتب معه عشرين صوفياً لكل منهم في الشهر مبلغ ثلاثين درهماً، فجاءت من أجلّ ما بني بمصر، ورتب بها صوفية وقرّاء)[1].

ـ خانقاه قوصون: أنشأها الأمير سيف الدين قوصون، وكملت عمارتها في سنة (٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)[2]، ورتب لمن تولى مشيختها معلوماً من الدراهم والخبز واللحم والصابون والزيت، وقرّر بها جماعة من الصوفية، واستمر العمل بها حتى سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م) فنتيجة للفتن وثورات المماليك بطل الطعام والخبز منها، وتلاشى أمرها من بعد ما كانت من أعظم جهات البرّ والنفع[3].

ـ خانقاه الجيبغا المظفري: أنشأها الأمير سيف الدين الجيبغا المظفري (ت٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)[4]، كان بها عدة من الفقراء يقيمون بها ولهم فيها شيخ، ولهم الطعام والخبز، وكان بجانبها حوض ماء لشرب الدواب، وسقّاية بها الماء العذب لشرب الناس، وكُتّاب يقرأ فيه أطفال المسلمين الأيتام كتاب الله تعالى، ويتعلمون الخط...، ثم ونتيجة لسوء الأوضاع الاقتصادية، وظهور الفتن

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٩٨.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤/ ص ١٧٤.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٩٨.

(٤) الجيبغا المظفريّ: الخاصكي، تقدّم في أيام الملك المظفر حاجي بن الملك الناصر محمد بن قلاوون، تقدّماً كثيراً، بحيث لم يشاركه أحد في رتبته، وأخرج إلى دمشق في سنة (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م)، وسار إلى نيابة طرابلس وقتل سنة (٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م)، المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٤/ ص٢٩٨.

والثورات نتيجة لهذه الأوضاع فرغت الخانقاة من سكانها، وتعطل حوضها وأغلق مكتب السبيل بها[1].

وقد تابع الجراكسة على بناء الخانقاوات، فأول ما بني في عهدهم: الخانقاه الظاهرية، أنشأها الملك الظاهر برقوق في سنة (٧٨٦/ ١٣٨٤م)[2].

❋ الزوايا

كانت معظم الزوايا[3] تعقد دروساً للعلم، وقد قصدها الطلاب والمريدون ولكنها اختلفت عن المدارس والخوانق إذ إن معظمها كان لمشيختها الحرية في ترتيب الدروس اعتمادا على شهرتهم ، فلم يقصر إنشاء الزوايا على كونها منشآت لتقديم خدمات الرعاية الاجتماعية وللإيواء؛ ولكنها كانت مراكز لنشر الثقافة والمعرفة، فعلى سبيل المثال اتخذ إبراهيم بن موسى شيخ خانقاه سعيد السعداء لنفسه زاوية بالمقس ورتب بها حلقة الدرس في الفقه، وكان يحسن إلى من يحضر إليه من الطلبة ويوفر لهم الطعام ويسعى لهم في الأرزاق كما أقام بها مكتبة وقف بها الكثير من الكتب وصارت لهذه الزاوية مكانتها العلمية، وقد أوقف عليها السلاطين والأمراء والقادرين[4]، وقد تعددت الزوايا في عهد دولة المماليك الجراكسة منها: زاوية الشيخ خضر: عُرفت

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٢٩٨.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٤/ ص٢٩٨؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص ١٤٩.

(٣) الزوايا في اللغة: جمع زوايا؛ ومفردها زاوية، وهي مشتقة من الفعل انزوى ، ينزوي، بمعنى اتخذ ركناً من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد، ثم تطورت إلى أبنية صغيرة منفصلة في جهات مختلفة من المدينة ليقيم بها الصوفية والغرباء والطلبة. المعجم الوسيط ، ج١ / ص٤٠٨؛ الخطيب: دراسات في تاريخ الحضارة، ص٧٣.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي، ج١/ ص ٣٣.

بالشيخ خضر بن أبي بكر بن موسى المهرانيّ العدويّ، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس، وهي خارج القاهرة. ووقف عليها أوقافاً تغل في السنة نحو الثلاثين ألف درهم[1]، ومنها زاوية الشيخ شمس الدين محمد الحنفي، أوقف عليها السلطان ططر إقطاعاً كبيراً[2]، ومنها: زاوية القلندرية[3]، أنشأها الشيخ حسن الجوالقيّ القلندريّ، أحد فقراء العجم القلندرية[4]، قال المقريزي: (وما زالت هذه الزاوية منزلاً لطائفة القلندرية، ولهم بها شيخ)[5].

وكانت السلاطين تتفقد الأربطة والزوايا بالصلات والهبات ضمن تفقدهم للجوامع والمدارس وغيرها من دور العلم، بدءًا من سلطنة الظاهر برقوق، حيث كان (يذبح طول أيام إمارته وسلطنته في كل يوم من أيام شهر رمضان خمسة وعشرين بقرة، يتصدق بها بعد ما تطبخ، ومعها آلاف من أرغفة

---

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٩٦.

(2) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص ٤٧.

(3) القلندرية طائفة تنتمي إلى الصوفية، وتارة تُسمي أنفسها ملامتية، وحقيقة القلندرية أنهم قوم طرحوا التقيد بآداب المجالسات والمخاطبات، وقلت أعمالهم من الصوم والصلاة إلاّ الفرائض، ولم يبالوا بتناول شيء من اللذات المباحة، واقتصروا على رعاية الرخصة، ولم يطلبوا حقائق العزيمة، والقلندريّ يعمل في تخريب العادات، ولا يتقيد بهيئة ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف. المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٩٨.

(4) الشيخ القلندري: قدم إلى ديار مصر وتقدّم عند أمراء الدولة التركية، وأقبلوا عليه واعتقدوه فأثرى ثراء زائداً في سلطنة الملك العادل كتبغا، وكان سمح النفس جميل العشرة لطيف الروح، يحلق لحيته ولا يعتم، وكانت له عصبة، وفيه مروءة وعصبية، ومات بدمشق في سنة (٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م)، المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٩٨.

(5) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٩٩.

الخبز النقي، على أهل الجوامع والمشاهد والخوانك والربط وأهل السجون، ...، سوى ما كان يفرق في الزوايا)[1].

لقد تم بحث الأوضاع الاقتصادية وأثرها على الحياة العلمية في عهد الجراكسة، إلا أن طبيعة هذا المبحث اقتضت الطول بالنسبة لغيره، إذ الكلام فيه يتطرق إلى المراكز العلمية من جوامع وكتاتيب ومدارس ومكتبات وأربطة وزوايا، وإنما كانت الحياة العلمية لا تعدو هذه المراكز، وأيضاً هذه المراكز لا تقوم إلا بدعم اقتصادي، ولذا يدوم زمان أحد هذه المراكز ما بقي الوقف الذي أوقف عليه يانعاً، فإذا خرب أو بطل أو استولى عليه أحد الظلمة؛ فإن المركز العلمي يتوقف عن العطاء. كما أن قوة الاقتصاد المصري كانت وجهاً آخر لإنشاء هذه المراكز، ولما كان الاقتصاد المصري في عهد المماليك البحرية أقوى منه في عهد الجراكسة، لذا فإن المراكز التي بقيت بأوقافها مما أنشئ في عهد المماليك البحرية؛ أكثر من هذه التي أنشئت في عهد الجراكسة[2]، وثمة أسباب أدت إلى هذا التدهور، سبق الإشارة إلى طرف منها، إلا أن تأثير الاقتصاد على هذه المراكز هو الأقوى من باقي الأوضاع السياسية والاجتماعية، والله أعلم.

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥/ ص٤٤٦.

(٢) لا يزال لهذا العامل الاقتصادي دوره البارز في الحالة العلمية إلى يومنا هذا، فالدول الغنية تزدهر فيها العلوم والمعارف دون الفقيرة منها.

المبحث الثاني

الأوضاع الاقتصادية للعلماء وأثرها على عطائهم وإنتاجهم العلمي

الإنسان يتأثر بحالات الغنى والفقر التي ترد على الدول والأفراد من حوله، كما يتأثر عطاؤه العلمي أحياناً بذلك، فكان من المفيد ونحن بصدد دراسة تأثير الأحوال الاقتصادية على الحياة العلمية أن يتم بحث تأثيرها الخاص على العلماء بعد أن تم بحث تأثيرها العام على الدولة ككل.

والمسلم في الجملة لا يتأثر تحصيله للعلوم بالفقر، كيف وقد كان حال النبيﷺ وأصحابه –رضي الله عنهم – معروف من ضيق العيش، فأكثرهم فقراء لا يجد الواحد منهم قوت يومه، بل خاف النبي ﷺ على الأمة التنافس في الدنيا ولم يخف عليها الفقر والحاجة، فعن عمرو بن عوف الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((أبشروا وأملوا ما يسركم فو الله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم))[1].

وكان حال النبي ﷺ مشابهاً لحال أصحابه، فقد قال عمر رضي الله عنه: (استأذنت على رسول الله ﷺ فدخلت عليه في مشربة؛ وإنه لمضطجع على خصفة، إن بعضه لعلى التراب، وتحت رأسه وسادة محشوة ليفا، وإن فوق رأسه لإهابا عطنا، وفي ناحية المشربة قرظ، فسلمت عليه، فجلست فقلت: أنت نبي الله، وصفوته، وكسرى وقيصر على سرر الذهب، وفرش الديباج والحرير، فقال: أولئك عجلت

---

[1] سنن الترمذي، ج٤/ ص ٦٤٠، ح ٢٤٦٢.

لهم طيباتهم، وهي وشيكة الانقطاع، وإنا قوم أخرت لنا طيباتنا في آخرتنا)[1].

وثبت عنه ﷺ أنه قال: ((اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا))[2].

ثم إن حال أكثر العلماء في مختلف العصور كان هو الفقر لا الغنى، فمن المعلوم أن أكثر العلماء لم يكونوا من الأغنياء، ومن لطيف ما يذكرونه في ذلك ما ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء، قال: (ذكر أن ابن حزم اجتمع يوماً مع الفقيه أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب كتابي "المنتقى" و"الاستغناء" وغيرهما من التواليف، وجرت بينهما مناظرة فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كان على سرج الحراس، قال ابن حزمٍ: وتعذرني أيضاً فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة، أراد أن الغني أضيع لطلب العلم من الفقير) [3].

وفي العهد المملوكي، تحسنت أوضاع العلماء، ممن كان لهم اتصال بالدولة، في حين كان معظم طلاب العلم من الفقراء، ويتضح ذلك من خلال تقسيم المقريزي للمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، حيث قسمه إلى سبع طبقات، فجعل القسم الأول: أهل الدولة، ويدخل فيهم: القضاة ، ثم ذكر القسم الخامس: الفقراء، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم[4].

---

(1) الحاكم: المستدرك، ج٤/ ص١١٧، ح ٧٠٧٢.

(2) صحيح مسلم ، ج٣، ص ١٠٢، ح ٢٤٧٤.

(3) معجم الأدباء ، ج٢ / ص ٢٨.

(4) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٧٢ـ ٧٣.

هذا ولم يخل المجتمع المملوكي من بعض العلماء الذين عرف عنهم الثراء واليسار ورخاء العيش، منهم على سبيل المثال ابن حجر فقد صرف على حفل ختمه شرحه "فتح الباري" مبالغ كبيرة، فعمل وليمة عظيمة في سنة (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م)[1]، وقال السخاوي في ذلك: (وزادت تصانيفه ...على مائة وخمسين تصنيفاً ورزق فيها من السعد والقبول خصوصاً فتح الباري بشرح البخاري الذي لم يسبق نظيره أمراً عجباً بحيث استدعى طلبه ملوك الأطراف بسؤال علمائهم له في طلبه وبيع بنحو ثلاثمائة دينار وانتشر في الآفاق ولما تم لم يتخلف عن وليمة ختمه في التاج والسبع وجوه من سائر الناس إلا النادر وكان مصروف ذلك إليهم نحو خمسمائة دينار)[2].

وكان لإسهام السلاطين في تحسين الأوضاع الاقتصادية للعلماء دورٌ كبيرٌ في مساعدتهم على أداء رسالتهم العلمية، وذلك من خلال الهبات والعطايا التي كانوا يبذلونها لهم، وقد تحسنت حالة كثير من العلماء من أعطيات السلاطين، بدءاً من الظاهر برقوق في بداية الدولة، فقد (كان كثير الصدقات والمعروف، ...وكان يفرق في كل سنة في أهل العلم والصلاح مائتي ألف درهم، الواحد إلى مائة دينار...، يبعث في كل قليل بجملة من الذهب تفرق في الفقهاء والفقراء)[3].

وربما طالب العلماء بزيادة المقررات لهم، أو ما يقال له الجامكية، لاستمرارهم في القيام بوظائفهم العلمية، كما كان في سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)

---

(١) الشوكاني: البدر الطالع ، ج١ / ص٨٣.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع ، ج١ / ص٢٦٨.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٣ / ص٣٥٦.

زمن السلطان المؤيد شيخ حيث طالب مدرسي المدرسة المنصورية بزيادة رواتبهم[1].

وربما أدت سوء الأحوال الاقتصادية بالعالم إلى الهجرة بحثاً عن حياة أفضل، فيتدخل السلطان لتحسين وضع العالم مادياً ليرغبه في البقاء، كما حدث مع الشيخ محي الدين يحيى ابن سيف الدين السيرامي(ت ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م) شيخ المدرسة الظاهرية وأحد مدرسيها؛ حيث كانت (قد ضاقت به الأحوال واشتدت به الفاقة إلى أن أراد أن ينتقل من الديار المصرية، وبلغ السلطان شيخ المحمودي ذلك فمنعه من ذلك وأحسن إليه غاية الإحسان ورتب له من الجوالي شيئاً بلغ مائة درهم زيادة على ما بيده من الوظائف، وذلك كله محبة العلم وأهله)[2]، وكان السيرامي مقرباً للمؤيد شيخ حيث يذكر ابن حجر أنه (كان قد اختص بالمؤيد وسامره وكان يبيت عنده كثيرا من الليالي ويثق به وبعقله)[3].

وهذا من (جملة محاسن السلطان شيخ المحمودي أنه يذكر بنفسه المنقطعين من العلماء ويرسل إليهم جملة من الذهب... منهم الشيخ الإمام العلامة عز الدين ابن جماعة، وكان يرسل إليه في كل مرة من الذهب الأحمر خمسين ديناراً، .. ومنهم الشيخ شمس الدين الصوفي والشيخ نصر الله العجمي وغيرهم من العلماء والقادمين إلى الديار المصرية)[4].

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٢١٧.

(٢) العيني: السيف المهند، ص ٢٧٠.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١/ ص ٥٧٦.

(٤) العيني: السيف المهند، ص ٢٦٦.

أما السلطان ططر فمع قصر مدته إلا أنه قد انتفع بسلطنته سائر أصحابه وحواشيه ومماليكه، (فإن أول ما طالت يده رقاهم وأنعم عليهم بالأموال والإقطاعات والوظائف والرواتب، قيل إنه أعطى الشيخ شمس الدين محمداً الحنفي في دفعة واحدة عشرة آلاف دينار، وأوقف على زاويته إقطاعاً هائلاً، وتنوعت عطاياه لأصحابه، وأحبه غالب الناس لبشاشته وكرمه، وأظنه لو طالت مدته أظهر في أيامه محاسن، ودام ملكه سنين كثيرة لكثرة عطائه)[1].

كما كانت الأعياد والموالد مورد رزق للعلماء على العادة السلطانية، فعلى سبيل المثال وفي زمن السلطان الناصر فرج سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م): (فرقت الأضاحي بالحوش من القلعة، على الأمراء وسائر أرباب الدولة، من القضاة والأعيان والمماليك السلطانية، وفي جهات البر من الجوامع والمدارس والخوانك والمشاهد والزوايا، وفي أرباب البيوت من أهل الستر، على العادة في كل سنة)[2].

وكانت عادة السلاطين المماليك الاحتفال بالمولد النبوي في شهر ربيع الأول في كل سنة[3]، حيث يجلس السلطان بمخيمه بالحوش السلطاني بحضرة

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص ٤٧.

الشيخ شمس الدين محمد الحنفي المعروف بالكاتب(ت ٨٥٤هـ/ ١٤٥١م)، نال حظاً من ملوك مصر، لاسيما من الملك الظاهر جقمق؛ فإنه عظم في دولته إلى الغاية ونالته السعادة، وعد من الرؤساء، كان له مشاركة ومحاضرة ومعرفة بمداخلة الملوك محظوظاً عندهم. كان مرتبه في اليوم على الجوالي فقط دينارين. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤/ ص٣٥٢.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص٦٥.

(٣) الاحتفال بالمولد النبوي بدعة انتشرت في عهد المماليك، والأصل أن هذه من البدع المحدثة في الدين، إذ لم يرد أن عملها أحد من الصحابة أو التابعين أو الصالحين من أهل السنة والجماعة.

القضاة والأمراء ومشايخ العلم والفقراء، والعساكر ميمنة وميسرة، فيقرأ الفقهاء والعلماء السيرة النبوية، متخللين ذلك بالوعظ والإقراء، بعدها يفرق السلطان على الحاضرين أكياس تحوي أموالاً تسمى بالصرر، إضافة إلى هدايا عينية كالأقمشة وغيرها، ثم يمد سماط هائل من الأطعمة الفاخرة، وبعد الانتهاء من الطعام يفرق السلطان على الفقراء ومشايخ الزوايا والصوفية ما تيسر له من الأموال والهبات العينية كالقمح والأقمشة[1].

وكانت ثمة مواسم علمية يفرق السلطان فيها على بعض العلماء بخلاف مواسم الأعياد ورمضان، وأشهرها ختم قراءة صحيح البخاري من كل عام تقريباً، حيث يحضر الختم قاضي القضاة وبعض الفقهاء والعلماء، فعلى سبيل المثال في سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) ونتيجة لأمر ألم بالسلطان شيخ المحموي طلب عدداً أكبر لحضور هذا المجلس، فذكر المقريزي أنه (قرئ كتاب صحيح البخاري بالقصر من قلعة الجبل، على ما جرت به العادة، وحضر قراءته القضاة الأربعة، ولم تجر العادة بذلك، وإنما كان يحضر قاضي القضاة الشافعي، وشيخ الإسلام في طائفة يسيرة من الفقهاء، فزاد عدد الفقهاء الحاضرين في هذه السنة على ستين فقيهاً، صرف لكل منهم ألف درهم فلوساً)[2].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ص٣٤٥، ٣٤٦؛ محمد محمد أمين: وثيقة وقف السلطان قايتباي على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني والعشرون، السنة ١٩٧٥م، ص٣٥٨.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص٤١٩.

وكان السلطان قانصوه الغوري كريماً مع الفقهاء والعلماء ليلة ختم البخاري من كل عام بالقلعة، فكثيراً ما كان يفرق في هذه الليلة الخلع والصُرر على الفقهاء والعلماء[1].

هذا إضافة إلى أعطيات وهبات السلاطين بأنفسهم، فقد كان من عادة السلطان الظاهر برقوق أن يفرق كل سنة على أهل العلم والصلاح مائتي ألف درهم[2].

وكان المؤيد شيخ كثير الصدقات على أهل العلم، فيذكر العيني أنه اشتهر بـ (تفرقهة الأموال الكثيرة على قراء الحديث والمصاحف، والدليل عليه أنه أعطى لقارئ الطحاوي وسامعيه من الذهب المصري مائة وخمسين، ما قيمته من الفلوس الجدد خمسة وثلاثون ألف درهم)[3].

وربما جاءت الصلات من الخيرين من التجار، فقد كان التاجر زكي الدين الخروبي، محسناً للعلماء وطلبة العلم، وقد وصى حين موته بتفريق مبلغ أربعة آلاف دينار على مجموعة من الفقهاء[4].

كما أوقف الكثير من العلماء الأثرياء العديد من الأوقاف للصرف على العلماء وطلبة العلم ، فعلى سبيل المثال كان الشيخ محمود بن أحمد بن يوسف

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ١٩٨، ٢٤٦، ٤٠١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٢/ ص ٨٦.

(٣) العيني: السيف المهند، ص ٥٠.

(٤) يذكر المقريزي أن الخروبي كان رجلاً كثير المروءة والنبل والسؤدد، وأنه جود القرآن الكريم بمكة في آخر عمره على الشيخ شمس الدين محمد الرقاء. درر العقود الفريدة، ج/ ١ ص ٢٠٢.

العنتابي(ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) جواداً كريماً له زاوية يضيف فيها من يرد عليه، ويأكل من طعامه كل يوم فوق المائتي نفس، وقد أوقف على زاويته أوقافاً كثيرة ليضمن استمرارية إطعام من يرد على الزاوية من طلبة العلم ومريديه[1].

ومن الواقفين من رأى أن تكون توسعته على أرباب الوظائف من الفاكهة في أوانها، فنصت إحدى الوثائق على أن يصرف الناظر للمدرسين في كل سنة في وقت أوان البطيخ والعنب اثني عشر درهماً نقرة ولكل معيد ستة دراهم نقرة، ولم تقتصر التوسعة على زيادة الرواتب وتوزيع السكر والطعام والحلوى والخبز بل شملت أيضاً توزيع الكسوة السنوية، وعلى سبيل المثال أيضاً نصت وقفية السلطان قايتباي على أن يصرف في كل سنة في شهر رمضان كسوة لمؤدب الأطفال[2].

فنتيجة لسوء الأحوال الاقتصادية وعدم وجود رافد من أوقاف أو جوامك تصرف لبعض العلماء، فقد يضطر بعضهم تدفعه الحاجة إلى أن يعقد المجالس العلمية مقابل الأجر، ومنهم الشيخ محمد بن عمر الشرابيشي (ت٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م)؛ فإنه (في آخر عمره كان يحدث ويأخذ الأجرة على التحدث وحدث بالكثير)[3].

---

(1) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٣/ ص١٤٨.

(2) الصيرفي: إنباء الهصر، ص ٢٢٢؛ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ص ١٤٦.

(3) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٤/ ص٥.

وقد يضطر العالم إلى اللجوء للتكسب بعدة طرق ووظائف غير التعليم لسد حاجاته فمنهم من ألجأته الحاجة للتكسب بالشهادة، كالشيخ أحمد بن عبد الخالق بن عبد العزيز الأسيوطي شهاب الدين (ت٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) (كان يواظب التكسب بالشهادة في جامع ظاهر الوراقين)[1].

ومنهم من يتكسب ببعض الحرف كالزراعة أو التجارة: كالشيخ زين الدين أبي هريرة عبد الرحمن بن محمد الدكالي (ت٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) اشتغل بالعلم ودرس، واشتهر بصدق اللهجة وجودة الرأي وحسن التذكير والأمر بالمعروف مع الصرامة والصدع بالوعظ في خطبه حيث تولى خطابة جامع ابن طولون من ابن بهاء الدين السبكي فاستمرت بيده وكان مقتصدا في ملبسه زاهداً في دنياه، يتكسب من الزراعة وغيرها[2].

ومنهم: القاضي علاء الدين علي بن محمد السلماني، ولي قضاء الديار المصرية من سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٤م) إلى أن مات سنة (٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م)، كان يكرم طلبة العلم ويرفدهم بماله، وكان واسع الحال جدا لمزاولته مهنة التجارة[3].

ومنهم من كان له صلة ببعض كبار موظفي الدولة فيستعين بهم على أعبائه الاقتصادية، كما كان شأن الشيخ تقي الدين محمد بن محمد بن عمر بن البلقيني (ت ٨٣٨/ ١٤٣٤م)؛ والذي نشأ في إملاق وفقر.. فاتصل بناظر الجيوش عبد

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٥٥٤.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧ / ص ١٣٥.

(٣)ابن حجر: انباء الغمر، ج١ / ص٥٣٦.

الباسط ، والذي سانده بالمال وحصل من خلاله على الوظائف والإقطاعات والرزق، حتى أصبح من كبار أصحاب الأموال في فترة وجيزة[1].

وكما كان من شأن الشيخ شهاب الدين أحمد بن إسماعيل بن عثمان الكوراني الشافعي الذي قدم القاهرة سنة (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م) وهو في فاقة عظيمة من الفقر والإفلاس، فاتصل بالأمير الكمالي ابن البارزي (فوالاه بالإحسان على عادة ترفقه بأهل العلم، ونوه بذكره، حتى عرفه الناس، وتردد إلى الأكابر، وصار له وظائف ومرتبات)[2].

وقد تؤثر سوء الأحوال الاقتصادية للعلماء سلباً على اقتناء الكتب، بل قد يحتاج العالم المال ليتقوى به على معيشته فيضطر إلى بيع كتبه فتفرق ولا يستفاد منها، كما كان الأمر مع الشيخ محمد بن عمر بن أبي بكر تاج الدين ابن الشرابيشي (ت٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م)، كتب الكثير بخطه الحسن، وكان يعلق الفوائد التي يسمعها في مجالس المشايخ والأئمة حتى حصل من ذلك جملة كثيرة ثم تسلط عليه بعض أهله فمزقوا كتبه بالبيع تمزيقا بالغا لأنهم كانوا يسرقون المجلدات مفرقات من عدة كتب قد أتقنها وحررها فيبيعونها تفاريق وكذلك الكتب التي لم تجلد يبيعونها كراريس بالرطل وضاعت كراريسه وفوائده[3].

كما كان لتردي الأوضاع الاقتصادية أثره على بعض ضعاف النفوس من القضاة والعلماء إذ دفعتهم الحاجة إلى شراء أو بيع بعض وظائفهم أو النزول عنها

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٥٦١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ١٥/ ص١٠٤.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٤/ ص٥.

مقابل مبالغ مالية، فقد كان القضاة يختارون بعناية في دولة المماليك البحرية، إلا أن الفساد أثر في تعيينهم في عهد المماليك الجراكسة[1]، وبالتحديد منذ تولى السلطنة الظاهر برقوق (ت٨٠١هـ/ ١٣٩٨م)، فقد وصف بأنه (كان طماعا جدا لا يقدِّم على جمع المال شيئاً، ولقد أفسد أحوال المملكة بأخذ البذل على الولايات حتى وظيفة القضاء والأمور الدينية)[2]، كما يذكر المقريزي ما نصه: (وحدث في أيامه تجاهل الناس بالبراطيل، فلا يكاد يلي أحد وظيفة ولا عملاً إلا بمال، فترقى للأعمال الجليلة والرتب السنية الأرذال)[3].

وكثيراً ما كان السلطان ينذر ويتوعد من يَنْزِلُ من العلماء والقضاة عن بعض وظائفه، ففي سنة (٨٢٥هـ/ ١٤٢١م) في عهد الملك المؤيد شيخ، (نودي أن لا ينزل أحد من الفقهاء عن وظيفته في وقف من الأوقاف، وهدد من نزل منهم عن وظيفته، فامتنعوا عن النزول، ثم عادوا كما كانوا، ينزل هذا عن وظيفته من الطلب في الدروس، أو التصوف في الخوانك، أو القراءة أو المباشرة بالمال، فيلي الوظائف غير أهلها، ويحرمها مستحقوها، فإن الوظائف المذكورة صارت بأيدي من هي بيده، ينزلها منزلة الأموال المملوكة، فيبيعها إذا شاء ويسمى بيعها نزولا عنها، ويرثها من بعده صغار ولده، وسرى ذلك حتى في التداريس الجليلة، والأنظار المعتبرة، وفي ولاية القضاء بالأعمال يليه الصغير من بعد موت أبيه ويستناب عنه كما يستناب في تدريس الفقه والحديث النبوي، وفي نظر الجوامع ومشيخة التصوف)[4].

---

(١) سحر بن علي دعدع: ولاة القاهرة الكبرى خلال العصر المملوكي، ص ٥١.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٢/ ص٦٨.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص ٦١٨.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٦/ ص٦٤.

ولاشك أن هذا يؤثر سلباً على الحياة العلمية، ولذا علق المقريزي على هذا بقوله: (فيا نفس جِدِّي إن دهرك هازل!!)[1].

وأثر كذلك التحايل لجمع الأموال بصرف العملة الفضية بالفلوس على الحالة الاقتصادية للعلماء والفقهاء، ولاسيما في عهد الناصر فرج سنة (٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) حيث أدى هذا التلاعب إلى أن فسدت أحوال أصحاب الرواتب من الفقهاء والعلماء، الذين رزقهم على الأوقاف والمرتبات السلطانية، فأصبحت رواتبهم لا تكفي معيشتهم ولا الحصول على ضرورياتهم الأساسية في الحياة، فصاروا يأخذون معاليمهم، وارتفعت أسعار جميع المبيعات حتى بلغت أضعاف قيمتها المعتادة بالفضة، فصار من راتبه مائة درهم في الشهر يأخذ عن المائة سبعة عشر رطلاً، وثلثي رطل من الفلوس، فيشتري بهذه المائة ما كان قبل هذا يشتريه بأقل من عشرين بكثير، فانتشر الفساد والغلاء، (وخص الفقهاء ونحوهم من ذلك أعظم البلوى)[2].

وربما تتأخر صرف رواتب العلماء بسبب الحروب الخارجية ففي عهد السلطان الأشرف قايتباي سنة (٨٧٣/ ١٤٦٨م) تأخر عن صرف الرواتب الشهرية لعدد من أرباب الوظائف منهم القضاة والعلماء، بل طولبوا برد ما كانوا يأخذونه من زيادة قديماً، فهرب بعضهم[3].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص٦٤.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص١٧٢.

(٣) الصيرفي: إنباء الهصر، ص ١٤، ٢٣ـ ٢٤.

فكان قطع الأرزاق التي كانت مخصصة للعلماء شهرياً من أعظم أسباب تعطل الدراسة، كما كان في عهد السلطان قايتباي ونتيجة لما كانت تمر به الدولة من حروب خارجية، فقد أمر السلطان بعدم صرف مرتبات اللحوم والقمح و التي كانت للفقهاء والمتعممين، وقد عبر ابن إياس عن الضرر الاقتصادي الذي أصاب الفقهاء والعلماء من جراء هذا الأمر بقوله: (وحصل للفقهاء والمتعممين في هذه الحركة غاية الضرر والبهدلة)[1].

على أنه ما أن تنفرج الأزمات الاقتصادية وتزول مسبباتها حتى يبادر السلاطين بالسخاء على الفقهاء والعلماء، ففي عام (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م) أمر السلطان قايتباي بتفريق مبالغ مالية على الفقهاء والفقراء والمساكين، ورتب عدة أبقار تطبخ وتفرق على المنقطعين في الزوايا[2].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٥٦؛ ج٣/ ص ٢٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٢٨.

الفصل الرابع

الأوضاع الاجتماعية وأثرها على الحياة العلمية

ويشتمل على:

- **المبحث الأول: الكوارث الكونية والأوبئة وأثرها على الحياة العلمية.**

- **المبحث الثاني: طبقة المماليك الجلبان وأثرهم على الحياة العلمية.**



المبحث الأول

الكوارث الكونية والأوبئة وأثرها على الحياة العلمية

دراسة الأوضاع الاجتماعية هي دراسة تأثر الإنسان ببيئته و التعرف على السلوك الإنساني لأي عصر من العصور[1].

ودراسة الأوضاع الاجتماعية من الأهمية بمكان لمعرفة تأثيرها على الحياة العلمية، فالحياة العلمية في واقع الأمر إنما هي تفاعل بين الإنسان وثقافته، وهذه الثقافة تستمد من عقيدته وتصوراته ومعارفه وبني جنسه وبيئته، ونحن ندرك أن آيات القرآن الكريم المكية تختلف في بعض خصائصها عن الآيات المدنية، وذلك لاختلاف الأحوال والأشخاص والزمان والمكان، وتمثل كل من المرحلة المكية والمرحلة المدنية غاية ما يمكن أن يكون من تحولات بشرية، ولذا فإن عظمة القرآن الكريم أنه شمل الحلول لكل المجتمعات باختلافها إلى يوم القيامة.

ودور علماء الأمة هو قراءة الواقع الإنساني بدقة وتطويعه لأمر الله تعالى، مهما اختلفت الظروف والأحوال، ومهما اختلفت الأجناس البشرية، وتعددت النوازل، يقول الشافعي رحمه الله تعالى: (فليس تنزل بأحد نازلة إلا والكتاب يدل عليها نصا أو جملة)[2]، وذلك لأنه (كل حكم لله أو لرسوله وجدت عليه دلالة فيه أو في غيره من أحكام الله أو رسوله بأنه حكم به لمعنى من المعاني فنزلت نازلة ليس فيها نص حكمٍ حكم فيها حكم النازلة المحكوم فيها إذا كانت في معناها)[3].

---

(١) فؤاد الصقار: دراسات في الجغرافيا البشرية، ص٤٦.

(٢) الشافعي: الأم ، ج٧ / ص ٣١٣.

(٣) الشافعي: الرسالة، ج١ / ص ٤٨١.

ولهذا وجدنا العالم ربما يفتي في مسألة بقول، فإذا اختلف الحال كان الصواب في غيره، وهكذا، ولذا كان الشافعي له مذهب في بغداد، ولما نزل مصر تغير اجتهاده في بعض المسائل، فكان له مذهب آخر فيها، وهو ما يعرف بالقديم والجديد للشافعي، وهذا يعزى لتغير الظروف والأحوال ومنها الأوضاع الاجتماعية أصالة.

ولقد تميزت الحياة الاجتماعية خلال العصر المملوكي بعدة ظواهر لعل من أهمها النمو السكاني والهجرات، فلقد كانت الحقبة التي سبقت العصر المملوكي والتي تعرض خلالها المشرق الإسلامي لحملات المغول المدمرة والتي ذهب ضحيتها أعداد كبيرة من المسلمين في كل من إيران والعراق وبلاد الشام[1] فظهرت حركة طرد سكانية من إيران والعراق والشام باتجاه الأراضي المصرية التي كانت تنعم آنذاك برخاء نسبي قياساً بغيرها، وذلك نظراً لظهور دولة المماليك الفتية بها، بالإضافة إلى أن الوجود الصليبي كان ما يزال ماثلاً في سواحل بلاد الشام والذي دفع بالكثير من سكانه في الانتقال إلى الأراضي المصرية[2].

وتم في العصر المملوكي الأول كسر التتار في موقعة "عين جالوت"، ثم توالت انتصارات المماليك على الصليبيين، حتى استرداد عكا آخر معاقل الصليبيين بالشام، عام (٦٩٠هـ/ ١٢٩١م)[3]، ثم تلاشى الخطر المغولي تدريجياً

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧/ ق١٣، ص٢١٣؛ فؤاد الصياد: المغول في التاريخ، ص٢٤٩ـ٢٨٢.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ج٢/ ص١٠٠٨؛ سحر السيد إبراهيم: الهجرات وتطور مدينة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، ١٦٠.

(٣) انظر: المقريزي، السلوك، ج١/ ق٣، ص٧٦٥؛ رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج٣/ ص٦٩٧.

بسبب اعتناق المغول للإسلام؛ ولاسيما القبيلة الذهبية (القفجاق) بعد أن أسلم أهلها وارتبط حكامها بعلاقات طيبة مع سلاطين دولة المماليك في مصر والشام[1].

صارت الدولة بهذا الحضور القوي على الساحة الدولية عامل جذب لكثير من المسلمين في العالم الذين يبحثون عن الأمن في فترة ساد فيها الرعب والفزع والهلع الجميع.

واستمر الأمر في الدولة الثانية دولة المماليك الجراكسة، حيث هاجر إلى مصر عدد من مسلمي الأندلس هرباً من اضطهاد النصارى للمسلمين في الأندلس، واجتمع فيها الكثير من المهاجرين من المغرب الإسلامي؛ ولاسيما بعد سقوط الأندلس ممن هاجر خوفاً على نفسه من القتل، وكان الأمر شديداً فقد ذكر صاحب بدائع الزهور في حوادث سنة (٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م): (أنه وصلت الأخبار من جهة المغرب بأن الفرنج قد استولوا على غرناطة التي هي دار ملك الأندلس ووضعوا في المسلمين السيف، وقالوا : من دخل في ديننا تركناه، ومن لم يدخل في ديننا قتلناه، فدخل في دينهم جماعة كثيرة من المغاربة خوفاً على أنفسهم من القتل)[2].

---

(١) يذكر النويري في حوداث سنة (٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م) أنه كثرت الأراجيف بحركة التتار نحو الشام فخاف الناس والتجأوا إلى الحصون، ووصل أكثرهم إلى الديار المصرية، فامتلأت بهم القاهرة ومصر، انظر: نهاية الأرب، ج٣١/ ص٤١٢، ٤١٣، ٤١٤؛ وانظر أيضاً: جمال الدين الشيال: تاريخ مصر الإسلامية، ج٢/ ص١٩٤ـ ١٩٩، حيث أورد فيه تفصيل لهجرات المسلمين المغول إلى مصر.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص٤٤٨.

ونتيجة لهذه الهجرات التي جاءت إلى مصر المملوكية اجتمع في مدن مصر أجناس مختلفة من العرب والأتراك والمغاربة ومن المسلمين ومن غير المسلمين، وقد أدى ذلك إلى تطور كبير في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية[1].

وقد قسم المقريزي المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك إلى سبع طبقات، إذ يقول: (اعلم حرسك الله بعينيه التي لا تنام، أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام، القسم الأول: أهل الدولة، والقسم الثاني: أهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، والقسم الثالث: الباعة، وهم متوسطو الحال من التجار، ويقال لهم أصحاب البز ، ويلحق بهم أصحاب المعايش، وهم السوقة، والقسم الرابع: أهل الفلح، وهم أهل الزراعات والحرث، وسكان القرى والريف، والقسم الخامس: الفقراء، وهم جل الفقهاء وطلاب العلم والكثير من أجناد الحلقة ونحوهم، والقسم السادس: أرباب الصنائع والأجراء وأصحاب المهن، والقسم السابع: ذووالحاجة والمسكنة،وهم السؤّال، الذين يتكففون الناس ويعيشون منهم)[2].

ونلحظ أن المقريزي صنف الفقهاء وطلبة العلم من الفقراء، إلا أنه استخدم لفظ (جل)، لأن منهم من كان من أهل الدولة، وهو القضاة ومنادمي السلاطين والأمراء.

---

(1) نعيم زكي: طرق التجارة الدولية، ص٣٩ ـ ٦٥؛ محمد سهيل طقوس: تاريخ المماليك في مصر، ٥٢٨ـ ٥٣١.

(2) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٧٢ـ ٧٣.

والفقر لا يؤثر كثيراً على الحركة العلمية، فلا يزال العلماء يعيشون الكفاف، وذلك في كل العصور، فالغالب أن هذه حياة العلماء، ولاسيما وقد كان هذا حال النبي ﷺ فقد ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ((اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا))[1]، وفي رواية المستدرك عن فضالة بن عبيد مرفوعاً: ((و كان عيشه كفافا و قنع به))[2].

ثم إن حال أكثر العلماء في مختلف العصور كان هو الفقر لا الغنى، فمن المعلوم أن أكثر العلماء لم يكونوا من الأغنياء، ومن الطرائف في ذلك أنه لما تناظر الإمام ابن حزم الظاهري مع الإمام المالكي أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي، قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كان على سرج الحراس. قال ابن حزمٍ: وتعذرني أيضاً فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة!!، يشير إلى أن الأغنياء عادة لا يجتهدون في طلب العلم[3]. فأفحمه بذلك.

وتمر على الأمة أيام تجتاحها الكوارث والأوبئة، مما يقتضي أوضاعاً اجتماعياً مختلفة، قد تؤثر سلباً أو إيجاباً على الحركة العلمية.

ودولة المماليك الجراكسة مرَّ عليها العديد من الكوارث والأوبئة التي أثرت على الحركة العلمية فيها، وقبل دراسة ذلك التأثير؛ يحسن أن نتعرف بإطلالة سريعة على ما مر على الدولة من كوارث وأوبئة، وأبدأ بتحديد معنى الكارثة والوباء.

---

(١) ابن ماجة: السنن، ج٢/ ص ١٣٨٧، ح ٤١٣٩.

(٢) الحاكم : المستدرك، ج٤ / ص١٣٦، ح٧١٤٤ .

(٣) ياقوت الحموي: معجم الأدباء ، ج٢ / ص ٢٨.

الكارثة في اللغة: تفيد المشقة، يقال: كَرَثَهُ الأمرُ، إذا بلغ منـه المَـشَقَّة، وقَـدْ تُجَلَّى الكُرَبُ الكوارِثُ، وغَمْرَةٍ كارِثةٍ: أَي شديدةٍ شاقَّة[1].

وأما الوباء في اللغة؛ فهو: المرض العـام، والوَبَـاءُ : فَـسادٌ يَعْـرِض لِجَـوْهَر الهَوَاءِ لأَسبابٍ سَمَاوِيّة أَو أَرْضِيَّة، فهو المرض الذي تفشى وعم الكثير من الناس، كالجدري والكوليرا وغيرهما[2].

فتحصل لنا من هـذه المعـاني أن الكـوارث والوبـاء تعنـي المـشقة العامـة، والأمراض العامة، إلا أنه في القراءة التاريخية؛ لم أجد المؤرخين يـستخدمون لفـظ (الكوارث) للدلالة على المعنى المتعارف عليه الآن، لكن كانوا يستخدمون ألفـاظ (الفيضان ـ القحط ـ البرد الشديد ـ الزلازل..) إلـخ، كـما وجـدت أن المـؤرخين يـستخدمون لفـظ (الوبـاء) في المـرض العـام المـؤدي للوفـاة كالطـاعون[3]، ولا يستخدمون ذلك اللفظ في كـل مـرض عـام؛ إلا أن ابـن تغـري بـردي يـذكر أن (الطاعون غير الوباء، فالوباء هو الذي تتنوع فيه الأمراض، والطاعون هو الطعن الذي ذكر في الحديث)[4] ، وهذا عليه كثير من العلـماء، ففـي تـاج العـروس: (أن

(١) الزبيدي: تاج العروس، ج٥ / ص ٣٣٣؛ ابن منظور: لسان العرب ، ج٢ / ص١٨٠؛ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ،ج٥ / ص١٧٥.

(٢) ابن فارس: معجم مقاييس ، ج٦ / ٨٣؛ الزبيدي: تاج العروس ، ج١ / ص٤٧٨.

(٣) وفي المعجم الوسيط ، ج٢ / ص ٥٥٨: (الطاعون: داء ورمي وبائي سببه مكروب يصيب الفئران وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى وإلى الإنسان).

(٤) لعله يشير إلى الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده ، ج٤ / ص٤١٧ : عن أبي موسى الأشعري يقول: قال رسول الله ﷺ: "فناء أمتي بالطعن والطاعون" قال: فقلنا يا رسول الله هذا

الطَّاعون عند الأطباء نوعٌ من أنواع الوباء، والوباء: فَسادٌ يَعْـرِض لجـوهر الهـواء لأسبابٍ سماوية أو أرضية، كالماء الآسن والجِيَفِ الكثـيرة ، أو كـل مـرضٍ عـام، وذكروا له علاماتٍ، منها الحُمَّـى والجُـدَرِيّ والنَّـزَلاَت والحِكَّـة والأَورام وغـيرُ ذلك، وأن الذي عليه المُحَقِّقون من الفقهاء والمُحَدِّثين أن الوباء : وَخَمٌ يغَيِّر الهواء فتكثر بسببه الأمراض في الناسِ ، والطاعونُ هو الضَّرْبُ الذي يُصِيب الإنس مـن الجن ، وأَيَّدوه بما في الحديث أنه وخْزُ أَعْدائكم من الجن)[1].

وأما (الكوارث)، فتقدم من المعنى اللغوي أن المراد منها المشقة البالغة، فرأيـت أن المناسب أن ينحصر البحـث حـول الأثـر المبـاشر للكـوارث الطبيعيـة عـلى الحيـاة الاجتماعية، وهو (الغلاء)، و(الموت)، فالغلاء هو الأثر المباشر للفيضان أو القحـط أو نقصان ماء النهر، وما أشبه هذه الكوارث، كما هو الذي له التـأثير المبـاشر عـلى الحيـاة العلمية كما يأتي بحثه.

وقد وقفت على نص للمقريزي يشير إلى نحوٍ من ذلك، إذ يقول: (اعلـم تـولى الله أمرك بالحياطة والهداية، ولا أقلاك من الكفاية والعناية أن الغلاء الذي حلّ بالخلق منذ كانت الخليقة ، فيما نقل من أخبارها بسائر البلاد في قديم الزمان وحديثه، على مـا عُرف من أحوال الوجود وطبيعة العمران، وعُلم من أخبار البشر، إنما يحدث من آفات سماوية في غالب الأمر: كقصور جري النيل بمصر، وعدم نزول المطر بالشام والعـراق والحجاز وغيره، أو آفة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو رياح تهيّفها أو جراد يأكلها،

الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال طعن أعدائكم من الجن، وفي كل شهادة". ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١ / ص١٣٩ .

(١) الزبيدي: تاج العروس ، ج١ / ص ٤٧٨ .

وما شابه ذلك، هذه عادة الله تعالى في الخلق، إذا خالفوا أمره وأتوا محارمه، أن يصيبهم بذلك جزاء بما كسبت أيديهم)[1]

وقد تكون الكارثة بسبب الحرائق، ولاسيما الضخمة كحريق سنة (٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م) والذي وقع بمنطقة بولاق من القاهرة، وكان من الضخامة بحيث انتشر في أماكن شتى، وظل مستمراً ليلاً ونهاراً، دون أن يعلم أحد من افتعله وما سببه، (وافتقر بسبب ذلك خلق كثير من التجار وغيرها، من كثرة حرق البيوت والدكاكين، وكان هذا انتقاماً من الله لأهل مصر)[2]. لكن هذه الحرائق وإن كانت من الكوارث، إلا أنها لم تكن من الكوارث الطبيعية، فقد قال ابن تغري بردي: (ثم ظهر للناس بعد ذلك أن الذي صار يحرق من الأمكنة بالقاهرة وغيرها بعد حريق بولاق إنما هو من فعل المماليك الجلبان، لينهبوا ما في بيوت الناس عندما تحرق)[3].

وكذلك قد وقعت بعض الزلازل في العهد المملوكي، لكنها لم تكن ذات تأثير تدميري كبير لضعفها النسبي، كما كانت في الغالب مرتبطة بالأوبئة، كما في سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) حيث كانت (زلزلة خفيفة واستمرت تعاود الناس ثلاث مرات والأرض تضطرب ظاهراً، وكان هذا كله دلائل على تزايد أمر الطاعون)[4].

لذا فإن الكوارث التي مرت على الدولة المملوكية وأثرت في الأوضاع العامة بها ومنها الحياة العلمية هي كوارث الغلاء والأوبئة، وفيما يلي عرض لهذه الموجات من البلاء العام.

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٥٩.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٣٤٧.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص٤٠٤.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٩٧.

❋ الغلاء

توالت على البلاد موجات الغلاء مذ مطلع عهد الجراكسة، في كثير من سني الدولة. فمن أوائل ذلك: ما كان في سنة (٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) حيث إن (النيل قصر جريه .. فشرقت أكثر الأراضي، وتعطلت من الزراعة، فارتفعت الأسعار)[١]، ويصف المقريزي حال البلاد مطلع عهد الظاهر برقوق سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)، فيقول: (تزايدت الأسعار من يوم دخوله، تصديقاً لقوله عليه الصلاة والسلام:"من تعلق بشيء وكل إليه")[٢] ... واتفق مع تزايد الأسعار كثرة ظلم الدولة، ووقوع الوباء[٣]، واستمر الغلاء في عهد الناصر فرج، في سنوات (٨٠٦، ٨٠٧، ٨٠٨هـ) وأضيف له الوباء حتى مات الكثير، بل يقول المقريزي: (لقد كنت أسمع قديماً أنه يتوقع لأهل مصر غلاء، وجلاء، وفناء. فأدركنا ذلك كله في سني ست، وسبع، وثمان مائة. وهلك فيها ما ينيف على ثلثي أهل مصر، ودمر أكثر قراها، ... هذا مع اختلاف أهل الدولة، وكثرة تحاسدهم[٤] ، ووصف المقريزي هذه الأيام أنها لم تنسلخ إلا وقد عم (كل الخراب إقليم مصر، وتلاشى الصعيد، ودثرت عدة مدن، وكثير من القرى وتعطلت معظم أراضيه من الزراعة، وتمزق أهله أيدي سبيا، وبيع من الأطفال ما لا يدخل تحت حصر، فاسترقوا بعد الحرية، وذلوا بعد العز)[٥] ، وتجدد الغلاء في سنة (٨١٨/ ١٤١٥م) في عهد المؤيد شيخ، حيث (اتفق وقوع القحط بالحجاز والشام

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٦٠.

(٢) الترمذي: السنن، ج٤/ ص ٤٠٣، ح ٢٠٧٢؛ والنسائي : السنن، ج٧، ص١١٢، ح ٤٠٧٩.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٥/ ص٣٦٧.

(٤)المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٦ / ص ١١٦.

(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٦/ ص١٣٤.

فكثر التحويل في الغلال إلى النواحي من أراضي مصر وصعيدها)[1]، فوقع الغلاء بمصر وازداد بصورة كبيرة، وقد حاول السلطان المؤيد استدراك ذلك، (فأرسل الطواشي مرجان الهندي الخازندار إلى الوجه القبلي بمال كثير ليشتري منه القمح ويرسله إلى القاهرة توسعةً على الناس. ثم أخذ السلطان في النظر في أحوال الرعية بنفسه وماله، حتى إنه لم يدع لمحتسب القاهرة في ذلك أمراً، فمشى الحال بذلك، ورد رمق الناس)[2]، ثم تجدد الغلاء في سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) واشتد بالديار المصرية، وعمّ سائر ضواحيها[3]، ووصفه المقريزي بقوله: (تزايد سعر الغلال، ... هذا وقد شمل الخراب قرى أرض مصر، ومع ذلك فالأحوال متوقفة، والأسواق كاسدة، والمكاسب قليلة، والشكاية عامة، لا تكاد تجد أحداً إلا ويشكو سوء زمانه. وقد فشت الأمراض من الحميات، وبلغ عدد من يرد الديوان من الأموات نحو الثلاثين في اليوم. والظلم كثير، لا يتركه إلا من عجز عنه. والعمل بمعاصي الله مستمر. ولله عاقبة الأمور)[4]

وقد تجدد الغلاء في سنة (٨٢٩هـ/ ١٤٢٢م) في عهد السلطان برسباي، حيث (عزَّ وجود القمح، وتزاحمت الناس على الأفران في طلب الخبز، وعزَّ وجوده من على الدكاكين... وقلت الألبان والأجبان من القاهرة، واستمر الحال متزايداً في كل يوم، وافتقر أكثر الأغنياء من الناس من أرباب العيال)[5]، وفي سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٧٠.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣/ ص٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص٢٠.

(٣) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٦٦.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣ / ص ٢٣٧.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٠٤.

اشتد أمر الغلاء...استمر بالديار المصرية في سائر الأقوات[1]، وفي سنة (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) فتك الطاعون في الناس فتكاً ذريعاً حتى قيل أنه من مات في هذا الطاعون في مدة ثلاثة أشهر زيادة على مائتي ألف إنسان، وقد وقع بها الغلاء والفناء والمصادرات للناس، إضافة إلى جور السلطان وأذى المماليك[2]، وفي سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) على الرغم من ارتفاع الطاعون والفتن فيها، إلا أنه (كان البرد فيها شديداً ووقع فيها عدة أيام أفرط فيه البرد، حتى جمدت المياه وصارت جليداً، وأحرقت غالب الأشجار، وقع فيه تشحيطة في سائر الغلال .. القمح ..، وكذلك الشعير والفول وجميع الحبوب، مشتعلة في أسعارها، ووقع الغلاء فيها أيضاً حتى وقع الغلاء في أصناف الخضر أيضاً وفي سائر البضائع من السكر والعسل والزيت والسمن وأسرج حتى الزيت الحار والزبيب والأرز وسائر الأصناف حتى البرسيم وغير ذلك)[3].

ـ أسباب الغلاء:

تعددت أسباب الغلاء، لكن أكثرها يرجع إلى نقصان منسوب النيل، فإنه لما كانت مصر المملوكية تعتمد على الزراعة في تأمين احتياجات البلاد من الطعام؛ لذا كان الاعتماد الكلي على مياه النيل، وقد وضعوا مقاييس لتحديد ارتفاع المياه وانخفاضها، وكان الاحتفال بالمقياس من الاحتفالات الاجتماعية الكبيرة في دولة المماليك، وربما حضرها العلماء والقضاة وختم فيها ختمات من القرآن، كما في سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) حيث (رسم للقضاة الأربعة بان يتوجهوا إلى المقياس ويبيتوا به،

(١) الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء العصر، ص ٣٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٣٠.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ٣٩١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٣١.

وفرقوا هناك ختمة ومدَّ أسمطة حافلة واجتمع هناك أعيان الناس من العلماء والفقهاء وغير ذلك من مشاهير الناس)[1].

وتأخر وفاء النيل يكون نذير غلاء وكوارث، فيبحث الناس عن أسباب ذلك ليزيلوه، وقد يعزى تأخر وفاء النيل لأسباب ظهور المعاصي فعندئذ يبادر السلطان بتتبع العصاة، كما كان في سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) حيث تأخر وفاء النيل (فضج الناس من ذلك، وأشيع بين الناس أن الروضة كثير منها الفسق والمعاصي، فعند ذلك رسم السلطان لحاجب الحجاب والولي بكبس الروضة فتوجهوا إلى هناك وكبسوا على الناس الذين بالخيام ولم يفحشوا كل الإفحاش في ذلك)[2].

بل ربما ينتشر الوباء مع انخفاض منسوب النيل، ويرتفع بارتفاعه، فقد ذكر ابن إياس أنه (يستمر الطعن..حتى تنزل النقطة ويزيد النيل)[3]. فانخفاض منسوب النيل، يتسبب في القحط، ومن ثم الغلاء العام في البلاد[4]، وقد ذكر المقريزي أن هذا السبب يؤدي إلى استمرار الغلاء لسنتين عادة حيث قال: (عادة بلاد مصر من الزمن القديم، إذا تأخر جري النيل بها أن يمتد الغلاء سنتين)[5].

ويصور ابن تغري بردي حال الغلاء عام (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) فيقول: (وفي هذه الأيام استمر النيل متماسكا عن الزيادة والناس بسببه في أمر مريج بل نقص فيها عدة أصابع وعظم البلاء وعم جميع الخلائق بحيث إنك لا ترى إلا

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٣١

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٣١

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٣٠٢.

(٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٣١٦.

(٥) المقريزي، ج إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٦٠.

باكيا أو مبتهلا من رئيس ووضيع واشترك الناس في هذه النازلة وعدم الخبز من الدكاكين وصار لا يؤخذ إلا من الأفران مع جهد بل لا يتمكن من ذلك إلا بالليل)[1]، وفي سنة (٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) بقوله: (وقل جريان الماء إلى الغاية وقاست الناس في هذه السنة من البلاء والشدائد والغلاء ..واتضع جانب أهل الديار المصرية رئيسها ووضيعها؛ بل أشرفت القاهرة على الخراب وبرح عنها خلائق من أهلها ...إلى البلاد الشامية، وورد عليها من أهل القرى ومن الأعراب أمثال من خرج منها، وكثرت الفقراء منهم بالقاهرة، حتى صاروا أفواجا في الطرقات، ومات منهم خلائق كثيرة من شدة القحط)[2].

وقد يكون الغلاء بسبب رجالات الدولة والفتن: وقد صرح المقريزي بأن ذلك سبب الكوارث عامة، إذ يقول في أول كتابه (إغاثة الأمة بكشف الغمة): (وبعد.. فإنه لما طال أمد هذا البلاء المبين، وحلَّ فيه بالخلق أنواع العذاب المهين، ظنَّ كثير من الناس أن هذه المحن لم يكن فيما مضى مثلها، ولا مرَّ في زمن شبهها، وتجاوزوا الحدّ فقالوا: لا يمكن زوالها، ولا يكون أبداً عن الخلق انفصالها، وذلك أنهم قوم لا يفقهون، وبأسباب الحوادث جاهلون، ومع العوائد واقفون، ومن روح الله آيسون. ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته، وعرفه من أوله إلى غايته؛ علم أن ما بالناس سوى سوء تدبير الحكام، وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد)[3]، ويضيف ابن حجر أن (أعظم الأسباب في هذا الغلاء (أي سنة

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور ، ج١/ ص٢٨٩.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور ، ج٢/ ص٣٢٧.

(٣) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ١٢.

٨١٨هـ/ ١٤١٥م): كثرة الفتن بنواحي مصر من العرب، وخروج العسكر إليهم مدة بعد مدة، وفي كل مرة يحصل الفساد في الزرع، ويقل الأمن في الطرقات، فلا يقع الجلب كما كان)[1]، ومثال ذلك ما وقع في عهد السلطان فرج سنة (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) حيث (نودي بتسعير الذهب بمائة درهم المثقال، وثمانين درهماً الأفرنتي، فكسد كساداً عظيماً، وكثر في الأيدي ورده الناس، وامتنعوا من أخذه في ثمن المبيعات، خوفاً من انحطاط سعره. وتغيب الصيارفة، فتوقفت أحوال الناس، حتى نودي بعد أيام بالسعر الذي ذكر، فسكنوا قليلاً)[2]، وفي عهد المؤيد شيخ في سنة (٨١٨/ ١٤١٥م) (اتفق أن بعض الناس ممن له أمر مطاع في غيبة السلطان أراد التجارة في القمح فصار يحجر على من يصل لشيء منه أن يبيعه لغيره فعز الجالب فرارا منه فوقع في البلد تعطيل في حوانيت الخبازين ووقع الفساد من ذلك قليلا قليلا بحيث لا ينتبه له إلى أن استحكم)[3]، ومثال ذلك ما وقع في عهد السلطان برسباي سنة (٨٣١هـ/ ١٤٢٧م) حيث احتكر السلطان زراعة قصب السكر، (وأن يبقى صنف مفردٌ للسلطان يزرعه في مزارعه بجميع الإقليم، ويعصره عسلاً وقنداً وسكراً، ويبيعه من غير أن يشاركه في ذلك أحد[4]، وكذلك ما وقع في سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) حيث (حرَّج السلطان على بيع الملح وحكره، فعزَّ وجود الملح ، ... وحرَّج على بيع الخشب السنط بسبب عمارة

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ٦٩

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٦ / ص ١١٤ .

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٧٠.

(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ / ص ٣١٥.

المراكب، وصاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصباً باليد، ويرسلونه إلى السويس لأجل عمارة المراكب التي هناك)[1].

ومنها بسبب آفة الدود أو القوارض: ومثاله أيضاً ما وقع في عهد السلطان المؤيد شيخ سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) حيث غلت الأسعار وكان سبب ذلك الغلاء بمصر (أن النيل نزل بسرعة فزرعوا في الحر على العادة في السنين الماضية فأفسدت الدودة البرسيم وتأخر المطر في الخريف والشتاء في الوجه البحري فلم تنجب الزروع وخرج السلطان إلى سرحة البحيرة فأتلف شيئا كثيرا)[2].

ومنها ما يكون بسبب عبث العربان: ومثال ذلك ما وقع في عهد السلطان شيخ المحمودي سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) حيث كثر (في أرض مصر من عبث العربان ونهبهم وتخريبهم وقطعهم الطرقات على المسافرين من التجار وغيرهم شيء، عظيم قبحه، شنيع وصفه)[3].

ومنها ما يكون بسبب الوباء: ويكون ذلك عادة بسبب موت أصناف من الناس، ممن يحتاج إليهم، كما حدث في طاعون سنة (٨١٦هـ/ ١٤١٣م)، حيث (تزايد أمر الوباء بمصر، ... وعزَّ الماء، حتى بلغت كل راوية خمسة عشر درهماً، بسبب موت الجمال من قلة العلف، وكان الغلاء موجوداً أيضاً)[4]، أو يكون بقلة بعض الأعشاب المستخدمة في الطب، حيث يزداد الإقبال على الأعشاب الطبية

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٣٥٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٢٠١.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص ٣٠٠.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص٦.

والأطباء، في زمان انتشار الأوبئة، كما حدث في وباء سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) حيث (عزَّ وجود البنفسج من القاهرة)[١]، وكأنه كان يستخدم كدواء[٢]. وكما كان في طاعون سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) حيث (ارتفع سعر سائر ما يحتاج إليه المرضى كالسكر وبزر الرجلة والكمثرى) [٣].

ويكون الغلاء أيضاً في نحو الثياب التي يكفن فيها، والتوابيت التي يحمل فيها، كما كان في طاعون سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) حيث ذكر أنه (في هذه الأيام ارتفعت أسعار الثياب التي يكفن بها الأموات، ..وكذا التوابيت)[٤]، وفي طاعون سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩١م) (لما كثر الموتى عزَّ وجود البعلبكي، وأضرَّ ذلك بحال الناس، وكفنوا الناس في الخام والملحم وغير ذلك[٥]، على أن القليل من المرضى هو الذي يعالج بالأدوية، بل بعضهم يموت موتاً سريعاً في ساعة وأقل منها[٦].

وقد يكون الغلاء بسبب هلاك الثروة الحيوانية، كما في سنة (٨٤١هـ/ ١٤٣٧م) حيث مات من البقر (ما لا يحصى عدده، وقد عز وجود اللحم البقري جداً)[٧]

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص٢٩.

(٢) يستخدم دهن البنفسج في الحميات. ابن سينا : القانون ، ج٣/ ص١٥٤.

(٣) المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك،ج٣/ ص٣٣٥؛ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج٤/ ص١٤٤.

(٤)المقريزي:السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص٣٣٥؛ ابن تغري بردي:النجوم الزاهرة،ج٤/ ص١٤٤.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص٢٨٧. والبعلبكي قماش قطني رفيع، والخام والملحم من الكتان المتوسط، انظر: المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج٢/ ص٤٧.

(٦)المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص ٣٣٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤/ ص١٤٤.

(٧) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٨١.

وربما يكون الوباء سبباً في الرخص لا الغلاء، كما في سنة (٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) حيث (انحط السعر في الغلال لكثرة من مات من الناس)[١].

أما حال البلاد عند وقوع الغلاء فالعادة أن يتدبر الناس أمرهم في حالات الغلاء، فينتقل الناس إذا وقع الغلاء إلى مأكولات عوضاً عن القمح، كالشعير، فإذا غلا انتقلوا لأكل الخضروات، فإذا قلت ندر طعام المواشي فقل اللحم، فلربما أكلت لحوم الميتات وما لا يحل وهكذا.

ومن الأمثلة لذلك ما وقع في عهد السلطان الناصر فرج سنة (٨٠٧هـ / ١٤٠٤م) حيث (غلت البزور، فبلغ القدح من بزر القرع، وبزر الجزر، وبزر البصل إلى مائة درهم ونيف.. ثم عز وجود الشعير.. لكثرة أكل الناس له، وبيع رطل البصل بدرهمين، والرطل الثوم بخمسة دراهم)[٢].

وفي عهد المؤيد شيخ في سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) تحايل الناس على الغلاء كما ذكر ابن حجر بأنه: (كان من اللطف الخفي في هذه المدة طلوع الزرع فاستغنى الناس لبهائمهم بالربيع ثم استغنوا لأنفسهم بأكل الفول الأخضر ثم فريك الشعير)[٣].

وتفيد رواية العيني أنهم كانوا يخبزون من الشعير والفول أيضاً، فيقول: (وكان إذ ذاك كثير من الناس يأكل خبز الشعير، وخبز الحمص والفول، ومنهم من كان لا يجد الخبز أصلاً عشرة أيام وأكثر حتى الأغنياء منهم)[٤].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص٣٥٩.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦ / ص٦١١٤.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٧٠.

(٤) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٦٦.

وأضاف المقريزي: أنه (بعدما عجز الكثير من الناس عن الخبز، اعتاضوا عن أكله بالفول الأخضر والقلقاس، ولولا لطف الله تعالى بعباده وكون البهائم مرتبطة على البرسيم الأخضر، لهلكوا من عند آخرهم جوعاً)[1].

ومع ذلك تزداد الأعداد الطالبة للخبز، وتزدحم حوانيت الفرانين، ازدحاماً شديداً، كما في عهد المؤيد شيخ في سنة (٨١٨/ ١٤١٥م) حيث (تزاحم الناس على الخبز في الأسواق إلى أن فقد من الحوانيت .. فتزاحم الناس على الأفران إلى أن أقفلت فصاروا يبيعونه من الأسطحة وآل الأمر إلى أن فقد القمح وبلغ الناس الجهد وانتشر الغلاء في قبلي مصر وبحريها)[2].

ولما استمر البلاء لسنة (٨١٩هـ/ ١٤١٢م) (عزَّ وجود اللحم بالقاهرة جداً)[3]، وفي عام (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) استمر بالديار المصرية في سائر الأقوات من القمح والشعير والفول والجبن الأبيض(وقس على هذا سائر المأكولات)[4].

وأثناء الوباء تختلف أحوال الناس، وتضررت مكاسبهم ويصور هذه الحالة ابن إياس فيقول: (وأما الناس فصاروا ثلاثة أثلاث: الغني افتقر والمكتسب ما يفي بنفقته والفقير فبعد أن كان يسأل في الرغيف صار يطلب لقمة أو لبابة)[5].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ / ص ١٨٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٧٠.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص٢٩.

(٤) الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء العصر، ص ٣٢.

(٥) الصيرفي: إنناء الهصر بأبناء العصر، ص ١٨٨.

وإذا استمر البلاء لعدة سنوات تزداد حالات البؤس والفقر والحاجة، لعدم الحبوب ثم عدم اللحوم، ومن ذلك الغلاء الذي وقع في أعوام (٨٥٣، ٨٥٤، ٨٥٥هـ/ ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١م) حيث تضعضع الناس بسببه، ويصور الحال ابن تغري بردي بقوله: (أهل هذا الشهر (رمضان ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) والناس في أمر مريج من عدم اللحوم والغلاء المفرط في سائر الأقوات الذي لم يعهد مثله في سالف الأعصار وكثرت الفقراء بالقاهرة إلى الغاية واتسعت الأراضي بالري واحتاجت الفلاحون إلى التقاوي لزراعة الأراضي وعزت الأبقار بالقاهرة وضواحيها[1].

وعند وقوع الغلاء يزداد الأمر سوءا بسبب هجمات الناس على الأفران، ونهبها من الجوع، مما يستدعي وجود حماية من قبل الدولة لها، كما حدث في عهد المؤيد شيخ في سنة (٨١٨/ ١٤١٥م) حيث (ندب نائب الغيبة إلى كل فرن طائفة من الترك لمنع من ينهب وقعد حاجب الحجاب بنفسه على بعض الأفران واجتهد في ذلك حتى رأى الخبز على الحوانيت[2]، وفي المقابل يستخدم الأمراء القوة لأخذ القمح، بل من الناس من كان يرضى ببيع قمحه بالسعر النازل خوفاً من أن ينتهبه المماليك، كما في غلاء سنة (٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) حيث رسم السلطان ببيعه بسعر نازل فرضي من عنده القمح (لكونه خاف من نهب المماليك إياها) [3]، وربما عجزت الدولة عن إطعام المساجين، فيتم معالجة ذلك بالعمل على إغلاقها،

---

(١) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور ، ج٢/ ص٣٣٤.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٧٠.

(٣) ابن تغري بردي: حوادث الدهور في مدى الأيام و الشهور ، ج٢/ ص٣٢٧.

وإخراج من كان بها من المساجين كما حدث في عام (٨٣٩هـ/ ١٤٣٥م)، ويعلق ابن إياس على ذلك بأنه (لم يحصل من هذه الفعلة للناس خير، وكثرت السراق بالقاهرة وامتنع من كان عليه الدين من إعطائه وضاعت حقوق الناس)[1].

وتتخذ الدولة طرقاً كثيرة لوقف الغلاء منها: (التحجير) على الشراء، محاولة لمنع الغلاء المتزايد، كما في عهد المؤيد شيخ في سنة (٨١٨/ ١٤١٥م) حيث (وقع التحجير على من يشتري زيادة على إردب وصار معظم الواصل يقسم على الطحانين ليطحنوه للفرانين ويحمل إلى حوانيت الخبازين)[2]، ومنها الإشراف المباشر على نقل الغلال من الوجه القبلي إلى الوجه البحري كما فعله السلطان المؤيد توسعةً على الناس[3].

❋ الوباء

انتشر الوباء في عهد الجراكسة في سنوات كثيرة، وربما تكرر في عهد السلطان الواحد، فقد تكرر الطاعون غير مرة في عهد كل من المؤيد وبرسباي وجقمق وقايتباي والغوري.

وتقاس شدة الوباء بعدد الوفيات، أو ما يسمى بـ(ورقة التعريف)، وقد ذكر ابن إياس ذلك في ضمن حديثه عن الوباء في عهد الغوري فقال: (وهذا ثالث فصل وقع في أيامه ، فإن الطعن وقع في أيامه من (٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م) ، وكان خفيفاً جداً وتناهت فيه ورقة التعريف إلى مائة إنسان ممن يرد التعريف، ثم

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص١٨٢.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٧٠.

(٣)ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣/ ص٨٥؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص٢٠.

اختفى الطعن وغاب ثمانية أشهر فظهر في سنة -(٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)- وتناهت فيه ورقة التعريف إلى أربعمائة وخمسة عشر إنساناً من يريد التعريف، ثم وقع الطاعون في أيامه في هذه السنة وهي سنه -(٩١٩هـ/ ١٥١٣م)-، وقد تناهت فيه ورقة التعريف إلى ثلاثمائة وخمسة وستين إنساناً ممن يريد التعريف)[1].

ومن أشهر الأوبئة التي توالت على دولة المماليك الجركسية: الوباء الذي وقع في سنة (٨١٩ هـ/ ١٤١٦م) في عهد الملك المؤيد شيخ، وكان كبيراً جداً حتى إن ابن حجر ذكر أنه بلغ عدد الأموات بالقاهرة في خلال شهرين: ألفاً في اليوم[2]، ويقدر ابن إياس من مات فيه بما يزيد عن عشرين ألف إنسان من محرم إلى ربيع الأول فقط[3].

ـ ومنها الوباء الذي وقع في سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) في عهد في عهد الملك المؤيد شيخ، وكان أعم من الكل واشتد، ومات من أهل القاهرة والفلاحين نحو النصف[4]، الوباء العظيم الذي وقع في عام (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) في عهد السلطان برسباي، ويقول ابن تغري بردي في وصف هذا الوباء: (وكان هذا الطاعون أعظم من هذه الطواعين كلها وأفظعها، ولم يقع بالقاهرة ومصر بعد الطاعون العام الذي كان سنة تسع وأربعين وسبعمائة نظير هذا الطاعون، وخالف هذا الطاعون الطواعين الماضية في أمور كثيرة، منها أنه وقع في الشتاء وارتفع في فصل الربيع، وكانت الطواعين تقع في فصل الربيع وترتفع في أوائل الصيف)[5]، ولكثرة

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٣٠٢.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٨٧.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص٢٦، ٢٧.

(٤) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٦٦.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٤/ ص٣٢٣.

ما كان فيه من الموتى؛ سمي هذا الوباء بعد ذلك بـ(الفصل الكبير)[1]، الوباء الذي وقع في عام (٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م) في عهد السلطان جقمق حيث (عمل في المماليك والأطفال والعبيد والجواري والغرباء عملاً ذريعاً ومات من الناس ما لا يحصى)[2]، والوباء الذي وقع في سنة (٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) في عهد السلطان إينال، حيث (تزايد أمر الطاعون جداً وتعطلت أحوال الناس، بسبب كثرة الموت في الناس، من كبير وصغير، وصارت الجنائز تمرخ الشوارع، والطرقات كالقطارات، وتصف النعوش في المصليات على بعضها وقت الصلاة، ... وقد ضبط عدة من مات فيه من المماليك الجلبان، فكانوا نحوا من ألف وخمسمائة مملوك من مماليك السلطان الجلبان فقط... وقد فني في هذا الطاعون من أهل مصر ما لا يحصى من كبار وصغار وقد أخلى دوراً كثيرة من سكانها)[3]، والوباء الذي وقع في سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م) في عهد السلطان قايتباي[4]، حيث (تزايد أمر الطاعون جداً، وعمل في الأطفال والمماليك والعبيد والجوار والغرباء عملاً ذريعاً حتى عظم الأمر في ذلك)[5]، والوباء الذي وقع في سنة (٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م) في عهد السلطان قانصوه، حيث فتك في المماليك والعبيد والأطفال والغرباء فتكاً

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ١٢٨.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٢٧٢.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص٣٦٠.

(٤) الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء العصر، ص ٥٨

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٢٨.

ذريعاً، حتى انتهى إلى ثمانمائة جنازة في كل يوم)[1]، والوباء الذي وقع في سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) في عهد السلطان قانصوه أيضاً حيث تزايد الطاعون (وفتك في الناس فتكاً ذريعاً... فلما تزايد أمر الموت فتحت مغاسل السبيل)[2]، ولما تزايد الطاعون، حصل للناس غاية الرعب فهرب قاضي القضاة الحنفي عبد البر بن الشحنة أولاده من أمر الطاعون فأخرجهم إلى نحو جبل الطور[3].

أما حال الناس أثناء الوباء، فقد عانوا في عهد المماليك من الأوبئة المتكررة، إلا أنه من رحمة الله أنه لم يكن يحدث الوباء في سنين متوالية، إلا أن السنة التي لا يكون فيها الطاعون لا تكاد تخلو من ثوران الفتن، حتى تعجب ابن إياس إذ ارتفعت معاً، فوصف سنة (٩١٧هـ/ ١٥١١م) بأنها: (كانت سنة مباركة لم يقع فيها الطاعون ولا فتن)[4]، ويصف المقريزي حال البلاد أثناء الوباء في عهد الظاهر برقوق سنة (٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م)، فيقول: (اتفق مع تزايد الأسعار كثرة ظلم الدولة، ووقوع الوباء، ووقوف أحوال الناس من قلة المكاسب)[5]، وكان الحال الأسوأ في طاعون سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) حيث يصف المقريزي حالة اجتماعية مرعبة فإنه (ومن كثرة الشغل بالمرضى والأموات تعطلت الأسواق من البيع والشراء وتزايد ازدحام الناس في طلب الأكفان والنعوش فحملت الأموات على

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص٣٨٩.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٣٠١.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٩٨.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٣١.

(٥) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٥/ ص٣٦٧.

الألواح وعلى الأقفاص، وعلى الأيدي. وعجز الناس عن دفن أمواتهم، فصاروا يبيتون، بها في المقابر والحفارون طول ليلتهم يحفرون. وعملوا حفائر كبيرة بلغ في الحفرة منها عدة أموات. وأكلت الكلاب كثيراً من أطراف الأموات. وصار الناس ليلهم كله يسعون في طلب الغسال والحمالين والأكفان، وترى النعوش في الشوارع كأنها قطارات جمال لكثرتها، متواصلة بعضها في إثر بعض)[1]، وقريب منه وصف ابن حجر حيث قال: (وعز وجود حمالي الموتى وغساليهم ومن يحفر القبور حتى عملوا حفائر كبارا كانوا يلقون فيها الأموات وسرق كثير من الأكفان ونبشت الكلاب كثيرا فأكلتهم من أطراف الأموات ووصل في الكثرة حتى شاهدت النعوش من مصلى المؤمنين إلى باب القرافة كأنها الرخم البيض تحوم على القتلى وأما الشوارع فكانت فيها كالقطارات يتلو بعضها بعضا)[2].

وعادة ما يتجه الناس إلى الله في أثناء الوباء رجاء أن يرفع عنهم، كما حدث في وباء عام (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) حيث (نودي بالقاهرة بصيام ثلاثة أيام وأن يتوبوا إلى الله تعالى من معاصيهم، وأن يخرجوا من المظالم)[3].

وفي نهاية المطاف لم يكن لدى الكثيرين إلا التسليم المطلق، كما كان في وباء وطاعون عام (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) في عهد السلطان برسباي حيث (استسلم كل أحد للموت، وطابت نفسه لذلك، وقد أوصى وتاب وأناب ورجع عن أشياء

---

(١)المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص٣٣٦؛ ونقله ابن تغري بردي في النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص ١٤٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص٤٣٧.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج/ ص ٤٣٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص ١٤٣.

كثيرة. وصار غالب الشباب في يد كل واحد منهم سبحة، وليس له دأب إلا التوجه للمصلاة للصلاة على الأموات وأداء الخمس والبكاء والتوجه إلى الله تعالى والتخشع)[1].

ومما اتخذه بعض السلاطين لمحاولة التخفيف على الناس، ما فعله السلطان قانصوره الغوري سنة (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) لما تزايد أمر الموت حيث رسم (بشيل الدكك التي على أبواب الحكام، ومنع النقباء قاطبة من على أبواب الأمراء وأرباب الوظائف، ووقع له أيضا مثل ذلك في سنة (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م) لما وقع فيها الطاعون فرسم بشيل الدكك ومنع النقباء قاطبة)[2].

أثر الكوارث الكونية والأوبئة على الحياة العلمية:

الحياة العلمية لا يمكن فصلها عن الحياة الاجتماعية، فالعلماء جزء من المجتمع يشعرون بآلامه، ويشاطرونه أحزانه، ويتأثرون بما يجري عليه من مصائب وأهوال، ويلجأ الناس دوماً للعلماء ليرشدوهم كما يلجأ الطفل لأبيه، كما قال ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك: (الناس في حجور علمائهم كالصبيان في حجور آبائهم)، وفي لفظ (الناس عند علمائهم كالصبيان في حجور أمهاتهم ما أمروهم به ائتمروا وما نهوهم عنه انتهوا)[3].

ومن هذا الباب أحببت أن أوضح كيف تأثرت الحياة العلمية في عهد الجراكسة بالكوارث والأوبئة التي داهمت العالم آنذاك.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص ١٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٣٠٢.

(٣) أبي نعيم: حلية الأولياء، ج٣ / ص٢٥٩.

- **تأثر العلماء بالغلاء:**

وقوع الغلاء يربك الأحوال العامة في البلاد، ومن جملتها الأوضاع العلمية، وقد ذكر المقريزي كيف أن قصور مد النيل يؤثر سلباً على طلب العلم بل وأمور الدين عامة بسبب الغلاء، فقال: (والناس قد غلب عليهم في عامة أرض مصر القلة والفاقة، وعدم المبالاة بأمور الدين، والشغل بطلب المعيشة، لقلة المكاسب)[1].

وعندها كان العلماء يقومون بواجبهم نحو الأمة من الحض على التكافل، ومخاطبة السلطان إذا انتقص ماء النيل وزاد الغلاء، وكان العلماء وطلبة العلم يتأثرون بذلك الغلاء كثيراً، ولاسيما وأن هذه الشريحة من المجتمع المصري عدت من الفقراء فكان منهم من يسكن الزوايا والأربطة، ومما عرف من هذه الكوارث ما كان في زمن السلطان الظاهر برقوق سنة (٧٩٨/ ١٣٩٥م) حيث قام السلطان بتفريق (الخبز على الفقراء والحبوس والزوايا، .. وأكثر السلطان في هذه السنة من الصدقات ثم انحط السعر ... وزاد النيل ... ثم فرج الله تعالى)[2].

وتكرر الغلاء سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) حيث حدث غلاء عظيم بديار مصر فلما اشتد الأمر، خرج قاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن البلقيني ليستسقي بالناس، .. ومضى شيخ الإسلام بالناس إلى سفح الجبل، قريباً من قبة النصر، فضجوا ودعوا الله سبحانه وتعالى وهم قيام

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٣/ ص٣١٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج١/ ص٥٠٨.

نحو ساعة، ثم انصرفوا، فكان من المشاهد العظيمة[1]، ثم نزل الطواشي زين الدين فارس بمبلغ كبير من الفضة المؤيدية، وطاف في الجوامع والمدارس، والخانكاهات، وفرق في أرباب وظائفها، الفقهاء والقراء والأئمة والمؤذنين والخطباء والقومة والمترددين، مبلغاً كبيراً [2]، ثم في سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) لما وقع الغلاء المفرط، بحيث قد عدم الخبز من الدكاكين، والدقيق من الطواحين والأفران، بحيث حصل للناس أمر عظيم، كما يذكر العيني، (ولذا أرسل الملك المؤيد إلى كل واحد من المدرسين في المدارس والمشايخ في الخوانق والزوايا مبلغ عشرة دنانير، وإردباً من القمح الطيب، ورتب في كل يوم عشرين ألف رغيف من الدقيق الأبيض يفرق على كل واحد من الفقراء والمساكين والغرباء القادمين القاطنين في الجوامع والمدارس والخوانق والزوايا رغيفين)[3].

كما كان للكوارث أثرها السلبي على الحركة العلمية، فقد أفنى الطاعون الكثير من العلماء ممن مات بسببه، فعلى سبيل المثال: مات في طاعون (٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) أحمد بن عبد الله العجيمي الحنبلي، شهاب الدين، أحد الفضلاء الأذكياء، مات بالطاعون عن ثلاثين سنة[4]، وفي طاعون سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م)، مات (في ابتدائه: عبد الرحمن بن بدر الدين العيني) [5]،

---

(١)المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ / ص١٨٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور ، ج/ ص ١٣٦ .

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ / ص١٨٢ .

(٣) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٦٦ .

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣/ ص٣٦١ .

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ، ج٢، ص ١٩ .

ومات في طاعون (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) في عهد الملك المؤيد شيخ [١] كل من: الشيخ حمد بن محمد بن محمد بن عبد الدائم الباهي أبو الفتح نجم الدين الحنبلي بضع وثلاثين سنة، والشيخ محمد قطب الدين الأبرقوهي أحد الفضلاء ممن قدم القاهرة فأقرأ الكتب العلمية في التفسير وغيره، وانتفع به الطلبة [٢]، والشيخ أحمد الشربيني السنباطي الأديب، وكان يحفظ الحاوي، ويوصف بالعلم والكرم [٣]، وكذا توفي الشيخ أحمد بن عبد الله المالقي الناسخ وكان حسن الخط [٤]، وتوفي فيه الإمام العلامة عز الدين محمد بن شرف الدين أبو بكر ابن قاضي القضاة عز الدين عبد العزيز ابن قاضي القضاة بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة، مطعوناً، وكان احترز على نفسه من الطاعون، فما شاء الله كان [٥]، وتوفي في طاعون سنة (٨١٩هـ/ ١٤١٦م) أيضاً يوسف بن عبد الله المارديني الحنفي وكان قد قدم القاهرة ووعظ الناس بالجامع الأزهر مات في الطاعون وقد جاوز الخمسين [٦]، ومات في طاعون سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م) زمن السلطان المؤيد شيخ المحمودي أيضاً: الشيخ محمد بن محمد بن علي بن يوسف الزرندي الشافعي بهاء الدين بن محب الدين ولي قضاء المدينة ثم قدم القاهرة ومات بالطاعون فيها [٧]، ومات فيه

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٨٧؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص ٢٠.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص١٢١.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص١٠٦.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٤٢.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص ٦٠.

(٦) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص١٢٣.

(٧) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٢٠٩.

أيضاً: (فضل الله بن عبدالله بن عبد الرزاق بن إبراهيم بن مكانس المجد ابن الفخر المصرى القبطى الحنفي المعروف بابن مكانس، تعاني الأدبيات ومهر. مات بالطاعون في ربيع الآخر سنة (٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)(١)، ومات في طاعون سنة (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) زمن السلطان برسباي الكثير من العلماء، والأعيان(٢)، منهم: الشيخ أحمد بن محمود بن محمد بن عبد الله القيسري صدر الدين المعروف بابن العجمي(٣)، وتوفي كذلك بالطاعون السيد الشريف شهاب الدين أحمد بن علاء الدين علي بن إبراهيم بن عدنان الحسيني الدمشقي، كاتب السر الشريف بالديار المصرية(٤)، وتولى أخوه الشريف عماد الدين أبو بكر كتابة السر من بعده، ثم مات بالطاعون أيضاً، ولم يبلغ الأربعين سنة(٥)، وتوفي فيه أيضاً الشيخ العلامة العالم نظام الدين يحيى ابن سيف الدين يوسف بن محمد السيرامي الحنفي شيخ الشيوخ بالمدرسة الظاهرية البرقوقية، كانت له مشاركة في الكثير من العلوم، تولى عدة تداريس إضافة إلى الإفتاء(٦)، وتوفي في طاعون سنة (٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م) الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي، شاعر الوقت أبو الطيب الأنصاري،وكان آية من آيات الله في الأدب(٧)، كما توفي في طاعون سنة (٨٨١هـ/ ١٤٧٦م) القاضي

---

(١) العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، ص ٢٦٦؛ الشوكاني: البدر الطالع ،ج٢ / ص٢١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص١٧٦.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج٣/ ص٤٤٢.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص٣٣٠.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص٣٣٠.

(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٤/ ص٣٢٨.

(٧) الصيرفي: إنباء الهصر بأبناء العصر، ص ٣٠٠.

عبد الكريم بن جلود، وهو عبد الكريم بن أبي الفضل محمد، وقد ولي كتابة المماليك [1]، وفي سنة (٩١٩/ ١٥١٣م) مات بالطاعون (قاضي القضاة الحنبلي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الشيشني الحنبلي، وكان علامة في مذهبه من أهل العلم والفضل)[2].

وهرب من الطاعون بعض العلماء، وهذا أمر شرعي نبه عليه الشارع ففي طاعون عام (٩١٩هـ/ ١٥١٣م) (هرب قاضي القضاة الحنفي عبد البر بن الشحنة أولاده من أمر الطاعون فأخرجهم إلى نحو جبل الطور، وله بذلك عادة بأنه يُهرِّب أولاده الصغار إلى جبل الطور في أيام الفصول ...وينجو بعد مضي الفصل، وهم سالمون، لا يفقد منهم أحداً حتى ولا من عياله، ويقال إن تلك الجهات لا يدخلها الطاعون)[3]. كذلك مات من طلاب العلم الكثير فإذا علمنا أن أكثر طلاب العلم كانوا من الفقراء، وأن الطاعون أكثر ما يصيب الفقراء ندرك أنهم كانوا أقرب للفناء من غيرهم[4]. فقد كثر الموت جداً في (خانقاه سرياقوس حتى بلغت العدة في كل يوم نحو المائتين)[5].

وعلى الرغم من المساوئ العظيمة التي تتركها الأوبئة عامة والطاعون خاصة في حياة الناس، فيهلك المشايخ والعلماء والأطباء وطلبة العلم، وأهل

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور، ج٣/ ص١٢٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٩٩.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٢٩٨.

(٤) ابن حبيب: تذكرة النبيه، ج٣، ص١١١.

(٥) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٤ / ١٤٤؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص١٢٩.

التجارات والصناعات والزراع، إلا أنه إذا لم يستفحل أمرها وتهلك الحرث والنسل فإنها كانت عبرة عظة للناس على الصبر وترك المنكرات والتقرب إلى الله بالطاعات، ففي عام (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م) في عهد السلطان برسباي (لما اشتد الأمر بالطاعون أمر السلطان باستفتاء العلماء عن نازلة الطاعون هل يشرع الاجتماع للدعاء برفعه أو يشرع القنوت له في الصلوات وما الذي وقع للعلماء في الزمن الماضي فكتبوا الأجوبة وتشعبت آراؤهم وتحصل منها على أنه يشرع الدعاء والتضرع والتوبة وتقدم قبل ذلك التوبة والخروج من المظالم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنهم لا يستحضرون عن أحد من السلف أنهم اجتمعوا لذلك إلا أن الاجتماع أرجى للإجابة، .. فأجاب: أنا أتابع الصحابة والسلف الصالح ولا أخرج بل كل أحد يبتهل إلى الله تعالى في سره !، ثم سألهم عن المراد بالمظالم التي كتبوا في الفتاوى أنهم يخرجون منها فذكروا أشياء مجملة فقال : مهما تجدد بعد الظاهر برقوق أنا أزيله.. وأمر السلطان القضاة والأمراء بأن يأمروا الناس بالتوبة والإقلاع عن المعاصي والإكثار من الطاعات ونحو ذلك)[1]

كما أن ذلك انعكس على سهولة اقتناء الكتب والتي أضحت تباع رخيصة لحاجة الناس إلى الطعام، فقد ذُكِر أنه في طاعون (٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م) صارت كتب العلم ينادى عليها بالأحمال فيباع الحمل منها بأرخص الأثمان[2].

قراءة صحيح البخاري بين يدي الدعاء برفع الكوارث.

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج ٣/ ص٤٣٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢١٠.

ومن العادات المنتشرة في العهد المملوكي عند نزول الكوارث: قراءة صحيح البخاري كعمل صالح يقدم بين يدي الدعاء برفع الغمة، ففي عام (٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م) تزايد الموت بالأمراض الحادة والطاعون، .. فندب القاضي برهان الدين بن المليق جماعة لقراءة البخاري بالجامع الأزهر ودعوا الله عقب ختمه برفع الوباء ثم اجتمعوا يوم الجمعة بالجامع الحاكمي ففعلوا مثل ذلك ثم اجتمعوا أكثر من عددهم الأول فاستغاثوا بالجامع الأزهر وكان وقتا عظيما فارتفع الوباء في ثاني جمادى الآخرة بعد أن بلغ في كل يوم ثلاثمائة نفس[1].

وعظ العلماء الناس بشأن الطاعون:

كان من تأثير الكوارث والأوبئة على الأوضاع العلمية أنه كثر تحذير العلماء للناس من المعاصي والفواحش والمجاهرة بها.

وقد ذكر ابن إياس أنه (كان في مدة انقطاع الطاعون عن مصر كثر بها الزنا واللواط وشرب الخمر وأكل الربا وجور المماليك في حق الناس)[2].

وقد ذكر ابن حجر: في ما ورد أن الطاعون (جعله الله رحمة للمؤمنين) قال ما ملخصه: (أي من هذه الأمة ، وفي حديث أبي عسيب عند أحمد ((فالطاعون شهادة للمؤمنين ورحمة لهم ، ورجس على الكافر))، وهو صريح في أن يكون الطاعون رحمة إنما هو خاص بالمسلمين ، وإذا وقع بالكفار فإنما هو عذاب عليهم يعجل لهم في الدنيا قبل الآخرة ، وأما العاصي من هذه الأمة: فهل يكون الطاعون له شهادة أو يختص بالمؤمن الكامل ؟ فيه نظر . والمراد بالعاصي من يكون مرتكب

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج١ / ص١٣١.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص٢٨٧.

الكبيرة ويهجم عليه ذلك وهو مصر ، فإنه يحتمل أن يقال لا يكرم بدرجة الشهادة لشؤم ما كان متلبسا به لقوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴿٢١﴾ ﴾الجاثية: ٢١ وأيضا فقد وقع في حديث ابن عمر ما يدل على أن الطاعون ينشأ عن ظهور الفاحشة ، ... ((لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم)) الحديث، ...، وله شاهد عن ابن عباس في "الموطأ" بلفظ : ((ولا فشا الزنا في قوم إلا كثر فيهم الموت)) الحديث ، ... وأخرجه الحاكم ...بلفظ: ((إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله ((والطبراني ...بلفظ: ((ما من قوم يظهر فيهم الزنا إلا أخذوا بالفناء))...ولأحمد من حديث عائشة مرفوعا : ((لا تزال أمتي بخير ما لم يفش فيهم ولد الزنا ، فإذا فشا فيهم ولد الزنا أوشك أن يعمهم الله بعقاب))... ففي هذه الأحاديث أن الطاعون قد يقع عقوبة بسبب المعصية)[1].

(١) ابن حجر: فتح الباري ، ج١٦ / ص٢٥٧.

المبحث الثاني

طبقة المماليك الجلبان وأثرهم على الحياة العلمية

تنوعت الطبقات الاجتماعية في مصر نظراً لتنوع الطوائف التي سكنتها، وكانت طبقة المماليك الطبقة الأولى في سلم التدرج الاجتماعي، فقد ذكرهم المقريزي في تقسيمه للطبقات الاجتماعية في مصر إذ يقول: (اعلم حرسك الله بعينيه التي لا تنام، أن الناس بإقليم مصر في الجملة على سبعة أقسام، القسم الأول: أهل الدولة، ...)[1]، وأهل الدولة كانوا الخليفة والسلطان وسائر المماليك.

وقد عمل المماليك على تصحيح وضعهم الديني والسياسي بعد الغزو المغولي على الدولة الإسلامية، فرضخوا لمطلب العز بن عبد السلام ببيعهم حتى يصح لهم البيع والشراء وغير ذلك مما يتوقف على الحرية[2]، ومروراً بتنصيب الظاهر بيبرس

---

(١) المقريزي: إغاثة الأمة، ص٧٢ـ ٧٣.

(٢) مسألة بيع الأمراء، تتلخص في أنه عندما وصل العز عبد العزيز بن عبد السلام إلى مصر سنة (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م) إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب، كان للملك عدة مماليك أتراك اشتراهم من مال الدولة ودربهم على الفروسية ثم جعلهم أمراء وقادة الجيش، ورأى العز أن هؤلاء الأمراء لا يزالون في حكم الرق ولم يثبت عتقهم، لذلك لم يصحح لهم بيعاً ولا شراءً، وتعطلت مصالحهم وكان من جملتهم نائب السلطان، فشكوه إلى السلطان فاستدعاه وأغلظ القول له، فحمل العز متاعه ليخرج من القاهرة فلحقه الناس مما دفع بالناصح ليقول للسلطان: (أدرك ملكك وإلا ذهب بذهاب الشيخ)،وهنا ركب السلطان بنفسه وطلب من العز العودة، فوافق على شرط بيع الأمراء، وأعلن المزاد العام وبيعت الأمراء ودفع السلطان نجم الدين الثمن من ماله الخاص ليتملكهم ثم أعتقهم واحتفظ بهم قادة وقبض العز الثمن ووضعه في بيت المال ومن هنا عرف الشيخ العز بأنه بائع الملوك، . السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ج ٨/ ص٢١٦؛ الزحيلي: العز بن عبد السلام ، ص ١٨٢.

الخليفة ليتولى من خلاله الحكم بشرعية يقبلها الرعية، كما تقدمت الإشارة إليه[1]، ثم ما تمخض عن هذا الوضع من شعور لدى المماليك بأنهم ملوك الأرض، وترفع الكثير منهم عن الانصهار في المجتمع المصري، حتى إنهم كانوا يتحدثون بالتركية في اجتماعاتهم ومجتمعاتهم، ولم يتقن العربية إلا القليل منهم؛ بل إن بعضهم لم يفقه منها شيئاً[2].

وقد دخل المماليك إلى مصر صغاراً، وتربوا تربية خاصة، بحيث لا يعرف أحدهم أباً إلا السلطان، ولا يعرف ديناً إلا الإسلام، وكانوا يعيشون في الثكنات العسكرية التي كانت تدعى بالطباق، ولا يسكنون فيه إلا بعد أن يتم الاطمئنان على سلامتهم البدنية من قبل الأطباء[3]، وكان المملوك إذا اشتري صغيراً تعلم ما يحتاجه من القرآن الكريم، وأركان الإسلام، وأداء الصلاة، وتعلم الأذكار، وقد عهد في تربيتهم إلى الطواشية[4]، الذين هم بدورهم ينحدرون من المماليك، فضلاً عن بعض الفقهاء، وقد جهدوا كي يتخرج طلابهم منضبطين طائعين لرؤسائهم، فإذا شب الواحد من المماليك، وصار إلى سن البلوغ، أخذ في تعليمه فنون الحرب والفروسية، مع المتابعة والتوجيه والمحاسبة والعقوبة على الأخطاء والهفوات، ثم إذا أتقن فنون القتال وتهذبت أخلاقه، انتقل إلى الخدمة وتدرج في مراتبها حتى

---

(١) راجع مبحث (الفتن) في الفصل الثاني من هذه الرسالة.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٩/ ص٥١-٥٢؛ مفيد الزيدي: العصر المملوكي، ص ٣٠١.

(٣) سعيد عاشور: المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٤.

(٤) الطواشي في لغة أهل المشرق هو الخصي، ويسمونه الخادم أيضا. ابن خلدون : المبتدأ والخبر، ج٥ / ص٣٦٢.

يصير من الأمراء[1]. ومنعوا في بداية العهد المملوكي من التزاوج من بنات البلاد والإختلاط بالسكان، فانعكس الأمر سلبا على الإنصهار الإجتماعي. وشعر المماليك باستمرار بأنفة واستعلاء بما حظوا به على مختلف الأصعدة المادية والإجتماعية والحظوة عند أمرائهم وعند السلاطين أيضا[2].

كما أن هذه التركيبة المملوكية جعلت جميع المماليك يشعرون أنهم عبيد أرقاء في الأصل، وأنهم إنما أعتقوا لما امتازوا به من فروسية وقدرة وكفاءة، وليس لأحدهم سوى ذلك من سابقةٍ أو فضل، لذا كان الحسد بينهم كبيراً، وما أن يتسلم أحدهم السلطنة حتى يحسده الآخرون، واقتضى ذلك أن يحرص كل أمير على شراء عدد من المماليك خاصين به ليتقوى بهم، ويكونوا مطية تنفيذ أغراضه أو درعاً يتقي به خصومه[3]. ولما قامت دولة الجراكسة؛ وكثر شراء المماليك بعد سن البلوغ، وهم المماليك الجلبان (ويقال لهم أيضاً الأجلاب)؛ تعقد الأمر أكثر من جهة أن الولاء عندهم لأستاذهم الذي اشتراهم وعلمهم لم يكن كبيراً، وقد يرجع السبب في ذلك أن جلهم كان قد اشتري في سن البلوغ، مما جعلهم لا يتشربون روح النظام والولاء لأستاذهم في طفولتهم[4].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار، ج٢/ ص٤١١، ٤١٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ج٤/ ص ٦٠.

(٢) مفيد الزيدي: العصر المملوكي، ص ٣٠٥؛ مجلة التاريخ العربي، ج١ / ص٨٦٧٩.

(٣) قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ١٥٤، ١٥٥؛ محمود الحويري: مصر في العصور الوسطى، ص٢٣٧.

(٤) محمد سهيل طقوش: تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، ص ٤٥٥ ؛ محمود الحريري: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٦٦.

ولقد عانى أهل مصر من هؤلاء المماليك الجلبان كثيراً، بل قد عانى السلاطين منهم أيضاً، ولهذه المعاناة مظاهر كثيرة، منها: تسلطهم وظلمهم لأهل مصر، خاصة حين استفحل أمرهم في سلطنة الناصر فرج نتيجة للمحن والشدائد التي ألمت بالبلاد منذ سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م)[١].

وكان المماليك الجلبان ينعم أحدهم بتولي أستاذه السلطنة في الوقت الذي يشقى آخرون بذلك، فقد كان تغير السلطان مؤذناً بتغير أرباب الوظائف، بل وتغير الدولة كلها[٢]، فهي ـ كما عبر عن ذلك ابن تغري بردي ـ (دولة أقيمت بعد ذهاب دولة)؛ حيث ذكر أنه في عهد السلطان الظاهر جقمق سنة (٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م): (تغير جميع من كان من أرباب الوظائف الذين كانوا في الدولة الأشرفية من الخاصكية وغيرهم، واستقر جماعة كبيرة رؤوس نوب، ... ، ونالت السعادة جميع المماليك المؤيدية الأصاغر، بحيث إن بعضهم كان فقيراً يعيش بالتكدي؛ فأخذ إقطاعاً هائلاً واستقر بواباً دفعة واحدة)[٣].

ولعل من أسباب قوة الجلبان في المجتمع المصري ، هو ضعف السلاطين، وغياب هيمنة القضاء، فشرع الجبلان في قضاء حوائج من يأتي إليهم في مقابل مادي يدفع لهم، وترك الناس اللجوء إلى الحكام، فضعفت شوكتهم[٤].

وقد قاسى أهل البلاد من فساد هؤلاء المماليك الكثير، والذي كان في صور

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ، ج٣/ ص٣٨٦؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٣/ ص١١٠.

(٢) مفيد الزيدي: العصر المملوكي، ص ٣٠٢.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج ٤/ ص٢٤٣.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص٤٠٠.

شتى منها: المصادرة: وهي مصادرة أموال الناس من دون حجة شرعية، وقد بررها السلاطين حيناً من دون سبب وجيه؛ كحاجة السلطان إلى المال فيرسل قاصدا من عنده ويحدد قيمة المبلغ الذي تجب مصادرته.

ومن العجب أن المصادرة ربما كانت تتبعها إعادة بيع الأموال المصادرة للناس كما في حوادث سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) في عهد سلطنة شيخ المحمودي، فقد صادر فخر الدين الأستادار[1] الأموال من الناس، منها المواشي وغيرها، ثم راح يبيعها في الأسواق، بأعلى من سعرها، فكان يبيع الجاموس الواحد باثني عشر ألف درهم، وهو لا يستحق سوى الألفي درهم، فجبى على اسم الجاموس مالاً كثيراً، وكانت جميع هذه المصادرات تنفق على السلطان وأعوانه، مما أدى إلى اختلال في الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في إقليم مصر[2].

وكان التلاعب بالعملة وسعر الصرف أمراً معروفاً عند المصادرة أو ما يمكن أن يسمى بالنهب المقنن، ففي سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) ألزم وزير المؤيد شيخ الأستادار فخر الدين الصيارفة ألا تأخذ الدرهم المؤيدي إلا من حساب سبعة دراهم ونصف، وهو محسوب على الناس بثمانية دراهم، وألزمهم أيضاً ألا

(١) الأستادار: من الوظائف المملوكية الكبيرة، والأصل أنه يدير أمور البيوت السلطانية كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، ثم أنيط به في عهد الظاهر برقوق تدبير أموال المملكة، فتصرّف في جميع ما يرجع إلى أمر الوزير وناظر الخاص، وصارا يتردّدان إلى بابه ويمضيان الأمور برأيه، فجلت من حينئذ رتبة الأستادار، بحيث أنه صار في معنى ما كان فيه الوزير في أيام الخلفاء. المواعظ والاعتبار، ج٢ / ص ٤٢٠.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص٤٣٣.

يأخذوا الفلوس إلا من حساب خمسمائة وخمسين درهماً القنطار، وهو إلى الناس بستمائة درهم، فكان هو وأعوانه يأخذون هذه الفائدة من الصيارفة، ويصرفونها على صالحهم الخاص على حساب ظلم الناس وقهرهم[1].

* الإتاوات والمشاهرة: وهي كناية عن مال يفرض مرة أو في كل شهر على الأسواق أو الناس لصالح السلطان والمماليك، مما كان يؤدى غالباً إلا أن يرفع التجار أسعار سلعهم كي يتمكنوا من تسديد المتوجب عليهم، بل ربما استغلوا الأمر لزيادة الأسعار أكثر مما تقتضيه المشاهرة، وبالتالي وقع الناس ضحية للتجار والحكام معا[2].

ومن أسباب فرض الإتاوات، تجهيز العساكر والجيوش، وهذا محمود في محله، إلا أنه ربما كان مقارناً لأنواع من الظلم، فيزيد الذم على من فعله، كما في سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) حيث أذن للأمير يلبغا السالمي أن يجهز عسكراً إلى دمشق لقتال تمرلنك، فشرع في تحصيل الأموال، ففرض الضرائب على الأمراء والأعيان والتجار بل وسائر الناس، فتضرر الكثيرون من ذلك، وكثر دعاء الناس عليه، وانطلقت الألسنة بذمه، وتمالأت القلوب على بغضه[3]. كما كانت هذه الضرائب سبباً مباشراً لكثير من التجار في رفع أسعار السلع بحجة تغطية ما عليهم من هذه الضرائب، فقد بلغت هذه الضرائب في الشهر الواحد زمن السلطان قايتباي ألف

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص٤٣٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٢/ ص ٣٣٥؛ محمد أحمد محمد: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٩٠.

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٦/ ص٥٥.

دينار، ولما تظلم منها التجار ألغاها السلطان[1]، لكنها أعيدت زمن السلطان الغوري، وزادت حصيلتها حتى بلغت٢٧٠٠ دينار[2].

وربما فرض أحد المماليك على الناس الإتاوات العظيمة، وترك الأمر لأعوانه ليأخذوا مثلها، كما في حوادث سنة (٨٢٠هـ/ ١٤١٧م) في عهد سلطنة شيخ المحمودي، حيث كان الأستادار فخر الدين مستبداً بالأمر ظالما للناس، فرض على جميع القرى المجاورة للقاهرة الفرائض الباهظة[3].

❋ النهب: ويكون لأي سبب، ولا يلقى المنكوبون إنصافا في أكثر الأحيان، وقد تكررت حوادث النهب كثيراً من المماليك الجلبان وطالت كل شرائح المجتمع في كثير من الأوقات[4]. ويحدثنا ابن تغري بردي عن إحدى حوادث النهب من المماليك الأجلاب، وكيف كانت سطوتهم، وذلك في حوادث سنة (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م) عندما تم عزل وتولية من لا يرغبون فيه، فيقول: (فلما سمعت المماليك الأجلاب بهذا العزل والولاية نزلوا ...إلى بيت الأستادار لينهبوه، فمنعهم مماليك زين الدين، فلما عجزوا عن نهب بيت زين الدين نهبوا بيوت الناس ...، فأخذوا ما لا يدخل تحت حصر كثرة، ...فكانت هذه الحادثة من أقبح الحوادث التي لم نسمع بأقبح منها في سالف إلاعصار، ومن ثم دخل في قلوب الناس من المماليك الأجلاب من الرجيف والرعب أمر لا مزيد عليه،

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٩٣.

(٢) إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، ص ٢٧٣، ٢٧٤

(٣) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٦/ ص٤٣٣.

(٤) مفيد الزيدي: العصر المملوكي، ص ٣٠٥.

لعلمهم أنه مهما فعلوا جاز لهم، وأن السلطان لا يقوم بناصر من قهر منهم)[1].

ولم يقتصر هذا النهب والبلاء من الجلبان على آحاد الرعية، بل ربما تعداه إلى بعض كبار موظفي الدولة[2]، ففي حوادث سنة (٨٦١هـ/ ١٤٥٦م) أمسك المماليك بنوكار الزردكاش وهددوه بالضرب، وطلبوا منه ما كان قد وعدهم به من عطايا سلطانية، فحلف لهم أنه سيدفع لهم ذلك في أول الشهر، فتركوه ومضوا، فلقوا الشيخ علياً الخراساني الطويل محتسب القاهرة، وهو داخل إلى السلطان، فاستقبلوه بالضرب المبرح المتلف، وأخذوا عمامته من على رأسه[3].

وعند تعدى المماليك الجلبان على كبار رجال الدولة، لنهب بيوتهم، فربما لا يجدون فيها شيئاً؛ فيقومون بنهب البيوت المجاورة[4]، كما حدث في سنة (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م) حيث نزلت المماليك من القلعة، وقصدوا بيت الوزير فرج بن النحال لينهبوا ما فيه؛ وكأنه أحس بذلك فهرب وأخذ معه ما

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤/ ص ٣٩٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور،ج ٣/ ص ٨٢؛ قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٧٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص٣٩٢.

(٤) قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٧٤.

غلى ثمنه وخف حمله، فلما دخلوا البيت لم يجدوا فيه ما يأخذونه، فمالوا على البيوت المجاورة لبيت الوزير وقاموا بنهبها كاملةً [1].

بل قد تعدى بلاء هؤلاء الجلبان أحياناً إلى السلطان نفسه[2]، فقد ذكر ابن إياس أن السلطان يلباي(٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م): (قصرت كلمته، وحار في رضى المماليك الخشقدمية، وصار في يدهم مثل اللولب يديرونه حيث شاؤوا)[3].

وامتد فساد هؤلاء الجلبان إلى أن أضرموا النيران في القاهرة لينشغل بها الناس فيقوموا بأعمال النهب والسلب في غفلة من الناس، وكان أعظم هذه الحرائق ما كان في سنة (٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م) حيث كان حريق عظيم أتى على غالب أملاك ودور وحوانيت القاهرة، وعجزت الدولة في إخماده، ومات فيه الكثير من الناس، وافتقر بسببه الكثير خاصة التجار، من كثرة ما احترق من حوانيت وبيوت، وقد اختلف في سببه، ثم تبين أن ذلك من فعل المماليك الجلبان، لينهبوا ما في بيوت الناس عندما تحرق[4].

وربما اتخذ الجلبان بعض المواسم للنهب، مثل ما كان يكون في احتفالات المحمل، حيث كان من عادات المماليك أن ينادى بزينة القاهرة لدوران المحمل، فكان الجلبان يقومون بطلب الأموال وهم يتزيون بزي مزعج، ويكون هذا من ضمن مراسم الاحتفال، ومن شدة ما كانوا يلحقون به من ضرر للقضاة والمشايخ

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص ٣٩١.

(٢) قاسم عبده قاسم: في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص٢٧٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٤٦٤.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص٤٠٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٣٤٧.

طالبوا بإلغاء مراسيم المحمل وقالوا: (هذه بدعة سيئة يجب إبطالها)[1]، ففي عهد السلطان إينال في سنة (٨٦٢هـ/ ١٤٥٧م) نهى المماليك الأجلاب عن أن يعمل أحد منهم عفاريت المحمل، لما كانوا يسببوه من ضرر للناس فكانوا يأخذون الأموال من الناس غصباً، ومن لم يعطهم ضرب وأوذي، حتى صار الرجل إذا رأى واحداً من هؤلاء من المماليك الجلبان أسرع في مشيه بالدخول في زقاق من الأزقة، أو بيت من البيوت، فأضر ذلك بحال الناس كثيراً، وتركوا فرجة المحمل، بل صاروا يترقبون فراغ المحمل، ليستريحوا من تصرفات المماليك المؤذية[2].

ويكاد يكون المال هو المحرك الأول للمماليك الجلبان، بحيث لو شعروا بأنه لا يكفي نهمهم، فإنهم يتجهون إلى العصيان، والانقلاب على السلطان[3].

وصارت رواتب المماليك (الجوامك) مما يرهق ميزانية الدولة، فصار السلطان يحتال لجمعها، تارة بالمصادرة، وتارة بالتحايل على سعر العملة كما في سنة (٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م)، في عهد الناصر فرج ، فقد اضطرت الدولة إلى التلاعب بقيمة الدرهم وذلك لكثرة ما عليهم من جوامك المماليك، فأكثروا من ضرب الفلوس،، وبذل الكثير منها في الذهب لقلة الفضة، فصار الدرهم بعد أن كان قيراطاً وبعض قيراط من الدينار، لا يساوي كل خمسة منه أو ستة قيراطا، واستمرت نفقة المماليك على ذلك وهم لا يشعرون بحقيقة الحال، ونتيجة لغلاء

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٢٤.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص٤٠٥.

(٣) مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي: ص ١٦٠.

سعر الذهب صار يباع كل شيء بأضعاف ثمنه، وقد أدى ذلك إلى الضرر الكبير في أحوال الناس وخراب ديارهم[1].

ويحدثنا ابن تغري بردي عن مدى ظلم المماليك الأجلاب حتى إنه ليقرن ذلك بالكوارث العظام، فيذكر أنه في حوادث سنة (٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) تخوف الناس من مجيء الطاعون إلى القاهرة، إضافة إلى ما كانوا يعانونه من جهد البلاء من ظلم المماليك الأجلاب، وغلو الأسعار، وعدم الأمن في الشوارع، لدرجة أن الشخص كان لا يقدر على الخروج من داره بعد أذان عشاء الآخرة، حتى ولا لصلاة الجماعة، ولو كان جار المسجد[2].

ويعبر ابن إياس عن ظلمهم للناس بأنه كان في غاية الإفحاش إذ يصور لنا إحدى ثوراتهم الظالمة على الناس عام (٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م) فيقول: (ثار جماعة من المماليك الجلبان على الناس في جامع عمرو ، وعبثوا على النساء، وخطفوا العمائم وكان ذلك في رمضان، وأفحشوا في ذلك غاية الإفحاش)[3].

وربما قرن ابن تغري بردي السياسات الاقتصادية المؤلمة ببلاء الجلبان، فقد ذكر في سنة (٨٦١هـ/ ١٤٥٦م) أنه نودي على الذهب بأن يكون صرف الدينار بثلاثمائة درهم نقرة، وكان بلغ صرفه قبل ذلك إلى ثلاثمائة وسبعين نقرة؛ مما أضر ذلك بحال الناس زيادة على ما هم فيه من تسلط المماليك الأجلاب عليهم[4].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٦/ ص١٧٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص ٤١٠.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٣٥٤.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ٤ / ص ٣٩٢.

وكان بعض السلاطين حازماً مع هذه الأفعال، إلا أنه حزم وقتي، لا يلبث أن يزول، ففي سنة (٨٣٢ هـ/ ١٤٢٨م) في عهد السلطان برسباي تأخر صرف مقررات اللحوم على المماليك الجلبان، فهجموا على بيت الوزير، وكسروا أبوابه ونهبوا ما فيه، وأرادوا إحراق الدار، انتشر الرعب والخوف بين الناس، وأمر السلطان بإغلاق أبواب المدينة، وقبض على بعض المماليك مثيري الشغب، فضربوا بحضرة السلطان، وسكنت الفتنة وعفا السلطان عن باقي المماليك[1].

وقد عظم بلاء المماليك الجلبان في عهد الأشرف برسباي عام (٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م)، ويصور هذا المقريزي بقوله: (اشتد فساد المماليك الجلب، وكثر عيثهم وعبثهم بالناس، وأخذهم ما قدروا عليه من مال وحريم...، وعظم الضرر بهم، حتى أن السلطان منع الناس من عمل الأعراس والولائم، وتهدد من عمل ذلك، خوفاً من المماليك أن تهجم على النساء وهن مجتمعات، وتبين قصور اليد عن ردعهم، ولا قوة إلا بالله)[2].

وأما ابن إياس فيذكر في حوادث هذه السنة أنه في دوران المحمل حصل من المماليك غاية الفساد، إذ قاموا بخطف النساء من الطرقات...، وحصل منهم ما لا خير فيه، كما ألحقوا الضرر بالمشايخ والقضاة[3].

وربما أشفق السلطان على الناس من سطوتهم، كما في سنة (٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م) حيث هجم جماعة من المماليك الجلبان على الأسواق ونهبوها، واشتد

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر، ج٣/ ص٤٢٠.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج٧/ ص١٩٣.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٢٤.

فسادهم وضررهم على العامة، فمنع السلطان الناس عن العمل إلا عن أمره إشفاقا عليهم[1].

واستمر طغيانهم في عهد الظاهر أبو سعيد جقمق العلائي(٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م) بل زادوا في ذلك بما يصوره صاحب حوادث الدهور حيث يقول: (من غريب ما اتفق في هذه الأيام أن الجلبان منعت غالب المتعممين من ركوب الخيول حتى ركب الفقهاء وأعيان الدولة من المباشرين الحمير وصار المماليك يقفون بالطرقات والشوارع فمن ظفروا به من المتعممين على فرس أوقعوا به) [2].

ولما تسلطن الأشرف إينال العلائي(٨٥٧هـ ـ ٨٦٥هـ/ ١٤٥٣ ـ ١٤٦٠م) ثار أثناءها المماليك الجلبان سبع مرات[3]، أفسدوا فيها في الأرض، حيث سرقوا أقوات وأرزاق الناس، وعم نهبهم للأسواق والمحال، على علم ومسمع من السلطان الذي لم يحرك ساكناً في ردعهم أو الإنكار عليهم، مما دفع الناس للدعاء عليه بالهلاك، ولأيامه بسرعة الزوال[4].

ولم يكن للسلطان أمر ولا نهي أحيانا مع هؤلاء المماليك[5]، فقد ذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥) أنه نودي في شهر رمضان بالقاهرة من قبل السلطان بعدم تعرض المماليك الأجلاب إلى الناس، غير أن

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر ، ج/ ص٤٨٠.

(٢) ابن تغري بردي: حوادث الدهور ، ج١ / ص ٢٦٩.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص ٢٨٦.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٦ / ص١٣٥.

(٥) محمد سهيل حمروش: تاريخ المماليك في مصر والشام، ص ٤٦٣

المماليك استمروا في أخذ أموال الناس حتى غلت الأسعار في كافة السلع من مأكولات وملبوسات وأقمشة وغلال وغيرها، فتضرر بذلك الكثير[1].

ولم يكن للسلاطين أمر نافذ مع هؤلاء الجلبان، فكثيراً ما كانوا يتسلطون على الناس ويعيثون في الأرض الفساد[2]، وهو ما يصوره ابن تغري بردي بقوله في حوادث سنة (٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) من خوف والي القاهرة خير بك القصروي منهم، وعدم نفوذ سلطته عليهم لعلمه بـ: (ميل السلطان إلى الأجلاب، واتفق بعد ذلك كثرة السراق، وفتح البيوت، وهجم المناسر على الحارات، وكلمه السلطان في ذلك بكلام خشن، ووبخه في الملأ، وكاد أن يفتك به، فأوهم الوالي السلطان بالتلويح في كلامه أن الذي يفعل ذلك إنما هو من المماليك الأجلاب وكان الذي لوحه الوالي إلى السلطان قوله: يا مولانا السلطان أنا ما لي شغل ولا حكم على من يلبس طاقية يعني المماليك وما حكمي إلا على العوام والحرامية، فسكت السلطان، ولم يكلمه بعد ذلك إلا في غير هذا المعنى)[3].

ومما كان يعاب على الظاهر خشقدم (ت٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م): كثرة ثورات المماليك الأجلاب الذين كان اشتراهم في سلطنته ، رغم نهيه وزجره لهم على ما يفعلونه من أفعال قبيحة، حتى أنه قام بوضع بعضهم بالحبس، والبعض الأخر ناله الضرب والنفي وأنواع النكال المختلفة[4].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤/ ص ٣٩٣.

(٢) مؤلف مجهول: تاريخ الملك الأشرف قايتباي، ص ١٧٩.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص٤١٠.

(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٦/ ص٣٣٥.

ولما تولى الظاهر بليباي سنة (٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م): حبس الكثير من النفقة عن الأمراء وكبار رجالات الدولة[١]، فنجده ينفق على المماليك السلطانية، ثم يمنع أولاد الناس والطواشية من الأخذ، وعاداتهم أخذ النفقة، فأحدث الظاهر يلباي هذا الحادث، وكثر الدعاء عليه بسبب ذلك، وتفاءل الناس بزوال ملكه لقطعه أرزاق الناس، فكان كذلك، ومنع السلطان أيضاً أمراء الألوف وغيرهم من النفقة، ...، فبهذا المقتضى وأمثاله نفرت القلوب من الظاهر يلباي، وعظمت الوقيعة في حقه، وكثرت المقالة في بخله، وعدت مساوئه، ونسيت محاسنه إن كان له محاسن وصارت النفقة تفرق في كل يوم سبت وثلاثاء طبقةً واحدة أو أقل من طبقة، حتى تطول الأيام في التفرقة،وبالجملة فكانت أيام الملك الظاهر يلباي نكدة، قليلة الخير، كثيرة الشر... ، وكان الناس قد أهمهم أمر الجلبان أيام أستاذهم الملك الظاهر خشقدم، فزادوا بسلطنة الملك الظاهر يلباي هذا هماً على همهم)[٢]، وقد دون ابن إياس هذا الموقف من السلطان فقال: (توقف السلطان عن صرف جوامك أولاد الناس، وجماعة من الفقهاء والمتعممين... فكثر الدعاء عليه بسبب ذلك)[٣]. وترتب على ذلك أن تردت أوضاع الناس مع الجلبان أكثر لأن السلطان (غطاه المنصب، وصار كالمذهول، ولزم السكات وعدم الكلام، وضعف عن بت الأمور، وردع الأجلاب، بل صارت الأجلاب في أيامه كما كانت أولاً وأعظم، فلم يحسن ذلك ببال أحد، وصار الأمير خيربك الدوادار

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٤٦٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج١٦/ ص٣٢٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج ٣/ ص ٢٠.

الثاني هم صاحب الحل والعقد في مملكته، وإليه جميع أمور المملكة، وشاع ذلك في الناس والأقطار، ...فصار الناس بهذا المقتضى كالغنم بلا راع)[1].

وبهذا ندرك مدى نفوذ هؤلاء الجلبان في المجتمع المصري، وأثره على الحياة العامة فيها، بل لم يستطع بعض السلاطين إلا الدعاء عليهم بالوباء والفناء، ومن أبرز ما روي في ذلك ما كان في سنة (٨٣٥هـ/ ١٤٣١م)[2]، حيث نزلت مجموعة من المماليك الجلبان من القلعة ليلاً إلى بيت الوزير كريم الدين بن كاتب المناخ، يريدون قتله، فهرب من بيته، فلم يظفروا به ولا بشيء في داره، فعادوا إلى القلعة بعد أن أفسدوا بيته وما حوله من بيوت جيرانه، فلما علم السلطان بأمرهم غضب وأخذ في الدعاء عليهم بالفناء والوباء[3].

وفي وباء عام (٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م) مات من المماليك الجلبان نحو من ألف وخمسمائة مملوك، وقد علق ابن إياس على هلاكهم بقوله: (وأراح الله الناس منهم)[4].

أثر المماليك الجلبان على الحياة العلمية:

لم يكن ثمة أثر إيجابي لهؤلاء الجلبان على الحياة العلمية إلا ما كان من أوقاف ومدارس مما تقدم ذكره في الفصل الثالث، وما سوى ذلك كان من الآثار السلبية، ومن ذلك: أثرهم السلبي في اللغة والأدب: حيث تردت صناعة الإنشا بسبب عدم معرفة المماليك باللغة العربية، ويبين مدى هذا التردي القلقشندي

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج١٦/ ص٣٢٣.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٤٠.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص١٥١.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٣٦٠، ٣٦١.

بقوله: (قلت وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها حتى صار الفصيح لديهم أعجم والبليغ في مخاطبتهم أبكم ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد

وصناعتي عربية وكأنني ... ألقى بأكثر ما أقول الروما

فلمن أقول وما أقول وأين لي ... فأسير لا بل أين لي فأقيما)[1].

ومن جهة تولي أمور المنشآت التعليمية: فإن بعض الجوامع يتحسن حالها عندما يقوم عليها أحد المماليك، وأخرى يسوء حالها إذا عهدت لآخر.

فمما صلح حالها: الجامع الحاكمي، فإنه في سلطنة الظاهر جقمق في سنة (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م) ، فوض نظر الجامع إلى الأمير دولت بيه الدوادار. وأمده بالأموال لعمارته، حيث سقطت بعض أماكن من سقفه، وتلف الكثير من بلاطه ، و تهدمت مبيضاته، فشرع الأمير في إصلاحه وترميمه[2].

وفي المقابل تردت حال الجامع الأزهر في سنة (٨١٨هـ/ ١٤١٥م) في عهد السلطان المؤيد شيخ، فحين تولى نظارة الجامع الأمير سودن القاضي حاجب الحجاب استناب عنه في النظر شمس الدين الماجوزي والذي أمر بإخراج الطوائف التي كانت تسكنه، فالجامع منذ أن بني كان يجاور به طوائف من الناس، ما بين عجم ومغاربة والأرياف من طلبة العلم، ولكل طائفة رواق يختص بهم،

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج١ / ص٧٩.

(٢) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ٧/ ص٤٧٢.

يتلون فيه القرآن ويدرسون أنواع العلوم كالفقه والنحو والحديث، وعقد مجالس الوعظ، وكان أصحاب الأموال يغدقون عليهم بأنواع البر مساعدة لهم للتفرغ للعبادة، فأمر الماجوزي بإخراج المجاورين من الجامع ومنعهم من الإقامة فيه، فتفرقوا في القرى لعدم وجود مكان يؤويهم، وفقد الجامع ما كان يوجد فيه من تلاوة القرآن، ودراسة للعلوم[1].

كما أن حرائق الجلبان أتت على عدد من المساجد والمدارس[2].

ومن الآثار السلبية أيضاً: نهب المدارس ففي حوادث سنة (٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م) يذكر ابن إياس أنه: (ثار جماعة من المماليك الجلبان وتوجهوا إلى دار برسباي قرا ونهبوا ما فيها، وأحرقوها عن آخرها ونهبوا الربوع التي بجوارها وأحرقوها، حتى نهبوا بسط المدرسة الأبوبكرية والفخرية، حتى أخذوا القناديل التي بهما، وكانت مصيبة شنعية)[3]. ويذكر ابن تغري بردي في حوادث سنة (٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م) أن المماليك السلطانية حين تأخرت صرف مرتباتهم نزلوا إلى شوارع القاهرة، وقاموا بنهب مدرسة فخر الدين بن أبي الفرج، وأخذوا ما فيها من تعاليق وقماش الصوفية وغيرهم، كما أنهم قاموا بنهب مدرسة زين الدين الاستادار، وكانوا يأخذون ما قدروا على أخذه ويحملونه على الخيول والبغال والحمير، ويعلق ابن تغري بردي على فعلهم هذا بأنه لا تفعله الكفرة مع المسلمين[4].

---

(١) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ٦ / ص٣٩٠، ٣٩١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج ٤ / ص٤٠٥.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٢٠٢.

(٤)ابن تغري بردي: حوادث الدهور، ج٢/ ص ٥٨٧.

وفي حوادث سنة (٩٠٢هـ/١٤٩٦م) اضطربت الأحوال وتزايدت الأهوال بسبب نزول المماليك الجلبان من الطباق ، فنهبوا الأسواق والبيوت، وقبة مدرسة السلطان حسن، فأخذوا رخامها وأبوابها وشبابيكها النحاس، وتركوها خراباً ، وقد تلاشى أمرها[١].

ومن آثارهم السلبية أيضاً: نهب بيوت القضاة والعلماء، فعلى سبيل المثال في عام (٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م) ثارت المماليك الجلبان بسبب تأخر رواتبهم ، فنزلوا من الطباق وتوجهوا صوب بيت القاضي عبد الباسط[٢] ناظر الجيش ونهبوه مع عدد من البيوت والدكاكين [٣].

ومن آثارهم السلبية أيضاً: التعرض للعلماء بالأذى ومن أمثلته تعرض بعض المماليك الأجلاب للقاضي محب الدين ابن الشحنة[٤] كاتب السر، وهو طالع إلى الخدمة السلطانية، وضربه من غير أمر يوجب ضربه[٥].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٣/ ص ٣٧٥.

(٢) هو عبد الباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي زين الدين (ت ٨٥٤هـ/)، ناظر الجيش ، أحد أكابر الرؤساء وأرباب التصرف والمكانة في دولة الأشرف برسباي ، له عدة مدارس بمصر ومكة وغيرهما، وأنواع من وجوه البر. السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان ، ج١ / ص١٢٢.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ١٥٩.

(٤) ابن الشحنة الحلبي ، محب الدين محمد بن محمد الثقفي الحلبي (ت ٨٩٠هـ)، قاضي القضاة، المعروف بابن الشحنة ، تفقه وتفنن على أيدي عدد من العلماء، واعتنى بالأدب ، ونظم الشعر الحسن، وولي كتابة السر بالقاهرة ، ثم قضاء الحنفية بها ، ثم مشيخة الشيخونية ، ولما ولي تدريس الحديث بالمؤيدية أملى بها مجالس، وألف "طبقات الحنفية ". السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان ، ج١ / ص ١٧١.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ، ج٤ / ص٤٠٨.

كما قاموا بضرب القاضي كاتب السر ابن البارزي حتى أسالوا دمه، حين حاول أن يصلح بينهم وبين السلطان في ثورتهم عليه عام (٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م)[١]، كذلك تعرضوا للقاضي صلاح الدين المكيني[٢]، وثاروا عليه، وكانوا سبب صرفه عن الحسبة[٣]، أيضاً وفي إحدى ثوراتهم عام (٩٢١هـ/ ١٥١٦م) قاموا بالهجوم على الحارات والبيوت ، وإطلاق النار على الناس، وأخذ بغال القضاة والعلماء ، حتى أنهم أخذوا بغلة الشيخ برهان الدين ابن الكركي أثناء أدائه درسه في المدرسة الأشرفية، فخلصها منهم بمبلغ من المال[٤].

بل تعدى الأمر بهم إلى أنهم طالبوا بأخذ إقطاعات العلماء والفقهاء، في سنة (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م) طالبوا من السلطان المنصور عثمان أبي السعادات إقطاعات الفقهاء والمتعممين، وكان سبب تجرؤهم على ذلك يعود إلى إخراج السلطان إقطاعات زين الدين الآستادار والموقوفة على جوامعه ومساجده، وكانت كثيرة جداً، حتى أنه فرقها على المماليك السلطانية[٥].

ومن أفعال التسلط التي يقوم بها الجلبان على أهل العلم وطلبته؛ ما ابتدعوه من منعهم من ركوب الخيل بغير سبب ظاهر، يقول ابن تغري بردي:

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٢٣٤.

(٢) أحمد بن محمد بن بركوت الحبشي المكيني الشافعي، قاضي القضاة صلاح الدين (ت ٨٨١هـ/) ، ولي الحسبة ، ثم القضاء ولم يمكث فيه سوى ستة أشهر حتى وافته المنية. السيوطي: نظم العقيان في أعيان الأعيان ، ج١ / ص٥٤.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢/ ص ٣٤٦.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٤/ ص ٤٧٤.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور، ج٢، ص ٤١٠.

(هذا والفقهاء والمتعممون قد ألزموهم المماليك الجلبان بعدم ركوب الخيل، بحيث إنه لم يستجرئ أحد منهم أن يعلو على ظهر فرس، إلا أعيان مباشري الدولة؛ وجميع من عداهم قد ابتاعوا البغال وركبوها، حتى تزايد لذلك سعر البغال إلى أمثال ما كان أولاً) إلى أن قال: (وفرغ هذا الشهر والناس في جهد وبلاء من غلو الأسعار في جميع المأكولات، وتزايد أثمان البغال، لكثرة طلابها من الفقهاء والمتعممين، لشدة المماليك الجلبان في منعهم من ركوب الخيل)[1].

وفي حوادث سنة (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) ونتيجة للاضطرابات والفتن بين صفوف المماليك لعدم صرف مخصصاتهم قاموا بالعبث في أرجاء القاهرة، وتعرضوا للفقهاء والعلماء بالإيذاء، فرشقوهم بالحجارة وخطفوا عمائمهم[2].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٤ / ص ٣٠٠ـ ٣٠٤.

(٢) ابن اياس: بدائع الزهور، ج/ ص ٤٠٠.

الخاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

لقد عشت في بحثي هذا بين أروقة العصر المملوكي الثاني، أتنشق عبير الماضي بجزالته، وأرتب أحداثه بقوتها، وأستنبط معاني، وأحدد علامات، أربط بينها، بعبارات علمية جزلة، وجمل بيانية حسنة، حتى توصلت إلى بحثي هذا والذي خلصت منه إلى مجموعة من النتائج، أعرضها على سبيل الإجمال.

ـ ففي **التمهيد** والذي خصصته للحديث عن: **الأوضاع العامة في العصر المملوكي الأول وأثرها على الحياة العلمية.**

فقد تبين لي من دراسة الأوضاع السياسية في العصر المملوكي الأول، أن الفاطميين الشيعة لم ينجحوا في تأصيل المذهب الشيعي في مصر، وأن صلاح الدين الأيوبي نجح في القضاء على الفاطميين و نشر المذهب السني.

وعندما انتقلت السلطة إلى المماليك كانت أهم ملامح الأوضاع السياسية في عصرهم كسر شوكة المغول، إحياء الخلافة العباسية في مصر، وكسر الصليبيين

ولقد كان للأوضاع السياسية في عهد دولة المماليك الأثر الكبير على الحركة العلمية بها، فقد دأب المصريون على احترام العلماء وتبجيلهم، ولما تسلطن المماليك على مصر عرفوا ذلك، فقدموا العلماء واحترموهم وبجلوهم، فهم بحاجة إلى دعامة يستندون عليها في حكمهم ويستعينون بها على إرضاء الشعب.

وكان الاتجاه العقدي في مصر المملوكية يحمل سمة المذهب الأشعري عامة

وهذا لا يعني أن السلفية كانت مندثرة في عهد الدولة المملوكية ، لكن كان يدعو إليه علماء معدودون غالبهم من الحنابلة.

ومع مجيء الحركة السلفية التي رفع رايتها شيخ الإسلام ابن تيمية في مصر بدأ مذهب السلف ينتشر بين الناس، وأما التشيع فقد كان تأثيره قليلاً في الدولة الأيوبية ومن بعدها دولة المماليك فقد حرصوا على أن لا يتولى وظيفة القضاء إلا سني، فها هو الظاهر بيبرس يأمر في سنة (٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م) باتباع المذاهب السنية، وتحريم ما عداها، وأن لا يولى قاضٍ ولا تقبل شهادة أحد ولا يرشح لإحدى الوظائف من خطابة أو إمامة أو تدريس إلا من كان مقلداً لأحد المذاهب الأربعة.

أما التصوف، فقد انتشر بكثرة في العصر المملوكي، وذلك لوجود الأوقاف، وبذلك انتشرت الخرافات والبطالة، وتأثر بها العامة والخاصة. أما أهل الذمة، فلم يكن لهم حضور قوي في الدولة.

وقد اهتم المماليك بتنظيم الوظائف الدينية، والتي تشمل القضاء والمظالم والحسبة، وكذلك تشمل الخطابة والوعظ والتدريس، ووظائف المدارس وخزائن الكتب وغير ذلك.

أما أثر الأوضاع الدينية على الحالة العلمية. فقد انتشرت مدارس أهل السنة وازداد نشاطهم العلمي.

أما الأوضاع الاقتصادية في العصر المملوكي الأول. فقد أوضحت الدراسة أنه كان يقوم على الزراعة والمعاملات الداخلية من حرف وصناعات وغيرها، والتجارة الخارجية.

أما الأوضاع الاجتماعية في العصر المملوكي الأول فقد أظهرت الدراسة أن الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي الأول تميزت بعدة ظواهر من أهمها النمو

السكاني والهجرات، التي جاءت إلى مصر المملوكية ، وقد أدى ذلك إلى تطور كبير في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

أما الأوضاع العلمية في عهد المماليك البحرية فقد أَثْرت الحركة العلمية في هذا العهد بصورة كبيرة ولاسيما مع كثرة الاتجاهات الفكرية التي نشطت آنذاك

ـ أما الفصل الأول وهو: الأوضاع الدينية وأثرها على الحياة العلمية والذي تناول مبحثين الأول: الطوائف والفرق الدينية.

فقد تبين لي في هذا المبحث أن العصر المملوكي الثاني حظي بجملة من الشرائح الاجتماعية ذات التوجهات الدينية، التي ورثتها من الدولة المملوكية الأولى، ولعل أبرزها كانت شريحة علماء السنة الذين عملوا على تأكيد هوية الدولة السنية، وانحسار التشيع وظهور طوائف المتصوفة حيث كان التصوف يُنظر له أحياناً على أنه حركة زهادية تواجه موجات الترف في هذا العصر.

ولما كان العصر المملوكي الثاني قد كثرت علاقاته السياسية والتجارية مع أوروبا، فإن ذلك أوجب نوعاً من التغير في النظرة لطائفة أهل الذمة، ولاسيما بلوغ كثير منهم مناصب في الدولة لتسامح أو تهاون بعض الأمراء، أو لضغوط سياسية أو اجتماعية أخرى.

أما أهل السنة والجماعة لم يكن لهم كبير مردود على مصر المملوكية لسطوة الأشاعرة وحماية الدولة لهم.

وقد أظهرت الدراسة أثر التصوف على الحياة العلمية في العصر المملوكي الثاني، حيث أحدثت حركة التصوف أثراً علمياً واضحاً في تأليف كتب التراجم،

أما أهل الذمة فلم أجد كبيرَ تأثير في ذلك، كما أن المعلومات المتاحة عن النشاط الثقافي لهم غير متوفرة فيما بين أيدينا من المراجع، ولم أعثر على مؤلفات أو نشاطات علمية.

وفي المبحث الثاني والذي تناول: العلاقة بين السلاطين والطوائف الدينية تبين لي من خلال البحث في ثنايا الكتب والتراجم أنه لاعلاقة بين السلاطين والشيعة، لأن التشيع يكاد يكون قد اختفى من مصر المملوكية، أما العلاقة بين السلاطين وأهل السنة فكانت في أوج عهودها في الدولة المملوكية، حيث قام العلماء السنة بدور الوساطة بين أفراد الرعية والسلاطين، فكان الناس يلجأون للعلماء لرفع الشفاعات إلى السلاطين.

ومن أبرز صور قوة العلاقة بين السلاطين وعلماء السنة، ما كان من اصطفاء السلاطين لبعض العلماء للمنادمة والاختصاص.

أما العلاقة بين السلاطين و الصوفية: فقد كان بعض الصوفية من ندماء بعض السلاطين، وكان سلاطين المماليك وطبقة المماليك وطبقة الأمراء يبنون الزوايا لمن يعتقدون فيهم من الصوفية.

كما تبين لي أن انتشار التصوف وغلبته على الحياة في مصر كان له أثره السلبي على الحياة العلمية، وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط الأمة وفكرها في انحرافات بعيدة عن المنهج الرباني.

أما العلاقة بين السلاطين وأهل الذمة. فلم تتأثر الحياة العلمية بالعلاقة بين السلاطين وأهل الذمة.

ـ وفي الفصل الثاني: الأوضاع السياسية وأثرها على الحياة العلمية في عهد الجراكسة فقد تناول المبحث الأول: مظاهر اهتمام السلاطين والوزراء والأمراء والأعيان بالحياة العلمية.

فقد تبين من هذا المبحث مدى حب السلاطين للعلم والعلماء والمشاركة في العلوم، ولم يكن الاهتمام بالعلم وأهله مقتصراً على الخلفاء السلاطين فحسب، بل تعداه إلى كبار أمراء الدولة، فقد كان كثير منهم محباً للعلم والعلماء مشاركاً في العلوم .

أما ما يتعلق **بالمبحث الثاني: الثورات والفتن الداخلية وأثرها على الحياة العلمية:**

فقد خلص البحث إلى أن الفتن والحروب والخلافات السياسية والمذهبية من ضمن أهم الأمور التي فتت في عضد هذه الأمة ، وجرت ذيولها الرزايا والآلام ، وكانت أشد معول هدم كيان المسلمين في كل الدول والعصور، فما أن تنعم البلاد بأمن ساعة، حتى تقوم فتنة وتدخل البلاد في بلاء شهوراً عديدة، فقد كان الحكم للأقوى دوماً، ولذا قلَّ أن يحكم سلطان حتى وفاته، فإما أن يخلع، وإما أن يقتل، ولاسيما في الفترة الأخيرة من عمر الدولة، ويعتبر عهد السلطان فرج عهد فتن، بل تعد سنة (٨٠٦هـ/ ١٤٠٣هـ) من أكثر سنوات الفتن في عهد المماليك البرجية، ازدادت الأحوال سوءاً بعد موت المؤيد شيخ، وتولى السلطنة عدد من المماليك، إلا أن الذي يجمعهم في الجملة ضعف الشخصية وخضوع كل منهم لنفوذ مماليكه، وبدا أن النزاع المسلح هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالمناصب العليا.

وكانت البلاد حين نشوب الفتن، يعمها الفساد والنهب، وارتفاع الأسعار، وفي خضم هذه الفتن كان للعلماء في ظل سلطنة المماليك دور في كافة

مناحي الحياة فكانوا يفتون بحسب ما يظهر لهم من ترجيح المصالح على المفاسد، كما أن السلاطين والأمراء كثيرا ما كانوا يستعينون بالعلماء فيما أرادوا أن يفعلوه.

كما توصل البحث لأبرز الآثار السلبية للفتن والثورات على الحركة العلمية، كتعطيل أنشطة الحركة العلمية عامة بسبب خوف الطلبة والمعلمين من الخروج من بيوتهم سواء للتعلم أو غيره، كما كانت الفتن سبباً في هدم بعض دور العلم أو تعطيلها، كما كان للفتن بعض الإيجابيات: كقراءة البخاري في الأزمات، أو أن السلاطين ينقادون إلى مطالب العلماء بإبطال المكوس.

أما المبحث الثالث: والذي تناول الحروب الخارجية وأثرها على الحياة العلمية.

فقد تبين لي أن دولة المماليك قامت على الجهاد، وهذه حقيقة تاريخية،ومع ذلك فقد وجد تراجعاً نسبياً في القدرة الحربية العسكرية المملوكية، ويرجع ذلك إلى الفتن التي كانت بين الأمراء ، وضعف جهاد الطلب، وسوء التدبير بشأن الدولة العثمانية.

كما تبين لي أن بقاء الدولة واستمرارها هذا الردح من الزمان يرجع إلى أن المماليك في الجملة كانوا على وعي بالخطر الخارجي، فلقد عمل المماليك على حصر منازعاتهم في دائرة ضيقة داخلية، بحيث لم يمكنوا أية قوى خارجية من التدخل في شؤون البلاد. كما استطاعوا إخماد شوكة الصليبيين بضم قبرص ، وأجبروا جزيرة رودس بدفع الجزية. أما حروبهم مع البرتغاليين ، فقد كان لاتساع النشاط البرتغالي أن حجب وصول السلع التجارية بكميات كبيرة إلى مصر وبلاد الشام من الهند ، وبدأت الدولة تعاني أزمة اقتصادية عنيفة. كما استطاع المماليك الحد من

توسعات تيمورلنك وتهديداته المستمرة لحدود الدولة المملوكية. أما بالنسبة للعثمانين فقد توصل البحث إلى محاولة كل الدولتين الهيمنة على زعامة العالم الإسلامي، انتهت بتغلب العثمانيين عند معركة الريدانية والهزيمة بالسلطان وإلحاق الهزيمة بالجيش المملوكي، والاستيلاء على مصر والتي أصبحت ولاية عثمانية.

ولقد انتهت الدراسة في هذا المبحث إلى الآثار السلبية للحروب الخارجية على الحياة العلمية فتبين أن توقف بعض الموارد المالية المخصصة للتعليم كمخصصات أوقاف المنشآت التعليمية، يعود إلى وضع السلاطين اليد عليها لتمويل الجيش، إذ لم تكن ثمة سياسة تمويل للجيش تستغني عن أخذ أموال الأوقاف، و أخذ أموال التجار والشعب.

ـ وأما الفصل الثالث: الأوضاع الاقتصادية وأثرها على الحياة العلمية، فقد تناول المبحث الأول دراسة: الأوضاع الاقتصادية وأثرها في الإنفاق على شؤون الحياة العلمية (المساجد ـ الكتاتيب ـ المدارس ـ الكتب والمكتبات ـ الأربطة والزوايا).

فتطرق البحث إلى دراسة أسباب ومظاهر الازدهار الاقتصادي بمصر المملوكية كالزراعة والتجارة و الصناعة والحرف، وغيرها.

كما تطرق البحث إلى العوامل التي أدت إلى التدهور الاقتصادي آخر العهد المملوكي كالكساد والجفاف والأوبئة والاضطرابات السياسية بين طوائف المماليك والمصادرات والاحتكارات التي انتهجها بعض أمراء وسلاطين المماليك ، والتلاعب بأسعار صرف العملات ، ثم اكتشاف رأس الرجاء الصالح من قبل

البرتغالين وكيف أدى ذلك إلى إصابة الاقتصاد المصري بخسائر فادحة.

أما بالنسبة إلى أثـر الأوضـاع الاقتـصادية في الإنفـاق عـلى شـؤون الحيـاة العلمية فقد تبينت كثرة عظيمة للأوقاف؛ بسبب تحسن الأحوال المادية لكثير مـن شرائح الدولة، واهتمامهم بالعمل الخيري،و الحرص على تخفيف معاناة المـسلمين ونفعهم، وقد تبـين لي تنـوع الأوقـاف المملوكيـة: مـن أوقـاف علميـة تعليميـة، وأوقاف صحية، وأوقاف اجتماعية وغير ذلك، ويعتبر الوقـف التعليمـي أكبرهـا أثراً في الحياة العلمية، وهـو يـشمل: (المـساجد ـ الكتاتيـب ـ المـدارس ـ الكتـب والمكتبات ـ الأربطة والزوايا).

أما المبحث الثاني والذي تناول: الأوضاع الاقتصادية للعلماء وأثرها عـلى عطائهم وإنتاجهم العلمي.

فقد أوضحت الدراسة تحسن أوضـاع العلـماء في الجملـة، ممـن كـان لهـم اتصال بالدولة، وذلك من خلال الأوقاف والهبـات والعطايـا التـي كـان يبـذلها السلاطين والأمراء للعلماء لمساعدتهم على أداء رسالتهم العلمية.

كما أظهـرت الدراسـة أن كثـيراً مـن العلـماء كـان يمـتهن بعـض الحـرف كالزراعة والتجارة وغيرها لتحسين أوضاعهم الاقتصادية.

ـ أما الفصل الرابع: أثر الحيـاة الاجتماعيـة عـلى الحيـاة العلميـة في عهـد الجراكسة، فقد تناول المبحث الأول: الكوارث الكونية والأوبئة وأثرها على الحياة العلمية .

وقـد أظهـرت الدراسـة اسـتمرار الهجـرات الـسكانية إلى دولـة المماليـك الجراكسة، حيث هاجر إلى مصر عدد من مـسلمي الأنـدلس هربـاً مـن اضـطهاد

النصارى للمسلمين في الأندلس، واجتمع فيها الكثير من المهاجرين مـن المغـرب الإسلامي؛ ولاسيما بعد سقوط الأندلس ممن هاجر خوفاً على نفسه من القتل.

ونتيجة لهذه الهجرات التي جاءت إلى مصر المملوكية اجتمع في مدن مـصر أجناس مختلفة من العرب والأتراك والمغاربة ومن المسلمين ومـن غـير المـسلمين، وقد أدى ذلك إلى تطور كبير في الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية.

كما أظهرت الدراسة أن دولـة المماليـك الجراكـسة مـرَّ عليهـا العديـد مـن الكوارث والأوبئة وكان لها أثر بالغ على الحياة العلمية

فكثيراً ما كان الغلاء يربك الأحوال العامة في البلاد، ومن جملتها الأوضاع العلمية، فكان العلماء وطلبة العلم يتأثرون بذلك الغلاء كثيراً، ولاسيما وأن هـذه الشريحة من المجتمع المصري عدت من الفقـراء فكـان مـنهم مـن يـسكن الزوايـا والأربطة.

كما كان للكوارث أثرها السلبي على الحركة العلمية، فقـد أفنـى الطـاعون كثيراً من العلماء وطلاب العلم ممن مات بسببه.

كما تبين أن من العادات المنتشرة في العهد المملوكي عنـد نـزول الكـوارث: قراءة صحيح البخاري كعمل صالح يقدم بين يدي الدعاء بر فع الغمة.

أما المبحث الثاني: طبقة المماليك الجلبان وأثرهم على الحياة العلمية.

فقد أظهـرت الدراسـة تنـوع الطبقـات الاجتماعيـة في مـصر نظـراً لتنـوع الطوائف التي سكنتها، وكانـت طبقـة المماليـك في المـستوى الأول مـن درجـات الطبقات، وقد عانى أهل مصر من هؤلاء المماليـك الجلبـان كثـيراً، بـل قـد عـانى السلاطين منهم أيضاً.

كما انتهت الدراسة إلى أنه لم يكن ثمة أثر إيجابي لهؤلاء الجلبان على الحياة العلمية إلا ما كان من أوقاف ومدارس، وما سوى ذلك كان من الآثار السلبية والتي منها: تردت صناعة الإنشاء بسبب عدم معرفة هؤلاء المماليك باللغة العربية. كما أن حرائق الجلبان أتت على عدد من المساجد والمدارس، إضافة إلى نهبهم للمدارس وبيوت القضاة والعلماء، والتعرض للعلماء بالأذى.

الفهارس

فهرس المصادر والمراجع

أولاً: المصادر.

ابن الأثير: أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت ٦٠٦هـ/ ١٢١٠م).

١. النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر الزواوي، و محمود الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن الأثير: علي بن محمد بن أبي الكرم (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).

٢. الكامل في التاريخ، القاهرة، ١٩٥٣م.

ابن الأخوة: ضياء الدين محمد (ت ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م).

٣. معالم القربة في أحكام الحسبة، روبن ليفي، كمبردج، ١٩٣٨م.

ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد أبو الفرج.

٤. تبليس إبليس، تحقيق: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي ، بيروت، ط١، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥م.

ابن الحاج: محمد بن محمد العبدري الفاسي (ت ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م).

٥. المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التي انتحلت وبيان شناعتها، دار الكتب العربية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

ابن صصري: أبو المواهب الحسن بن هبة الله (ت ٥٨٦هـ/ ١١٩١م).

٦. الدرة المُضِيَّة في الدولة الظاهرية، در التراث، القاهرة، د ت.

ابن الطولوني: الحسن بن الحسين بن أحمد (ت ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م).

٧. النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م.

ابن العبري: غريغوريوس أبو الفرج الملطي (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م).

٨. تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت، ١٨٩٠م.

ابن عساكر: على بن الحسن بن هبة الله (ت٥٦٣هـ/ ١١٦٧م).

٩. تاريخ دمشق، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

ابن العماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي أحمد (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م).

١٠. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.

ابن الغزي: محمد بن عبد الرحمن (ت ١١٦٧هـ/ ١٧٥٣م).

١١. ديوان الإسلام، تحقيق: سيد كسروي حسن، بيروت، ١٩٩٠م

ابن الفرات: ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م).

١٢. تاريخ الدول والملوك (تاريخ ابن الفرات)، تحقيق: حسن الشماع، البصرة، ١٩٦٧م.

ابن إياس:أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ/ ١٥٤٤م).

١٣. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى ، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٣١١هـ.

ابن بسام: محمد بن أحمد المحتسب.

١٤. نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق: حسام الدين السامرائي، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٦٨م.

ابن بطوطة: محمد بن عبد الله اللواتي (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).

١٥. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة)، دار صادر، بيروت، ١٩٨٥م.

ابن تغري بردي: جمال الدين يوسف الأتابكي (ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م).

١٦. حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: كمال الدين عز الدين ، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٧. المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي ، تحقيق: محمد أمين، ونبيل عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

١٨. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الهيئة العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

ابن تيمية: أحمد بن عبد الحليم (ت ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م).

١٩. مجموع الفتاوى، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن قاسم العاصمي الرئاسة العامة لشئون الحرمين الشريفين، الرياض، د ت.

٢٠. السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، دار المعرفة، بيروت ، د ت.

٢١. درء تعارض العقل والنقل أو موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول، تحقيق: عبد اللطيف عبد الرحمن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٢٢. منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود، إدارة الثقافة والنشر، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦.

ابن جبير: أبو الحسن بن أحمد الكناني الأندلسي (ت ٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

٢٣. تذكرة الأخبار عن اتفاقات الأسفار "رحلة ابن جبير"، دار التراث، بيروت، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ابن جماعة: إبراهيم بن سعد الله (ت ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).

٢٤. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.

ابن حبيب: الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).

٢٥. تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢م.

ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٣م).

٢٦. الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق: علي محمد البجاوي ، دار النهضة، القاهرة، د ت.

٢٧. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: محمد سيد جاد الحق، دار الكتاب الحديث، حيدر آباد، ط٢، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

٢٨. إنباء الغمر بأبناء العمر، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت. وطبعة وزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٢٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، د ت.

ابن حنبل: أحمد بن محمد (ت١٢٤١هـ/ ٨٥٥م).

٣٠. المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).

٣١. العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، د ت.

٣٢. المقدمة، دار القلم، بيروت، ط٢، ١٩٨١م.

ابن خلكان: أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).

٣٣. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د ت.

ابن دريد: محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ/ ٩٣٣م).

٣٤. جمهرة اللغة، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م).

٣٥. الانتصار لواسطة عقد الأمصار، بولاق، ١٣١٠هـ.

٣٦. الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق: سعيد عاشور، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة ، د ت.

ابن رجب الحنبلي: عبد الرحمن بن أحمد (ت ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م).

٣٧. الذيل على طبقات الحنابلة ، دار المعرفة ، بيروت، د ت.

ابن زنبل: أحمد الرمال (ت ٩٦٠هـ/ ١٥٥٣م).

٣٨. آخرة المماليك، تحقيق: عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م.

ابن شاهين: غرس الدين خليل الظاهري (ت ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م).

٣٩. زبدة كشف المماليك وبيان الطرق والمسالك، بولس راديس، باريس، ١٨٩٤م.

ابن شداد: أبو المحاسن بهاء الدين ابن رافع بن تميم (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).

٤٠. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق: جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة، ط١، ١٩٦٤م.

ابن طولون: شمس الدين محمد الصالحي(٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م).

٤١. مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ١٣٨٤هـ/ ١٩٩٦م.

ابن عبد الظاهر: محي الدين عبد الله بن رشيد الدين (ت٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م).

٤٢. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض، ط١، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

ابن عبد الهادي: أبي عبد الله محمد بن أحمد.

٤٣. العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م.

ابن عماد الحنبلي: أبو الفلاح عبد الحي أحمد بن محمد (ت ١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م).

٤٤. شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت.

ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا (ت ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م).

٤٥. معجم مقاييس اللغة ، تحقيق: شهاب الدين أبو عمرو، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

ابن فرحون: إبراهيم بن علي بن محمد المالكي (ت ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م).

٤٦. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث ، القاهرة، ١٩٧٢م.

ابن فهد: محمد بن محمد (ت ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م).

٤٧. لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ ، ملحق بذيل تذكرة الحفاظ للذهبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

ابن قاضي شهبة: أبو بكر بن أحمد (ت ٨٥١هـ/ ١٤٤٧م).

٤٨. طبقات الشافعية، تحقيق: الحافظ بن عبد الحليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٦١٦م.

ابن قدامة: عبد الله بن أحمد المقدسي (ت ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م).

٤٩. المغني، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، عبد الفتاح الحلو، القاهرة، ط١، ١٤٠٦هـ.

ابن قنفذ: أبو العباس أحمد بن الخطيب القسنطيني (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م).

٥٠. الوفيات، تحقيق: عادل نويهض، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م

ابن قيم الجوزية: شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت٧٥١هـ/ ١٣٥٠م).

٥١. أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحي الصالح، دار العلم للملاين، دمشق، ط٢، ١٩٨١م.

ابن كثير: إسماعيل بن عمر القرشي (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

٥٢. البداية والنهاية ، تحقيق: أحمد أبو مليم وجماعة، دار الريان للتراث، القاهرة، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٥٣. تفسير القرآن العظيم ، مكتبة دار التراث، القاهرة، د ت.

ابن ماجه: محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني.

٥٤. السنن، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر بيروت، د ت.

ابن منظور: أبو الفضائل جمال الدين محمد (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م).

٥٥. لسان العرب، دار صادر، بيروت، د ت.

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل (ت٧٣٢هـ/ ١٣٣١م).

٥٦. المختصر في تاريخ البشر، المطبعة الحسنية المصرية، القاهرة، ط١، د ت.

أبو داود: سليمان ابن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).

٥٧. سنن أبي داود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي(ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).

٥٨. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، القاهرة، ١٢٨٧هـ.

أبو نعيم: أحمد بن عبد الله الأصبهاني.

٥٩. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٤ ، ١٤٠٥هـ.

الأزهري: أبو منصور محمد بن أحمد.

٦٠. تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم (٢٥٦هـ/ ٨٦٩م).

٦١. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

البغدادي: إسماعيل باشا ت (١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م).

٦٢. هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين. طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول سنه

١٩٥١م. أعـادت طبعـه بالأوفـست دار إحيـاء الـتراث العربي، بيروت، د ت.

البلوي: خالد بن عيسى(ت ٩٣٨هـ/ ١٥٣١م).

٦٣. تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن بـن محمـد السايح، المغرب، د ت.

الترمذي: محمد بن عيسى أبو عيسى السلمي(ت٢٩٧هـ/ ٩٠٩م).

٦٤. الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمـد محمـد شـاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د ت.

الجبرتي: عبد الرحمن .

٦٥. عجائب الآثار في التراجم والأخبار،دار الجيل، بيروت،د ت.

الجرجاني: علي بن محمد بن علي (ت ٨١٦هـ/ ١٤١٣م).

٦٦. كتاب التعريفات ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٨هـ.

الجوهري: إسماعيل بن حماد (ت٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م).

٦٧. الصحاح؛ تاج اللغة وصحاح العربية، دار العلم للملايـين، بيروت، ط٤، ١٩٩٠م.

الحاكم : محمد بن عبد الله النيسابوري(٤٠٤هـ/ ١٠١٣م).

٦٨. المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطـا، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

الخزرجي: سيف الدين الحسين بن جمال (ت ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م).

٦٩. سير الأولياء في القرن السابع الهجري، تحقيق: مأمون محمود وَ عفت وصال، دار العلم، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

الذهبي: محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).

٧٠. تاريخ الإسلام، حيدر آباد، دار المعارف النظامية، ط١، ١٣٣٧هـ.

٧١. تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، ١٣٤٧هـ.

٧٢. سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٧٣. معرفة القراء، الكبار على الطبقات والأعصار، تحقيق بشار معروف ورفاقه بيروت، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

الرازي: محمد بن أبي بكر بن عبد القادر.

٧٤. مختار الصحاح. تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٩م ؛ و طبعة عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥و.

رشيد الدين الهمذاني: فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير (ت ٧١٨هـ/ ١٣١٨م).

٧٥. جامع التواريخ (تاريخ المغول)، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد وآخرون، القاهرة، د ت.

الزبيدي: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني.

٧٦. تاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهدى، د ت.

السبكي: عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م).

٧٧. معيد النعم ومبيد النقم، دار الحداثة، بيروت، ١٩٨٣م.

٧٨. طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق : محمود محمد الطناحي وَ عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر للطباعة، ط٢، ١٤١٣هـ.

السخاوي: محمد بن عبد الرحمن (ت٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م).

٧٩. الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، تحقيق فرانز روزنتال، ترجمة صالح العلي، بغداد، د ت.

٨٠. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د ت.

٨١. التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة ، د ت.

السمعاني: عبد الكريم بن محمد (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م).

٨٢. آداب الإملاء والاستملاء، تحقيق: أحمد محمد عبد الرحمن، المطبعة المحمودية، ط١، ١٤١٤هـ.

السيوطي: عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).

٨٣. بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق:محمد أبو الفضل،المكتبة العصرية، بيروت، د ت.

٨٤. تاريخ الخلفاء ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م

٨٥. تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م.

٨٦. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهر، ط١، ١٣٨٧هـ. دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٨٧. طبقات المفسرين، تحقيق: على محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٣٩٢م.

٨٨. نظم العقيان في أعيان الأعيان، بعناية فيليب حتي، المطبعة السورية، نيويورك، ١٩٢٧م.

الشافعي: محمد بن إدريس (ت ٢٠٤هـ/ ٨٢٠م).

٨٩. الأم، الرسالة، دراسة وتحقيق:أحمد شاكر، مكتبه الحلبي، مصر، ط١، ١٣٥٨هـ/ ١٩٤٠م

الشعراني: عبد الوهاب بن أحمد (ت ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م).

٩٠. لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، مكتبة محمد صبيح، القاهرة.

الشهرستاني: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت٥٤٩هـ/ ١١٥٤م).

٩١. الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٤هـ.

الشوكاني: محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).

٩٢. البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د ت.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).

٩٣. أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٩٤. شرح لامية العجم، د ط. د ت.

٩٥. نكت الهميان في نكت العميان، المطبعة الجمالية، القاهرة، ١٩١١م.

٩٦. الوافي بالوفيات، تحقيق مجموعة من الباحثين، دار النشر فرانز شتايز بفسبادن، ط٢، ١٣٩٤هـ.

الصقاعي: فضل الله بن أبي الفخر (ت ٨٦٢هـ/ ٢٤٥٨م).

٩٧. تالي وفيات الأعيان، تحقيق: جاكلين سويلة، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤م.

الصيرفي:علي بن داود الجوهري (ت ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م).

٩٨. إنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق: حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.

٩٩. نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.

طافور : بيير.

١٠٠. رحلة طافور في القرن الخامس عشر الميلادي، تحقيق: حسن حبشي، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

الطحاوي: ابن أبي العز (ت ٧٩٢ هـ/ ١٣٨٩م).

١٠١. شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وَ شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

العامري: يحي بن أب بكر الحرضي (ت ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م).

١٠٢. غربال الزمان في وفيات الأعيان، صححه: محمد ناجي، دمشق، ١٤٠٥هـ/ ٢٩٨٥م.

العلائي الظاهري:

١٠٣. وثيقة عهد السلطان المؤيد، د ط، د ت.

العيدروس: عبد القادر بن شيخ بن عبد الله (ت ١٠٣٨هـ/ ١٦٢٨م).

١٠٤. النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق: أحمد حالو، وآخرون، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

العيني: بدر الدين محمد بن أحمد (ت ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م).

١٠٥. الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق: هانس أرنست، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م.

١٠٦. السيف المهند في سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودي ، تحقيق: فهيم شلتوت، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م.

١٠٧. عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

الغزي: نجم الدين محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م).

١٠٨. الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الفيروزأبادي: محمد بن يعقوب (ت ٨١٧هـ/ ١٤١٤م).

١٠٩. القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤١٥هـ.

الفيومي: أحمد بن محمد بن علي المقري.

١١٠. المصباح المنير، دراسة و تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، د ت.

القابسي: علي بن إبراهيم الحلبي (ت ١٠٤٤هـ/ ١٦٣٤م).

١١١. السيرة الحلبية "إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون"، المطبعة الأزهرية المصرية، د ت.

القشيري: عبد الكريم بن هوزان بن عبد الملك (ت٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢م).

١١٢. الرسالة، مكتبة مصطفى البابي، القاهرة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

القلقشندي: أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

١١٣. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تحقيق: د.يوسف علي طويل، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٩٨٧.

الكتبي: محمد بن شاكر بن أحمد (ت٧٦٤ه/ ١٣٦٢م).

١١٤. فوات الوفيات، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،١٩٥١م.

الماوردي: علي بن محمد بن حبيب (ت ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).

١١٥. الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

مبارك: علي.

١١٦. الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة، مطبعة بولاق، ط٢، القاهرة، د ت.

مجهول:

١١٧. تاريخ الملك الأشرف قايتباي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجج القشيري (ت٢١٦هـ/ ٨٣١م).

١١٨. صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الفيصلية، مكة ، د ت.

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/ ١٤٤١م).

١١٩. إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وجمال الدين شيال، القاهرة، ١٩٥٧م. مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، ط١، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

١٢٠. درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق: محمد كمال الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ/ ٢٩٩٢م.

١٢١. السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٦م. وجزء تحقيق محمد العلاوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٨١م.

١٢٢. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار التحرير للطباعة والنشر، القاهرة، ١٢٧٠هـ/ ١٠٦٨م. وطبعة مكتبة دار الثقافة الدينية.

الملطي: عبد الباسط بن خليل بن شاهين(٩٢٠هـ/ ١٥١٤م).

١٢٣. نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، دار الفكر العربي، ١٩٩٧م.

المناوي: عبد الرؤوف.

١٢٤. فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة، ط١، ١٣٥٦هـ.

النسائي : أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م).

١٢٥. سنن النسائي، بيروت، ط٢، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

النسفي: عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين أبو البركات.

١٢٦. مدارك التنزيل وحقائق التأويل (تفسير النسفي)، دار صادر، بيروت ، د ت.

النعيمي: عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ/ ١٥٢٠م).

١٢٧. الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

النهرواني: قطب الدين محمد بن أحمد المكي (ت ٩٧٩هـ/ ١٥٧١م).

١٢٨. الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

النووي: أبو زكريا يحيى بن شرف(٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م).

١٢٩. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج"، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

النويري السكندري: محمد بن قاسم بن محمد المتوفى بعد سنة (٧٧٥هـ/ ١٣٧٢م).

١٣٠. الإلمام بما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية، تحقيق: إتين كومب وعزيز سوريال عطية، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

النويري: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).

١٣١. نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٤م.

الهندي: علي بن حسام الدين المتقي .

١٣٢. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ١٩٨٩ م.

اليافعي: عبد الله بن أسعد بن علي (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م).

١٣٣. مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

ياقوت: أبو عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

١٣٤. معجم البلدان، دار الفكر، بيروت، د ت.

اليونيني: موسى بن أحمد بن قطب الدين (ت ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م).

١٣٥. ذيل مرآة الزمان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ط١، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

ثانياً: المراجع

إبراهيم: عبد اللطيف.

١٣٦. دراسات في تاريخ الكتب والمكتبات الإسلامية، القاهرة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

أبو زهرة: محمد .

١٣٧. محاضرات في الوقف، دار الفكر العربي، القاهرة ، د ت.

أبو عبيد: القاسم بن سلام.

١٣٨. غريب الحديث، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن الهند، ط١، ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤ م.

أحمد: محمد عبد العال.

١٣٩. أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية، وأسبابها وموقف حكام بعض الأقطار الإسلامية منها، الإسكندرية، ١٩٨٧م.

الأرناؤوط: محمد .

١٤٠. مداخلات عربية – بلقانية في التاريخ الوسيط والحديث، اتحاد الكتاب العرب، القاهرة، ٢٠٠٠م.

إسكندر: فايز نجيب.

١٤١. مصر في كتابات الحجاج الروس في القرنين الخامس والسادس عشر الميلاديين، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، د ت.

١٤٢. الإسكندرية في العصريين الأيوبي والمملوكي ، دار المعارف، ١٩٦٥م.

الألباني : محمد ناصر الدين.

١٤٣. السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، د ت.

أمين: حسن أحمد.

١٤٤. تاريخ العراق في العصر السلجوقي، منشورات المكتبة الأهلية، مطبعة الإرشاد، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

أمين: محمد محمد.

١٤٥. الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة، دار النهضة العربية، ط١، ١٩٨٠م.

إيفانوف:نيقولاي.

١٤٦. الفتح العثماني للأقطار العربية (١٥١٦ـ ١٥٧٤م)، ترجمة: يوسف عطا الله، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٨م.

الباشا: حسن.

١٤٧. موسوعة العمارة والآثار والفنون، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٦م.

بروكلمان: كارل.

١٤٨. تاريخ الأدب العربي ، دار المعارف، القاهرة، د ت.

البغدادي: إسماعيل باشا.

١٤٩. هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار الفكر، بيروت، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

بك: محمد فريد .

١٥٠. تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار النفائس، بيروت، د ت.

بكير: أبو العزايم جاد الكريم.

١٥١. طلائع الصوفية ، دار الربوة للطباعة والنشر، عمان، ١٩٩٢م.

بناني: أحمد بن محمد.

١٥٢. موقف ابن تيمية من التصوف والصوفية ، دارا لعلم للطباعة والنشر، جدة، ط١، ١٤٠٥هـ،١٩٨٥م.

الجزائري: أبو بكر.

١٥٣. أيسر التفاسير لكلام العلي القدير، ط٢، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

الجمل: محمد عبد المنعم.

١٥٤. معالم تاريخ مصر الإسلامية من الفتح العربي حتى نهاية العصر المملوكي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٢م.

الجهني: عيد.

١٥٥. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، دار إحياء التراث الإسلامي، بيروت، د ت.

الحارثي: عدنان محمد فايز.

١٥٦. عمارة المدرسة في مصر والحجاز في القرن (٩هـ/ ١٥م)، منشورات معهد البحوث وإحياء التراث الإسلامي ، مكة ، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

حجي: حياة ناصر.

١٥٧. أحوال العامة في حكم المماليك(٦٧٨ـ ٧٨٤هـ/ ١٢٧٩ ـ ١٣٨٢م) دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية الاجتماعية، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ط١، ١٩٨٤م.

١٥٨. العلاقات بين سلطنة المماليك والمماليك الأسبانية في القرن (٨ ـ ٩هـ/ ١٤ـ ١٥م)، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ١٩٩٨م.

١٥٩. صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك، الكويت، دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

حسن: علي إبراهيم.

١٦٠. البحرية في عصر سلاطين المماليك، مكتبة النهضة، ١٩٧٦م.

حمادة: محمد ماهر.

١٦١. المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

الحويري: محمود.

١٦٢. مصر في العصور الوسطى، الأوضاع السياسية والحضارية، عين، للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، دت.

الدبو: إبراهيم فاضل.

١٦٣. الضمان الاجتماعي في الإسلام، مطبعة الرشاد، بغداد، ١٤٠٨هـ.

دراج: أحمد.

١٦٤. المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / القرن الخامس عشر الميلادي، القاهرة، ١٩٦١م.

رنسمان: ستيفن.

١٦٥. تاريخ الحروب الصليبية، دار الثقافة، بيروت.

الزحيلي: محمد.

١٦٦. العز بن عبد السلام، دار العلم، دمشق، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

الزرقاء: مصطفى.

١٦٧. أحكام الأوقاف، دار عمار، عمان، ١٤١٨هـ.

الزركلي: خير الدين بن محمود.

١٦٨. الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٠م.

زقلمة : أنور.

١٦٩. المماليك في مصر، مكتبة مدبولي ، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

زيادة: محمد مصطفى.

١٧٠. الدولة المملوكية الثانية. ضمن كتاب "تاريخ الحضارة المصرية"، مكتبة مصر، القاهرة، د ت.

١٧١. المحاولات الحربية للاستيلاء على جزيرة رودس، القاهرة، ١٣٨١م.

١٧٢. نهاية السلاطين المماليك في مصر، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، ١٩٥١م.

الزيدي: مفيد .

١٧٣. العصر المملوكي، "موسوعة التاريخ الإسلامي، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٣م.

السالم: السيد عبد العزيز.

١٧٤. تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩م.

١٧٥. تاريخ الأيوبيين والمماليك ، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧م.

سركيس: يوسف اليان.

١٧٦. معجم المطبوعات العربية والمعربة، دار صادر، بيروت، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م.

سليم: محمود رزق.

١٧٧. موسوعة عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

شاكر: محمود.

١٧٨. التاريخ الإسلامي، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

شلبي: أحمد.

١٧٩. تاريخ التربية الإسلامية، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ط٦، ١٩٧٨م.

الشميري: عادل بن محمد بن فرحان البحيري .

١٨٠. مفهوم أهل السنة والجماعة بين شيخ الإسلام ابن تيمية وأهل الإفراط والتفريط، الرياض، ١٤١٢هـ.

الشيال: جمال الدين.

١٨١. أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، القاهرة، ١٩٦٥م.

الصالح: صبحي.

١٨٢. مباحث في علوم القرآن ، دار العلم للملايين، ط١٦، بيروت،دت.

الصقار: فؤاد .

١٨٣. دراسات في الجغرافيا البشرية ، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٣، ١٩٧٥م.

الصياد: فؤاد.

١٨٤. المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٠م.

طرخان: إبراهيم علي.

١٨٥. مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة، ١٩٦٠م.

طقوش: محمد سهيل.

١٨٦. تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

العبادي: أحمد مختار والسيد عبد العزيز السالم.

١٨٧. تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ت.

العبادي: أحمد مختار.

١٨٨. تاريخ الإسكندرية عبر العصور، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، د ت.

١٨٩. قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٩م.

عبد التواب: عبد الرحمن محمود.

١٩٠. قايتباي المحمودي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨م.

عبد العاطي: عبد الغني محمود.

١٩١. التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م.

عثمان: محمد عبد الستار.

١٩٢. نظرية الوظيفة بالعمائر الدينية المملوكية الباقية بمدينة القاهرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د ت.

العريني: السيد الباز.

١٩٣. المغول، بيروت، ١٩٦٧م.

عسيري: مريزن سعيد مريزن.

١٩٤. الحياة العلمية في العراق في العصر السلجوقي، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

علي: علي حسن.

١٩٥. تاريخ المماليك البحرية، د ط، د ت.

عمران: محمود.

١٩٦. الحملة الصليبية الخامسة(حملة جان دي برييي على مصر)، الإسكندرية، ١٩٧٨م.

عواجي: غالب بن علي.

١٩٧. فرق معاصرة تنسب إلى الإسلام، دار لينة للنشر، دمنهور، ط٣، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

عوف: أحمد محمد.

١٩٨. المسجد الأزهر في ألف عام، دار المعارف، القاهرة، د ت.

الغامدي: عبد الله سعيد.

١٩٩. جهاد المماليك ضد المغول والصليبيين، مركز البحوث العلمية بجامعة أم القرى، مكة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

غانم: حامد زيدان.

٢٠٠. الأزمات والأوبئة في عصر المماليك، القاهرة، ١٩٧٦م.

فكري: أحمد.

٢٠١. مساجد القاهرة ومدارسها، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م.

فهمي: نعيم زكي.

٢٠٢. طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٢م.

٢٠٣. في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

قاسم: عبده قاسم.

٢٠٤. أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.

٢٠٥. عصر سلاطين المماليك ، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٤٠٤م.

٢٠٦. اليهود في مصر منذ الفتح العربي حتى الغزو العثماني ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

القاسم: محمود عبد الرءوف.

٢٠٧. الكشف عن حقيقة الصوفية، المكتبة الإسلامية، ط٢، ١٤١٣هـ.

القرشي: أبو زيد.

٢٠٨. جمهرة أشعار العرب، المطبعة الأميرية، ١٨٠٣م.

كحالة: عمر رضا.

٢٠٩. معجم المؤلفين ، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

الكروي: إبراهيم بن سلمان.

٢١٠. طبقات مجتمع بغداد في العصر العباسي الأول، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية ، ١٩٨٩م.

لابدوس: إيرا.

٢١١. مدن إسلامية في عهد المماليك، الأهلية للنشر والتوزيع، د ت.

ماهر: سعاد.

٢١٢. البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، دار المجمع العلمي، جدة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٢١٣. مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، د ت.

ماير: ل. أ.

٢١٤. الملابس المملوكية ، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، د ت.

محمد: محمد أحمد.

٢١٥. في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م، الرياض، د ت.

محمود: رزق سليم.

٢١٦. موسوعة عصر سلاطين المماليك، د ط، د ت.

المحمود: عبد الرحمن بن صالح.

٢١٧. موقف ابن تيمية من الأشاعرة، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

مصطفى: إبراهيم.

٢١٨. المغول وأوروبا، دار المعرفة، القاهرة، ١٩٩٧م.

مصطفى: إبراهيم وَزملاءه.

٢١٩. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٨٩م.

ميتز:آدم.

٢٢٠. الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة الخانجي، القاهرة، د ت.

ناصر: عامر نجيب موسى.

٢٢١. الحياة الاقتصادية في مصر في العصر المملوكي، دار الشرق، الأردن، ط١، ٢٠٠٣م.

النبراوي: رأفت محمد.

٢٢٢. أسعار السلع الغذائية والجوامك في عصر دولة المماليك الجراكسة، الرياض، منشورات كلية الآداب، جامعة الملك سعود، ط١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

النبراوي: فتحية.

٢٢٣. تاريخ النظم والحضارة الإسلامية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٥، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م.

نجيب: عبد الله سالم.

٢٢٤. تاريخ المساجد الشهيرة ، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٩م.

النشار: السيد السيد.

٢٢٥. تاريخ المكتبات في مصر في العصر المملوكي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

هايد: ف.

٢٢٦. تاريخ التجارة في الشرق الأدنى، ترجمة: أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

الوشلي: عبد الله قاسم.

٢٢٧. المسجد ودوره التعليمي عبر العصور من خلال الحلق العلمية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

وليم: موير.

٢٢٨. تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة: محمود عابدين وسليم حسن، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

يوسف: جوزيف نسيم.

٢٢٩. حملة لويس التاسع على مصر، دار الكتب العربية، القاهرة، د ت.

ثالثاً: البحوث والندوات

حمزة: محمد.

٢٣٠. العلاقة بين النص التأسيسى والوظيفة والتخطيط المعماري للمدرسة في العصر المملوكي، من أبحاث ندوة المدارس في مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.

عاشور: سعيد عبد الفتاح.

٢٣١. العلم بين المسجد والمدرسة ، من مجموعة أبحاث تاريخ المدارس الإسلامية في مصر الإسلامية، القاهرة.مركز مصر في التجارة العالمية أواخر العصور الوسطى، ضمن بحوث في تاريخ العصور الوسطى، بيروت، ١٩٧٧م.

عطا: زبيدة .

٢٣٢. مكتبات المدارس في العصر الأيوبي والمملوكي، ضمن أبحاث ندوة المدارس في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م.

المزيني: إبراهيم بن محمد.

٢٣٣. الوقف وأثره في تشييد بنية الحضارة الإسلامية، ضمن أبحاث ندوة المكتبات الوقفية في المملكة العربية السعودية، المدينة المنورة، ١٤٢٠هـ.

رابعاً: الرسائل الجامعية

إبراهيم: سحر السيد.

٢٣٤. الهجرات وتطور مدينة القاهرة في عصر سلاطين المماليك(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، كلية الآداب، قسم التاريخ، ٢٠٠١م.

الحارثي: محمد بن حسين بن حامد.

٢٣٥. الثغور البحرية الحجازية من البعثة إلى نهاية العصر المملوكي (٦١١م/ ٩٢٣م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية،١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

دعدع: سحر بن علي محمد .

٢٣٦. ولاة القاهرة الكبرى خلال العصر المملوكي من (٦٤٧هـ إلى ٩٢٣م/ ١٢٥٠م إلى ١٥١٧م)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، ١٤٢٧هـ.

الرَّمال: غسان علي محمد.

٢٣٧. صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر خلال القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، ١٣٩٥هـ.

خامساً: الدوريات و المجلات

أمين: محمد محمد.

٢٣٨. وثيقة وقف السلطان قايتباي على المدرسة الأشرفية وقاعة السلاح بدمياط، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الثاني والعشرون، السنة ١٩٧٥م.إصدار الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

شعث: شوقي.

٢٣٩. طريق الحرير، بحث منشور في مجلة التاريخ العربي، الصادر عن جمعية المؤرخين المغاربة، ١٤١٦هـ/ ١٩٨٦م.

الطبابي: بلقاسم.

٢٤٠. سجون وسجناء العهد المملوكي (١٢٤٩م - ١٥١٧م)، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، السنة ٢٠٠٤.

عبد الدايم: عبد العزيز محمود.

٢٤١. تأثيرات المغول الحضارية على دولة سلاطين المماليك، مجلة المؤرخ المصري، كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد الثالث، ١٩٨٩م.



الموضوع	الصفحة